الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨ هـ

قدم له وأشرف على طبعه

علي السيد صبح المدني

عفا الله عنه

الجزء ٣ — ٤

مطبعة المدني

٦٨ شارع العباسية — القاهرة

ت : ٨٢٧٨٥١

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار

القاهرة

الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨ هـ

قدم له وأشرف على طبعه

علي السيد صبح المدني

الجزء ٣

مطبعة المدني

٦٨ شارع العباسية — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الحسن بن أيوب : وقد بينا الحجج فى بطلان كل قول لكم مما عقدتم فيه شريعة إيمانكم ، ووجدنا قوماً منكم إذا نوظروا فى ذلك قالوا : قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها ، ويتفرقون على مقالات شتَّى ، هم عليها وكل منهم يدّعى أن الصواب فى يده .

وهذا أيضاً من سوء الاختيار ، وذهاب القلوب عن رشدها ، وانصرامها عن سبيل حقها .

فلم يختلف أهل دين من الأديان فى عقد معبودهم ، ولا شكُّوا فيه ، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل مِلَلَ النصرانية فقط .

وسائر من سواهم إنما اختلفوا فى فرع من فروع الدين وشرائعه . مثل اختلاف اليهود فى أعيادهم وسنن لهم ، ومثل اختلاف المسلمين فى القدر .

فمنهم من قال به ، ومنهم من دفعه .

وفى تفضيل قوم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم ، وأن الله إله الخلق كلهم ، واحد لا شريك له ولا ولد .

ثم اتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يشكون فيه ، وعلى القرآن ، وأنه كتاب الله المنزل على محمد المرسل لا يختلفون فيه .

فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول ، كان ما سواها جللاً[1] لا يقع منه كفر ، ولا يبطل به دين .

---

(١) قوله : جللا . أى يسيراً . فكلمة «الجلل» من الأضداد تطلق على الأمر العظيم واليسير .

والبلاء العظيم الاختلاف فى المعبود .

فلو أن قوماً لم يعرفوا إلهاً ولا ديناً ، ثم عرض عليهم دين النصرانية ، وجب أن يتوقفوا عنه ، إذ كان أهله لم يتفقوا على شىء فيه .

ودل اختلافهم فى مقالاتهم وما بينها مما فى كتبهم ، على باطله .

فأما قولنا فى باب التوحيد ، واعترافنا بوحدانية الله تعالى ، ونفينا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد ، فهو قول لا يشكون فى صحته ، ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان وكل منهم يُقِرُّ به ويرجع إليه .

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد . ومنهم من يدخل العلل فيه ، بأن يقول : ثلاثة ترجع إلى واحد ، وصنماً نعبده إجلالاً لله ليقربنا إلى ربنا وربه ، ومدبر للأمور قديم لابد أن نعترف به خالقها وباريها .

وكل منهم مقر بقولنا وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التى يذهب إليها وأنه واحد لا شريك له .

فقد صح عقدنا بلاشك منكم ، ولا من أحد من الأمم فيه ، ولا فى شىء منه ، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه .

والحمد لله رب العالمين على توفيقه ، وإياه نسأل أن يتم علينا تسديده بقدرته ، وأن يحيينا ويميتنا على الإسلام ، غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين ، إنه على كل شىء قدير ، وكل مستصعب عليه يسير ، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد فى دينه رءوف رحيم .

قلت : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره .

وقد ذكر فى كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ، ما يبين ذلك .

ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم المنتصرين لدين النصرانية ، ونذكر ماذكروه من حججهم ، مثل ابن البطريق ، بترك الإسكندرية ، فإنه صنف كتابه الذى سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه أخبار النصارى ومجامعهم واختلافهم وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصاره لقول الملكية والرد على من خالفهم .

قال سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية فى تاريخه المعروف عند النصارى الذى سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه مبدأ الخلق وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم وأخبار ملوك الروم وأصحاب الكراسى برومية وقسطنطينية وغيرهما ، ووصف دين النصرانية ، وفِرَقَ أهلها ، وهو ملكى ، رد على سائر طوائف النصارى ، لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه ، وأنه ولد فى عهد ملك الروم قيصر المسمى أغسطس لثنتين وأربعين سنة من ملكه ، قال : وملك ستاً وخمسين سنة .

قال : وملك بعده ابنه « طيباريوس » قيصر برومية ، وللمسيح خمس عشرة سنة .

وكان لقيصر هـذا صديق يقال له « بلاطس » من قرية على شط البحر الذى تحت « قسطنطينية » ويسمى ذلك البحر « السطس » ولذلك يسمى « بلاطس النبطى » فولاه على أرض « يهوذا » .

قال : وفى خمس عشرة سنة من ملك طيباريوس قيصر هذا ظهر « يحيى » ابن زكريا المعمدانى ، فعمد اليهود فى الأردن لغفران الخطايا .

فجاء المسيح إلى يحيى بن زكريا فعمده يحيى فى الأردن ، ولسيدنا المسيح ثلاثون سنة وذكر قصة قتل يحيى ، وقصة الصلب المعروفة عند النصارى .

إلى أن قال : وكتب « بلاطس » إلى « طيباريوس » الملك بخبر سيدنا المسيح وما تفعل تلاميذه من العجائب الكثيرة من إبراء المرضى وإحياء الموتى .

فأراد أن يؤمن بسيدنا المسيح ويظهر دين النصرانية فلم يتابعه أصحابه على

ذلك . وملك اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر .

وذكر أن فى عصره بُنِيَتْ مدينة « طبرية » مشتقة من اسمه .

قال : وملك بعده قيصر آخر أربع سنين وثلاثة أشهر ، قتل بلاطس وولّى شخص كان شديداً على تلاميذ المسيح ، وقتل رئيس الشهداء والشمامسة ، فرجم بالحجارة حتى مات .

وذكر أنه لقِيَ التلاميذ من اليهود ومن الروم شدة شديدة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأنه مات هذا وولى بعده قيصر آخر ، وفى زمنه وقع جوع ووباء ، وفى زمنه كتب « متّى » وبين إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره من العبرانية إلى الرومية « يوحنا » صاحب الإنجيل .

قال : وفى تسع سنين من ملكه كان « مرقس » صاحب الإنجيل بمدينة الإسكندرية يدعو الناس إلى الإيمان بالمسيح ، وأنه أول شخص جعل بطريركاً على الإسكندرية ، وأنه صيَّر معه اثنى عشر قسيساً وأمرهم إذا مات البطريرك أن يختاروا واحداً من الاثنى عشر قسيساً ، ويضع الاثنا عشر أيديهم على رأسه ويبركونه ويصلحونه بطريركا ، ثم يختارون رجلا فاضلا قسيساً ويصيرونه معهم بدل القسيس الذى أصلحوه بترَكاً ، ليكونوا اثنى عشر أبداً .

فلم يزل رسمهم بالإسكندرية على هذا إلى زمن الثلاثمائة وثمانية عشر .

أمرهم بطريرك الإسكندرية الذى كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر ان لا يُفْعَلَ هذا فيما بعد ، ومنع أن يصلح الأقساء البترك ، بل يختاروا من أى بلد كان ، رجلا فاضلا ، وإذا مات البترك ، اجتمع الأساقفة فأصلحوا البترك أى بلد كان من أولئك الأقسّة ، أو من غيرهم .

فانقطع الرسم الأول من إصلاح الأقساء البترك ، وجعل التيسير لهم فى إصلاح البترك بابا .

ثم سُمِّيَ بترك الإسكندرية بابا ، ومعناه ، الجد .

ومن حنانيا الذى أصلحه مرقس البشير إلى حادى عشر بطركا بالإسكندرية لم يكن فى عمل مصر أسقف، ولم يكن البطاركة قبله أصلحوا أسقفا، وأن العامة لما سمعت الأساقفة يسمون البطريرك أبا قالوا: إذا كنا نحن نسمى الأسقف أبا، والأسقف يسمى البطريرك أبا، فيجب علينا أن نسمى البطريرك بابا (أى الجد) إذا كان أبا لأبينا فسمى بطريرك الإسكندرية من وقت «هرقل» بابا (أى الجد).

قال: وخرج مرقس إلى «بُرْقَة» يدعو الناس إلى الإيمان بالسيد المسيح.

ومات فلوريوس قيصر، وملك بعده ابنه «بارون» ثلاث عشرة سنة.

قال: وهو أول من هاج على النصارى الشرّ والبلاء والعذاب.

قال: وفى عصره كتب «بطرس» رئيس الحواريين الإنجيل (إنجيل مرقس) عن مرقس بمدينة رومية، ونسبه إلى مرقس.

قال: وفى عصر هذا الملك كتب «لوقا» إنجيله بالرومية إلى رجل شريف من عظماء الروم يقال له «فوفيلا» فكتب له أيضاً الأبركسس الذى فيه خبار التلاميذ.

وقد كان «لوقا» البشير صاحب «بولس الرسول» يقول فى بعض رسائله: إن «لوقا» الطبيب يقول: عليكم السلام.

وقال: وأخذ بارون قيصر ابطرس فصلبه منكساً، ثم قتله، لأن بطرس قال له: إن أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكساً لئلا أكون مثل سيدى المسيح فإنه صُلِبَ قائماً، وضرب عنق بولس الرسول بالسيف.

وأقام بطرس بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة.

قال: وكان مرقس صاحب الإنجيل بالإسكندرية وبرقة يدعو الناس إلى الإيمان فأقام سبع سنين.

وفى أول سنة من ملك بارون قيصر قتل مرقس بالإسكندرية، وأحرق

جسده بالنار ، وذكر بعده عدة قياصرة ، وذكر أن طيطس خرب البيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة بعد أن حاصرها ، وأصاب أهلها جوع عظيم ، وقتل كل من كان فيها من ذكر وأنثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ، ويضربون بأطفالهم الصخور .

وضرب المدينة والهيكل ، وأضرم بهما النار ، وأحصى القتلى على يده فكانوا ثلاثة آلاف ألف .

وذكر عدة قياصرة بعد ذلك وأنه وَلِيَ واحد منهم خمس عشرة سنة يقال له « ذوما طيانوس » وكان شديداً جداً على اليهود ، وأنه بلغه أن النصارى يقولون : إن المسيح ملكهم وأن ملكه إلى الدهر .

فغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل النصارى ، وأن لا يكون فى ملكه نصرانى ، وكان « يوحنا » صاحب الإنجيل هناك ، فسمع بهذا فخاف وهرب إلى أفسس ، ثم إنه أمر بإكرامهم وترك الاعتراض عليهم .

ثم تولى بعده قيصر آخر سنة وبعض أخرى ، ثم ملك آخر بعد تسع عشرة سنة يسمى طرايانوس .

قال : وهذا الملك أثار على النصارى بلاء عظيما وحزناً طويلا ، وقتل شهداء كثيرة ، وقتل بطريرك إنطاكية برومية ، وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه وله مائة وعشرون سنة ، وأمر أن يستعبد النصارى ، إذ ليس لهم دين ولا شريعة.

فلشدة ما استعبد النصارى وغلظ ما نالهم من القتل رحمتهم الروم ، وشهد وزراء الملك عنده أن النصارى لهم شريعة ودين ، وأنه لا يحل أن يستعبدوا فكفّ عنهم الأذية .

قال : وفى عصره كتب « يوحنا » إنجيله بالرومية فى جزيرة يقال لها « تيمر » من أرض الروم من أرض « أثينة » فى عصر رجل من عظماء الروم فيلسوف يقال له « مومودس » .

قال : وفى ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس .

فلما كثروا وامتلأت منهم المدينة عزموا أن يملكوا منهم ملكا .

فبلغ الخبر « طيباريوس قيصر » فوجّه بقائد من قواده بجيش عظيم إلى بيت المقدس فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة .

قال : وخرج على قيصر هذا خارجىّ مقاتل ببابل ، فخرج إليه بنفسه فوقعت بينهم حرب شديدة ، وقتل من الفريقين خلق عظيم ، وقتل قيصر فى الحرب .

وملك بعده «أندريانوس قيصر» عشرين سنة فخرج إلى ذلك الخارجى ببابل فهزمه ، وصار إلى مصر فلقى منه أهل مصر شدة شديدة ، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من النصارى خلقاً كثيراً وأصاب « إيليا » ابنه علّة فى بدنه فكان ينفذ إلى البلدان يطلب شفاء لعلته ، فوصفوا له بيت المقدس .

فلما وافاه ، رآها خراباً ليس فيها أحد إلا كنيسة للنصارى فأمر أن تبنى المدينة وتُحَصَّن بحصن قوىّ .

فلما سمع اليهود أقبلوا من كل بلد وكل مدينة .

فما كان إلا زمان قليل حتى امتلأت منهم المدينة فلما كثروا ملكوا عليهم ملكا .

فاتصل الخبر بإيليا بن قيصر أندريانوس ، فوجّه إليهم بقائد من قواده مع خلق كثير فحاصر المدينة ، فمات كل من فيها من الجوع والعطش ثم فتحها فقتل من اليهود ما لا يحصى ، وعدم الحصن ، وخرّب المدينة حتى صيّرها صحراء .

قال: وهذا آخر خراب بيت المقدس وهرب من اليهود من هرب إلى مصر وإلى الشام ، وإلى الجبال ، وإلى الغور .

وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودى وأن يقتل اليهود ويستأصلوا ، وأن يسكن المدينة اليونانيون ، ويبنوا على باب الهيكل برجاً ، ويجعل فوقه ألواح ويكتبوا عليها اسم « إيليا الملك » وذلك من ثمان سنين من ملكه .

قال : والبرج اليوم على باب مدينة بيت المقدس ، وسمى محراب داود .

قال : فسمى بيت المقدس إلى هذا الوقت « إيليا » .

فمن الخراب الأول الذى أخربه «طيطس» إلى هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة ، وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين فنظروا إلى النصارى يأتون إلى تلك المزبلة التى فيها القبر والأقرانيون ، فيصلون . فمنعوهم من ذلك .

وبنى اليونانيون على تلك المزبلة هيكلا على اسم الزهرة ، فلم يقدر أحد من النصارى بعد ذلك أن يقرب ذلك الموضع .

قال : ثم مات « إيليا الملك » وملك بعده «أنطونينوس قيصر» برومية اثنى وعشرين سنة .

قال : وفى إحدى عشرة سنة من ملكه صير يهودا أسقفاً على بيت المقدس ، أقام سنتين ومات .

قال : فمن يعقوب أسقف بيت المقدس الأول إلى يهودا أسقف بيت المقدس هذا ، كانت الأساقفة الذين صيروا على بيت المقدس مختونين .

وذكر أنه وَلِىَ بعد هذا قيصر آخر اسمه «مرقس» تسع عشرة سنة ، وأنه أثار على النصارى بلاء عظيما ، وحزناً شديداً واستشهد فى زمانه شهداء كثيرون .

قال : وكان فى أيامه جوع شديد ، ووباء عظيم ، لم تمطر السماء سنين ، وكاد الملك وجميع أهل مملكته أن يهلكوا من الجوع .

فسألوا النصارى أن يبتهلوا إلى إلههم فدعوا ، فأمطر الله عليهم مطراً عظيما . وارتفع الوباء والقحط .

قال : وكان بأيامه بأرض اليونانيين « مغنوس » الحكيم .

قال : وفى خمس سنين من ملكه صير « لوليانوس » بطريركا وهو أول بطريرك أصلح الأساقفة فى عمل مصر . أقام ثلاثا وأربعين سنة ومات .

فصـــل

قال : وفى ذلك العصر كتب بطريرك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس ، وبطرك أنطاكية ، وبطرك رومية فى حساب فُصْحِ النصارى وصومهم ، وكيف يستخرج من فُصْحِ اليهود ، فوضعوا فى ذلك كتبا كثيرة على ما هو عليه اليوم .

قال : وذلك أن النصارى كانوا بعد صعود سيدنا المسيح إلى السماء إذا عَيَّدُوا عيد الغطاس من الغد ، يصومون أربعين يوما ، ويفطرون كما فعل سيدنا يسوع المسيح ، لأن سيدنا المسيح لما اعتمد بالأردن خرج إلى البرية ، فأقام بها صائما أربعين يوما ، وكان النصارى إذا أفصح اليهود ، عَيَّدُوا هم الفصح .

فوضع هؤلاء البطاركة حسابا للفصح ، ليصوم النصارى أربعين يوما ، ويكون فطرهم يوم الفصح ، ليتم فرحهم بذلك .

قلت : فقد أخبر عن المسيح أنه لما صام أربعين يوما عقب المعمودية وكان يُعَيِّد مع اليهود فى عيدهم لا يعيد عقب صومه ، شاركه النصارى فى ذلك مدة ، فصاروا يصومون أربعين عقب الغطاس الذى هو نظير المعمودية ، ويعيّدون مع اليهود العيد .

ثم إنهم بعد هذا ، ابتدعوا تغيير الصوم ، فلم يصوموا عقب الغطاس ، بل نقلوا الصوم إلى وقت يكون عيدهم مع عيد اليهود ، فيكون عيدهم مع عيد اليهود ، وهو فُصْحُ المسيح ، ويكون ذلك وقت قيامته من قبره .

قال : ومات « مرقس » الملك ، وملك بعده « قوذوس » قيصر برومية ، اثنى عشرة سنة .

وفى أيامه كان فى أرض اليونانيين فى مدينة أفرغاس « جالينوس » الحكيم صاحب صناعة الطب .

وذكر « جالينوس » فى فهرست كتبه أنه ربى « قوذوس » الملك .

وذكر « جالينوس » فى المقالة الأولى من الكتاب المعروف بـ « كتاب أخلاق النفس » : أنه كان فى عصر « قوذوس » الملك رجل يقال له « بولس » طلبه قوذوس الملك ليقتله ، فهرب منه ، وكان له غلامان فقبضهما الملك ، فضربهما الملك ، وطلب منهما أن يدلاه على مولاهما فلم يفعلا ، لكرم أنفسهما ونخوتهما وشدة محاماتهما على مولاهما ، فقتلهما ، وأن من الإسكندر إلى بولس خمسمائة سنة وست عشرة سنة ، وذلك فى السنة التاسعة من ملك قوذوس قيصر . فهذا ماذكرجالينوس .

قال : وكان أيضاً فى أيامه « ديمقراطيس » الحكيم .

قلت : هذه المدة أكثرمما ذكره « سعيد » هذا ، فإنه لم يذكر من المسيح إلى هنا مائتى سنة ، بل ذكر إلى الخراب مائة وثلاثة وعشرين سنة ، وقدتقدم ذكره لديمقراطيس قبل هذا .

قال : وفى عشرسنين من ملكه ، ظهرت الفرس ، فغلبت على « بابل » وأمدوا فارس ، وتملك أزدشير بن ساسان بابل من أهل أصطخر ، وهوأول ملك مَلَكَ على فارس فى المرة الثانية .

قال : ومات قوذوس قيصر ملك الروم ، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر أخر ، وملك بعده برومية « سويرس » قيصرسبع عشرة سنة ، وذلك فى أربع سنين من ملك أزدشير .

وكان هذا الملك شديداً ، قدأثار على النصارى بلاء عظيما ، وعذاباً كبيراً ، وقتل كل عالم منهم ، وقتل خلقاً كثيراً ، واستشهد فى أيامه خلق كثير من النصارى فى كل موضع ، ثم قتل كل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى ، وهدم الكنائس ، وبنى بالاسكندرية هيكلا ، وسماه هيكل الآلهة .

وملك بعده قيصر وهو « أنطونيوس » الأصلع ست سنين ، وملك بعده قيصر

آخر ثلاث عشرة سنة، كانت النصارى فى أيامه فى هدوء، وسلامة ، وكانت أمه تحب النصارى .

وفى أيامه سمى بطرك الإسكندرية « باباً » (أى الجد) وملك بعده قيصر آخر ثلاث سنين .

وهذا أثار على النصارى بلاء طويلا وحزناً عظيما، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ الناس بعبادة الأصنام ، وقتل من الأساقفة خلقاً كثيراً ، وقتل بطرك أنطاكية .

فلما سمع أسقف بيت المقدس بقتله، هرب وترك الكرسى .

قال : ومات قيصر هذا فى السنة الثانية من ملك بهرام بن هرمز، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر ، ثم بعده آخر أربع سنين ، واسمه «عزدمانوس» وفى ثلاث سنين من ملكه مات بهرام بن هرمز ، وملك بعده بهرام بن بهرام على الفرس تسع عشرة سنة .

وفى أيامه ظهر رجل فارسى يقال له « مانى » فأظهر دين المانية ، وزعم أنه نبى .

فأخذه بهرام بن بهرام ملك الفرس فشقه نصفين، وأخذ من أصحابه وممن يقول بقوله مائتى رجل ،فغرس رءوسهم فى الطين منكسين حتى ماتوا منكسين.

وملك بعد قيصر هذا «فيلبس» قيصر على الروم برومية سبع سنين ، وآمن بالسيد المسيح ، ووثب عليه قائد من قواده فقتله .

ثم ملك بعد قيصر آخر اسمه « ذاقنيوس » وهو « دقيانوس» وذلك من عشر سنين من ملك بهرام بن بهرام ، فلقى النصارى منه حزناً طويلا، وعذاباً شديداً ، وقتل منهم من لا يحصى ، واستشهد فى أيامه من الشهداء خلق كثير ، وقتل بطرك رومية .

ثم خرج إلى مدينة أفسس فبنى فى وسطها هيكلاً عظيما ، وصيّر فيه الأصنام وأمر أن يسجد للأصنام ، ويذبح لها ، ومن لم يفعل ذلك قتل .

فقتل من النصارى بأفسس خلقاً عظيماً وصلبهم على الحصن واتخذ من أولاد عظماء « أفسس » سبعة غلمان من خواصه وعلى كسوته وقدمهم على جميع من عنده وذكر أسماءهم ، أسماء أصحاب الكهف .

قال : وهؤلاء السبعة الغلمان لم يسجدوا للأصنام ، فأعلموا الملك بخبرهم، فأمر بحبسهم .

ثم خرج إلى بعض المواضع وأطلق سبيلهم إلى حين رجوعه .

فلما خرج من المدينة ، أخذ الغلمان كل مالهم فتصدقوا به ، ثم خرجوا إلى جبل عظيم يقال له « جاوس » شرقيّ « أفسس » فيه كهف كبير ،فاختفوا فى الكهف ، فكان واحد منهم فى كل يوم يتنكر ويدخل المدينة، فيسمع ما يقول الناس فى شأنهم ويشترى لهم طعاماً ويرجع ،فيعلمهم بقدوم « دقيانوس » الملك ، فسأل عنهم فقيل له : إنهم فى جبل جاوس فى الكهف مختفين .

فأمر الملك أن يبنى باب الكهف عليهم ليموتوا ، وصب الله عليهم النعاس فناموا كالأموات .

وأخذ قائد من قواده صفيحة من نحاس ، وكتب فيها خبرهم وقصتهم مع دقيانوس الملك ، وصيَّر الصفيحة فى صندوق نحاس ودفنه داخل الكهف ، وبنى الكهف .

ومات الملك دقيانوس قيصر ، وملك بعده قيصران برومية سنتين ، ثم قيصر آخر اسمه « غنيونوس » خمسة عشرة سنة ، وملك بعده قيصر آخر سنة واحدة ، وذلك من ثلاث سنين من ملك هرمز .

وفى أول سنة من ملك هذا ، صيَّر « بولس » بطركاً على أنطاكية ويسمى « بولوس الشمشاطى » قال : وهو الذى ابتدع دين البوليانية، فسمى التابعون لدينه والقائلون بمقالته بوليانيين .

قال :وكانت مقالته : أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنساناً كواحد

منافى جوهره ، فإن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية ، فَحَلّت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى : ابن الله .

وقال : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، ولا نؤمن بالكلمة ، ولا بروح القدس

قال : وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفاً فى مدينة أنطاكية ، ونظروا فى مقالة « بولس » فأوجبوا على هذا الشمشاطى اللعن فلعنوه ، ولعنوا من يقول مقالته وانصرفوا .

قال : وبعده ملك قيصر آخر ست سنين ، اسمه « أوراغوس قيصر » .

قال : وكان النصارى بالاسكندرية فى أيامه يصلون فى المطامير والبيوت فزعاً من الروم ، ولم يكن يظهر بترك بالإسكندرية لئلا يقتلوهم .

فلما صار « نارون » بطركاً ، ظهر ، ولم يزل بدارى الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة « حنا » و« مار مريم » وملك بعده قيصران ، ثم قيصر اسمه « فاروس » وذلك فى تسع سنين من ملك سابور بن هرمز ، وكان شديداً على النصارى ، قتل الأخوين قرمان ودميان الشهيدين ، وملك بعده دقيطيانوس

قال : فمن خراب طيطس لبيت المقدس إلى ملك دقيطيانوس مائتان وست سنين ، ومن مولد سيدنا المسيح إلى دقيطانوس ، مائتان وست وسبعون سنة ، ومن الإسكندر إلى دقيطيانوس خمسمائة وخمس وتسعون سنة ، ومن سَبْى بابل إلى دقيطيانوس ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة ، ومن داود إلى دقيطيانوس ألف وتسعمائة وإحدى وأربعون سنة .

قال : وملك دقيطيانوس فى إحدى عشرة سنة من ملك سابور بن هرمز ملك الفرس ، وملك معه اثنان ، تملكا على الروم إحدى وعشرين سنة ، وهؤلاء أثاروا على النصارى بلاء عظيما ، وحزناً طويلا ، وعذاباً أليماً ، وشدة

شديدة ، تجل عن الوصف ، من القتل ، والعذاب ، واستباحة الأموال واستشهدوا ألوفاً من الشهداء وعذبوا « مارى جرجس » أصناف العذاب وقتلوه بفلسطين ، وقتلوا « مارى مينا » و« مارى بقطر » و« أيتاخوس » و« مركورس » وغيرها.

قال : وفى عشر سنين من ملكهما صير « بطرس » بطركاً على الإسكندرية فأقام عشر سنين ، وقتل .

وفى عشرين سنة من ملكهما ، ضُرِبَ عنق بطرس هذا البطرك بالإسكندرية .

قال : وكان لبطرس تلميذان ، اسم أحدهما « أشلا » والآخر « الأكصندروس » وكان بالإسكندرية رجل يقال له « أريوس » يقول : إن الأب ـ وحده ـ الله الفرد ، و « الابن » مخلوق مصنوع ، وقد كان « الأب » إذ لم يكن الابن .

فقال « بطرس » البطرك لتلميذيه : إن المسيح لعن « أريوس » فاحذرا أن تقبلا قوله ، فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب ، فقلت له : ياسيدى ، من شقّ ثوبك ؟ فقال لى : أريوس ، فاحذروا أن تقبلوه ويدخل معكم الكنيسة كنيسة الله .

قال : وبعد قتل بطرس بخمس سنين صيّر « أشلا » بطركاً على الإسكندرية ، فأقام ستة أشهر ومات .

وكان « أريوس » قد استعان على « أشلا » بأصدقائه فأورى[1] أنه قد رجع عن تلك المقالة ، فقبله « أشلا » وأدخله الكنيسة وجعله قسيساً .

قال : وأما « دقيطيانوس » الملك ، فكان يطلب النصارى فيقتلهم .

فبينما هو يسير فى طلبهم إذ بلغ موضع يقال له « ملطية » فصبّ الله عليه نقمته ، فوقع فى علل عظيمة ، وأمراض عظيمة حتى ذاب جسمه ، وكان

(١) قوله : فأروى . الأظهر أن يقال : فروى ، من التورية .

الدود يتساقط من بدنه إلى الأرض ، وسقط لسانه من حنكه ومات .

وملك بعده قيصران ، أحدهما المشرق والشام وأرض الروم ، والآخر رومية ونحوها ، وكان أحدهما اسمه « علانيوس » والآخر « مقصطيوس » فكانا كالسباع الضارية على النصارى ، وأثاروا عليهم البلاء والجلاء ومالا يصفه واصف وفعلا بهم ما لم يفعله أحد من الملوك قبلهم

وملك معهما على بزنطية وما والاها « قسطس » أبو قسطنطين ، وكان رجلا دينا مبغضاً للأصنام ، محباً للنصارى .

فخرج « قسطس » إلى ناحية الجزيرة و « الرها » فنزل فى قرية من قرى الرها ، يقال لها « كفرجاث » فنظر فيها امرأة حسنة يقال لها « هيلانة » وكانت قد تنصرت على يدى أسقف الرها ، وتعلمت قراءة الكتب .

فخطبها قسطس من أبيها فزوجه إياها فحبلت منه ، ورجع قسطس إلى بزنطية .

وولدت هيلانة قسطنطين فتربى بـ « الرها » ، وتعلم حكم اليونانيين ، وكان غلاماً حسن الوجه . قليل الشر ، وديعاً محباً للحكمة .

وأما « علانيوس » فكان رجلا وحشياً ، شديد البأس مبغضاً للنصارى جداً ، كثير القتل لهم ، محباً للنساء ، ولم يترك للنصارى بنتا بكراً إلا أخذها وأفسدها وقتلها ، وكذلك أصحابه ، هكذا كانوا يفعلون بالنصارى ، وكان النصارى فى شدة شديدة جداً معهم .

وبلغه خبر « قسطنطين » وأنه غلام هادئ قليل الشر ، كثير العلم والخير .

وأخبره الحكماء الذين له والمنجمين أن « قسطنطين » سيملك ملكا عظيما فهمّ بقتله .

وعلم « قسطنطين » بذلك فهرب من الرها ، وذهب إلى مدينة « بزنطية » وصل إلى أبيه « قسطس » فسلم إليه الملك .

وبعد قليل مات « قسطس » وصبّ الله على « علانيوس » الملك عللا عظيمة ، حتى تقطع لحمه وتهرّأ ، وبقى مطروحاً لا يقدر أحد أن يقترب منه .

فعجب الناس مما ناله ، ورحمه أعداؤه مما حلّ به .

فرجع إلى نفسه وقال : لعل هذا الذى بى مما أقتل النصارى .

فكتب إلى جميع عماله أن يطلقوا النصارى من الحبوس ، وأن يكرموهم ولا يؤذوهم ، ويسألونهم أن يدعوا له فى صلاتهم .

فصلى النصارى على الملك ودعوا له ، فوهب الله له العافية ورجع إلى أفضل مما كان عليه من الصحة والقوة .

فلما صح وقوى ، رجع إلى شر ما كان عليه من الردى .

وكتب إلى جميع عماله أن يقتلوا النصارى ولا يعيش فى مملكته نصرانى ، ولا يسكنوا مدينة ولا قرية له .

فمن كثرة القتلى ، كانوا يحملون على العجل ، ويرمون بهم فى البحار والصحارى .

وقتل « مارجرجس » وأخاه بمدينة « قباذوقية » وهما من أهلها ، وقتل « برباره » وذكر حربا جرت بينه وبين سابور ، لما تنكر سابور ، وجاء إليه متنكراً وعرفه .

قال : وأما مقسطيوس ، فكان شريراً على أهل « رومية » واستعبد كل من كان برومية وخاصة النصارى ، فكان ينهب أموالهم ، ويقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم .

فلما سمع أهل رومية بملك « قسطنطين » وأنه مبغض للشر ، محب للخير ، وأن أهل مملكته معه فى هُدُوّ وسلامة ، كتب رؤساء رومية إلى قسطنطين يسألونه ويطلبون إليه أن يخلصهم من عبودية « مقسطيوس » عدو الله .

فلما قرأ كُتُبَهُمْ اغْتَمّ غمًا شديداً ، وبقى متحيراً ، لا يدرى كيف يصنع .

فبينما هو متفكر ، إذ ظهر له من نصف النهار فى السماء صليب من

كواكب تضيء ، مكتوباً حوله (بهذا تغلب) .

فقال لأصحابه : رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : نعم .

فآمن من ذلك الوقت بالنصرانية وذلك لست سنين من بعد موت أبيه .

فتجهز قسطنطين ، واستعد لمحاربة مقسطيوس ملك رومية ، وعمل صليباً كبيراً من ذهب ، وصيره على رأس البند ، وخرج يريد مقسطيوس .

فلما سمع مقسطيوس ، أن قسطنطين قد وافاه لمحاربته ، استعد لحربه ، وعقد جسراً على النهر الذى قدام رومية ، وخرج مع جميع أصحابه يحارب قسطنطين

فأعطِيَ قسطنطين النصرة عليه ، فقتل من أصحاب مقسطيوس مقتلة عظيمة ، وهرب مقسطيوس ، وغرق هو وأصحابه حتى امتلأ البحر – وهو النهر الذى عند رومية – غرقى وقتلى .

وخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكليل الذهب وكل أنواع اللهو واللعب ، فلقوا قسطنطين وفرحوا به فرحاً عظيما .

فلما دخل المدينة أمر أن تدفن أجساد النصارى الشهداء المصاليب ، وكل من كان من النصارى هرب أو نفاه مقسطيوس يرجع إلى بلده وموضعه ، ومن أخذ له شيء ردّ إليه .

وأقام أهل رومية سبعة أيام يُعَيِّدُونَ للملك وللصليب ويفرحون .

فلما سمع الخبر « علانيوس » جمع ماقدر عليه وتجهز لقتال قسطنطين .

فلما عاينه ، انهزموا بين يديه وأخذهم السيف ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ومنهم من أُسِرَ ، ومنهم من استأمن .

وأفلت علانيوس عريانا فلم يزل يتقرى موضعاً موضعاً حتى وافى مدينته ، فجمع الكهنة والسحرة والعرانين الذين كان يحبهم ويقبل منهم ، فضرب أعناقهم لئلا يقعوا فى يد قسطنطين .

وصيّر الله على علانيوس ناراً فى جوفه حتى كانت أحشاؤه تتقطع من الحر

الذى كان يحشه فى جوفه ، وسقط على الأرض وتهرّأ لحمه على عظمه ومات.

وملك قسطنطين الدنيا فى هُدُوّ وسلامة ، وذلك فى إحدى وأربعين سنة من ملك « سابور » بن هرمز ، ملك الفرس .

قال : وتنصر قسطنطين فى مدينة يقال لها « فيقوميذيا » وذلك فى اثنى عشرة سنة من ملكه ، وأمر ببناء الكنائس فى كل بلد ، وأن يخرج من بيت المال الخراج مما يعمل به أبنية الكنائس .

قال : وفى خمس سنين من ملكه ، صيّر « الإكصندروس » بطريركا على الإسكندرية ، وهو تلميذ بطركها بطرس الذي قتل ، وهو رفيق « أشلا » فأقام ست عشرة سنة . وفى خمس عشرة سنة من رياسته ، كان الجمع بمدينة « نيقية » الذى رتبت فيها الأمانة الأرتدكسية .

فمنع الأكصندروس بترك الإسكندرية أريوس من دخول الكنيسة ولعنه وقال : إن أريوس ملعون ، لأن بطرك البترك قبل أن يستشهد قال لنا : إن الله لعن أريوس فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة .

وكان على مدينة « أسيوط » من عمل مصر ، أسقف يرى رَأْىَ أريوس ، فلعنه أيضاً .

وكان بالإسكندرية هيكل عظيم كانت « كلاوبطرة » الملكة بنته على اسم زحل ، وكان فيه صنم من نحاس عظيم يسمى « ميكائيل » وكان أهل الإسكندرية ومصر فى اثنى عشر يوما من شهر « هتور » وهو « تشرين الثانى » يُعيّدُون لذلك الصنم عيداً عظيما ، ويذبحون الذبائح الكثيرة .

فلما صار هذا بطركا على الإسكندرية وظهرت النصرانية ، أراد أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح .

فامتنع عليه أهل الإسكندرية ، فاحتال لهم بأن قال : إن هذا صنم لا منفعة فيه ولا مضرة ، فلو صيرتم العيد لميكائيل الملاك ، وجعلتم هذه الذبائح له ، كان

أنفع لكم عند الله ، وكان خيراً لكم من هذا الصنم فأجابوه إلى ذلك .

فكسر الصنم . وأصلح منه صليباً وسمى الهيكل « كنيسة ميكائيل » ، وهي الكنيسة التي تسمى قيسارية ، احترقت بالنار وقت موافاة الجيوش من المغاربة القرامطة ، مع المسمى أبو عبيد الله ، وكان معه أمير من أصحابه يسمى حباسة ، وذلك في خلافة المعتضد بالله .

وكان عامله على مصر يومئذ ، مولاه المعروف « بتكين الحاجب » رجل تركي فنفر إلى المغاربة ، وجاء مدد من الشرق مع الخادم الملقب بـ « مونس » الأستاذ .

فهرب منه أبو عبيد الله وحباسة وجنودهما وصير العيد لميكائيل الملك والذبائح .

وإلى اليوم القبط بمصر والإسكندرية يُعَيِّدُونَ في هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك ، ويذبحون فيه الذبائح الكثيرة ، وكذلك الملكية يُعَيِّدون في هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك ، وصار رسما إلى اليوم .

قال : فلما منع بترك الإسكندرية « أريوس » من دخول الكنيسة ولعنه ، خرج أريوس مستعديا عليه ، ومعه أسقفان ، فاستغاثوا إلى قسطنطين الملك .

وقال أريوس : إنه تعدى عليَّ وأخرجني من الكنيسة ظلماً :

وسأل الملك أن يشخص « الأكصندروس » بطرك الإسكندرية ليناظره قدام الملك .

فوجّه قسطنطين برسول إلى الإسكندرية فأشخص البطرك ، وجمع بينه وبين « أريوس » ليناظره فقال قسطنطين لأريوس : اشرح مقالتك .

قال أريوس : أقول إن الأب كان إذ لم يكن الابن ، ثم الله أحدث الابن ، فكان كلمة له إلا أنه محدث مخلوق ، ثم فوّض الأمر إلى ذلك الابن المسمى

« كلمة » فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، كما قال في إنجيله ، إذ يقول : « وهب لي سلطاناً على السماء والأرض » ، فكان هو الخالق لهما بما أعطى من ذلك .

ثم إن الكلمه تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس ، فصار ذلك مسيحاً واحداً .

فالمسيح الآن معنيان ١ : ـ كلمة و ٢ : ـ جسد ، إلا أنهما جميعاً مخلوقان.

ق ل : فأجابه عند ذلك بطرك الإسكندرية وقال : تخبرنا الآن ، أيما أوجب علينا عندك ، عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا ؟

قال أريوس : بل عبادة من خلقنا .

قال له البطرك : فإن كان خالقنا الابن كما وصفت ، وكان « الابن » مخلوقا ، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالق ، بل تصير عبادة لأب الخالق للابن كفراً ، وعبادة الابن المخلوق إيماناً ، وذلك من أقبح الأقاويل .

فاستحسن الملك و كل من حضر مقالة البطرك ، وشنّع عندهم مقالة أريوس ، ودار بينهما أيضاً مسائل كثيرة .

فأمر قسطنطين للبطرك الأكصندروس أن يلعن « أريوس » وكل من قال بمقالته .

فقال له : بل يوجه الملك فيشخص البطاركة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع ، ونضع فيه قضية ، ونلعن أريوس ، ونشرح الدين ونوضحه للناس .

فبعث « قسطنطين » الملك إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة .

فاجتمع في مدينة « نيقية » بعد سنة وشهرين ، ألفان وثمانية وأربعون أسقفا ، وكانوا مختلفي الآراء مختلفي الأديان .

فمنهم من يقول : المسيح ومريم إلهان من دون الله ، وهم المريمانية ، ويسمون المريميين .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب ، بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها ، وهى مقالة « سباربنون » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم لتسعة أشهر ، وإنما مرّ نور فى بطن مريم كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن « كلمة الله » دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهى مقالة « اليان » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت ، كواحد منا فى جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطُفِيَ ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية فحلّتْ فيه بالمحبة والمشيئة ، فلذلك سُمِّيَ « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهى مقالة « بولص الشمشاطى » بطرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليانيون .

ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة ، لم يزل صالح وطالح وعدل بينهما ، وهى مقالة « مرقيون » وأشياعه .

وزعموا أن « مرقيون » رئيس الحواريين ، وأنكروا « بطرس » السليح .

ومنهم من كان يقول : ربنا هو المسيح ، وهى مقالة بولس الرسول ، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا .

قال : فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم ، عجب من ذلك وأخلى لهم داراً ، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم لينظر من معه الحق فيتبعه .

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً على دين واحد ورأى واحد فناظروا بقية الأساقفة المختلفين فأفلحوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم ، وكان أيضاً باقى الأساقفة مختلفى الأديان والآراء .

وصنع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً ، مجلساً خاصاً عظيما ، وجلس فى وسطه ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم المملكة لتصنعوا ما بدا لكم ، ولتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين .

فباركوا على الملك وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذُبّ عنه . ووضعوا له أربعين كتاباً ، فيها السنن والشرائع ، وفيها ما يصلح أن يعمل به الأساقفة وما يصلح للملك أن يعمل بما فيها .

وكان رئيس المجمع والمقدم فيه الأكصندروس بطريرك الإسكندرية ، وبطرك الأنطاكية ، وأسقف بيت المقدس .

ووجّه بطرك رومية من عنده رجلين ، فاتفقوا على نفى « أريوس » وأصحابه ولعنوهم ، وكل من قال مقالته ، ووضعوا الأمانة وثبتوا أن الابن مولود من الأب قبل كون الخلائق ، وأن الابن من طبيعة الأب غير مخلوق .

واتفقوا على أن يكون فصح النصارى فى يوم الأحد الذى يكون بعد فصح اليهود ، وأن لا يكون فُصْحُ اليهود مع فصح النصارى فى يوم واحد ، وثبتوا ما وضعه من تقدم ذكره من حساب الصوم والفصح وأن يكون فطر النصارى يوم فصحهم يوم الأحد الذى يكون بعد فصح اليهود .

لأن النصارى ـ كما قلنا من قبل ـ كانوا إذا عيّدوا عيد الحميم ـ وهو عيد الغطاس ـ صاموا من الغد أربعين يوماً ويفطرون .

فإذا كان عيد اليهود عيّدوا معهم الفصح ، فصيّروا يوم الفصح للفطر ، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة ، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر كان لهم نساء ، لأنه كان إذا صَيّر واحد أسقفاً ، وكانت له زوجة ، تبينت معه ولم تتنحَّ عنه ، ما خلا البطاركة ، فإنه لم تكن لهم نساء ، ولا كانوا أيضاً يُصَيِّرون أحداً بطركا له زوجة .

قال : وانصرفوا مكرّمين محفوظين ، وذلك في سبع عشرة سنة من ملك « قسطنطين » .

قال : وسن قسطنطين الملك ثلاث سنن . إحداها : كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها .

والثانية: أن يثبت في الديوان إلا أولاد النصارى، ويكونون أمراء وقواداً .

والثالثة : أن يقيم الناس جمعة الفصح والجمعة التي بعدها ، لا يعملون فيها عملا ، ولا يكون فيها حرب .

قال : وتقدم قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس أن يطلب موضع المقبرة والصليب ، ويبنى الكنائس ، ويبدأ ببناء القيامة المقدسة .

فقالت « هيلانة » أم قسطنطين الملك : إني نذرت أن أصيِّر إلى بيت المقدس، فأطلب المواضع المقدسة فأبنيها . فدفع الملك إليها أموالاً كثيرة جزيلة.

وسارت إلى بيت المقدس مع أسقف بيت المقدس ، فلما وصلت ، لم يكن لها حرص ولا همة ، إلا طلب الصليب .

فجمعت اليهود والسكان في بيت المقدس ، واختارت منهم عشرة ، ومن العشرة ثلاثة ، كان واحد منهم يقال له « يهوذا » فسألتهم أن يدلوها على موضع الصليب فامتنعوا وقالوا : ليس عندنا علم منه ولا خبرة بالموضع .

فأمرت بهم فطرحتهم في جُبٍّ ليس فيه ماء . فأقاموا سبعة أيام لم يطعموا ولم يسقوا . فقال أحدهم - الذي اسمه يهوذا - لصاحبيه : إن أباه عرفه بالموضع الذي تطلب هذه المرأة ، وإن جده عرّف أباه .

فصاح الاثنان من الجب : أخرجونا حتى نعلم الملكة بحال هذا الرجل.

فأخرجوهم ، فأخبروا الملكة بما قال لها «يهوذا» فأمرت بضربه بالسياط، فأقرّ أن يعرف الموسع فخرج حتى جاء إلى الموضع الذي فيه المقبرة والأقرانيون، وكانت مزبلة عظيمة هناك، فصلى ، وقال : اللهم إن كان هذا الموضع المقبرة

فأسألك أن تزلزل المكان ، وتخرج منه دخاناً حتى يؤمن ، فزلزل الموضع وخرج منه دخان كما سأل فآمن .

فأمرت «هيلانة» بكنس الموضع من التراب، فظهرت المقبرة والأقرانيون، ووجد ثلاثة صلبان . قالت « هيلانة » : كيف لنا أن نعلم بصلب السيد المسيح ؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة ، قد يئس منه ، فوضع الصليب الأول عليه والثانى والثالث ، فقام المريض وليس به شىء يكرهه .

فعلمت « هيلانة » أنه الصليب الذى لسيدنا المسيح ، فجعلته فى غلاف من ذهب ، وحملته معها ، وجملته بما تقدر عليه ، وأظهرت كل ما كان مدفوناً من آثار سيدنا المسيح ، وحملته إلى ابنها « قسطنطين » وبنت كنيسة القيامة فى فى موضع الصليب والأقرانيون وكنيسة قسطنطين ، وانصرفت . وأمرت أسقف بيت المقدس أن يبنى باقى الكنائس ، وذلك فى اثنين وعشرين سنة من ملك قسطنطين .

قال : فمن ميلاد سيدنا المسيح إلى أن وجد الصليب ، ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة ، وذكر أنه بعد هذا اجتمعوا بجمع عظيم ببيت المقدس .

وكان معهم رجل قد دسّه بطرك القسطنطينية وجماعة معه ليسألوا بطرك الإسكندرية وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر أنه مخالف لأريوس وكان يرى رأيه ويقول بمقالته . فقام هذا الرجل واسمه « مانيوس » فقال : إن أريوس لم يقل إن المسيح خالق الأشياء ولكن قال : به خلقت الأشياء لأن « كلمة الله » التى بها خالق السموات والأرض وإنما خالق الله الأشياء بكلمته، ولم تخلق الأشياء كلمته كما قال سيدنا المسيح فى الإنجيل المقدس « كل بيده كان ، ومن دونه لم يكن شىء » فقال : به كانت الحياة والحياة نور البشر ، وقال فى العالم والعالم به تكون ، فأخبر أن الأشياء به تكونت ولم يخبر أنها كونت له. قال : فهذه كانت مقالة « أريوس » . ولكن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً تعدوا عليه وظلموه وحرموه ظلماً وعدواناً .

فردّ عليه بطرك الإسكندرية وقال : أما أريوس فلم يكذب عليه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ولا ظلموه ، لأنه إنما قال : إن « الابن » خالق الأشياء دون الأب.

وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقاً فقد يجب أن يكون ما خلق منها شيئاً ، وفى ذلك تكذيب المسيح قوله : « الأب يخلق وأنا أخلق » وقال : « إن أنا لم أعمل عمل أبى فلا تصدقونى » وقال : « كما أن الأب يحيى من يشاء ويميته ، كذلك الابن يحيى من يشاء ويميته » .

فدل على أنه يحيى ويخلق ، وفى هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق ، وإنما خلقت به دون أن يكون خالقاً له . وأما قولك : إن الأشياء كونت به ، فإنا كنا لا نشك أن المسيح حىٌّ فعال ، وكان قد دل بقوله : « إنما أفعل الخلق والحياة » كان قولك : « به كونت الأشياء » إنما هو راجع فى المعنى إلى أنه كوّنها فكانت به مُكوّنة . ولو لم يكن ذلك كذلك التناقض القولان.

قال : ورد عليه أيضاً فقال : «أما قول من قال من أصحاب «أريوس»: إن الأب يريد الشىء فيكوّنه الابن ، والإرادة للأب ، والتكوين للابن» فإن ذلك يفسد أيضاً ، إذ كان الابن عنده مخلوقاً فقد صار حظ المخلوق فى الخلق أوفى من حظ الخالق ، فيه ، وذلك أن هذا أراد وفعل ، وذاك أراد ولم يفعل ، فهذا أوفر حظاً فى فعله من ذاك ، ولا بد لهذا أن يكون فى فعله لما يريد ذلك ، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه ، ويكون حكمه كحكمه فى الجبر والاختيار . فإن كان مجبوراً فلاشىء له فى الفعل ، وإن كان مختاراً فجائز أن يطاع ، وجائز أن يعصى ، وجائز أن يثاب ، وجائز أن يعاقب ، وهذا أشنع فى القول.

قال : ورد عليه أيضاً وقال : إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق ، فالمخلوق غير الخالق بلا شك ، فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره ، والفاعل بغيره محتاج إلى متمم ليفعل به ، إذ كان لا يتم له الفعل إلا به ، والمحتاج إلى غيره منقوص ، والخالق يتعالى عن هذا كله .

قال : فلما دحض بطرك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين ، وظهر لمن حضر بطلان قولهم ،تحيروا وخجلوا ،فوثبوا على بطرك الإسكندرية فضربوه حتى كاد يقتل ، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين ، وهرب بطرك الإسكندرية المحتج على أصحاب « أريوس » وصار إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة . ثم أصلح دهن « الميرون » ، وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون وسار إلى الملك فأعلمه بالخبر فصرفه الملك إلى الإسكندرية .

فصـــل

قال : وأمر الملك أن لا يسكن يهودى بيت المقدس ولا يجوز بها ، ومن لم يتنصر يقتل ، فتنصر من اليهود خلق كثير ، وظهر دين النصرانية .

فقيل لقسطنطين الملك : إن اليهود يتنصرون من فزع القتل وهم على دينهم .

قال الملك : كيف لنا أن نعلم ذلك منهم ؟

قال بولس البترك : إن الخنزير فى التوراة حرام، واليهود لا يأكلون لحم الخنزير . فأمُرْ أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتطعمهم منها ، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيم على دين اليهودية .

فقال الملك : إذا كان الخنزير فى التوراة حراماً فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير ونطعمه الناس ؟

فقال له بولس البترك : إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما فى التوراة، وجاء بناموس آخر وبتوراة جديدة . وهو الإنجيل ، وفى إنجيله المقدس أن كل ما يدخل البطن ليس بحرام ولا بنجس ، وإنما ينجس الإنسان الذى يخرج من فيه .

وقال بولس الرسول فى رسالته إلى أهل مدينة قورينيوس الأولى : الطعام للبطن آلته لها ، والبطن للطعام، وله يلمن ومكتوب فى الأبركسس - يعنى أخبار الحواريين - أن بطرس رئيس الحواريين كان فى مدينة « يافا » فى منزل رجل دباغ يقال له « سيمون » وأنه صعد إلى المنزل ليصلى وقت ست ساعات من

النهار ، فوقع عليه سُبَات فنظر إلى السماء قد تفتحت، وإذا إزار قد نزل من السماء حتى بلغ الأرض .

وفيه : كل ذى أربع قوائم على الأرض من السباع والذئاب وغير ذلك من طير السماء . وسمع صوتاً يقول له : يا بطرس ، قم فاذبح وكل .

فقال بطرس : يارب ما أكلت شيئاً نجساً قط ولا وسخاً قط .

فجاء صوت ثان : يارب ما طهره الله فليس بنجس .

وفى نسخة أخرى : ما طهره الله فلا تنجسه أنت .

ثم جاءه الصوت بهذا ثلاث مرات ، ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء . فعجب بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه .

فبهذا المنظر وبما قال سيدنا المسيح فى إنجيله المقدس أمر بطرس وبولس أن نأكل كل ذى أربع قوائم من الخنزير وغيره من جميع الحيوان حلالاً لنا .

فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها ، وتقطع صغاراً صغاراً ، وتصير على أبواب الكنائس فى كل مملكته يوم أحد الفُصْح . وكلّ من خرج من الكنيسة يلقم لقمة من لحم الخنزير ، فمن لم يأكل منه يقتل ، فقتل لأجل ذلك خلق كثير .

قال سعيد : وكان لقسطنطين ثلاثة أولاد ، أكبرهم قسطنطين بن قسطنطين ، وذلك حين ملك أزدشير بن سابور بن هرمز على الفرس ، وملك بعده سابور ابن سابور لخمس سنين من ملك قسطنطين .

قال : وفى ذلك العصر اجتمع أصحاب « أريوس » وكل من قال بمقالته إلى الملك قسطنطين ، فحسنوا له دينهم ومقالتهم ، وقالوا : إن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً الذين كانوا اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا وحادوا عن الحق فى قولهم : إن الابن متفق مع الأب فى الجوهر . فتأمر أن لا يقال هذا ، فإنه خطأ . فأراد الملك أن يفعل ذلك .

قال : وفى ذلك العصر ظهر على الأقرانيون – وهو الجلجلة – نصف النهار صليب من نور ، من الأرض إلى السماء يفوق ضوؤه ضوء الشمس ، فكان يبلغ طور زيتا ، فرأى ذلك كل من كان فى بيت المقدس من كبير وصغير .

فكتب أسقف بيت المقدس إلى قسطنطين بن قسطنطين بالخبر وقال : فى أيام أبيك السعيد ظهر صليب كواكب من السماء فى نصف النهار ، وفى أيامك ظهر أيها الملك على الأقرانيون صليب من نور يفوق نوره نور الشمس فى نصف النهار

وكتب إليه أن لا يقبل قول أصحاب أريوس فإنهم حائدون عن الحق ، كفار قد لعنهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، ولعنوا كل من يقول بمقالتهم . فقبل قوله .

قال : وفى ذلك الوقت غلبت مقالة « أريوس » على قسطنطينية وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية .

فسمى التابعون لأريوس والقائلون بمقالته « أريوسيين » مشتقاً من اسمه .

قال : وفى ثانى سنة من ملك قسطنطين ، صير على أنطاكية بطرك أريوسى ثم بعده آخر أريوسى ، ثم بعده آخر منانى ، وصير على قسطنطينية بترك منانى .

قال : ففى عشر سنين من ملكه صير على قسطنطينية بطرك ، وكان يقول : روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات .

ونقل بعد ذلك بطرك أنطاكية فصير على القسطنطينية ، وكان منانياً .

قال : وأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ومنانيين . فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ، ووثبوا على بترك الإسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفى وصيروا على إسكندرية بتركا منانيا .

وفى ذلك الزمان ، قدم من القسطنطينية إلى الإسكندرية قائد وكان أريوسياً . فنفى الملكى وأقام بطركا أريوسيا .

فلما خرج القائد قتل الملكيون ذلك البترك الأريوسى وأحرقوه بالنار .

ومات الملك قسطنطين بن قسطنطين وله فى الملك أربع وعشرون سنة .

وملك بعده يوليانوس الملك الكافر على الروم سنين وأراد أن يرد الناس إلى عبادة الأصنام ، وقتل من الشهداء خلقاً .

وفي أول سنة من ملكه وثب الأريوسيون ببيت المقدس على أسقفها الملكي الذي كتب بظهور الصليب ليقتلوه ، فهرب منهم فصيروا أسقفا أريوسيا .

قال : وفي ثاني سنة من ملكه صير على أنطاكية بطركا على الأمانة ، أقام خمسا وعشرين سنة .

وفي إحدى وعشرين سنة من رياسته ، كان المجمع الثاني بقسطنطينية .

قال : وكان في عصره أهل مدينة « نيريار » كلهم صابئون ، فوضع أسقف « نيريار » و « أميمرا » في ميلاد المسيح ويقول في ابتدائه : السيد ولد مختونا نخذوا المسيح من السماء واستقبلوه على الأرض .

فلما قرأه عليهم ، استهزأوا به ، وأقبلوا يضحكون منه .

فلما كان عيد الحميم وضع « ميمرا » في عيد الحميم ، هتك فيه دين الصابئين وفضحهم فيه ، ومكن فيه دين النصرانية .

قال : وكان في عصر يوليانوس الملك الكافر أول راهب سكن برية مصر ، وبنى الديارات ، وجمع الرهبان .

وكان آخر بالشام ، وهو أول من سكن بَرِّيَّة « الأردن » وجمع الرهبان . وبنى الديارات .

قال : وخرج هذا الملك الكافر لقتال « سابور » ملك الفرس .

فلسوء مذهبه ، ورداءة دينه ، وما أراد أن يأخذ بعبادة الأصنام ، ظفر به ملك الفرس فقتله ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة .

وذكر أسقف « قيسارية » أنه كان جالساً في محرابه ، وحذاؤه لوح ، فيه صورة « ماري مركورس » الشاهد ، فنظر إلى اللوح فلم ير فيه صورة الشاهد ، فعجب من ذلك إذ غابت ، فلم يكن إلا ساعة ، حتى عادت صورة الشاهد إلى

اللوح ، وفى طرف الحربة المصورة التى فى يد الشاهد شبيه بالدم ، فتعجب من ذلك وبقى متحيراً ، حتى بلغه أن الملك الكافر قتل فى الحرب .

فعلم أن « مارى مركوس » الشاهد قتله ، لشدة بغضه الذى كان للنصارى ، وما كان عزم عليه من عبادة الأصنام .

وذكر بعد هذا جماعة من البتاركة والأساقفة ، كان بعضهم أريوسيا ، وبعضهم منانيا ، وبعضهم ملكيا ، وذكر فتنا بينهم وَتعَصُّبَ كل طائفة لبتركها ، حتى يقتل بعضهم بعضا ، وينفى بعضهم بعضاً .

وذكر أنه اختلفت آراء النصارى ، وكثرت مقالاتهم ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » وأنهم ملكوا عليهم ملكا اسمه « تذوس » وأن الوزراء والقواد اجتمعوا إليه ، ذاكرين أن مقالات الناس اختلفت وفسدت ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » و « مقدينوس » فينظر الملك فى هذا ويذب عن النصرانية ، ويوضح الأمانة المستقيمة .

وكتب إلى بطرك إسكندرية ، وأنطاكية ، ورومية ، وأسقف بيت المقدس ، فحضروا مع أساقفتهم بقسطنطينية ، إلا بطرك رومية فإنه كتب وأنفذ بالأمانة المستقيمة .

فاجتمع بقسطنطينية ماية وخمسون أسقفاً ، وكان المقدم البطاركة الثلاثة .

فدفع الملك إليهم كتاب بطرك رومية ، فكان صحيحاً موافقاً ، وكان يزعم أن روح القدس إله ، ولكن مخلوق مصنوع .

فقال بطرك الإسكندرية : ليس روح القدس عندى معنى غير حياته ، فإذا قلنا : إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حىّ ، وإذا زعمنا أنه غير حىّ ، فقد كفرنا ، ومن كفر وجب عليه اللعن .

فاتفقوا على لعن مقدونيوس فلعنوه وأشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين كانوا

بعده يقولون بقوله ، ولعنوا أسقف لونية وأشياعه ، ولعنوا بوليناريوس وأشياعه ، لأنه كان يقول : إن الأب والابن وجه واحد .

ولعنوا بوليناريوس وأشياعه لأنه كان يقول : إن جسد سيدنا المسيح بغير فعل .

وثبتوا أن روح القدس خالقة غير مخلوقة ، إله حق ، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد ، وطبيعة واحدة .

وزاد فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانين عشر أسقفاً الذين اجتمعوا فى مدينة نيقية « وبروح القدس الحى ، المميت ، المنبثق من الأب » .

وثبتوا أن الأب وحده والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، ذو ثلاثة وجوه ، وثلاث خواص فى وحدانية واحدة ، وكيان واحدة ، وثلاثة أقانيم إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة .

ثبتوا أن جسد سيدنا المسيح بنفس ناطقة عقلية .

قال : فمن المجمع الأول إلى هذا المجمع الثانى ، ثمان وخمسون سنة .

قال : وأطلق بطرق الإسكندرية للبطاركة والأساقفة والرهبان ، أكل اللحم من أجل المنانية ، ليعرف المنانى منهم ، لأن المنانية لايرون أكل اللحم ، ولا شيئاً من الحيوان البتة .

وكان أكثر أساقفة مصر منانية ، فأكل بطاركة مصر وأساقفتهم اللحم .

وأما بطاركة رومية وقسطنطينية وأساقفتها ورهبانها ، فلم يأكلوا اللحم وأكلوا بدل اللحم السمك ، وأقاموه مقام اللحم إذ كان حيوانا .

قال سعيد بن البطريك : لم يطلق أكل اللحم على أنهم يعتاضون منه بالسمك ، إذ ليس بذبيحة ويمنعون أكل اللحم إذ كان قد أخطأ الذين أقاموا السمك مقام اللحم ، وسيدنا المسيح فقد أكل اللحم ، فوجب ـ ضرورة ـ أكل اللحم ، اقتداء بالسيد المسيح ولو يوما واحدا فى السنة ، ليزيلوا الشك من مذهب المنانية .

قال : وفى الأبركسيس مكتوباً ، ما نظره بطرس السليح بـ« يافا » من تنزل السبنية ، وفيها كل ذى أربع قوائم ، ولهذا الحكم كل من لم يأكل اللحم مخالف لشريعة النصرانية ، ومضاه لمذهب الصابئة والروم ، وهم لا يغتسلون إلى اليوم ، لأن المنانية لا يرون الغسل بالماء ، فلما طال بهم الزمان أقاموه على هذه السنة .

وقال قوم : إنما تركوا الغسل بالماء لشدة برد بلادهم وبرد الماء عندهم ، وأنه لا يتهيأ لهم بالجملة أن يقربوا الماء فى الشتاء ، لثلجه وبرده ، فصار سنه جارية ، شتاء وصيفاً .

والمنانية صنفان ، السماعون ، والصديقون .

فالسماعون ، يصومون فى كل شهر أياماً معلومة .

والصديقون ، تصومون الدهر كله ، ولا يأكلون إلا ما نبت من الأرض .

فلما تنصروا خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيعلم بهم فجعلوا لأنفسهم صياما ، فصاموا الميلاد والحواريين .

فلما طال بهم الزمان وتربوا فى هذا الصوم ، أكلوا اللحم ، فتبعتهم فى ذلك النساطرة ، واليعاقبة ، والمارونية ، وصارت سنة ، استحسنها الملكية فتبعوهم ، وخاصة المنيمون ببلاد الشام .

وأما الروم فماتركوا أكل اللحم فى أيام صوم الميلاد وصوم الحواريين ، وتلك الأيام التى تظن أنها من جملة الصوم الكبير .

فمن أحب أن يصوم الميلاد والحواريين والسيدة ولا يأكل لحماً ، فليس بواجب وليس لأحد قطع اللحم طول السنة إلا فى صوم الأربعين المقدسة فقط ، ومن فعل بضد ذلك فهو مخالف راجع إلى أصحاب الآراء المختلفة .

قال : وفى ثمان سنين من ملك « ثذوس » ظهرت فتية الذين كانوا هربوا من « ذاقيوس » الملك ، واختفوا فى الكهف .

وذلك أن الرعاة ـ على طول الزمان ـ كانوا إذا جازوا بذلك الموضع الذى

هو الكهف قلعوا الطوب المبنى على باب الكهف حتى عاد مفتوحاً كالباب.

فلما انتبهت الفتية توهموا أنهم كانوا نياما ليلة واحدة ، فقالوا لصاحبهم الذى كان يذهب يبتاع لهم الطعام : امض واشتر لنا طعاما واستعلم خبر «ذاقنوس» .

فلما خرج إلى باب الكهف نظر إلى البنيان والهدم ، ثم مضى حتى بلغ باب المدينة وهى «أفسس» فرأى باب المدينة عليه صليب كبير منصوب فأنكر ذلك فى نفسه ، وقال : أحسب أنى نائم ، فأقبل يمسح عينيه وينظر يميناً وشمالا : هل يرى من يعرفه ، فلم ير . فبقى متحيرا وقال : لعلى أخطأت الطريق ولعل هذه مدينة أخرى .

ثم دخل المدينة فدفع دراهم مما كان معه ، عليها صورة «ذاقيوس» الملك ، فأنكر عليه ، وقالوا : لعله أصاب كنزا ، ثم قالوا : من أين لك هذه الدراهم ، وإلا قتلناك فلم يكلمهم .

وصاح الناس ، فاجتمع إليه خلق كثير وكلموه فلم يكلمهم ، فصاروا به إلى طريق المدينة وكلمه فلم يتكلم ، فهدده فلم يتكلم ، فجاء إليه أسقف المدينة فكلمه وخوفه وقال : إنك إن لم تكلمنى وتقل لى من أين لك هذه الدراهم ، وإلا قتلتك .

وإنما كان يمتنع من الكلام خوفاً من «ذاقيوس» الملك .

فقالوا له : إنه قد مات وملك بعده جماعة ملوك ، فضربوه حتى آلمه الضرب فخبرهم بحاله على جليتها .

فقالوا له : إن ذاقيوس قد مات وملك بعده ملوك كثيرة ، والملك اليوم «تذوس» الكبير وقد ظهر دين النصرانية .

ثم سار معهم إلى الكهف فنظروا إلى أصحابه والصندوق النحاس الذى فيه الصحيفة الرصاص مكتوب فيها قصتهم وخبرهم .

فكثر تعجبهم وكتبوا إلى الملك يعلمونه بخبرهم ، فركب وسار إلى مدينة أفسس فنظر إليهم وكلمهم .

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتاً ، فأمر أن يتركوا في الكهف ولا يخرجوا ، ولكن يدفنوا فيه وتبنى عليهم كنيسة ، وتسمى بأسمائهم ويُعَيَّد لها عيد في كل سنة في ذلك اليوم ، وانصرف إلى قسطنطينية .

قال : فمن وقت هرب الفتية من ذاقيوس إلى الكهف إلى الوقت الذى ظهروا فيه وماتوا ، مائة وسبع ، أو تسعة وأربعين سنة .

قلت : هذا مما أخطأ فيه ، فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

لكن بعض المفسرين ، زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله « اللهُ أعلمُ بمَا لَبِثُوا » وليس كذلك ، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب ، بل ذكره كلاماً منه تعالى .

قال سعيد : وفى زمنه كانت قصة بترك قسطنطينية « يوحنا » الملقب بـ « فم الذهب » وتولى بعد ابنه « ثذوس » الصغير اثنين وأربعين سنة لإحدى عشرة سنة من ملك « يزدجرد بن بهرام » .

وفى زمنه جعل « نسطورس » الذى تنسب إليه مقالة النسطورية بطركا على قسطنطينية .

قال : وكان نسطورس يقول : إن مريم العذراء ليست بوالدة إلهاً على الحقيقة ، ولذلك كان اثنان .

أحدهما : ــ الذى هو إله مولود من الأب .

والآخر : ــ الذى هو إنسان مولود من مريم ، وأن هذا الإنسان الذى يقول : إنه مسيح بالمحبة ، متوحد مع ابن إله ، ويقال له إله وابن الإله ، ليس بالحقيقة ، ولكن موهبة . واتفاق الاسمين والكرامة شبيهاً بأحد الأنبياء .

فبلغ قوله بطرك الإسكندرية فأنكر ذلك ، وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته ، ويعرفه فساد ماهو عليه ويسأله الرجوع إلى الحق ، فجرت بينهما رسائل كثيرة ، ولم يرجع نسطورس عن مقالته .

فكتب إلى بطرك أنطاكية يسأله أن يكتب إلى نسطورس ويعرفه قبح فعله ورأيه وفساد مقالته ، ويسأله الرجوع إلى الحق .

فكتب إلى نسطورس . إن هو لم يرجع اجتمعوا ولعنوه ، وجرت بينهما رسائل كثيرة ، فلم يرجع .

فكتبوا إلى بطرك رومية وأنطاكية ، وبطرك بيت المقدس أن يجتمعوا في مدينة « أفسس » لينظروا في مقالة نسطورس .

فاجتمع بالمدينة مايتا أسقف ، مقدمهم بطرك إسكندرية ، وتأخر بطرك أنطاكية فلم ينتظروه ، وبعثوا إلى نسطورس فلم يحضر معهم ، فنظروا في مقالته وأوجبوا عليه اللعن فلعنوه ونفوه ، وثبّتوا أن مريم العذراء والدة الإله ، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحدة في الأقنوم .

وهذا هو خلاف المحبة لأن نسطورس كان يقول: إن التحيد (أى الاتحاد) اتفاق الوجهين ، وأما التحيد (أى الاتحاد المستقيم) فإنما هو أن يكون أقنوما واحداً من طبيعتين .

فلما لعنوا نسطورس ، قدم يوحنا بطرك أنطاكية ، فلما وجدهم قد لعنوه قبل حضوره ، غضب وقال: ظلمتم نسطورس ولعنتموه باطلا وتعصب مع نسطورس فجمع الأساقفة الذين قدموا معه فقطع بطرك إسكندرية وقطع أسقف أفسس .

فلما رأى أصحاب بطرك إسكندرية قبح فعاله وقع بينهم شر عظيم ، وخرجوا من أفسس ، وصار أصحاب بطرك إسكندرية والمشرقيون حزبين ، فلم يزل ثذوس الملك حتى أصلح بينهم .

وكتب المشرقيون صحيفة وثبتوا فيها الأمانة الصحيحة ، وقالوا فيها : إن

مريم العذراء القديسة ولدت إلهاً ربنا يسوع ، الذي هو مع أبيه في الطبيعة ، ومع الناسوت في الناسوت ، وأقروا بطبيعتين ووجه واحد ، وأقنوم واحد ، ولعنوا نسطورس ، ووجهوا بالصحيفة إلى بطرك إسكندرية فقبل الصحيفة ، وأجابهم عنها بموافقتهم على ذلك .

وقال قوم : لما قبل صحيفة المشرقيين بدا له ، ولم يقبل طبيعتين ووجهاً واحداً .

وقال سعيد بن البطريق : وهم في ذلك كاذبون ، لأن كتبه تنطق بذلك .

ثم أرسل نسخة صحيفة المشرقيين إلى جماعة من الأساقفة يعلمهم أن المشرقيين رجعوا إلى الإيمان ، وأنهم غير موافقين لنسطورس .

قال : فمن الجمع الثاني إلى المائة والخمسين أسقفاً المجتمعين بمدينة قسطنطين ولعنوا مقدونيوس إلى هذا الجمع المائتين أسقفاً المجتمعين بأفسس على نسطورس ، إحدى وخمسون سنة .

قال : ولما نفى نسطورس صار إلى مصر ، فأقام بضيعة في صعيد مصر يقال لها « أخميم » ومات ودفن بها .

وكانت مقالته قد اندرست فأحياها من بعده بزمان طويل مطران « نصيبين » في عصر يوسطيانوس ملك الروم ، و « قباذ بن فيروز » ملك الفرس ، فبثها بالمشرق ، فلذلك كثر النسطورية بالمشرق ، وخاصة أرض أهل فارس بالعراق ، والموصل ، ونصيبين ، والفرات ، والجزيرة .

قال سعيد بن البطريق : رأيت أن أرد على النسطورية في هذا الموضع ، وأبين بطلان قولهم وفساده ، لأن النسطورية في عصرنا هذا خالفوا قول نسطور القديم ، وزعموا أن نسطور كان يقول : إن المسيح جوهران وأقنومان إله تام بأقنومه وجوهره ، وإنسان تام بأقنومه وجوهره .

وإن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، لأن الأب عندهم ولد إلهاً ولم يلد إنساناً ، ومريم ولدت إنساناً ولم تلد إلهاً .

فيقال لهم : إن كان الأمر على ماتقولون ؛ فالمسيح مسيحيان وابنان ، فسيح إله وابن إله ، ومسيح إنسان وابن إنسان ، لأنه لابد لمريم من أن تكون ولدت المسيح ، أو لم تلده .

فإن كانت ولدته ، فلابد أن تكون ولداً روحانياً أو جسمانياً .

فإن كان جسمانياً ، فهو غير الذى ولده الأب ، وذلك يوجب أن يكون مسيحان .

وإن كان روحانياً ، فالمسيح ابن واحد ، أقنوم واحد ، مسيح واحد .

والدليل على ذلك صفيحة الحديد التى تتحد بها النار ، فإنها سيف واحد تحرق وتمنع ، وتقطع وتضىء .

لايجوز أن يكون من الجهة الحديدية هى المحرقة المضيئة من غير جهة النار ، إذ كان مالم يكن فيه نار من الحديد غير محرق .

ولا الجهة النارية هى القاطعة المانعة ، إذ كان شأن النار الإضاءة والإحراق ، لا القطع .

فقد ثبت بهذا وصح ماتعتقده الملكية من أن المسيح أقنوم واحد ، وبأن زيف قول النسطورية : إن المسيح أقنومان .

قلت : يقال لهذا : إن قول النسطورية والملكية ، وإن كانا باطلين ، فقول الملكية أشد بطلاناً وأعظم كفراً وتناقضاً ، وما ذكره هذا باطل .

أما قوله : لو كان الأمر على ماتقولون ، فالمسيح مسيحان .

فيقال له : هذا إنما يلزم أن لو كان اللاهوت بمجرده يسمى مسيحاً ، فإن النسطورية وافقوم على باطل ، وهو أن الرب ولد إلها ، وهذا باطل .

ولم يقل أحد قط من الأنبياء ، لا فى الإنجيل ولا غيره : إن صفة الله القائمة به مولودة ، ولا إن الرب له مولود قديم أزلى .

لكن إذا قدر أن الأمر كذلك ، فصفة الله لم يسمها أحد مسيحياً .

فإذا قدر أن اللاهوت والناسوت جوهران أقنومان لا اتحاد بينهما، لم يلزم أن يكون اللاهوت مسيحياً، ولا هناك مسيح هو إله، ولا مسيح هو ابن إله.

وقد تقدم عن نسطور أنه كان يقول: إن هذا الإنسان الذى نقول: إنه مسيح متوحد بالمحبة مع ابن إله ويقال له وإله وابن إله، ليس بالحقيقة.

فقد صرح بأن المسيح هو الإنسان فقط دون اللاهوت، وأن المسيح ليس بإله ولا ابن إله فى الحقيقة.

فبطل ما ألزمه إياه، من أنه يلزم أن يكون هنا مسيحان.

وأما قوله: لابد لمريم من أن تكون ولدت المسيح، أو لم تلده.

فيقال: بل والدت المسيح وهو الإنسان، وهو غير اللاهوت الذى تزعمون أن الأب ولده، وليس فى ذلك مسيحان، بل مسيح واحد إنسان مخلوق.

وأيضاً فقوله: فإن كان ولدته فلابد أن يكون ولاداً روحانياً أو جسمانياً، فإن كان روحانياً، فالمسيح ابن واحد، أقنوم واحد، مسيح واحد، تقسيم باطل، وحجة فاسدة داحضة.

فإن مريم لم تلد ولادة روحانية، بل خرج الولد من فرجها كما تخرج أولاد النساء من فروجهن، سواء كانت عذرتها باقية أو لم تكن.

وأما ماذكره من التمثيل بصفيحة الحديد، فلو قدر أنه مثل مطابق لم يدل على صحة قولهم، بل غايته أنه يدل على إمكانه.

فأين الدليل على أن هذا هو الواقع؟ فليس فيه ما يدل على صحة قول الملكية، وفساد قول خصومهم، فكيف وهو تمثيل غير مطابق؟

فإن الحديد إذا اتحدت به النار، كان الحديد قد استحالت عن صفته، فلم يبق حديداً محضاً، وليست ناراً محضة، والخشب وغيره إذا أحرق وصار ناراً، فليس هو خشباً محضاً، وليس هو ناراً محضة بسيطة.

فمن شأن الشيئين ـ إذا اتحدا ـ أن يستحيل كل منهما إلى جوهر ثالث وطبيعة ثالثة ، ليست لاهذا ولاهذا ، كالماء واللبن إذا اتحدا ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً وطبيعة ثالثة ، لالبناً محضاً ، ولاماء محضاً ، وكذلك النار مع الحديد أو الخشب أو غير ذلك ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً ، ليس حديداً محضاً ولا خشباً محضاً ، ولا ناراً محضة ، لكن الحديد إذا برد فهو حديد ، لكنه تغيرت حقيقته ، فالنار تلينه وتذهب خبثه ، ولايبقى ـ بعد اتحاده بالنار ـ كما كان قبل ، والخشب يصير فحماً وهو جوهر ثالث ، إذ كان من طبع النار أنها تؤثر فى كل جسد بحسبه ، فتؤثر فى الحديد بحسبه ، وفى الخشب بحسبه .

وكل شيئين اتحدا فإنهما يصيران جوهراً ثالثاً وأقنوماً ثالثا وطبيعة ثالثة :

فإن كان اللاهوت والناسوت قد اتحدا ـ كما زعموا ـ فقد استحالت صفة اللاهوت، واستحالت صفة الناسوت ، فلم يبق اللاهوت لاهوتاً ولا الناسوت ناسوتاً ، بل صار جوهراً ثالثاً ، لا لاهوت ولا ناسوت ، وهم ينكرون هذا القول ، وهو باطل .

فإن رب العالمين لايتبدل ، وتستحيل[1] صفاته بصفات المحدثات ، ولاينقلب القديم ولا شىء من صفاته محدثاً ، ولا يستحيل القديم الرب الخالق والمخلوق المحدث إلى شىء ثالث .

بل صفات الرب التى لم يزل ولايزال موصوفاً بها لاتتبدل ، ولاتنقلب ، ولا تستحيل ، فضلا عن أن تستحيل إلى أمر ثالث .

ثم هذا الثالث ، إن كان قديماً خالقاً ، صار هنا خالقان قديمان .

وإن كان مخلوقاً محدثاً ، كان الخالق قد صار مخلوقاً محدثاً ، ومعلوم أن استحالة الخالق إلى خالق آخر أو إلى مخلوق ، ممتنع ظاهر الامتناع .

---

(١) قوله : وتستحيل : هكذا فى الأصل ، والسياق يقتضيان أن يقال: لاتستحيل".

ومما يوضح هذا ، أن ما مثلوا به من الحديدة المحماة بالنار هي جوهر ثالث ، يجرى على نارها ما يجرى على حديدها ، فإذا طرقت ، فالتطريق واقع على نارها كما هو واقع على حديدها ، وكذلك إذا مدت ، وكذلك إذا بصق عليها ، وكذلك إذا ألقيت فى الماء .

فإن كان هذا التمثيل مطابقاً ، لزم أن يكون ما حلّ بالناسوت قد حلّ باللاهوت .

فيكون رب العالمين ، هو الذى كان يأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط ، وهو الذى صُفِعَ عندهم ، وبُصِقَ فى وجهه ، وجعل الشوك على رأسه ، وضُرِبَ بالسياط ، وصُلِبَ ومات ، وتألم ، كما يحكى مثل هذا عن اليعقوبية .

وهذا لازم لكل من قال بالاتحاد ، حتى النسطورية إن قالوا : إنهما متحدان بالمشيئة ، بمعنى أن مشيئة هذا عين مشيئة هذا .

بخلاف ما إذا قالوا : إن مشيئته موافقة لمشيئته ليست إياها ولهذا قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ : اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ ــ ٧٥]

فذكر سبحانه تعالى : أنهما كانا يأكلان الطعام ، لأن ذلك من أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان ، إذ الخالق أحد صمد ، لا يأكل ولا يشرب .

وذكر مريم مع المسيح لأن من النصارى من اتخذها إلهاً آخر ، فعبدها كما عبد المسيح .

والذين لا يقولون بهذا ، كثير منهم يطلب منها كل ما يطلب من الله حتى يقول لها : اغفرى لى وارحمينى ، وغير ذلك . بناء على أنها تشفع فى ذلك إلى ابنها .

فتارة يقولون : ياوالدة الإله ، اشفعى لنا إلى الإله ، وتارة يسئلونها الحوائج التى تطلب من الله ولا يذكرون شفاعة وآخرون يعبدونها كما يعبدون المسيح .

وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا عنهم ، لما ذكر اجتماعهم عند قسطنطين بـ « نيقية » .

قال : وكانوا مختلفى الآراء مختلفى الأديان .

فمنهم من يقول : المسيح وأمه إلهان من دون الله ، وهم المريمانيون ، ويسمون المريمانية . كذلك قال ابن حزم وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٧] وهو سبحانه لم يحك هذا على جميع النصارى بل سأل المسيح سؤالاً يقرع به من اتخذه وأمه إلهين من دون الله .

قال ابن البطريق : ويقال للنسطورية أيضاً ، أخبرونا عن الناسوت التى اتحدت بها اللاهوت وسمى مسيحاً : هل هو لم يزل مسيحاً منذ كان فى بطن مريم إلى حين وضعته وأرضعته ونشب وصلب وقتل ، أم كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحاً ؟ .

فإن قالوا : لم يكن مسيحاً وهو فى بطن مريم ، وإنما ولدت مريم إنساناً

كان ثلاثين سنة واحد من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحاً ، تركوا قولهم وكذبوا الإنجيل وبولس، وجميع كتب الكنيسة، وخرجوا عن مقالة النصرانية .

وإن قالوا : إن اللاهوت اتحد فى الناسوت عند الحمل وأنه كان مسيحاً وهو محمول ومولود ومرضع إلى أن صلب وقتل ، فقد أقروا أن مريم ولدت إلهاً مسيحاً واحداً ، أقنوما واحداً .

فيقال له : هذا التقسيم يدل على بطلان قول النصارى الذين ابتدعه طوائفهم الثلاثة وغيرهم ، فإن الاتحاد يزعمون أنه كان من حين حملت به مريم ، وأنه كان ينمو قليلا قليلا ، كنمو جسد المسيح ، والاتحاد باطل كما قد قرر غير مرة ، ولو قدر أنه ممكن ، لظهر أثر ذلك .

فإن الله لما كلم موسى من الشجرة ، ظهر من الآيات والعظمة مادل على ذلك .

ولذلك كان إذا كلم موسى يظهر آيات ذلك .

وكذلك ما أخبر به فى التوراة وغيرها من مصاحبته لبنى إسرائيل ، وهو مما ظهر أثره ، وإن لم يكن متحداً ولا حالا فى شىء من ذلك .

ولما تجلى من طور سينا وأشرق من «ساعير» واستعلن من جبال «فاران» بما أنزله من كتبه ، ظهر آثار ذلك ، وإن لم تكن ذاته متحدة ولا حالة بفاران ولا طور سينا ، باتفاق الأمم .

فكيف تكون ذاته متحدة بما فى بطن مريم ، أو حالة فيه ، ولا يظهر أثر ذلك ؟

وأيضاً فيقال له : قد يقول النسطورية له : الناسوت كان مسيحاً من حين الحمل ، بمعنى أنه كان طاهراً مقدساً لا بمعنى اتحاد اللاهوت به .

وإن قالوا : المسيح اسم اللاهوت والناسوت جميعاً ، فيقال : ليس فى كتب

الأنبياء ما يقتضى هذا ، والنسطورية يسلمون ذلك لـ ن قد يقولون : إن المسيح اسم لهما كما أن الإنسان اسم للروح والجسد .

ثم قد يقال لجسد الإنسان الميت : هذا الإنسان ، فيقال وهو فى بطن مريم أمه قبل نفخ الروح فيه : هذا الجنين وهذا الحمل . فـكذلك إذا قيل له : مسيح بدون اللاهوت .

وأيضاً فقد تقول النساطرة باقتران اللاهوت من حين الحمل ، ولا يلزم أن يكون قد ولدت إلهاً ، إذ لم يقولوا بالاتحاد ، بل قالوا : هما جوهران أقنومان ، ولدت أحدهما ولم تلد الآخر كما تقول الملـكية معهم : إنه صلب أحدهما ولم يصلب الآخر ، ومات أحدهما ولم يمت الآخر ، وتألم أحدهما ولم يتألم الآخر .

فـكيف جوز الملـكية حين الموت أن يحل الموت والصلب ، والأكل والشرب ، وسائر الأمور البشرية بأحد الجوهرين دون الآخر ، ولم يجوزوا ـ حين الولادة ـ أن تلد مريم أحد الجوهرين دون الآخر ؟ وهل هذا إلا من تناقضهم ؟ كقولهم جميعاً : إنه صعد إلى السماء . وقعد عن يمين أبيه مع قولهم : إن اللاهوت مع الناسوت قعد عن يمين الأب .

ويقولون مع ذلك : إن اللاهوت القاعد عن يمين الآخر هو ذلك الآخر ، وهما جوهر واحد ، وإله واحد ، مع قوله : إنه حق من إله حق . فتناقضاتهم كثيرة .

ولا ريب أن قول النسطورية أيضاً متناقض . لـكن لا يمكن أن نصحح قول الملـكية دون قولهم . بل قول الملـكية أعظم فساداً وتناقضاً :

فالنسطورية يقولون : الإله لم يولد ولم يصلب .

واليعقوبية يقولون : ولد وصلب .

والملـكية يقولون : ولد ولم يصلب .

ومتى جاز أن يولد ، جاز أن يموت ويصلب ، وإن لم يجز أن يصلب ويموت ، لم يجز أن يولد .

فتجويز أحدهما ومنع الآخر ، تناقض .

ويقال للملكية : أنتم تقولون : إن اللاهوت اتحد بالناسوت عند الحمل ، وكان مسيحاً وهو مصنوع ومصلوب وميت ومتألم ، وتقولون : هذا كان بالناسوت دون اللاهوت ، فهذا التناقض من جنس تناقض النساطرة .

قال ابن البطريق : ويقال للنساطرة أيضاً : متى اتحدت الكلمة بالإنسان؟ أقبل الولادة أم فى حال الولادة ؟

فإن قالوا : قبل الولادة ، قلنا لهم : قبل الولادة ، قبل الحمل ، أو قبل الولادة وهو حمل ؟

فإن قالوا : قبل الولادة وقبل الحمل ، فقد زعموا أنه اتحد قبل أن يكون إنساناً وقبل أن يصور . وقولك : فإن كان ذلك فسد قول النسطورية : إن القديم اتحد بإنسان جزئى ، لأن الإنسان الجزئى إنما كان إنساناً جزئياً لما صار مصوراً بشرياً .

فيقال له : هذا السؤال لازم للطوائف الثلاثة ، فإنهم يقولون بالاتحاد أعظم من النساطرة .

فإن قيل : هم يقولون : إنه اتحد بإنسان كلى ، كان هذا من أفسد الأقاويل ، فإن المسيح بشر معين جزئى ، يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، لم يكن إنساناً كلياً .

ثم قال : ويلزمهم ، أن يزعموا أن اللاهوت قد كان حل مع الناسوت تسعة أشهر ونحوها من بدء الحمل مقيما معه فى الموضع الذى يحمل فيه الجنين ثم ولداً ودماً ، وهذا خلاف قولهم : إن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته ، لا من جهة لاهوته

فيقال : قد يقولون : إنه ولد الناسوت دون اللاهوت كما يقول الملكية: إنه صلب الناسوت دون اللاهوت .

وإن كان هذا متناقضاً ، فالنساطرة أقل تناقضاً ، لأن الملكية يقولون : إنهما شخص واحد ، أقنوم واحد ، فقد اتحد أحدهما بالآخر .

فإذا جاز مع هذا أن يفارق أحدهما الآخر فى الأكل والشرب والصلب والموت ، فمن قال : إنهما جوهران أقنومان ، هو أولى أن يقول : ولدت أحدهما دون الآخر .

ثم قال: وإن قالوا : اتحد به وهو حمل صورة تامة .

قلنا لهم : فقد كان الإله حملا قبل الولادة ، وإذا جاز أن يحمل ، جاز أن يولد .

فيقال : هم لا يقولون بأنهما صارا شخصا واحداً ، أقنوما واحداً ، بل يقولون : جوهران أقنومان وحينئذ فلا يقولون : حملت بإله ، ولا ولدت إلها ، كالا يقول الملكية : صلب اللاهوت ، ومات اللاهوت ، مع قولهم بأن اللاهوت والناسوت اتحدا .

قال : فإن قالوا : كان الاتحاد فى حال الولادة .

قلنا : فقد ولدت مريم الكلمة إذاً مع الإنسان ، والكلمة عندنا وعندهم إله ، فقد ولدت مريم إلها .

فإن قالوا : نعم ، قلنا : فإذا جاز أن يولد ، فلم لا يجوز أن يكون حملا ؟ فإذا أجازوا ذلك : تركوا قولهم ، وإن لم يجيزوه قلنا : فما الفرق بين أن يكون مولوداً ، وبين أن يكون محمولا ؟ فإن قالوا: ليس الإله مولوداً ، ولم يكن الاتحاد قبل الولادة ، وهو أن يكون محمولا ، ولا فى حال كونه ولداً فى حال الولادة .

قلنا : فهذا نقض قولكم : إن مريم ولدت المسيح ، لأن المسيح ـ عندكم ـ ليس هو الإنسان وحده ، ومريم ـ عندكم ـ إنما ولدت الإنسان وحده .

وإذا كان المسيح ليس هو الإنسان وحده ، وعندكم إنما ولدت الإنسان وحده قبل الاتحاد ، فإنما ولدت إذاً ، ماليس بمسيح ، إذ كان إنما كان مسيحاً بالاتحاد ، وكان الاتحاد بعد الولادة ، إنما كان مسيحاً بعد الولادة .

فإذا كان هذا ـ عندكم ـ فاسداً ، وكانت مريم ولدت المسيح ، فمريم لم تلد الإنسان وحده ، وهذا يوجب أنها قد ولدت الإله مع الإنسان ، ويوجب أن الاتحاد كان قبل الولادة .

قال : فقد تبين زائف ما تعتقده النسطورية ، من أن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وصح أن مريم ولدت إلهاً مسيحاً واحداً .

قال : ويقال لهم : إذا زعمتم أن المسيح جوهران ، جوهر قديم ، وجوهر محدث ، ثم زعمتم أن مريم ولدت المسيح ، فقد أقررتم أن مريم ولدت هذين الجوهرين اللذين هما المسيح ، وإذا ولدتهما ، وأحدهما إله ، فقد ولدت إلهاً قديماً ، ولا يجوز أن تلد إلا ما كان محمولا ، فهذا يوجب أنها قد كانت حاملة لذلك أقنوماً واحداً .

فقد تبين زيف ما تعتقده النسطورية ، أن مريم لم تحمل إلهاً ، ولم تلده ، وصح ما تعتقده الملكية أن مريم ولدت إلهاً مسيحاً واحداً ، ابناً واحداً ، أقنوما واحدا .

فيقال له : ليس هذا التناقض من النسطورية بأعظم من تناقض الملكية ، فإنهم ـ مع قولهم باتحاد اللاهوت والناسوت ، وأنهما شخص واحد ـ يقولون : إن أحدهما كان يأكل ويشرب ، ويصوم ويصلي ويتصرف ، وأنه أخذ وصفع ، ووضع الشوك على رأسه وصلب وألم ، ومات دون الآخر .

فإذا كان قول النسطورية متناقضاً ، فقول الملكية أعظم تناقضا ، فإذا منعوا أن تحمل المرأة وتلد الناسوت دون اللاهوت لأجل الاتحاد الذي بينهما ، وجب

أن يعقلوا أن يأكل ويشرب ، ويصلب ويقتل أحدهما دون الآخر لأجل الاتحاد بطريق الأولى .

وكون الصلب والقتل أعظم منافاة للربوبية من حمل مريم به وولادته إياه ، لا يمنع كون كل ذلك ممتنعاً على الله .

ومن جوز عقله أن يكون رب العالمين خرج من فرج مريم وهى بكر ، فقد جعل رب العالمين يخرج من ثقب صغير ، وهذا أعظم مايكون من الامتناع .

وحين جوز عليه هذا ، جوز عليه أن يخرج من كل ثقب مثل ذلك الثقب وأكبر منه ، وجوز أن يخرج رب العالمين من فم كل حيوان وفرجه ، ومن شقوق الأبواب وغير ذلك من الثقوب .

وإن قالوا : ذاك مكان طاهر ، قيل : أفواه الأنبياء والصالحين أطهر من كل فرج فى العالم ، فيجوز أن يخرج من فم كل نبى وولىّ لله ، ومن أذنه ، ومن أنفه ، فإن كل هذه الخروق والثقوب أفضل من فروج النساء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فهؤلاء النصارى يقولون : إن كون الله مولوداً من فرج مريم ، غير كونه مولوداً فى الأزل من الأب ، بل هما ولادتان روحانية وجسمانية .

وهم إذا طولبوا بتفهيم مايقولون ، وقيل لهم : هذا لا يتصور أن يكون رب العالمين يخرج من ثقب ضيق ، لافرج ، ولا فم ، ولا أذن ، ولاغير ذلك من الأثقاب ، قالوا : هذا فوق العقل ، واعترفوا بأن هذا لا يتصوره العقل .

فيقال لهم : هذا الكلام لم يقله نبى من الأنبياء ، ولم ينطق نبى من الأنبياء بأن مريم حملت برب العالمين وولدته ، بل ولا نطق نبى من الأنبياء بأن الله مولود ولا شىء من صفاته مولود ، لاعلمه ، ولاحياته ، ولا غير ذلك .

ولا نطق نبى من الأنبياء لا المسيح ولا غيره ، بأن الله اتحد بشىء من المخلوقات .

وليس فى الإنجيل وغيره مما ينقل عن الأنبياء شىء من ذلك ، بل غاية ما فيها كلمات مجملة متشابهة كقوله : أنا وأبى واحد ، كما قال الله لمحمد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾.

فإذا قال بعض ملاحدة المسلمين من الشيعة ، أو المتصوفة ، أو غيرهم : إن الله اتحد بمحمد . لقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ كان هذا من جنس قول النصارى .

والآية لم تدل على ذلك ، بل مبايعة الرسول مبايعة لله ، لأن الرسول أمر بما أمر الله به ، ونهى عما نهى الله عنه .

فليس فى كلام الأنبياء أن الله ولا شيئاً من صفاته ، مولود الولادة التى يسمونها ولادة عقلية وروحانية ، ولا فى كتبهم أن شيئاً من صفات الله تسمى ابنا لله ، ولا أن اللاهوت ابن الله ، فضلا عن أن ينطقوا بأن الله مولود من امرأة ولادة ، وخرج من فرجها ، فيكون مولوداً ولادة جسمانية .

ولهذا تنازعت النصارى فى ذلك لم يكن لمن ادعاه على من نفاه حجة من نصوص الأنبياء ، غاية ما عندهم التمسك بألفاظ متشابهة وتغيير ألفاظ صريحة محكمة ، تبين أن المولود إنما هو بشر .

فإذا قالوا فى الألفاظ المتشابهة : لا نعلم مراد الرسول بها ، كان هذا مما قد يعذرون به ، فإن المتشابه من النصوص لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم .

فإذا قالوا : لسنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله ، كانوا شاهدين على أنفسهم بعدم العلم ، وشهادة الإنسان على نفسه مقبولة .

بخلاف القول الذى تكلموا به هم ؛ وزعموا أن معناه يدل عليه كلام الأنبياء ؛ أو يدل عليه العقل ، فإن عليهم أن يبينوا معناه الذى عنوه به ، وعليهم أن يبينوا أنه قد دل على ذلك شرع أو عقل .

فإذا قالوا : نفس الكلام الذى قلناه لا نتصور معناه . كانوا معترفين أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون ؛ وهذا حرام عليهم .

وإن قالوا : إن كلام الأنبياء دل على ذلك . كان غاية ماعندهم التمسك بالمتشابه . وحينئذ فيطالبون بتفسير المتشابه ؛ والجمع بينه وبين المحكم على وجه صحيح معلوم ، وإلا فإذا قالوا : هذا فوق العقل لا نفهمه .

قيل لهم : فدعوا المتشابه لا تحتجون به . ولا تذكرون له معنى تزعمون أنكم لا تعقلونه .

فمتى ثبت عن الأنبياء قول وقال قوم : إنا لا نفهمه أنهم يصدقون على أنفسهم .

وأما إذا فسروا كلام الأنبياء بقول عبروا به عن مراد الأنبياء ، وقالوا : هذا مرادهم مع تعبيرهم عنه بعبارات أخرى . طولبوا بأن يبينوا ذلك المعنى وقيل لهم : إن فهمتم ماقلتموه فبينوه ؛ وإن لم تفهموه فلا تتكلموا بلا علم .

قال سعيد بن البطريق : إن أئمة الضلالة ــ أعنى نسطوريوس وأرطيوس وديسقورس وسورس ويعقوب البراذعى وأشياعهم ـ الذين أرادوا أن يقيموا الزيف والمحال ولم يراجعوا إلى خشية الله وزاغوا من سبيل الحق لسوء رأيهم ، فقد تورطوا فى بحر الضلالة .

وهم ـ جميعا ـ فيما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته ؛ ويتورط كل واحد منهم فى وجه من وجوه الخلطة ؛ ويتمسك به .

فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة : وأبين ذلك لتقف على فساد قولهم : إن من عظيم تدبير الله وكمال عدله وجليل رحمته ؛ أن يبعث كلمته الخالقة التى بها خلق كل شىء من جوهره ليست مخلوقة . ولكن مولودة منه من قبل كل الدهور ، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط ؛ ولا كانت الكلمة بَرِيَّةً منه

قط ولا من روحه الخالقة ولا من جوهره . فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت ، الذي لم يزل ولا يزال . فالتحمت من مريم العذراء وهي جارية طاهرة مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين ، وطهرها بروح القدس وروحه الجوهرية . حتى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ؛ فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها . بمسرة الآب وموازرة روح القدس . خلقاً جديداً من غير نطفة آدمية جرت عليهـا الخطيئة . ومن غير مجامعة بشرية ولا انفكاك عذرة . تلك الجارية المقدسة . فهو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية وروحه الكلمانية التي من صورة الله في الإنسان وشبهه . فكانت مسكناً لله في حلوله واحتجابه للطفهـا عن جميع ما ألطف من الخلائق كلهم .

واعلم أنه لا يرى شيء من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق . ولا يرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق .

وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت لها حجاباً ، ولمن هو ألطف منها ، وكانت النفس الدموية حجاباً والجسد الغليظ حجاباً .

فعلى هذا ، خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله بقوامها قواما لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً .

ألا نقول من كلمة الله الذي خلقها وكونها لا من شيء لا سبق قبل ذلك في بطن مريم ولا من شيء كان لها من نطفة ولا من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس لما ضم إليه وخلقه له ، التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام

الواحد ، قوام لكلمة الله الخالقة ، واحد فى التثليث بجوهر لاهوته ، واحد فى الناس بجوهر ناسوته وليس باثنين ، ولكن واحد مع الأب والروح ، وهو إياه ، واحد مع الناس جميعاً بجوهرين مختلفين ، من جوهر اللاهوت الخالق ، وجوهر الناسوت المخلوق ، بتوحيد القوام الواحد ، قوام الكلمة التي هي الابن المولود من الله قبل الأدهار كلها ، وهو إياه المولود من مريم العذراء فى آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ولا من روح القدس .

قلت : فهذا كلام سعيد بن البطريق الذى قرر به دين النصارى ، وفيه من الباطل ما يطول وصفه . لكن نذكر من ذلك وجوها :

الوجه الأول : ـ قوله : إن من عظيم تدبير الله أن بعث كلمته الخالقة ، التى بها خلق كل شىء من جوهره ليست مخلوقة ولكن مولودة منها ، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها الدائم ، فالتحمت من مريم العذراء .

فيقال : قد جعلت الكلمة خالقة ، وقلت ـ بعد هذا ـ : ولا كانت الكلمة بريّة منه ، ولامن روحه الخالقة ، وقلت ـ بعدها ـ : فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس جميعاً ، خلقاً جديداً .

فيقال لهم : أخالق العالم ـ عندكم ـ خالق واحد وهو إله واحد ، أم للعالم ثلاثة آلهة خالقون ؟

فإن قالوا : إن الخالق واحد ، وهم ثلاثة آلهة خالقون ، كما أنهم فى كثير من كلامهم يصرحون بثلاثة آلهة ، وثلاثة خالقين ، ثم يقولون : إله واحد ، وخالق واحد .

فيقال : وهذا تناقض ظاهر ، فإما هذا ، وإما هذا .

وإذا قلتم : الخالق واحد ، له ثلاث صفات ، لم ننازعكم فى أن الخالق له صفات ، لكن لا يختص بثلاثة .

فإن قالوا بثلاثة آلهة ، ثلاثة خالقين ، كما قد كثر منهم فى كثير من كلامهم ، بأن كفرهم وعظم شركهم ، وبان أن شركهم أعظم من كل شرك فى العالم ، فغاية المجوس الثنوية ، إثبات اثنين ، نور ، وظلمة ، وهؤلاء يثبتون ثلاثة .

ثم الأدلة السمعية فى التوراة والإنجيل والزبور وسائر كلام الأنبياء مع الأدلة العقلية المبينة لكون الخالق واحداً ، كثيرة جداً ، لا يمكن حصرها هنا .

وإن قالوا : إن الخالق واحد ، له صفات . قيل لهم : فهذا مناقض لقولكم: إنه بعث كلمته الخالقة ، وقولكم : « ولا كانت الكلمة بريَّة منه ولا من روحه الخالقة » وقولكم: « فهبطت الكلمة الخالقة » وقولكم : « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق ، خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة الروح » فهذا يقتضى أن الكلمة خالقة وأن الروح خالقة ، وأنها خلقت بمسرة الأب الخالق وموازرة الروح الخالقة ، وهذا الخالق هبط ، والأب لم يهبط .

فإذا كان الخالق واحداً له صفات ، لم يكن هنا إلا خالق واحد .

الوجه الثانى :ـ قولكم : « بعث كلمته الخالقة التى بها خلق كل شيء » وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه فيقول لها « كُنْ فَيَكُونُ » هكذا فى القرآن ، والتوراة وغيرهما .

لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه ، ليس كلامه خالقاً .

ولا يقول أحد قط : إن كلام الله خلق السموات والأرض .

والتوراة كلام الله ، والإنجيل كلام الله ، ولا يقول أحد : إن شيئاً من ذلك خلق السموات والأرض ، ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لى وارحمنى .

فقول هؤلاء : إن كلمته هى الخالقة وإنه خلق بها ، كلام متناقض .

فإنها إن كانت هى الخالقة ، لم تكن هى المخلوق به ، فالمخلوق به ليس هو الخالق .

الوجه الثالث : ـ أن يقال قولكم : « كلمة الله الخالقة » أهى كلام الله كله، أم هى بعض كلام الله ، أم هى المعنى القائم بالذات القديم الأزلى ، الذى يثبته ابن كلاب ، أم حروف وأصوات قديمة أزلية كما يقوله بعض الناس ، أم هى الذات المتكلمة ؟

فإن كانت هى الذات المتكلمة ، فهى الأب والرب ، وتكون هى الموصوفة بالحياة . فلا يكون هناك كلام مولود ، ولا كلمة أرسلت ولا غير ذلك مما ذكروه. وهذا خلاف قولهم كلهم ، فإن الكلمة المتحدة بالمسيح ليست هى الأب عندهم . وإن قالوا : بل هى كلام الله كله .

قيل لهم : فيكون المسيح هو التوراة ، والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله . وهذا لايقولونه ، ولم يقله أحد ولا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إنها هى المعنى الواحد القديم الأزلى ، أو الحروف والأصوات القديمة الأزلية .

قيل لهم : هذان القولان ، وإن كانا باطلين ، فإن قلتم بهما ، لزمكم أن يكون المسيح هو كلام الله كله ، فإن هذين ـ عند من يقول بهما ـ هما جميع كلام الله .

والتوراة ، والإنجيل وسائر كلام الله ، عبارة عن ذلك المعنى القائم بذات الله ، وهو الحروف والأصوات القديمة القائمة بالذات عند من يقول بهذين .

وإن قلتم : إن المسيح بعض كلمات الله : فحينئذ لله كلمات أخر غير المسيح ، فاجعلوا كل كلمة خالقاً ، كما جعلتم الكلمة المتحدة بالمسيح خالقة ، إذ كنتم تقولون : « الكلمة هى الخالقة وهى المخلوق بها » فقولوا عن سائر كلمات الله: إنها خالقة مخلوق بها ، وحينئذ فيتعدد الخالق بتعدد كلمات الله .

وإذا كانت كلمات الله لانهاية لها ، كان للخلق خالقون لانهاية لهم ، وهذا غاية الباطل والكفر .

وبالجملة أى شىء فسروا به الكلمة تبين به فساد قولهم ، ولكنهم يتكلمون بما لايفهمونه ، ويقولون الكذب والكفر المتناقض . وإنما عندهم تقليد من أضلهم . كما قال تعالى : ﴿ قل يا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ، [المائدة : ٧٧]

الوجه الرابع: أن يقال لهم: مالم يعلم بالمعقول ، فليس فى المنقول ما يدل عليه، وأنتم لاتدعون أنكم عرفتموه بالعقل ، لكن بما نقل عن الأنبياء وأنتم قد فسرتم كلمته بعلمه وحكمته ، والروح القدس بحياته ، فمن أى نبى تنقلون أن علم الله وحكمته مولودة منه ، وأنه يسمى ابناً ، وأن علمه أوحكمته خلق كل شىء ، وأن حياته خلقت كل شىء ، وأن علمه خالق وإله ورب ، وحياته خالقة وإله ورب، وليس فى الأنبياء من سمى شيئاً من صفات الرب ولداً له ولا ابناً، ولاذكر أن الله ولد شيئاً من صفاته . فدعواكم أن صفته القديمة الأزلية ولدت مرتين ، مرة ولادة قديمة أزلية ، وولادة حادثة من فرج مريم ، كذب معلوم على الأنبياء لم يقل أحد منهم: إن الله ولد، ولا إن شيئاً من صفاته ولده ، لاولادة روحانية، ولا ولادة جسمانية .

وهذا وإن أبطل قول الملكية ، فهو لقول اليعقوبية ، أشد إبطالا ، وهو مبطل أيضاً لقول النسطورية ، فإنهم يقولون بالأمانة التى فيها أنه مولود قديم أزلى ، فإن طوائفهم الثلاثة متفقون على الأمانة التى ابتدعوها فى زمن قسطنطين بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من المسيح .

الوجه الخامس: قولكم بعث كلمته الخالقة ، فهبطت كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء ، ليست مخلوقة ، ولكن مولودة منه ، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط .

من قال من الأنبياء : إنه لم يكن بلا روحه قط أو إن روحه صفة له قديمة، أو إنها حياته ؟

وكلام الأنبياء كله ينطق بأن روح الله وروح القدس ونحو ذلك هو ما ينزله على الأنبياء ، كالوحى والتأييد ، أو الملائكة ، فليست روح الله صفة قائمة به ولا غيرها ، ولكنها أمر بائن عنه .

الوجه السادس : أنه إذا كان قد بعث كلمته الخالقة وهبطت والتحمت من مريم ، فهو نفسه رب العالمين ، هبط والتحم من مريم أم رب العالمين نفسه ، لم يهبط ولم يلتحم من مريم ، وإنما هبط والتحم الكلمة التى أرسلها.

فإن قلتم هو نفسه هبط والتحم ، كان الأب الوالد للكلمة ، هو الذى هبط والتحم ، وكان الأب هو الكلمة ، وهذا مناقض لأقوالكم .

وإن قلتم : إن المبعوث الهابط الملتحم ليس هو الأب ، بل هو كلمة الرب فقد جعلتموه الخالق ، فيكون هناك خالقان ، خالق أرسل فهبط والتحم ، وخالق أرسل ذلك ولم يهبط ولم يلتحم ، وقد أثبتم خالقاً ثالثاً وهو الروح ، وهذا تصريح بثلاثة آلهة خالقين .

الوجه السابع : أنه قال : إن الله بعث كلمته الخالقة التى بها خلق كل شىء، فمع كونه جعلها خالقة ، جعل أنه بها خلق كل شىء ، والذى خلق بها كل شىء هو خالق ، فجعلها خالقة ، وجعل خالقاً آخر ، وجعل أحد الخالقين قد خلق الآخر به كل شىء . وجعل هـذا الخالق قد بعث ذلك الخالق الذى به خلق كل شىء ؛ وجعل الكلمة الخالقة احتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس خلقاً جديداً .

وإذا كانت هى الخالقة بمسرة الأب الخالق على الخلق . فالأب لم يخلقه ؛ بل سر بذلك . وروح القدس وازرت ذلك ؛ والخالق خلق الخلق .

ومعلوم أنه إذا كان للخالق من يوازره على الخلق لم يكن مستقلا بالخلق، بل يكون له فيه شريك .

فهذه الكلمة ، تارة يقولون: هى الخالقة ؛ وتارة يقولون: خلق بها الخالق؛ نخلقت ، وتارة يقولون: إن روح القدس وازرها فى الخلق ، فهذه أربعة أقوال ينقض بعضها بعضاً .

فإن كان الله هو الخالق لكل شيء فالخالق واحد ، فليس هناك خالق آخر ولا شريك له فى الخلق .

والخالق إذا خلق الأشياء بقوله : « كن » لم يكن كلامه خالقاً ، ولو كانت كل كلمة إلهاً خالقاً ، لكان الآلهة الخالقون كثيرين لانهاية لهم .

ثم قال : ليست بمخلوقة ولـكن مولودة منه قبل كل الدهور .

فيقال : مَنْ من الأنبياء سمَّى شيئاً من صفات الله مولوداً قديماً أزليا ؟ فكيف يكون مولود قديم أزلى ؟ وهل يعقل مولود إلا محدثاً ؟ !

وأيضاً، فإذا جاز أن تكون الـكلمة التى يفسرونها بالعلم أو الحكمة مولودة منه . فـكذلك تكون مولودة منه ؛ وإن كانت حياته منبثقة منه فـكلمته منبثقة منه .

فجعل إحدى الصفتين الأزليتين مولودة من الأزل غير منبثقة ؛ والأخرى ليست مولودة من الأزل . بل منبثقة ، مع كونه باطلا ، فهو متناقض وتفريق بين المتماثلين .

فإن جاز أن يقال للصفة القديمة الأزلية : إنها مولودة منه فالحياة مولودة .

وإن جاز أن يقال : إنها منبثقة فالـكلمة منبثقة .

وأيضاً فـكون الصفة إلها خالقاً ؛ وإثبات ثلاثة آلهة خالقين مع قولهم : إن الخالق واحد ، تناقض آخر .

وأيضاً فقوله : « ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط » إن أراد بروحه

حياته ، فهذا صحيح ، مَنْ من الأنبياء سمى حياة الله روحه ؟ . ومن الذى جعل الله روحا قديمة أزلية ؟ وهل هذا إلا افتراء على الأنبياء ؟

وليس لقائل أن يقول : إن هذا نزاع لفظى فلا اعتبار به لأن هذا تفسير لكلام الأنبياء ، فهم الذين تكلموا بروح الله وروح القدس ونحو ذلك ، ولم يرد أحد بذلك حياة الله قط .

فتسمية حياة الله روحا، وتفسير مراد الأنبياء بذلك، افتراء على الله ورسله .

الوجه الثامن : قوله : « فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذى لم يزل ولا يزول . فالتحمت من مريم العذراء ، وهى جارية طاهرة ، مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بروح القدس ، روحه الجوهرية ، التى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها ، بمسرة الأب ، وموازرة روح القدس ، خلقاً جديداً » .

فيقال : إن الكتب دلت على أن المسيح تجسّد من روح القدس، ومن مريم العذراء البتول ، وهكذا هو فى الأمانة التى لهم، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر فى غير موضع ، أنه نفخ فى مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم : ١٦ ـ ٢٣] قال تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩١

قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢]
فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً .

لكن دعواكم أن روح القدس ، روح الله الجوهرية (أى حياته القديمة الأزلية) أمر مخالف لجميع كتب الله وأنبيائه .

فلم يفسر أحد منهم روح القدس بصفة الله ، لا جوهرية ، ولا غير جوهرية ، ولا قديمة ، ولا غير قديمة ، ولا أرادوا بذلك حياة الله .

فقولكم هذا ، تبديل لكلام الله وكلام أنبيائه ورسله ، كما أنكم فى قولكم إن كلمة الله أو علمه ، أو حياته ، مولود منه ، وإن صفته القديمة الأزلية هى ابنه ما حرفتم فيه كلام الأنبياء ، فلم يرد أحد منهم هذا المعنى بهذا اللفظ قط ، ولم يطلق فى جميع الكتب التى عندكم لفظ الابن والمولود ، إلا على محدث مخلوق لا على شىء قديم أزلى ، لا موصوف ولا صفة ، لا علم ولا كلام ، ولا حكمة ، ولا غير ذلك .

وكل ولادة فى الكتب الإلهية التى عندكم وغيرها ، فهى ولادة حادثة زمانية . وكل مولود ، فهو محدث مخلوق زمانى ، ليس فى الكتب ولادة قديمة أزلية ولا مولود قديم أزلى ، كما أنكم ذكرتم ذلك فى أمانتكم وغيرها .

فلو كان ما ذكرتموه ممكناً فى المعقول ، لم يجز أن تجعلوه موجوداً واقعاً ، وتقولوا : الأنبياء أرادوا بذلك ، إلا أن يكونوا بينوا أن ذلك مرادهم .

فإذا كان كلامهم صريحاً فى أنهم لم يريدوا ذلك ، والمعقول الصريح يناقض ذلك ، كان ما قلتموه كذباً على الله وعلى أنبيائه ورسله ومسيحه ، وكان باطلاً فى المعقول ، وكنتم ممن قيل فيه ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، [الملك : ١٠]

: أنتم قلتم : « إن الكلمة الخالقة هبطت فالتحمت من مريم ،

واحتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقلتم : « إن مريم حملت بالإله الخالق وولدته ، الذى هو الابن » .

فإذا جوزتم أن تكون مريم هى أمًّا للخالق الذى هو الابن حملته وولدته فلِمَ لا يجوز أن تكون زوجة الخالق الذى هو الأب ، مع أن الخالق التحم من مريم ؟ وقد قلتم : لم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط ، ولا كانت الكلمة بريّةً منه قط ، ولا من روحه الخالقة ، ولا من جوهره ؟

فجعلتم الروح خالقة ، والله الذى هو الأب خالقاً ، والمسيح قد تجسد من الروح الخالقة ومن مريم ، فكما أن مريم أمه ، فالروح الخالقة بمنزلة أبيه .

وأيضاً فمريم ، لها اتصال بالأب وبروح القدس ، وكلاهما أب للمسيح على ما ذكرتموه .

فإذا كانت مريم متصلة بكل واحد ممن جعلتموه أباً للمسيح ، وقلتم إن الخالق التحم من مريم ، فهذا أبلغ مايكون من جعل الخالق زوج مريم .

ومهما فسرتم به اتحاد اللاهوت بناسوت المسيح المخلوق منها ، كان تفسير التحام اللاهوت بناسوت مريم حتى يصير زوجاً لمريم أولى وأحرى ، وليس فى ذلك نقص ولا عيب إلا وفى كون اللاهوت ابن مريم ، ماهو أبلغ منه فى النقص والعيب .

ومعلوم أن الإنسان أعلى قدراً عنده من زوجته وأن تسلطه على زوجته أعظم منه على أمه ، فإن الرجل مالك للزوجة ، قَوّامٌ عليها . والمرأة أسيرة عند زوجها ، بخلاف أمه .

فإذا جعلتم اللاهوت الخالق القديم الأزلى ابناً لناسوت مريم بحكم الاتحاد مع كونه خالقاً لها بلاهوته وابناً لها بناسوته ، ولم يكن هذا ممتنعاً عندكم ولا قبيحاً . فأن تكون مريم صاحبة له وزوجة وامرأة بحكم الالتحام بالناسوت أولى وأحرى .

وإن كان هذا ممتنعاً وقبيحاً ، فذلك أشد امتناعاً وقبحاً .

ولهذا ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله وزوجته وقالوا : إنما هو أبلغ من ذلك ، حتى ذكروا شهرة النكاح .

ولقد قال بعض أكابر عقلاء الملوك ممن كان نصرانيا : إنهم كانوا إذا نبهوا على قولهم : إن عيسى ابن الله لم يفهموا من ذلك إلا أن الله أحبل أمه وولدت له المسيح ابنه ، كما يحبل الرجل المرأة وتلد له الولد ، فيكون قد انفصل من الله جزء في مريم بعد أن نكحها ، وذلك الجزء الذى من الله ومن مريم ، ولدته مريم ، كما تلد المرأة الولد الذى منها ومن زوجها ، وقد قالت الجن المؤمنون: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ﴾ [الجن : ٣] فنزهوه عن هذا وهذا وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلا ودينا من هؤلاء النصارى.

وقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١] فقوله « أنى يكون له ولد» تقديره من أين يكون له ولد ؟ ! فـ«أنى » في اللغة بمعنى « من أين ذلك » وهذا استفهام إنكار .

فبين ــ سبحانه ــ أنه يمتنع أن يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة، مع أنه خالق كل شيء ، وأن هذا الولد يمتنع أن يكون ، وأن هذا الامتناع مستقر في صريح المعقول .

ثم إذا كانت الكلمة التى هى الخالق المخلوق به ، قد حلَّتْ في جوف مريم ، والتحمت من مريم وخلقت منها إنسانا هو المسيح خلقته لنفسها واحتجبت به واتخذت به ، فهل كان خلقها لهذا الإنسان قبل الاتحاد والاحتجاب أم حين ذلك ؟ .

فإنه بعد ذلك ظاهر الامتناع ، محال أنها بعد الاحتجاب به والاتحاد خلقته ، بل لابد أن تكون خلقته قبله أو معه .

فإن كان معه ، لزم كون المخلوق متحداً بالخالق دائماً ، لم تمر عليه لحظة إلا وهو متحد به .

فإذا أمكن أن يقارن المخلوق خالقه - وعندهم أنه أقام تسعة أشهر حملاً كعامة الناس ، وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا - فإذا كان كذلك، كان الرب متحداً بالمضغة والجماد ، الذى لا روح فيه .

وإذا جاز عليه هذا ، جاز أن يتحد بسائر الجمادات ، وهذا على قول الأكثرين الذين يقولون : إن الروح وإنما نفخت فيه بعد أربعة أشهر .

ومن قال إنها نفخت فيه من حين أخذ الجسد من مريم - وهذا يشبه قول جمهور النصارى الذين يقولون : إن المسيح مات وصلب وفارقته الروح الباطلة المنفوخة فيه ، والإله المتحد به لم يفارقه أبداً - فانهم يقولون : إنه من حين اتحد بناسوت المسيح لم يفارقه ، بل هو الآن متحد به ، وهو فى السماء قاعد عن يمين أبيه ، وذلك القاعد هو الخالق القديم ، والأب هو الإله الخالق القديم الأزلى ، وهما مع ذلك إله واحد .

والمقصود هنا أنهم يقولون باتحاد اللاهوت بجسد لا روح فيه قبل النفخ وبعد الموت إلى أن قام من قبره ، فعادت الروح إليه ، وحينئذ لم يظهر من تلك المضغة من العجائب .

وهم يستدلون على إلهية المسيح بالعجائب ، مع أنه كان الإله متحداً به قبل أن يظهر العجائب ، وحينئذ فلا يلزم من عدم ظهور العجائب من شىء ، الجزم بأن الرب لم يتحد مع إمكان الاتحاد .

ويلزم أن كل جامد وحى ظهرت منه العجائب ، أن يكون ذلك دليل على أن الرب اتحد به .

وحينئذ فعباد العجل أعذر من النصارى .

وإن كان من عباد الأصنام من يقول : إن الصنم خالق السموات والأرض ،

فهو أعذر من النصارى ، لأن ظهور العجائب من الحيوان الأعجم والجماد ، أعظم من ظهورها من الإنسان الناطق ، لاسيما الأنبياء والرسل .

فإن الأنبياء والرسل ، معروفون بظهور العجائب على أيديهم .

فاذا ظهرت على يد من يقول : إنى نبى مرسل ، كانت دليلا على نبوته ، لا على إلهيته .

والمسيح كان يقول : إنى نبى مرسل ، كما ذكر ذلك فى الإنجيل فى غير موضع . فأما الحيوان الأعجم والجماد ، فلا يجوز أن يكون نبياً .

فإن جاز الاتحاد بالمضغة والجسم المقبور الذى لا روح فيه ، فاتحاده بالعجل وبالصنم أولى ، وحينئذ لخوار العجل عجيب منه .

فاستدلال عباد العجل بذلك على أنه إله ، خير من استدلال النصارى على إلهية المضغة إن قدر ظهور شىء من العجائب التى قد يستدلون بها .

وإن كانت تلك لاتدل إلا على نبوته صلى الله عليه وسلم وسلم تسليما .

الوجه التاسع : ـ قوله : « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقول : « فكانت مسكنا فى حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم » .

يقال له ـ أولا ـ : من أين لك أن روح الإنسان ألطف من جميع المخلوقات ؟ وأنها ألطف من الملائكة والروح الذى قال الله فيه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ [النبأ : ٣٨] وأنها ألطف من الروح التى نفخ فى آدم منه بقوله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ؟

وبتقدير أن تكون ألطف ، فأنت لاتقول : إن الاحتجاب والاتحاد كان بروح الإنسان مجردة ، بل بالجسد الناسوتى الدموى الغليظ ، وتقول : « إن الخالق التحم من مريم العذراء » فتجعل الخالق قد التحم من لحم مريم ومن رحمها الذى هو لحم ودم ، وهذه أجساد كثيفة ، بل جمهورهم يقول: اتحد

بجسد لاروح فيه قبل النفخ وبعد الموت وقبل أن يقوم من قبره .

وحينئذ فقولك: «فكانت مسكناً لله فى حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم» وصف ممنوع ، والتعليل به باطل ، فإنه لو كان مسكنا للطفه ، لم يجز أن يسكن إلا فى الروح اللطيفة ، فلما أثبت اتحاداً بالجسد الكثيف ، بطل قولك : « إنه اتحد بالإنسان للطفه » .

الوجه العاشر ـ قولكم : « واعلم أنه لايرى شىء من لطيف الخلق إلا فى غليظ الخلق ، ولا يرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه » .

يقال لهم: إما أن يكون الله لما اتحد بالمسيح عندكم قد رآه الناس وعاينوه أو لم يره أحد .

فإن قلتم: قد رآه الناس وعاينوه . فهذا مخالف للحس والشرع والعقل.

أما الحس ، فإن أحداً ممن رأى المسيح لم ير شيئاً يتميز به المسيح عن غيره من البشر، غير العجائب التى ظهرت على غيره ، منها ماهو أعظم مما ظهر عليه ولم ير إلا بدن المسيح الظاهر، لم ير باطنه ، لاقلبه ولا كبده ولا طحاله ، فضلا عن أن يرى روحه ، فضلا عن أن يرى الملائكة الذين يوحون إليه ، فضلا عن أن يرى الله ، إن قدر أنه كان متحداً به ، أو حالاً فيه .

فدعوى المدعى أن من رأى المسيح ، فقد رأى الله عياناً ببصره فى غاية المباهتة والمكابرة والكذب ، لو قدر أن الله حالٌ فيه ، أو متحد به .

فإنه من المعلوم أن الملائكة تنزل على المسيح وغيره ، وتتصل بأرواحهم، والناس لايرون الملائكة ، بل الجن تدخل فى بنى آدم والناس لايرونهم ، وإنما يرون جسد المصروع .

وكل إنسان معه قرينه من الملائكة ، وقرينه من الجن ، وهو ـ نفسه ـ لايرى ذلك ، ولا يراه من حوله .

وتحضره الملائكة وقت الموت ، ولا يراهم من حوله ، مع أنه هو يراهم ،

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧].

فإذا كانت هذه المخلوقات ، التى اتفق أهل الملل على اقترانها بالإنسان واتصالها بهم ، وأن رؤيتها ممكنة ، لايراها الناس ، فكيف يقال: إن المسيح الذى لم ير الناس منه إلا مارأوه من أمثاله من الرسل ، كإبراهيم ، وموسى ، ولم يكن له قط شيء يتميز به عن جنس الرسل ، كيف يقال: إن الذين رأوه رأوا الله عياناً بأبصارهم ؟

وأما الشرع ، فموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء ، أخبروا أن أحداً لايرى الله فى الدنيا .

وأما العقل ، فإن رؤية بعض ملائكة الله ، أو بعض الجن يظهر لرائيها من الدلائل والأحوال مايطول وصفه ، فكيف بمن رأى الله ؟!

والذين رأوا المسيح ، لم يكن حالهم إلا كحال سائر من رأى الرسل منهم ، الكافر به المكذب له .

ومنهم المؤمن به ، المصدق له ، بل هم يذكرون من إهانة ناسوته مالا يعرف عن نظرائه من الرسل ، مثل ضربه ، والبصاق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه وغير ذلك .

وأيضاً ، فمعلوم أن من رأى الله ، إما أن يعرف أنه الله ، أو لا يعرف .

فإن عرف أنه رأى الله ، كان الذين رأوا المسيح قد علموا أنه الله ، ولو علموا ذلك ، لحصل لهم من الاضطراب مايقصر عنه الخطاب .

وإن كانوا لم يعرفوه ، فهذا فى غاية الامتناع ، حيث صار رب العالمين لايميز بينه وبين غيره من مخلوقاته ، بل يكون كواحد منهم ولايميز بينه وبينهم ، ولا يعرف الرائى أن هذا هو الله .

ولوازم هذا القول الفاسدة كثيرة جداً .

وإن قالوا : إن الله لم ير، لما اتحد بالمسيح ، وإنما رُئِيَ جسد المسيح الذى احتجب به الله. فقولهم بعد ذلك : « واعلم أنه لا يرى شىء من لطيف الخلق إلا فى غليظ الخلق ، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه » كلام لا فائدة فيه إذ كان هذا مثلا ضربوه لله ، ليبينوا أنه يرى .

فإذا سلموا أنه لم ير ، لم يكن فى هذا المثل فائدة ، بل كان هذا استدلالا على شىء يعلمون أنه باطل .

وأيضاً فما ذكروه ، من أن اللطيف لا يرى إلا فى الغليظ ، باطل ، فإن اللطيف كروح الإنسان ، لا ترى فى الدنيا وإن علم وجودها ، وأحس الإنسان بروحه وصفاتها ، فرؤيتها بالبصر غير هذا . يبين ذلك .

الوجه الحادى عشر : ــ قوله : « وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ــ يعنون النفس الناطقة ــ ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت له حجاباً ، وكانت النفس الدموية لها حجاباً ، والجسد الغليظ حجاباً .

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة لجسدها ، ودمها ، وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله ، بقوامها ، قواما لتثليث الناسوت التى كل جوهرها بتقويم قوانم كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً إلا بقول من كلمة الله خالقها وقومها ، لا من شىء سبق قبل ذلك فى بطن مريم ، ولا من سبب كان لها من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذى هو أحد التثليث الإلهى .

فيقال لهم : هذا الكلام يقتضى أن الخالق احتجب بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة احتجبت بالبدن .

وأنتم تصرحون بأن نفس الكلمة التى هى الخالق ، وهى الله عندكم ، والتى خلقت لنفسها إنساناً احتجبت به . وقلتم : هو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية ،

وروحه الكلمانية ، أى نفسه الناطقة التى هى صورة الله فى الإنسان وشبهه فكانت مسكناً لله فى حلوله واحتجابه .

فصرحتم بأن البدن مع الروح ، مسكن لله فى حلوله واحتجابه ، وأنه هو الذى خلق البدن والروح ، وقلتم : إن هذه الكلمة الخالقة المحتجبة التى قلتم : إنها الله ، التحمت من مريم العذراء .

فإذا كان الله الخالق قد التحم من مريم العذراء ، فمعلوم أن ذلك قبل نفخ النفس الناطقة التى سميتموها ، الروح الكلمانية فى المسيح .

وإذا كان الخالق تعالى ، قد التحم بجسد لاروح فيه ، والتحامه به أبلغ من حلوله فيه ، ثم اتخذ الجسد حجاباً قبل نفخ الروح الكلمانية فيه ، فكيف يقال : إنما حل فى الروح لا فى البدن ، وهو قد التحم بالبدن واتخذ منه جزءاً مسكنا له وحجابا قبل أن ينفخ فيه الروح الكلمانية ؟

وقلتم أيضاً : فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة ، بجسدها ودمها ، وروحها العاقلة الكلمانية .

هذا تصريح بأن الخالق خالط الإنسان بجسده ودمه وروحه .

وتقولون : إنما احتجبت بالروح اللطيفة ، مع تصريحكم بأن الخالق اختلط بالجسد والدم .

وهذا أيضاً يناقض قول من قال : انه اتحد به اتحاداً بريأ من الاختلاط .

فقد صرحتم هنا أنه اختلط به ، وسيأتى بعض نظائر هذا فى كلامهم ، يصرحون فيه باختلاط اللاهوت بالناسوت .

الوجه الثانى عشر : ــ قولكم : « غير قوام الكلمة الخالقة الذى هو أحد التثليث الإلهى ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس ، لما ضم إليه وخلقه له التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة ، واحد فى التثليث بجوهر لاهوته ، واحد من الناس بجوهر ناسوته ،

وليس باثنين ، ولكن واحد مع الأب والروح ، وهو إياه واحد مع الناس جميعاً بجوهرين مختلفين ، من جوهر اللاهوت الخالق ، وهو الناسوت المخلوق، بتوحيد القوام الواحد قوام الكلمة ، التى هى الابن المولود من الله من قبل كل الدهور ، وهو إياه المولود من مريم العذراء فى آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ، ولا من روح القدس »

فيقال : فى هذا الكلام ، بل فيما تقدم ذكره ، مايطول تعداده ووصفه من التناقض والفساد ، والكلام الباطل ، والكلام الذى تكلم به قائله ، وهو لا يتصور ما يقول مع سوء التعبير عنه ، كقوله « وهو إياه » فيضع الضمير المنفصل موضع المتصل ، ويعطف أحدهما على الآخر بلا واو عطف إلى أمثال ذلك مما يطول ذكر معايبه ، وذلك أن قولهم فى نفسه باطل لاحقيقة له ، وهم لم يتصوروا معنى معقولاً ، ثم عبروا عنه ، حتى يقال: قصروا فى التعبير، بل هم فى ضلال وجهل ، لا يتصورون معقولا ، ولا يعرفون ما يقولون ، بل ولا لهم اعتقاد يثبتون عليه فى المسيح ، بل مهما قالوه من بدعهم كان باطلا ، وكانوا هم معترفين بأنهم لا يفقهون مايقولون .

لهذا يقولون : « هذا فوق العقل » ويقولون: « قد اتحد به بشر لا يدرك » فما لا يدرك وما هو فوق العقل ، ليس لأحد أن يعتقده ولا يقوله برأيه .

لكن إذا أخبرت الرسل الصادقون بما يعجز عقل الإنسان عنه صدقهم ، وإن نقل عنهم ناقل ما يعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أنه يكذب عليهم، إما فى اللفظ والمعنى ، وإما فى أحدهما .

وأما إذا كان هو يقول القول الذى يذكر أنه علم صحته ، أو أنه فسر به كلام الأنبياء . وهو لا يتصور ما يقوله ولا يفقهه . فهذا قائل على الله وعلى رسله ما لا يعلم، وهذا قد ارتكب أعظم المحرمات ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى عن الشيطان: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٣] وقد اتفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام، والله سبحانه نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق، فكان هذا نهياً أن يقولوا الباطل، سواء علموا أنه باطل أو لم يعلموا.

فإنهم إن لم يعلموا أنه باطل: فلم يعلموا أنه حق أيضاً، إذ الباطل يمتنع يعلم أنه حق، وإن اعتقد معتقد اعتقاداً فاسداً أنه حق، فذلك ليس بعلم، فلا تقولوا على الله ما لا تعلمون.

وإن علموا أنه باطل، فهو أجدر أن لا يقولوه.

وعامة النصارى ضُلاَّلٌ لا يعلمون أن ما يقولونه حق، بل يقولون على الله ما لا يعلمون.

والمقصود أن الباطل في كلامهم كثير، كقولهم « فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد، قوام لكلمة الله الخالقة ».

والمسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعاً، اسم للخالق والمخلوق، وأحدهما متحد بالآخر، فهو بتوحيد ذلك القوام قوام لكلمة الله الخالقة.

وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام اللاهوت، أو أن الناسوت قوام للاهوت، وهم يمثلون ذلك بالروح والجسد والنار والحديد فيكون كما لو قيل: إن الجسد والروح، أو الجسد قوام للروح، أو النار والحديد، أو الحديد قوام للنار.

فيقال: الخالق الأزلى الذى لم يزل ولا يزال، هل يكون المحدث المخلوق قواماً له؟ فيكون المخلوق المصنوع المحدث المفتقر الى الله من كل وجه قواماً للخالق الغنى من كل وجه؟ وهل هذا إلا من أظهر الدور الممتنع؟

فإنه من المعلوم بصريح العقل واتفاق العقلاء، أن المخلوق لا قوام له إلا بالخالق، فإن كان الخالق قوامه بالمخلوق، لزم أن يكون كل من الخالق والمخلوق قوامه الآخر، فيكون كل منهما محتاجاً إلى الآخر، إذ ما كان قوام الشىء به، فإنه محتاج إليه.

وهذا ـ مع كونه يقتضى أن الخالق يحتاج إلى مخلوقه ـ وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل، وهذا لازم للنصارى، سواء قالوا بالاتحاد أو بالحلول بلا اتحاد، وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوع من الاتحاد، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لابد له من الآخر، فهو محتاج إليه كما يمثلون به فى الروح مع البدن والنار مع الحديد.

فإن الروح التى فى البدن محتاجة إلى البدن، كما أن النار فى الحديدة محتاجة إلى الحديدة.

وكذلك الحلول، فإن كل حالّ محتاج إلى محلول فيه، وهو من الكفر الواضح فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل.

فإن ذلك المخلوق إن قدر أنه موجود بنفسه قديم أزلى، فليس هو مخلوقاً، ومع هذا فيمتنع أن يكون كل من القديمين الأزليين محتاجاً إلى الآخر، سواء قدر أنه فاعل له، أو تمام الفاعل له، أو كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه، لأنه إذا كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه، لم يكن موجوداً إلا به.

فإن الموجود لايكون موجودا إلا بوجود لوازمه وما لا يتم وجوده إلا به . فكل ماقدر أنه محتاج إليه لم يكن موجودا إلا به .

فإذا كان كل من القديمين محتاجاً إلى الآخر ، لزم أن لايكون هـذا موجوداً إلا بخلق ذلك مابه تتم حاجة الآخر ، وأن لايكون هذا موجوداً إلا بخلق ذلك مابه تتم حاجة الآخر .

والخالق لايكون خالقاً ، حتى يكون موجودا ، ولا يكون موجوداً إلا بلوازم وجوده ، فيلزم أن لايكون هذا موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، ولا يكون ذلك موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، إذ كان جعله لما لم يتم به وجوده ، يتوقف وجوده عليه ، فلا يكون موجودا إلا به ، فلا فرق بين أن يحتاج أحدهما إلى الآخر فى وجوده أو فيما لا يتم وجوده إلا به ، وهذا هو الدور القَبْلِيّ الممتنع باتفاق العقلاء .

وأما الدور المعيُّ ، وهو أنه لا يوجد هذا إلا مع هذا ، ولا هذا إلا مع هذا كالأبوة مع البنوة ، وكصفات الرب بعضها مع بعض ، وصفاته مع ذاته ، فإنه لايكون عالماً إلا مع كونه قادراً ، ولا يكون عالماً قادراً إلا مع كونه حياً ، ولايكون حياً إلا مع كونه عالماً قادراً ، ولا تكون صفاته موجودة إلا بذاته ، ولا ذاته موجودة إلا بصفاته ، فهذا جائز فى المخلوقين اللذين يفتقران إلى الخالق الذى يحدثهما جميعاً كالأبوة والبنوة ، وجائز فى الرب الملازم لصفاته تعالى .

وأما إذا قدر قديمان أزليان ربان فاعلان ، امتنع أن يكون أحدهما محتاجاً إلى الآخر ، إذ كان وجوده لا يتم إلا بما يحتاج وجوده إليه ، ولايكون فاعلا لشىء إن لم يتم وجوده ، فيمتنع مع نقص كل منهما عن تمام وجوده ، أن يكون فاعلا لغيره تمام وجود ذلك الغير ولهذا لم يقل بهذا أحد من الأمم .

ولـكن الذى قاله النصارى أنهم جعلوا قوام الخالق تعالى بالمخلوق .

فيقال لهم : هذا أيضاً ممتنع فى صريح العقل ، أعظم من امتناع قيام كل

من الخالقين بالآخر، وإن كان هذا أيضاً ممتنعاً ، فإن المخلوق مفتقر فى جميع أموره إلى الخالق، فيمتنع - مع فقره فى وجوده وتمام وجوده إلى الخالق - أن يكون قوام الخالق به ، لأن ذلك يقتضى أن يكون مقيما له ، وأن يكون تمام وجوده به ، فيكون المخلوق لا وجود لشىء منه إلا بالخالق .

فالقدر الذى يقال: إنه يقيم به الخالق هو من الخالق والخالق خالقه ، وخالق كل مخلوق ، فلا وجود له ولا قيام إلا بالخالق، فكيف يكون به قيام الخالق ؟

وليس هذا كالجوهر وأعراضه اللازمة ، أو كالمادة والصورة عند من يزعم أن الصورة جوهر إذا كانا متلازمين ، فإن هذا من باب الدور المعىّ، كالبنوة مع الأبوة ، وهذا جائز كما تقدم ، إذ كان الخالق لهما جميعاً هو الله .

وأما مع كون كل منهما هو الخالق ، فهو ممتنع ، ومع كون أحدهما خالقا ، والآخر مخلوقا ، فهو أشد امتناعا .

والرب تعالى غنى عن كل ما سواه من كل وجه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه ، وهذا معنى اسمه « الصمد » فإن الصمد الذى يصمد إليه كل شىء لافتقاره إليه ، وهو غنى عن كل شىء لا يصمد إلى شىء ، ولا يسأله شيئا سبحانه وتعالى ، فكيف يكون قوامه بشىء من المخلوقات ؟!

وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه - من بعض الوجوه - قول أهل الوحدة والاتحاد العام ، الذين يقولون كما يقوله ابن عربى صاحب «الفصوص» و « الفتوحات المكية » : إن أعيان المخلوقات ثابتة فى العدم ، ووجود الحق فاض عليها ، فهى مفتقرة إليه من حيث الوجود المشترك العام ، وهو وجوده ، وهو مفتقر إليها من حيث الأعيان الثابتة فى العدم ، وهو ما يختص به كل عين عين ، فيجعل كل واحد من الخالق والمخلوق مفتقراً إلى الآخر .

ويقولون : الوجود واحد ، ثم يثبتون تعدد الأعيان ، ويقولون : هى مظاهر ومجالى .

فإن كان المظهر والمجلى غير الظاهر، فقد ثبت التعدد، وإن كان هو إياه فلا تعدد، فلهذا يضطرون إلى التناقض كما يضطر إليه النصارى، حيث يثبتون الوحدة مع الكثرة، وينشدون (فيعبدنى وأعبده ويحمدنى وأحمده) وهؤلاء بنوا قولهم على أصلين فاسدين.

أحدهما : ـ أن أعيان الممكنات ثابتة فى العدم، كقول من يقول من أهل الكلام : إن المعدوم شىء ثابت فى العدم، وهذا القول فاسد عند جماهير العقلاء.

وإنما حقيقة الأمر أن المعدوم يراد إيجاده ويتصور ويخبر به ويكتب قبل وجوده، فله وجود فى العلم والقول والخط. وأما فى الخارج، فلا وجود له.

والوجود هو الثبوت، فلا ثبوت له فى الوجود العينىّ الخارجىّ، إنما ثبوته فى العلم، أى يعلمه العالم قبل وجوده.

والأصل الثانى : أنهم جعلوا نفس وجود رب العالمين الخالق القديم الأزلى الواجب بنفسه، هو نفس وجود المربوب المصنوع الممكن. كما قال ابن عربى.

ومن عرف ما قررناه فى الأعداد وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه. فالأمر الخالق هو المخلوق، والأمر المخلوق هو الخالق كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة وهو « يَا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ » إلى أن قال : فما ذبح سوى نفسه. وما نكح سوى نفسه.

وقال : ومن أسمائه الحسنى العلىّ، على من يكون عليًّا وما هو إلا هو ؟ أو عن ماذا يكون علياً وما ثَمّ إلا هو ؟ فَعُلُوُّه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها، وليست هو.

وقد نقل عن أبى سعيد الخراز أنه قيل له : بماذا عرفت ربك ؟

قال : بجمعه بين الأضداد وقرأ قوله ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ

وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أراد بذلك أنه مجتمع فى حقه سبحانه ما يتضاد فى حق غيره ، فإن المخلوق لايكون أولا آخراً ، باطناً ظاهراً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : «أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » فجاء هذا الملحد وفسر قول أبى سعيد بأن المخلوق هوالخالق ، فقال : قال أبو سعيد، وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله لايعرف إلا بجمعه بين الأضداد فى الحكم عليه بها ، فهوالأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ماظهر وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثمّ من يراه غيره ، وما ثمّ من بطن عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه، باطن عن نفسه ، وهوالمسمى أبو سعيدالخراز، وغيره ذلك من أسماء المحدثات . ولهذا قال بعض النصارى لمن يقول مثل هذا ويحكيه عن شيوخه ويقول إنه مسلم : « أنتم كفرتمونا لأجل أن قلنا : إن الله هو المسيح ، وشيوخكم يقولون : إن الله هو أبو سعيد الخراز ، والمسيح خير من أبى سعيد » .

وهؤلاء يجيبون النصارى بجواب يتبين أنهم أعظم إلحاداً من النصارى .

فيقولون للنصارى : «أنتم خصصتموه بالمسيح ، ونحن نقول : هو وجود كل شيء ، لانخص المسيح » .

ولهذا قال بعضهم لأحذق هؤلاء « التلمسانى » الملقب بالعفيف : أنت نصيرى ؟

فقال نصير جزء منى ، فإن النصيرية أتباع أبى شعيب « محمد بن نصير » يقولون فى علىّ بن أبى طالب نظير مايقوله النصارى فى المسيح ، كذلك سائر الغلاة فى علىّ ، أو فى أحد من أهل بيته ، أو فى الإسماعيلية بنى عبيد المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، كالحاكم وغيره ، أو فى الحلاج ، أو فى بعض

من الشيوخ الذين يقولون فى واحد من هؤلاء باتحاد اللاهوت أو حلوله فيه ، نظير ما تقوله النصارى فى المسيح .

وهؤلاء يقولون بأن الحلول أو الاتحاد محدث ، وأن القديم حل أو اتحد بالمحدث بعد أن لم يكونا متحدين .

وأما أولئك فيقولون بالوحدة المطلقة ، فمحققوهم يقولون : إنه وجود كل شىء ، لايقولون باتحاد وجودين ، ولا بحلول أحدهما بالآخر .

بل قد يقولون : إن الوجود هو ثبوت وجود الحق ، وثبوت الأشياء ، اتحدا ، وكل منهما مفتقر إلى الآخر .

فالحق إذا ظهر كان عبداً ، والعبد إذا بطن كان رباً .

ويقولون : إذا حصل لك التجلِّى الذاتى ، وهو هذا ، لم تضرك عبادة الأوثان ولا غيرها ، بل يصرحون بأن عين الأوثان والأنداد ، وأن أحداً لم يعبد غيره ، كما يقول ابن عربى مصوباً لقوم نوح الكفار « وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية « أدعوا إلى الله » فهذا عين المكر ، فأجابوه « مكرا » كما دعاهم « مكرا » فقالوا فى مكرهم : « لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا * وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء.

فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله ، كما قال فى المحمديين ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ فما حكم الله بشىء إلا وقع. فالعارف يعرف من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصور الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود .

وصوَّبَ هذا الملحد فرعون فى قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ قال : ولما كان

فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه الخليفة بالسيف وإن جار في العرف الناموسي لذلك قال: «أنا ربكم الأعلى »أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة مَّا ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم .

قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا له بذلك وقالوا له : « إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » فالدولة لك .

قال : فصح قول فرعون «أنا ربكم الأعلى » وإن كان فرعون عين الحق.

وَصَوَّب أيضاً أهل العجل في عبادتهم العجل ، وزعم أن موسى رضي بذلك فقال : ولما كان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لعلمه بأن الله قضى أن لا نعبد إلا إياه ، وما حكم الله بشيء إلا وقع ، كان عيبه على هارون لإنكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء .

ومن هؤلاء طائفة لا يقولون بثبوت الأعيان في العدم، بل يقولون: ما ثمَّ وجود إلا وجود الحق .

لكن يفرقون بين المطلق والمعين فيقولون : هو الوجود المطلق الساري في الموجودات المعينة ، كالحيوانية الثابتة في كل حيوان ، والإنسانية الثابتة في كل إنسان ، وهذا الذي يسمى الكلي الطبيعي .

ويسمون هذا الوجود ، الإحاطة فيقولون : الوجود المطلق إما بشرط الإطلاق عن كل قيد ، وهذا يسمى الكلي العقلي .

وهذا عند عامة العقلاء : لا يوجد إلا في الذهن لا في الخارج ، ولكن يحكى عن شيعة « أفلاطن » أنهم أثبتوا هذه الكليات المجردة عن الأعيان في الخارج ، وقالوا : إنها قديمة أزلية إنسانية مطلقة ، وحيوانية مطلقة ، ويسمونها المثل الأفلاطونية ، والمثل المعلقة .

وقد رد ذلك عليهم إخوانهم «أرسطو» وشيعته ، وجماهير العقلاء ، وبينوا

أن هذه إنما هى متصورة فى الأذهان لا موجودة فى الأعيان ، كما يتصور الذهن عدداً مطلقاً ومقادير مطلقة ، كالنقطة ، والخط ، والسطح ، والجسم التعليمى ونحو ذلك مما يتصوره الذهن ، وليس فى ذلك شىء من الموجودات الثابتة فى الخارج .

وهذا المطلق بشرط الإطلاق ، يظن هؤلاء ثبوته، وقد يسمونه الإحاطة ، وهو الوجود المجرد عن جميع القيود ، ثم بعده الوجود المطلق لا بشرط، وهو العام المنقسم إلى واجب وممكن، إلى قديم وحادث ، ونحو ذلك ، كانقسام الحيوان إلى ناطق وأعجم .

وهذ المطلق لا بشرط يوجد فى الخارج ، فإن الاسم العام شامل لأنواعه وأشخاصه لكن لا يوجد فى الخارج إلا مقيداً معيناً .

ومن قال : إنه يوجد فى الخارج كلياً ، فقد غلط . فإن الكلى لا يكون كلياً قط إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، وليس فى الخارج إلا شىء معين، إذا تصور منع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ، ولكن العقل يأخذ القدر المشترك الكلى بين المعينات ، فيكون كلياً مشتركاً فى الأذهان .

وهؤلاء يجعلون الوجود الواجب هذا ، وقد يجعلونه بعد هذا ، فيقولون : هذا فوق الواجب .

وهذا الوجود الكلى إذا قيل : إنه لا يوجد فى الخارج إلا معيناً ، فلا موجود فى الخارج سوى الموجودات المعينة المشخصة، بما فيها من الصفات القائمة بها .

وإن قدر وجوده فى الخارج ، فهو إما جزء من المعينات ، وإما صفة لها.
فعلى الأول ، لا يكون فى الخارج موجود هو رب الموجودات المعينة .

وعلى الثانى : يكون رب الموجودات جزأها أو صفة لها .

ومعلوم بصريح العقل أن صفة الشىء القائمة ، لا تخلق الموصوف ، وأن

جزء الشيء لا يخلق الشيء ، بل جزء الشيء ، جزء من الشيء .

فإذا كان هو الخالق للجملة ، كان خالقاً لنفسه ، وكان بعض شيء خالقاً لكله .

ومن هؤلاء من يقول : إن الرب في العالم كالزبد في اللبن ، والدهن في السمسم ونحو ذلك ، فيجعلونه جزءاً من العالم المخلوق . ونفس تصور هذا يكفي في العلم بفساده .

لكن هؤلاء يقولون : إن لم تترك العقل والنقل لم يحصل لك التحقيق الذي حصل لنا ، ويقولون : ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل .

فقلت لبعضهم : إن الأنبياء صلوات الله عليهم أكمل الناس كشفاً ، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته ، لا بما تعرف عقولهم أنه باطل ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول .

فمن دونهم إذا أخبر عن شهود وكشف ، يعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أن كشفه باطل .

وأما إن كان لم يعلم بطلانه ، فهذا قد يمكن إصابته ، وقد يمكن خطؤه ، إذ غير الأنبياء ليس بمعصوم .

وهؤلاء سمعوا باسم الله وقصدوا عبادته ومعرفته ، فوقفوا على أثره في مصنوعاته فظنوا أنه هو . كمن سمع بالشمس ، فلما أن رأى الشعاع المنبسط في الهواء والأرض ، ظن أن ذلك هو الشمس ولم يصعد ببصره وبصيرته إلى الشمس التي في السماء .

وكذلك هؤلاء لم تصعد بصائر قلوبهم إلى رب العالمين ، الذي فوق كل شيء ، المباين لمخلوقاته .

وسر ذلك ، أنهم يشهدون بقلوبهم وجوداً مطلقاً بسيطاً ، ليس له اسم

خاص ، كالحى، والعليم ، والقدير . ولا له صفة ، ولا يتميز فيه شىء عن شىء، وهذا هو الوجود المشترك .

لكن هذا الشهود هو نفوسهم ، لا حقيقة له فى الخارج ، وكثير ممن يخاطبهم لا يتصور ما يشهدونه ، فيظنون أنه لم يفهم ما شهدوه .

وقد خاطبت غير واحد منهم ، وبينت له أن هذا الذى يشهدونه هو فى الذهن ، وبتقدير أن يكون موجوداً فى الخارج ، فهو صفة للموجودات، أو جزء منها ، ويظنون مع ظنهم أنه موجود فى الخارج، أنه لم يبق فى الخارج غير ماشهدوه ، فإنهم يغيبون عن الحس الذى يدرك المعينات ، ويغيبون عقلهم عن تصورها ، حتى لا يميزوا بين موجود وموجود، ويقولون : الحس فيه تفرقة ثم يشهدون هذا الوجود المطلق مع عزلهم الحس ، فيظنون أن هذا المطلق هو نفس المعينات ، وأنه ما بقى موجوداً أصلا .

فيقال لهم : لو قُدِّر أن الوجود الكلى ثابت فى الخارج كلياً ، وأنكم شهدتم ذلك ، فمعلوم عند كل عاقل أن وجود الكلى المشترك ، لا يناقض وجود المعين المختص .

فالحيوانية، والإنسانية المشتركة المطلقة ، لا تناقض أعيان الحيوان وأعيان الإنسان ، وحينئذ فثبوت أعيان الموجوادات حاصل فى الخارج .

وهب أنكم غبتم عن هذا ولم تشهدوه ، فالغيبة عن شهود الشىء لا يوجب عدمه فى نفسه .

فإذا لم يشهد العبد الشىء ، أو لم يره ، أو لم يعلمه ، أو لم يخطر بقلبه ، أو فَنِىَ عن شهوده ، أو اصطلم ، أو غاب، لم يلزم من ذلك أن يكون الشىء صار فى نفسه معدوماً فانياً لا حقيقة له ، بل الفرق ثابت بين أن يعدم الشىء فى نفسه ويفنى ويتلاشى ، وبين أن يعدم شهود الإنسان له وذكره ومعرفته .

وهؤلاء ـ من ضلالهم ـ يظنون أنه إذا فنى شهودهم للموجودات، كانت

ذهنية فى أنفسها ، فلم يكن موجوداً إلا مايخيلونه من الوجود المطلق .

ويقولون : الكثرة والتفرقة فى الحس، فإذا فنى شهود القلب عن الحس، لم يبق تفرقة ولا كثرة ، ويظنون أن شهود الحس حينئذ خطأ ، والعقل هو الذى يشهد الكليات والمطلقات دون الحس ، فإذا أبطلوا ماشهده الحس ، لم يبق معهم إلا الوجود الكلى .

ثم يظنون — مع ذلك — أنه هو الله ، فيبقى الرب — عندهم — وهماً وخيالا فى نفوسهم ، لاحقيقة له فى الخارج ، كما قال بعض حذاقهم ، وهو «الششترى» صاحب ابن السبعين ، وهمك هو يتشخص ماتحته شىء . وقال :

يرى الوجود واحد وأنت ذاك وليس عليك زائد ماثم سواك

وقلت لبعض حذاقهم: هب أن هذا الوجود المطلق ثابت فى الخارج وأنه عين الموجودات المشهودة ، فمن أين لك أن هذا هو رب العالمين الذى خلق السموات والأرض وكل شىء ؟

فاعترف بذلك وقال : هذا مافيه حيلة .

والحس الباطن أو الظاهر إن لم يقترن به العقل الذى يميز بين المحسوس وغيره وإلادخل فيه من الغلط من جنس مايدخل على النائم والممرور والمبرسم وغيرهم ، ممن يحكم بمجرد الحس الذى لاعقل معه .

والبهائم قد تكون أهدى من هؤلاء ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف : ١٧٩] وهؤلاء يصرحون برفض السمع والعقل ، فدخلوا فى قوله (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) ويلزمون أنفسهم الغيبة عن العقل والحس الظاهر والشرع . فلهذا يقول أحذقهم التلمسانى :

فَقُلْ لِحِسِّكَ غِبْ وَجْداً وَذُبْ طَرَباً   فيها وَقُلْ لِزَوَالِ العَقْلِ: لَا تَزُلِ

وَاصْمتْ إلَى أنْ تَرَاهَا فِيكَ نَاطِقَةً   فإنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وهؤلاء ، لبسط الكلام عليهم موضع آخر .

والمقصود – هنا – أن النصارى زعموا أن اللاهوت محتاج إلى ما اتحد به من الناسوت ، وهؤلاء زعموا أن رب العالمين محتاج إلى كل ماسواه من الأعيان الثابتة فى العدم.

فإن كل من قال: إن رب العالمين اتحد بغيره ، فكل من المتحدين مفتقر عليه الآخر، مع استحالة كل منهما ، وتغير حقيقته ، ولا كذلك الحلول المعقول، فإن الحلول لا يعقل إلا إذا كان الحال قائماً بالمحل محتاج إليه ، سواء أريد بذلك حلول الصفات والأعراض فى الموصوفات والجواهر، أو أريد به حلول الأعيان.

فإن كون أحد الجسمين محلا للآخر، كحلول الماء فى الظرف ، هو يوجب افتقاره إليه .

وما يحل فى قلوب المؤمنين من معرفة الرب والإيمان به ، هو قائم بقلوبهم محتاج إليه .

وكذلك ما يثبته الفلاسفة من الهيولى والصورة ، ويقولون : إن الهيولى محل للصورة ، ويعترفون – مع ذلك – بأن الصورة محتاجة إلى الهيولى .

والقائلون بوحدة الوجود ، فقد يجعلون الخالق مع المخلوقات كالصورة مع الهيولى كما يشير إليه « ابن سبعين » ويقول هو فى الماء ماء ، وفى النار نار، وفى كل شىء بصورة ذلك الشىء ، كما قد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع غير هذا الكتاب .

وإذا قالوا : إن الرب حل فى المسيح ، كما حل فى غيره ، وهو الحلول الموجود فى كلام داود عندهم ، حيث قالوا : أنت تحل فى قلوب القديسين ، فقد عرف أن هذا حلول الإيمان به ومعرفته وهداه ونوره والمثال العلمى ، كما قد بسط فى

موضع آخر ، ولهذا يسمى ظهوراً والشعاع الحالّ على الأرض والهواء ، عرض قائم بذلك ، وهو مفتقر إلى الأرض والهواء .

والرسل صلوات الله عليهم ، أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة ، تارة يقولون : هو العلى وهو الأعلى ، وتارة يقولون : هو فى السماء كقوله : (أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ) (أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) وليس مرادهم بذلك أن الله فى جوف السموات، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات ، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضا ، كما قال تعالى : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢]

وقد قال تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه .

ولهذا قال غير واحد من السلف : إنه ينزل إلى سماء الدنيا، ولا يخلو العرش منه ، فلا يصير تحت المخلوقات وفى جوفها قط ، بل العلو عليها صفة لازمة له حيث وجد مخلوق، فلا يكون الرب إلا عالياً عليه .

وقول الرسل « فى السماء » أى فى العلو، ليس مرادهم أنه فى جوف الأفلاك بل السماء العلو ، وهو إذا كان فوق العرش ، فهو العلى الأعلى وليس هناك مخلوق ، حتى يكون الرب محصوراً فى شيء من المخلوقات ، ولا هو فى جهة موجودة ، بل ليس موجودا إلا الخالق والمخلوق ، والخالق بائن عن مخلوقاته، عالٍ عليها ، فليس هو فى مخلوق أصلا ، سواء سُمِّيَ ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة .

ومن قال : إنه فى جهة موجودة تعلو عليه ، أو تحيط به ، أو يحتاج إليها بوجه من الوجوه ، فهو مخطىء .

كما أن من قال : ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش إله، ومحمد لم يعرج به إلى ربه ، ولا تصعدالملائكة إليه ، ولا تنزل الكتب منه، ولا يقرب منه شيء ، ولا يدنو إلى شيء ، فهو أيضاً مخطىء .

ومن سمى مافوق العالم جهة ، وجعل العدم المحض جهة ، وقال هوفى جهة - بهذا المعنى - أي هو نفسه فوق كل شيء ، فهذا معنى صحيح .

ومن نفى هذا المعنى بقوله : ليس في جهة فقد أخطأ .

بل طريق الاعتصام أن ما أثبته الرسل الله ، أثبت له ، وما نفته الرسل عن الله ، نفى عنه .

والألفاظ التي لم تنطق الرسل فيها بنفي ، ولا إثبات ، كلفظ « الجهة » ، و « الحيز » ، ونحو ذلك لا يطلق نفياً ، ولا إثباتاً إلا بعد بيان المراد .

فمن أراد بما أثبت معنى صحيحاً ، فقد أصاب في المعنى ، وإن كان في اللفظ خطأ .

ومن أراد بما نفاه معنى صحيحاً ، فقد أصاب في المعنى ، وإن كان في لفظه خطأ .

وأما من أثبت بلفظه حقاً وباطلا ، أو نفى بلفظه حقاً وباطلا ، فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق ، مخطىء فيما عناه من الباطل ، قد لبس الحق بالباطل ، وجمع في كلامه حقاً وباطلاً .

والأنبياء كلهم متطابقون على أنه في العلو .

وفي القرآن والسنة ما يقارب ألف دليل على ذلك ، وفي كلام الأنبياء المتقدمين مالا يحصى .

فصـــــل

قال سعيد بن البطريق : وذلك مثل ما أن شعاع الشمس المولود من عين الشمس ، الذي يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، وفي بيت من البيوت

يكون فيه ضياء بنوره ، من غير مفارقة لعين الشمس التى تولد منها حقاً ؛ لأنه لم ينقطع من العين ، ولا من الضوء . فكذلك سكن الله فى الناسوت من غير أن يفارقه الأب ، فهو مع الناسوت ، وهو مع الأب وروح القدس حقاً .

فيقال : هذا التمثيل لو قدر أنه صحيح ، فإنما يشبه من بعض الوجوه قول من يقول : إنه بذاته فى كل مكان ، كشعاع الشمس ، الذى يظهره فى الهواء والأرض .

وأما النصارى ، فإنهم يخصونه بناسوت المسيح دون سائر النواسيت ، ولو مثل بهذا من يقول : إنه بذاته فى كل مكان ، لكان باطلا ، فكيف النصارى ؟ ! فإن الضوء إنما يكون فى الهواء وسطوح الأرض ، لا يكون تحت السقوف ، والجدران وباطن الأرض .

ثم هذا التمثيل باطل من وجوه :

أحدها : أن الشعاع ليس متولداً من جرم الشمس ، ولا شعاع النار متولد من جرم النار ، بل هو حادث بائن عن جرم الشمس ، ولكنها سبب فى حصوله .

وهذا يشبه به العلم الحاصل فى قلب المتعلم بسبب تعلم العلم من غير أن يكون من ذات علم العالم .

ولهذا يشبه علم العالم بالسراج الذى يقتبس كل أحد من نوره ، وهو لم ينقص .

بخلاف تولد المولود عن والده ، فإنه متولد من عينه .

والشعاع القائم بالهواء والأرض ، ليس هو قائماً بذات الشمس والنار ، بل هو عرض قائم بمحل آخر ، والعرض الواحد لا يكون فى محلين .

والنصارى يقولون : إن الكلمة التى هى علم الله أو حكمته ، متولدة منه ، وهى قديمة أزلية ، والصفة قائمة بالموصوف ، فالصفة مثل ما يقوم بذات الشمس

من استدارة وضوء ، فذاك صفة لها ، وهو غير الشعاع القائم بالهواء ، فإن ذاك بائن عنها ، فكيف يجعل هذا هو هذا ؟ !

فإن قالوا : نحن مقصودنا أن حكمة الله وعلمه ونوره أنزله إلى المسيح وأفاضه على المسيح ، كما يفيض الشعاع عن الشمس .

قيل لهم : فهذا قدر مشترك بين المسيح وسائر الأنبياء ، فلا اختصاص للمسيح بذلك .

الوجه الثاني : ـ قولهم : الذى يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، وفي بيت من البيوت يكون فيه حقاً من غير مفارقة لعين الشمس التي تولد منها حقا .

فيقال لهم : الشعاع الذى بين السماء والأرض ، هو الضوء ، وهو النور .

فقولكم : إن الشعاع يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، يقتضي أنه شعاع ، وضوء شعاع ، ونور حدث عن ذلك . وهذا غلط ، بل ليس هنا إلا جرم الشمس ، التي في السماء وشعاعها ، وهو الضوء والنور الذى ما بين السماء والأرض .

والثالث : قولكم : « من غير مفارقة عين الشمس » يقتضي أن هذا الشعاع هو نفس ما قام بالشمس ، وهذا مكابرة للحس والعقل ، بل الشعاع الذى قام بالهواء والأرض ، عرض لم يقم بالشمس قط .

وكل شعاع بقعة ، فليس هو عين الشعاع الذى في البقعة الأخرى ، وإن كان هو نظيره ومثله ، وجنس الشعاع يجمعهما ، كما أن شعاع هذا السراج ، ليس هو شعاع هذا السراج ، وإن قدر اختلاطهما حتى يقوى الضوء ، ولا حركة هذا الهواء من حركة هذا الهواء ، ونظائر ذلك متعددة .

الرابع : قولكم : « كذلك الله سكن في الناسوت من غير أن يفارقه الأب » تمثيل باطل .

فإن الشمس نفسها لم تسكن فى الهواء والأرض ، وإنما سكن شعاعها.
فوازنه أن يقال : فكذلك سكن نور الله ، وبرهانه ، وهداه، وروحه.
وهذا إذا قلته ، فهو منقول عن الأنبياء ، تنطق كتبهم بأن نور الله وروحه وهداه فى قلوب المؤمنين ، ولكن لا اختصاص للمسيح بذلك .

قال الله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) .

قال أُبىّ بن كعب : مثل نوره فى قلب المؤمن .

وفى الترمذي عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ قوله : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) .

الخامس : أنكم إذا جعلتم الله نفسه ساكناً فى المسيح ، فوزانه أن تكون الشمس نفسها ساكنة فى موضع صغير من الأرض .

وهذا التمثيل يبطل قولكم : إن الله أعلا وأعظم وأجل وأكبر ، والله أجل وأكبر وأعظم من كل شىء ، والشمس آية من آياته ، ومخلوق من مخلوقاته ، ومع هذا فلو قال قائل : إن الشمس سكنت فى جوف امرأة وخرجت من فرج تلك المرأة ، لكان كل عاقل يعلم فساد قوله ، وينسبه إلى الجهل العظيم ، أو الجنون ، وسواء قال : إن الشمس نفسها نزلت ؛ أو لم تنزل .

وأنتم تقولون : إن ربّ العالمين سكن فى بطن مريم ، ويقول أكثركم — كالملكية واليعقوبية — إنه خرج من فرج مريم .

ولو قال قائل عما هو من أصغر مخلوقات الله كوكب من الكواكب ، أو جبل من الجبال ، أو صخرة عظيمة — : إن ذلك كان فى بطن امرأة وخرج من فرجها ، لضحك الناس من قوله ، فكيف بمن يدّعى مثل ذلك فى رب العالمين ؟!

وإذا قالوا : إن الله نزل إلى السماء الدنيا ، أو نزل إلى الطور وكلم موسى من العليقة ، أو فى عمود الغمام ونحو ذلك ، فليس فى شىء من ذلك أنه اتحد بمخلوق ، ولا سماء ، ولا طور ، ولا شجرة ، ولا كان كلامه قائماً بشىء مخلوق، ولا شجرة ، ولا غيرها .

وعندهم أنه اتحد بالمسيح ؛ وكان صوت المسيح القائم به ؛ هو صوت رب العالمين بلا واسطة .

فصــــل

قال سعيد بن البطريق: ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله، تكتب فى قرطاس ، فهى فى القرطاس كلها حقاً من غير أن تفارق العقل الذى منه ولدت ، ولا يفارقها العقل الذى ولدها ؛ لأن العقل بالكلمة يعرف ؛ لأنها فيه ، والكلمة كلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ، وكلها فى القرطاس الذى التحمت به ، فكذلك كلمة الله ، كلها فى الأب الذى ولدت منه ، وكلها فى نفسها وفى الروح ، وكلها فى الناسوت التى حلت فيها والتحمت بها .

فيقال : هذا التمثيل حجة عليكم ، وعلى فساد قولكم ، ولا حجة لكم، وذلك يظهر بوجوه :

أحدها : أن يقال : إن كان حلول كلمة الله — التى هى المسيح — فى الناسوت ، مثل كتابة الكلام فى القرطاس ، فحينئذ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله ، كالتوراة ، وزبور داود ، والإنجيل ، والقرآن وغير ذلك ، فإن هذا كله كلام الله ، وهو مكتوب فى القراطيس باتفاق أهل الملل ، بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب فى القراطيس، وقد قال تعالى : فى القرآن : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) ، وقال تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ)،

وقال : (يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) ، وقال : (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

وقال تعالى : (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ) .

وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا ، فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ، ليس هو إلهاً خالقاً ، وهو كلام كثير ، لا ينحصر في كلمة ، ولا كلمتين .

ولو قال قائل : يا كلام الله اغفر لي وارحمني ، أو ياتوراة ، أو ياإنجيل ، أو ياقرآن اغفرلي وارحمني ؛ كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء .

وأنتم تقولون : المسيح إله خالق ، وهو يُدْعَى ويُعْبَد . فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس ؟ ! .

الثاني : أن الكلام المكتوب صفة للمتكلم ، يقوم ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم .

وعند بعضهم ، هو عرض مخلوق ، يخلقه في غيره .

فالجميع متفقون ، على أن الكلام صفة تقوم بغيرها ؛ ليس جوهراً قائماً بنفسه .

والمسيح - عندكم - لاهوته جوهر قائم بنفسه ، وهو إله حق من إله حق وهو - عندكم - إله تام وإنسان تام .

فكيف تجعلون الإله الذي هو عين قائمة بنفسها ، كالصفة التي لاتقوم إلا بغيرها .

الثالث : قولكم : « إن كلمة الإنسان مولودة من عقله » . لو كان صحيحاً ، فالمتولد لا يكون إلا حادثاً .

وأنتم تقولون : إن كلمة الله القديمة الأزلية ؛ متولدة منه قبل الدهور .

وتقولون ـ مع هذا ـ : هى إله .

وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل ؛ فهى بدعة وضلالة فى الشرع ؛ فإنه لم يسم أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله ابنا له ؛ ولا قال : إن صفته متولدة منه ؛ ولفظ « الابن » لا يوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسما لناسوت مخلوق ، ولا لصفة الله القديمة ، فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء .

الرابع : ـ قولكم : « مولودة من عقله » إن أردتم « بعقله » العين القائمة بنفسها التى يسميها قلبا وروحا ونفسا ، أو نفسا ناطقة ، فتلك إنما تقوم بها المعانى ، وأما الألفاظ فإنما تقوم بفمه ولسانه .

وإن أردتم « عقله » مصدر عقل يعقل عقلا ، فالمصدر عرض قائم بالعقل ، وهو عرض من جنس العلم والكلمة والعمل الصالح .

وإن أردتم بالعقل ، الغريزة التى فى الإنسان ، فهو أيضا عرض .

الخامس : أن تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولداً ، أمر اخترعتموه ، لا يعرف عن نبى من الأنبياء ، ولا أمة من الأمم ، ولا فى لغة من اللغات .

وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا : إذا كان كلام الإنسان متولداً منه ، فكلام الله متولد منه .

ولم ينطق أحد من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه ، ولا أنه ابنه ولا أن علمه تولد منه ، ولا أنه ابنه .

السادس : قولكم : « إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب فى القرطاس ، فهى فى القرطاس كلها حقا من غير أن تفارق العقل الذى منه ولدت » إلى قولكم : « الكلمة كلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ، وكلها فى القرطاس الذى اتحدت به » مكابرة ظاهرة معلومة الفساد بصريح العقل .

فإن وجود الكلام فى القلب واللسان ، ليس هو عين وجوده مكتوبا فى القرطاس ، بل القائم بقلب المتكلم معان ، طلب ، وخبر ، وعلم ، وإرادة . والقائم بنفسه ، حروف مؤلفة هى أصوات مقطعة ، أو هى حدود أصوات مقطعة ، وليس فى قلب الإنسان ولا فمه ، مداد كالمداد الذى فى القرطاس .

والكلام مكتوب فى القرطاس باتفاق العقلاء ، مع علمهم بأنه ليس فى القرطاس علم وطلب وخبر قائم به ، كما تقوم بقلب المتكلم ، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة ، ولا حروفا كالأصوات القائمة بفم المتكلم ، بل لفظ الحرف يقال على الحرف المكتوب . إما المداد المصور ، وإما صورة المداد وشكله . ويقال على الحرف المنطوق إما الصوت المقطع . وإما حد الصوت ومنقطعه وصورته .

وكل عاقل يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم ، وبين المداد المرئى بالبصر ، ولا يقول عاقل : إن هذا هو هذا ، ولا يقال : إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم . فكيف يقولون : إن الكلمة فى القرطاس كلها ، وكلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ؟ !

السابع : أن حرف « فى » التى يسميها النحاة ظرفا ، يستعمل فى كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع .

فإذا قيل : إن الطعم واللون والريح ، حالٌ فى الفاكهة ، أو العلم والقدرة ، والكلام حالٌ فى المتكلم ، فهذا معنى معقول .

وإذا قيل : إن هذا حال فى داره ، أو إن الماء حال فى الظرف ، فهذا معنى آخر .

فإن ذاك حلول صفة فى موصوفها ، وهذا حلول عين قائمة ، تسمى جسما وجوهراً ، فى محلها ، ومنه يقال لمكان القوم : المحلة ، ويقال : فلان حل بالمكان الفلانى .

وإذا قيل : الشمس والقمر فى الماء ، أو فى المرآة ، أو وجه فلان فى المرآة ، أو كلام فلان فى هذا القرطاس ، فهذا له معنى يفهمه الناس ، يعلمون أنه قد ظهرت الشمس والقمر والوجه فى المرآة ، ورؤيت فيها ، وأنه لم يحل بها ذات ذلك ، وإنما حل فيها مثال شعاعى عند من يقول بذلك .

وكذلك الكلام إذا كتب فى القرطاس ، فالناس يعلمون أنه مكتوب فيه ومقروء فيه ومنظور فيه ، ويقولون : نظرت فى كلام فلان وقرأته وتدبرته وفهمته ورأيته ونحو ذلك ، كما يقولون : رأيت وجهه فى المرآة وتأملته ونحو ذلك .

وهم — فى ذلك كله صادقون — يعلمون ما يقولون ، ويعلمون أن نفس جرم الشمس والقمر والوجه لم يحل فى المرآة ، وأن نفس ما قام به من المعانى والأصوات لم تقم بالقرطاس ، بل كانت المرآة واسطة فى رؤية الوجه ، فهو المقصود بالرؤية ؛ وكان القرطاس واسطة فى معرفة الكلام ، فهو المقصود بالرؤية ، وكان .

ويعلمون أن حاسة البصر باشرت ما فى المرآة من الشعاع المنعكس .

ولكن المقصود بالرؤية ، هو الشمس ، وحاسة البصر باشرت ما فى القرطاس من المداد المكتوب ، ولكن المقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب .

ويعلمون أن نفس المثال الذى فى المرآة ليس هو الوجه ، وأن نفس المداد المكتوب به ، ليس هو الكلام المكتوب ، بل يميزون بينهما كما قال تعالى : (قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ففرق سبحانه بين الكلمات وبين المداد ، الذى يكتب به الكلمات .

فكيف يقال : إن هذا هو هذا ، وأن الكلمة فى القرطاس كلها وهى فى المتكلم كلها ؟ !

التامن : ـ أن الكلام له معنى في المتكلم ، يعبر عنه بلفظه ، واللفظ يكتب في القرطاس ، فالمكتوب في القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى ، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ ، ولهذا من لم يعرف اللفظ الذى كتب بالخط ، لم يعرف ما كتب .

فدعوى هؤلاء أن نفس المعنى الذى في القلب كله ، هو في القرطاس كله جعل لنفس المعنى هو الخط ، وهذا باطل .

التاسع : ـ أنه لا ريب أن كلام المتكلم يقال : إنه قائم به .

ويقال ـ مع ذلك ـ إنه مكتوب في القرطاس ، ويقال : هذا هو كلام فلان بعينه ، وهذا هو ذاك ، ونحو ذلك من العبارات التى تتبين أن هذا المكتوب في القرطاس ، هو هذا الكلام الذى تكلم به المتكلم بعينه ، لم يزد فيه ولم ينقص ، لم يكتب كلام غيره .

ولا يريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت ، أو نفس المعنى . فإن هذا لا يقوله عاقل .

فإن قيل : ففى المسلمين من يقول : إن كلام الله القديم الأزلى ، أو كلام الله ، الذى ليس بمخلوق ، هو حالٌّ فى الصدور والمصاحف من غير مفارقة .

ومن هؤلاء من يقول : إنه يسمع من الإنسان الصوت القديم ، أو الصوت الذى ليس بمخلوق .

ومنهم من يقول : إن الحرف القديم ، أو الذى ليس بمخلوق ، هو في القرطاس ، وحكى عن بعضهم أنه يقول ذلك في المداد .

ومن هؤلاء من يقول : إن القديم حَلَّ في المصحف ، ونحو ذلك .

فيقول النصارى : نحن هؤلاء .

قيل : الجواب من وجوه .

أحدها : أن المقصود بيان الحق الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، والرد على من خالف ذلك من النصارى وغيرهم .

ونحن لا ننكر أن فى المنتسبين إلى الإسلام ، منهم منافقون ملحدون زنادقة. ومنهم جهال مبتدعة ، ومنهم من يقول مثل قول النصارى ، ومنهم من يقول شر منه ، فالرد على هؤلاء كلهم ، والعصمة ثابتة لكتاب الله ، وسنة رسوله .

وما اجتمع عليه عباده المؤمنون . فهذا لا يكون إلا حقا ، وما تنازع فيه المسلمون ، ففيه حق وباطل .

الوجه الثانى : ـ أن يقال هؤلاء الذين قالوا فى القرآن ما قالوه ، ليس مثل قول النصارى .

فإن النصارى جعلوا لله ولداً قديماً أزلياً سموه « كلمة » وقالوا : إنه إله يخلق ويرزق ، وإنه اتحد بالمسيح ، فجعلوا المسيح ـ الذى هو الكلمة عندهم ـ إلها يخلق ويرزق .

وليس فى طوائف المسلمين المعروفة من يقول : إن كلام الله إله يخلق ويرزق. ولكن محمد وغيره من الرسل ، عليهم السلام ، بلغوا إلى الخلق كلام الله الذى تكلم به .

فكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان على أن القرآن والتوراة والإنجيل ، وغير ذلك من كلام الله ، هو كلام الله الذى تكلم به ، وأن الله أنزله وأرسل به ملائكته ، ليس هو مخلوقا بائنا عنه خلقه فى غيره .

ويقولون : إن هذا القرآن هو كلام الله ، الذى بلغه رسوله ، والمسلمون يقرءونه ، ويسمع من القارىء كلام الله ، لكن يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم ، ويسمعونه من القارىء الذى يقرؤه بصوت نفسه ، فالكلام كلام البارى ، والصوت صوت القارىء .

ويقولون : إن الله تكلم به ، وبما كلم به موسى ، وأن موسى سمع نداء الله بأذنه ، فكلمه الله بالصوت الذى سمعه موسى ، كما بين ذلك فى كتب الله ، القرآن ، والإنجيل ، والتوراة وغير ذلك .

فحدث بعض الصحابة ، وأكابر التابعين طائفة معطلة يقولون : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، فقتل المسلمون مقدمهم «الجعد» وصار لهم مقدم يقال له « الجهم» فنسبت إليه الجهمية ، نفاة الأسماء والصفات.

وتارة يقولون : إن الله لم يتكلم ولم يكلم موسى ، وإنما أطلق ذلك مجازا .

تارة يقولون : تكلم ويتكلم حقيقة ، ولكن معنى ذلك أنه خلق كلاما فى غيره ، سمعه موسى ، لا أنه نفسه قام به كلام ، وهذا قول من يقوله من المعتزلة ونحوهم .

وزين هذا القول لبعض ذوى الإمارة ، فدعوه إليه مدة وأظهروه وعاقبوا من خالفهم ، ثم أطفأ الله ذلك ، وأظهر ما كان عليه سلف الأمة أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله ، تكلم هو به . منه بدا ، ليس ببائن منه ، وليس بمخلوق خلقه فى غيره .

ولما أظهر الله هذا ، والناس يتلون قول الله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ) ، صار بعض أهل الأهواء يقول : إنما يسمع صوت القارىء ، وصوته مخلوق ، وهو كلام الله ، فكلام الله مخلوق .

ولم يميز هذا ، بين أن يسمع الكلام من المتكلم به ، كما سمعه موسى من الله بلا واسطة ، وبين أن يسمع من المبلغ عنه .

ومعلوم أنه لو سمع كلام الأنبياء وغيرهم من المبلغين ، لم يكن صوت المبلغ هو صوت المبلغ عنه ، وإن كان الكلام كلام المبلغ عنه ، لا كلام المبلغ .

فكلام الله إذا سمع من المبلغين عنه ، أولى أن يكون هو كلام الله ، لا كلام المبلغين ، وإن بلغوه بأصواتهم .

فجاءت طائفة ثانية فقالوا : هذا المسموع ألفاظنا وأصواتنا وكلامنا ، ليس هو كلام الله ؛ لأن هذا مخلوق ، وكلام الله ليس بمخلوق .

وكان مقصود هؤلاء تحقيق أن كلام الله غير مخلوق ، فوقعوا في إنكار أن يكون هذا القرآن كلام الله ، ولم يهتدوا إلى أنه – وإن كان كلام الله ، فهو كلام الله مبلغاً عنه – ليس هو كلامه مسموعاً منه ، ولا يلزم إذا كانت أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ليست هي كلام الله ، أن يكون الكلام الذى يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم كلامهم ويكون مخلوقاً ليس هو كلام الله .

وثم هؤلاء الذين قالوا : ليس هذا كلام الله ، منهم من قال: هو حكاية لكلام الله ، وطردوا ذلك في كل من بلغ كلام غيره أن يكون ما بلغه حكاية لكلام المبلغ عنه لا كلامه .

وأهل الحكاية منهم من يقول : إن كلام الرب يتضمن حروفاً مؤلفة ، إما قائماً بذاته على قول بعضهم ، أو مخلوقة فى غيره على قول بعضهم ، والقائم بذاته معنى واحد .

ومن هؤلاء من قال: الحكاية تماثل المحكى عنه ، فلا نقول هو حكاية بل هو عبارة عنه ، والتقدير عندهم «فأجره حتى يسمع كلام عبارته أو حكايته »

فجاءت طائفة ثالثة ، فقالت : بل قد ثبت أن هذا كلام الله ، وكلام الله ليس بمخلوق ، وهذا المسموع هو الصوت ، فالصوت غير مخلوق .

ثم من هؤلاء من قال: إنه قديم ، ومنهم من قال: ليس بقديم . ومنهم من قال: يسمع صوت الرب والعبد ، ومنهم من قال: إنما يسمع صوت الرب .

ثم منهم من قال: إنه قديم ، ومنهم من قال: إنما يسمعه من العبد .

وهؤلاء منهم من قال : إن صوت الرب حل فى العبد ، فضاهوا النصارى .

ومنهم من قال: بل نقول : ظهر فيه من غير حلول . ومنهم من يقول : لا يطلق هذا ولا هذا .

وكل هذه الأقوال محدثة مبتدعة ، لم يقل منها شيئاً أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا إمام من أئمة المسلمين، كمالك، والثورى، والأوزاعى . والليث بن سعد ، وأبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه ، وابن عيينة وغيرهم .

بل هؤلاء كلهم متفقون على أن القرآن منزل غير مخلوق ، وأن الله أرسل به جبريل ، فنزل به جبريل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فبلغه محمد إلى الناس فقرأه الناس بحركاتهم وأصواتهم وليس شيء من أفعال العباد وأصواتهم قديماً ولا غير مخلوق ، ولكن كلام الله غير مخلوق ، ولم يكن السلف يقولون: القرآن قديم .

ولما أحدث الجهمية وموافقوهم من المعتزلة وغيرهم أنه غير مخلوق بائن من الله. قال السلف والأئمة : إنه كلام الله غير مخلوق .

ولم يقل أحد من السلف : إن الله تكلم بغير قدرته ومشيئته ، ولا أنه معنى واحد قائم بالذات ، ولا أنه تكلم به القرآن أو التوراة أو الإنجيل فى الأزل بحرف وصوت قديم ، فحدث بعد ذلك طائفة فقالوا : إنه قديم .

ثم منهم من قال: القديم هو معنى واحد قائم بالذات ، هو معنى جميع كلام الله .

وذلك المعنى إن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، والأمر والنهى والخبر صفات له لا أنواع له .

ومن هؤلاء من قال : بل هو قديم ، وهو حروف ، أو حروف وأصوات أزلية قديمة ، وأنها هى التوراة والإنجيل والقرآن .

فقال الناس لهؤلاء : خالفتم الشرع والعقل في قولكم : إنه قديم، وابتدعتم بدعة لم يسبقكم إليها أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وفررتم من محذور إلى محذور ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ثم قولكم : إنه معنى واحد ، هو مدلول لجميع العبارات ، مكابرة للعقل والشرع فإنا نعلم — بالاضطرار — أنه ليس معنى آية الكرسي ، هو معنى آية الدَّيْن ، ولا معنى «تبت يدا أبي لهب» هو سورة الإخلاص .

والتوراة إذ عربناها لم تصر هي القرآن العربي الذي جاء به محمد .

وكذلك إذا ترجمنا القرآن بالعبرية ، لم يكن هو توراة موسى .

وقول من قال منكم : إنه حروف ، أو حروف وأصوات أزلية، ظاهر الفساد.

فإن الحروف متعاقبة، فيسبق بعضها بعضاً ، والمسبوق بغيره ، لا يكون قديماً لم يزل ، والصوت المعين لا يبقى زمانين ، فكيف يكون قديماً أزلياً ؟

والسلف والأئمة لم يقل أحد منهم بقولكم ، لكن قالوا : إن الله تكلم بالقرآن وغيره من الكتب المنزلة ، وإن الله نادى موسى بصوت سمعه موسى بأذنه ، كما دلت على ذلك النصوص .

ولم يقل أحد منهم : إن ذلك النداء الذي سمعه موسى قديم أزلي ، ولكن قالوا : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء، لأن الكلام صفة كمال لا صفة نقص ، وإنما تكون صفة كمال إذا قام به ، لا إذا كان مخلوقا بائناً عنه ، فإن الموصوف لا يتصف إلا بما قام به ، لا يتصف بما هو بائن عنه ، فلا يكون الموصوف حياً عالماً قادراً متكلما رحيما مريداً ، بحياة قامت بغيره ، ولا بعلم وقدرة قامت بغيره ، ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره .

والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمل ممن لا يكون بمشيئته وقدرته .

وأما كلام قائم يقوم بذات المتكلم بلا مشيئته وقدرته ، فإما أنه ممتنع أو هو صفة نقص ، كما يدعى مثل ذلك في المصروع .

وإذا كان كمالا ، فدوام الكمال له وأنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال، أكمل من كونه صار متكلماً بعد أن لم يكن ، لو قدر أن هذا ممكن ، فكيف إذا كان ممتنعا ؟

وكان أئمة السنة والجماعة، كلما ابتدع في الدين بدعة ، أنكروها ولم يقروها، ولهذا حفظ الله دين الإسلام ، فلا يزال في أمة محمد طائفة هادية مهذبة ظاهرة منصورة .

بخلاف أهل الكتاب ، فإن النصارى ابتدعوا بدعاً خالفوا بها المسيح ، وقهروا من خالفهم ممن كان متمسكا بشرع المسيح ، حتى لم يبق حين بعث الله محمداً من هو متمسك بدين المسيح ، إلا بقايا من أهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » .

فلما أظهر قوم من الولاة أن القرآن مخلوق ودعوا الناس إلى ذلك، ثبّت الله أئمة السنة وجمهور الأمة ، فلم يوافقوهم ، وكان المشار إليه من الأئمة إذ ذاك أحمد بن حنبل .

ثم بقي ذلك القول المحدث ، ظاهراً ، نحو أربعة عشر سنة وأئمة الأمة وجمهورها ينكرونه ، حتى جاء من الولاة من منع ، من إظهاره والقول به ، فصار مخفياً كغيره من البدع ، وشاع عند العامة والخاصة أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

فأراد بعض الناس أن يجيب عن شبهة من قال: إن هذا الذى يقوم بنا مخلوق. فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق ولكن ألفاظنا به ، مخلوقة، وتلاوتنا له مخلوقة. وربما قالوا : هذا الذى نقرؤه مخلوق، أو هذا ليس هو كلام الله ، فقصدوا معنى صحيحا ، وهو كون صفات العباد وأصواتهم وأفعالهم مخلوقة .

لكن غلطوا حيث أطلقوا القول أو أفهموا الناس بأن هذا القرآن الذى

يقرؤه المسلمون مخلوق، ولم يهتدوا إلى أنا إذا أشرنا إلى كلام متكلم قد بلغ عنه، فقلنا مثلا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » : هذا كلام رسول الله ، أو لقول الشاعر .

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . هذا كلام لبيد بن ربيعة ، ونحو ذلك .

فإنا نشير إلى نفس الكلام معانيه ونظمه وحروفه ، لا إلى ما يختص بالمبلغ من حركته وصوته ، بل ولا صوت المبلغ عنه وفعله .

فإن كون الحيّ متحركا أو مصوتا ، قدر مشترك بين الناطق والأعجم وليس هذا صفة له .

والكلام التي يتميز بها الناطق عن الأعجم ، وإنما يتميز بالمعاني القائمة به، وباللفظ المطابق لها . من الحروف المنظومة بالأصوات المقطعة .

وهذا أمر يختص به المتكلم بالكلام ، لا المبلغ عنه ، فليس الجميع إلا تأدية ذلك .

ولهذا لو قال قائل لشعر لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . فقال: هذا شعري أو كلامي لكونه أنشده بصوته ، لكذبه الناس .

ولو قال : هذا الذي أقوله ؛ مثل شعر لبيد لكذبه الناس ، وقالوا : بل هو شعره نفسه ، ولكن أديته بصوتك .

بخلاف ما إذا قال قائل ، قولا نظما أو نثراً ، وقال آخر مثله ، فإن الناس يقولون: هذا مثل قول فلان، كما قال تعالى (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ). [سورة البقرة : ١١٨] وقال عن القرآن (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [سورة الإسراء: ٨٨]).

ولهذا لو قال قارىء : أنا آتي بقرآن مثل قرآن محمد وتلاه نفسه وقال: هذا مثله لأنكر الناس ذلك وضحكوا منه ، وقالوا : هذا القرآن الذي جاء به هو، ليس هو كلام مماثل له .

فإذا كان القرآن الذي يقرؤه المسلمون، هو كلام الله الذي بلغه الرسول ، لم يجز أن يقال : ليس بكلام الله ، بل هو مثله ، أوحكاية عنه ، أو عبارة .

وإذا كان معلوماً إنما هو كلام الله ، فقد تكلم به سبحانه ، لم يخلقه بائناً عنه ، ولم يجز أن يقال لما هو كلامه : إنه مخلوق .

فإذا قيل عن ما يقرؤه المسلمون : إنه مخلوق، والمخلوق بائن عن الله ، ليس هو كلامه ، فقد جعل مخلوقا ليس هو بكلام الله ، فصار الأمة يقولون : هذا كلام الله ، وهذا غير مخلوق ، لا يشيرون بذلك إلى شيء من صفات المخلوق ، بل إلى كلام الله الذى تكلم به وبلغه عنه رسوله .

والمبلغ إنما بلغه بصفات نفسه ، والإشارة فى مثل هذا ، يراد بها الكلام المبلغ ، لا يراد بها مابه وقع التبليغ .

وقد يراد بهذا ، الثانى مع التقييد كما فى مثل الإسم إذ قيل : عبدت الله ، ودعوت الله ، فليس المراد أن المعبود المدعو ، هو الاسم الذى هو اللفظ ، بل المعبود المدعو هو المسمى باللفظ ، فصار بعضهم يقول الإسم هو غير المسمى، حتى قيل لبعضهم : أقول دعوت الله ، فقال: لا تقل هكذا ، ولكن قل دعوت المسمى بالله ، وظن هذا الغالط أنك إذ قلت ذلك،فالمراد دعوت هذا اللفظ ، ومثل هذا يرد عليه اللفظ الثانى .

فما من شيء عبر عنه باسم ، إلا والمراد بالاسم هو المسمى ، فإن الأسماء لم تذكر إلا لبيان المسميات ، لا أن الاسم نفسه هو ذات المسمى .

فمن قال : إن اللفظ المسمى والمعنى القائم بالقلب هو عين المسمّى،فغلطه واضح.

ومن قال :إن المراد بالاسم فى مثل قولك : دعوت الله وعبدته ، هو نفس اللفظ ، فغلطه واضح . ولكن اشتبه على الطائفتين مايراد بالاسم ونفس اللفظ.

كذلك أولئك اشتبه عليهم نفس كلام المتكلم المبلغ عنه الذى هو المقصود بلفظ المبلغ أو كتابته بنفس صوت المبلغ ومداده .

والفرق بين هذا وهذا ، واضح عند عامة العقلاء .

وإذا كتب كاتب اسم الله فى ورقة ، ونطق بإسم الله فى خطابه وقال قائل : أنا كافر بهذا ومؤمن بهذا ، كان مفهوم كلامه أنه مؤمن أو كافر بالمسمى المراد باللفظ والخط ،لا أنه يؤمن ويكفر بصوت أو مداد .

فكذلك من قال لما يسمعه من القراء ولما يكتب فى المصاحف : إن هذا كلام الله .

أو قال لما يسمع من جميع المبلغين لكلام غيرهم ولما يوجد فى الكتب : هذا كلام الله ، فليس مرادهم ذلك الصوت والمداد ، وإنما هو المعنى واللفظ الذى بلغه زيد بصوته وكتب فى القرطاس بالمداد .

فإذا قيل عن ذلك : إنه مخلوق ، فقد قيل : إنه ليس كلام الله ، ولا يتكلم به .

ومن قصد نفس الصوت أو المداد ، وقال : إنه مخلوق ، فقد أصاب ، كما أن من قصد نفس الصوت أو الخط وقال : ليس هذا هو كلام الله بل هو مخلوق ، فقد أصاب ، ولكن ينبغى أن يبين مراده بلفظ لا لبس فيه .

فلهذا كان الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ؛ ينكرون على من أطلق القول بأن اللفظ بالقرآن مخلوق ؛ أو غير مخلوق ، ويقولون : من قال : إنه مخلوق فهو جهمى ،ومن قال :إنه غير مخلوق فهو مبتدع ،ومن قال : إنه مخلوق عنى فقد يقولون : ليس هو كلام الله، وهذا خلاف المتواتر عن الرسول،وخلاف ما يعلم بمثل ذلك بصريح المعقول .

فإن الناس يعلمون ــ بعقولهم ــ أن من بلغ كلام غيره ، فالكلام كلام المبلغ عنه الذى قاله مبتديا آمراً بأمره مخبراً بخبره ،لا كلام من قاله مبلغاً عنه مؤدياً .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى المواسم : « ألا رجل يحملنى

إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » رواه أبوداود وغيره عن جابر .

ولما نزل الله تعالى : (الٓم ، غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)[الروم : ١ ،]

قال بعض الكفار لأبى بكر الصديق : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ قال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ، ولكنه كلام الله .

فلهذا اشتد به إنكار أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الإسلام ، وبالغ قوم فى الإنكار عليهم وقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وأطلقوا عبارات تشعر أن يكون شيء من صفات العباد غير مخلوقة ، فأنكر ذلك أحمد وغيره ، كما أنكر ذلك ابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه ، والبخارى وغير هؤلاء من أئمة السنة ، وبينوا : أن الورق والمداد وأصوات العباد وأفعالهم مخلوقة ، وإن كان كلام الله الذى يحفظه العباد ويقرءونه ويكتبونه غير مخلوق .

فكلام أئمة السنة والجماعة كثير فى هذا الباب ، متفق غير مختلف ، وكله صواب .

ولكن قد يبين بعضهم فى بعض الأوقات ما لا يبينه غيره لحاجته فى ذلك.

فمن ابتلى بمن يقول: ليس هذا كلام الله كالإمام أحمد ، كان كلامه فى ذم من يقول: هذا مخلوق ، أكثر من ذمه لمن يقول : لفظى مخلوق .

ومن ابتُلِيَ بمن يجعل بعض صفات العباد غير مخلوق ، كالبخارى صاحب الصحيح ، كان كلامه فى ذم من يجعل ذلك غير مخلوق أكثر مع نص أحمد والبخارى وغيرهما ، على خطأ الطائفتين .

فصـــل

قال سعيد بن البطريق : وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر

الناسوت ، عن انتقال ولا تغير ولا احتيال من واحد من الجوهرين عن كثافة ؛ فلا الإلهى احتال عن أن يكون إلهاً خالقاً ، ولا الناسى احتال عن أن يكون ناسياً مخلوقاً .

والاحتيال والتغير ، إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين ، مثل الماء والخمر ، أو الماء والعسل ، أو السمن والعسل ، والذهب والورق والنحاس والرصاص وما أشبه ذلك . لأن كله ثقيل غليظ ، وكل ثقل تخالطه ثقلة لا محالة ، يلزمه التغير حتى يصير إلى ما كانت عليه الأثقال ، فلا الخمر خمراً ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما ـ ولكنهما احتالا جميعاً عن جوهرها ، فصارا إلى أمر متغير ، ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاحتيال عن حاله .

فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف أو خلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة ، تغير ولا احتيال ، مثل خلطة النفس والجسد إنساناً واحداً ، أحدهما ملتحماً بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت ، أى استحالت عن جوهرها أن تكون نفساً تعرفها بفعالها ، ولا الجسد تغير ولا احتال عن حاله وأفعاله ، ومثل ما كان تخالط النار والحديد ، فيلتحمان جميعاً ، فيكونان جمرة واحدة ، من غير أن تكون النار قد تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة وتشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واحتالت إلى أن تكون ناراً تحرق ، فكذلك تفعل كل خلطة مؤلفة من شيئين مختلفين ، أحدهما روحانى لطيف ، والآخر ثقلى غليظ ، مثل النفس والجسد والنار والحديد ، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لا تتغير ولا تحتال عن نورها ونقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد وسخ ، ونتن ونجس .

قال : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه .

أحدها : خلطة باختلاط من الطبيعتين الثقيلتين واحتيالها وفسادها ، مثل خلطة الخمر والماء ، والخل والعسل ، والذهب والورق ، والرصاص والنحاس ،

فإن فى ذلك كله وما أشبهه ، احتيالا وفساداً ، لأن مزاج الخمر والماء ، ليس بخمر ولا ماء ، لاحتيال كل واحد منهما عن طبعه ، واختلاطهما بفسادهما ، وتغيرها عن حالها .

وكذلك خلطة الخل والعسل ، قد صارت لا خلاً ولا عسلاً ، لاحتيال كل واحد منهما ، وخلطة الذهب والورق على مثل ذلك صارت على غير صحة ، لا من الذريب ولا من الورق ، وخلطة الورق والنحاس على غير صحة ، لا من الورق ولا من النحاس . فهذا وجه من الوجوه الثلاثة .

والوجه الثانى : ــ خلطة افتراق من الطبيعتين الثقيلتين ، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدة من الطبيعتين ثابتة فى الأخرى ، بقوامها ووجهها ، مثل الزيت والماء فى قنديل واحد ، ومثل الكتان والقز ، ثوب واحد منسوج بكتان مضلع بقز ، ومثل صنم نحاس ، رأسه من ذهب ، وما أشبه ذلك ، مما لا ينبغى أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين والقوامين ، مثل ما لا ينبغى أن يكون بين الماء والقلة التى هو فيها خلطة . لأن طبيعة القلة فخار ، قوامها قلة ، وليس بينها وبين الماء خلطة ، بل أشد الفرقة .

وكذلك الماء والزيت ، لولا أن وعاء القنديل الذى هما فيه ضمهما ما اجتمعا .

وكذلك الكتان والقز ، ليس بينهما خلطة ، وإن كانا فى ثوب واحد ، ولا بين الذهب والنحاس ولم يسبكا خلطة ؛ وإن جمعهما صنم واحد .

فهاتان الخلطتان لا تكونان أبداً إلا فى أثقال جسمانيات غليظة .

فإن التحم بعضها ببعض مثلما يذاب الذهب والنحاس ويفرغان جميعاً ؛ وقعت فى وجه خلطة الاحتيال والفساد ؛ لأن تلك النقرة ليست بذهب صحيح ولا بنحاس صحيح .

فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضاً ؛ مثل طوق يكون من نحاس وذهب ، وقعت من وجه خلطة الافتراق التى لا يحق لها أن تسمى خلطة .

وفى هذين الوجهين ، وقع نسطورس وأشياعه ، فلزموا خلطة الاحتيال والفساد . فزعموا أن الطبيعة الإلهية، والطبيعة الناسية اختلطا فى المسيح الواحد. فهو ذو قوام واحد بطبيعة واحدة، مختلطة من طبيعتين مختلفتين إلهية وناسية، فأقروا أنهما قد احتالا ، والاحتيال فساد .

وألزموا على هذا القول الكافر، طبيعة الله المصائب والموت، وصيروا المسيح لا إلهاً صحيحاً ، ولا إنساناً ، مثل نقرة الذهب والنحاس .

فنسطورس وأشياعه لزموا خلطة الفرقة والانقطاع ، فزعموا : أن المسيح الواحد ذو طبيعتين مختلفتين ، إلاهية وناسية ، وذو قوامين معروفين ، إلهى، وناسى ، فصيروا الفرقة خلطة، كالطوق الملون نصفين ، أحدهما ذهب، والآخر نحاس ، والثوب المبطن ، ظاهره خز ، وباطنه قطن ، ليس بينهما خلطة فى طبيعة ولا قوام .

وليس لهم ـ على هذا ـ أن يؤمنوا بمسيح واحد ، لأن الطوق الملون طوقان ، والثوب المبطن ثوبان .

فالمسيح مثل ذلك ، مسيحان، واحد إلهى بطبيعته وقوامه ، مثل قضيب الذهب فى الطوق الملون ، ومثل ظهارة الخز فى الثوب المبطن .

والآخر ناسى، مثل قضيب النحاس فى الطوق ، وبطانة القطن فى الثوب .

والعجب كل العجب كيف لم يفصل أهل الخلاف والشقاق بين الصنفين كليهما ، ولم يفهموا أن هاتين الخلقتين أنهما خلقتان ذواتا أثقال جسمانية غليظة، ليس فيهما شىء من الخلق الروحانى اللطيف الخفيف ؛ ولذلك لا تقدر الأثقال الغليظة على الخروج من هذين الوجهين من وجوه الخلطة ، لأنهما إن اختلطا خلطة ملتحمة ممتزجة ، صارت إلى احتيال وفساد ، وإن قامت على حالها ، لا تلتحم ، ولا يمتزج بعضها ببعض ، فهى على وجه خلطة الافتراق ، ومنقطعة بعضها من بعض . وإن جمعها صنم واحد أو ثوب واحد، فليس يوجد لشىء من

الأثقال الجسمانية وجه خلطة، سوى هذين الوجهين أبداً، إما فساد، وإما انقطاع، إلا أن تكون الخلطة فى اثنين، أحدهما ثقيل جسمانى، والآخر لطيف روحانى، فإن ذلك هو الوجه الثالث من الخلطة، وهى خلطة الحلول بلا اختلاط ولا احتيال، ولا فساد ولا فرقة ولا انقطاع، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية فى الطبيعة الثقيلة السفلية حتى تنتشر فى جميعها وتحل بكلها، فلا يبقى موضع من الطبيعة الثقيلة السفلية خِلْواً من الطبيعة الروحانية، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة ولا تغيير ولا فساد لإحداهما، مثل خلطة النفس والجسد، ومثل خلطة النار والحديد فى قوام جمرة واحدة، فهى جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقة من انقطاع، ولا تخليط احتيال وفساد، وقد انتشرت النار فى جميع الحديدة ولبستها، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى أنارت الحديدة وأحرقت، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئاً من السواد ولا البرودة.

فعلى هذا الوجه من الخلطة دبرت كلمة الله الخالقة خلطتها للطبيعة البشرية.

فهو مسيح واحد ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الأدهار، كلها نور من نور، إله حق من إله حق، مولود ليس بمخلوق من سوس أبيه وجوهره وطبيعته، وهو إياه من مريم العذراء المولود منها فى آخر الزمان بقوام واحد، قوام ابن الله الوحيد الجامع للطبيعتين كلتيهما، الإلهية التى لم تزل فى البدء قبل كل بدء، والناسية التى كونت فى آخر الزمان المقوم بالقوام الأزلى.

فهو مسيح واحد، بقوام واحد أزلى ذو طبيعتين: إلهية لم تزل، وناسية خلقها له والتحم بها من مريم العذراء، فقوامه ذلك، قوام الطبيعة الإلهية، والطبيعة الناسية، جامعاً لهما بلا اختلاط، ولا فساد، ولا فرقة انقطاع، لم يزل قوام الطبيعة الإلهية، ثم هو قوام الطبيعة الناسية، قد خلقها وكونها وقومها بقوامه، الذى لم يزل يقيم إلا به ولم يعرف الإله.

والجواب عن هذا الكلام بعد أن يقال : إنه تناقض ، فجعل هـذا تارة اختلاطاً ، وتارة يقول : ليس هو اختلاطاً أن يقال : إنه - أولا - قد يجعل هذا الحلول والالتحام اختلاطاً ويقول: إنه لايكون فيه استحالة ولا تغير ، ويقول : الاستحالة والتغيير إنما يلزم الخلطة ، إذا كانت من خلقين غليظين كالماء والخمر . فأما إذا كانت من لطيف وكثيف لم يخالط تلك الخلطـة تغير ولا احتيال - أي استحالة - ويقول : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه ، ثم يقول : أحدها كالخمر والماء ، والثاني كالزيت والماء ، والكتان والقز . ثم يقول: وما أشبه ذلك مما لاينبغي أن يسمى خلطـة مع افتراق الطبيعتين فيجعله من أقسام الخلطة . ثم يقول : ولا ينبغي أن يسمى خلطة .

وليس المقصود المنازعات اللفظية ، بل يقول: دعواه أن أحد نوعي الاختلاط يكون عن تغير واستحالة ، بخلاف النوع الآخر الذي هو اختلاط لطيف وغليظ ، دعوى ممنوعة ، ولم يقم عليها دليـلا ، بل يقول : هي باطلة ، بل لا يـكون الاختلاط بين شيئين إلا مع تغير واستحالة .

وما ذكره من الأمثال والشواهد ، فهي حجة عليـه لقوله : « فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال، مثل خلطة النفس والجسد نسياناً واحداً ، أحدها ملتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت عن جوهرها ، أن تكون نفساً تعرفها بفعالها ولا الجسد تغير واستحال عن حاله وفعاله » .

فيقال : هذا قول باطل ظاهر البطلان لكل من تصوره ، فإن الجسد إذا خلا عن النفس، مثـل ما يكون قبل نفخ الروح فيه ، وما يكون بعد مفارقة الروح له بالموت ، بل آدم عليه السلام أبو البشر، خلق من تراب وماء ، وصار صلصالا كالفخار، ثم نفخت فيه الروح فصار جسداً هو لحم وعظم وعصب ودم.

فهل يقول عاقل: إن جسد آدم قبل النفس وبعدها على صفة واحدة لم

يتغير ولم تستحل ، وذريته من بعده يخلق أحدهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فيكون جسداً ميتاً ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيصير الجسد حياً بعد أن كان ميتاً ؟

وأى تغيير أعظم من انتقال الجسد من الموت إلى الحياة ؟ !

ومعلوم بالحس والعقل ، والفرق بين الحى والميت ، كما قال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ) والجسد إذا لم ينفخ فيه الروح فهو موات ليس له حس ولا حركة إرادية ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا ينطق ولا يعقل ، ولا يبطش ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يمشى ، ولا ينكح ، ولا يتفكر ، ولا يحب ولا يبغض ، ولا يشتهى ولا يغضب .

فإذا اتصلت به النفس وتغيرت أحواله واستحالت صفاته ؛ وصار حساساً متحركاً بالإرادة ، فكيف يقال مثل خلطة النفس والجسد إنساناً واحداً ، أحدهما يلتحم بالآخر ، من غير أن تكون النفس تغيرت واستحالت عن جوهرها ، أن تكون نفساً يعرفها بفعالها ، ولا الجسد تغير ولا استحال عن حاله وأفعاله ؟

فهل يقول عاقل يتصور ما يقول : إن الجسد كان حاله وفعاله مع مفارقة النفس له ، كحاله وفعاله مع مخالطتها له ؟

وهل يقول عاقل : إن الجسد بعد موته ومفارقة النفس له ، حاله وفعاله ، كحاله وفعاله إذا كانت النفس مختلطة به ، وهو إذا مات ، كالجماد لا يسمع ولا ولا يبصر ، ولا ينطق ولا يبطش ولا يمشى ، قد جمد دمه واسود ، ولم يبق سائلا ، وتغيرت سحنته ولونه ؟ وتغير الجسد بالحياة بعد الموت ، وبالموت بعد الحياة ، من أعظم التغيرات والاستحالات .

وكذلك النفس ، فإن النفس - عند اتصالها بالبدن - تتلذذ بلذته ، وتتألم بألمه . فإذا أكل البدن ، وشرب ونكح واشتم ، التذت النفس . وإذا ضُرِبَ البدن ، وصُفِعَ وأُهِينَ ، وحُطَّ الشوك على رأسه وبُصِقَ فى وجهه ، تألمت النفس بذلك .

فإذا شبهوا اتحاد الرب بالمسيح باتحاد النفس بالبدن ، وهم يقولون : إن المسيح وكل أحد إذا ضُرِبَ وصُفِعَ وصُلِبَ فتألم بدنه ، تألمت نفسه أيضاً .

فإن كان الألم مع نفس المسيح وجسده ، كالنفس مع الجسد ، وجب أن يكون الرب يتألم بتألُّم الناسوت ، ويجوع بجوعه ، ويشبع بشبعه ، فإن ألم الجوع ولذة الشبع ، يحصل للنفس إذا جاع البدن وشبع .

وأيضاً فالمسيح عندهم إله تام وإنسان تام ، والإله إله قبل الاتحاد ، والإنسان إنسان قبل الاتحاد .

فهم يقولون : إنهما بعد الاتحاد إله تام كما كان ، وإنسان تام كما كان .

فنظير هذا أن يكون الإنسان المركب من بدن ونفس ، نفساً تامة وبدنا تاماً ، وأن تكون الحديدة المحماة ، حديداً تاماً ، وناراً تامة ، وهو باطل . بل الإنسان مركب من نفس وبدن ، والإنسان اسم للمجموع ، ليس الإنسان روحاً والإنسان بدناً .

فلو كان الاتحاد حقاً ، لوجب أن يقال : إن المسيح نصفه لاهوت ونصفه ناسوت ، وهو مركب من هذا وهذا .

لا يقال : إن المسيح نفسه إنسان تام ، والمسيح نفسه إله تام ، فإن تصور هذا القول على الوجه التام يوجب العلم الضروري ، حيث جعلوا المسيح الذى هو المبتدأ ، الموضوع المخبر عنه المحكوم عليه ، هو إنسان تام وهو إله تام ، يوجب أن يكون نفس الإنسان هو نفس الإله .

ولو قيل هذا فى مخلوقين ، فقيل : نفس الملك نفس البشر ، لكان ظاهر البطلان ، فكيف إذا قيل فى رب العالمين ؟ ! لاسيما وكثير من النصارى لا يقولون : إن جسد المسيح مخلوق ، بل يصفون الجميع بالإلهية ، وهذا مقتضى قول أئمتهم القائلين : إن المسيح إله تام لكنهم تناقضوا فقالوا ـ مع ذلك ـ : وهو إنسان تام ، فكأنهم قالوا : هو الخالق ليس هو الخالق ، هو مخلوق ، ليس

هو مخلوقا ، فجمعوا بين النقيضين وهذا حقيقة قول النصارى ، لاسيا واتحاد اللاهوت بناسوت المسيح ـ عندهم ـ اتحاد لازم لم يفارقه البتة ، فيكون ذلك أبلغ من الاتحاد العارض ، ومن أن الرب كان متحداً بجسد لاروح فيه ، وثم بالجسد مع نفخ الروح فيه ، ثم بالجسد بعد مفارقة الروح له ، وحيث دفن فى القبر ووضع التراب عليه .

ومعلوم أن الإنسان إذا كانت فيه النفس وجعل فى التراب ، تألمت النفس ألماً شديداً ، ثم تفارق البدن .

ومن العجائب أنهم يقولون : إن المسيح صُلِبَ ومات ، ففارقته النفس الناطقة ، وصار الجسد لاروح فيه ، واللاهوت ـ مع هذا ـ متحد لم يفارقه وهو فى القبر ، واللاهوت متحد به ، فيجعلون اتحاده به أبلغ من اتحاد النفس بالبدن .

والنفس ـ عند اتصالها بالبدن ـ تتغير وتتبدل صفاتها وأحوالها ، ويصير لها من الصفات والأفعال ما لم يكن بدون البدن ، وعند مفارقة البدن تتغير صفاتها وأفعالها .

فإن كان تمثيلهم مطابقاً ، لزم أن يكون الرب قد تغير أوصافه وأفعاله لما اختلط بالمسيح ، كما تتغير صفات النفس وأفعالها ، ويكون الرب قبل هذا الاختلاط ، كالنفس المجردة التى تقترن ببدن .

وأيضاً فالنفس والبدن شريكان فى الأعمال الصالحة والفاسدة لهما الثواب عليهما العقاب ، والثواب والعقاب على النفس ، أكمل منه على البدن فإن كان الرب كذلك ، كان جميع ما يفعله المسيح باختياره فعل الرب ، كما أن جميع ما يفعله البدن باختيار فعل النفس ، فالنفس هى التى تخاطب بالأمر والنهى ، فيقال لها : كُلِى واشرَبِى وانكحى ، ولا تأكلى ولا تشربى ولا تنكحى .

فإن كان الرب مع الناسوت كذلك ، كان الرب هو المأمور والمنهى بما يؤمر به المسيح ، وكان الرب هو المصلى الصائم العابد الداعى ، وبطل قولهم :

يخلق ويرزق بلاهوته ، ويأكل ويعبد بناسوته .

فإن النفس والبدن لما اتحدا كانت جميع الأفعال الاختيارية للنفس والبدن .

فإذا صلى الإنسان وصام ودعا ، فالنفس والبدن يوصفان بذلك جميعاً ، بل النفس أخص بذلك ، وكذلك إذا أمر أو نهى . وكلاهما موصوف بذلك ، وكذلك إذا ضرب ، فألم الضرب يصل إليهما كما تصل إليهما لذة الأكل والجماع .

بل أبلغ من ذلك أن الجنيّ إذا دخل فى الإنسى وصرعه وتكلم على لسانه ، فإن الإنسيّ يتغير ، حتى يبقى الصوت والكلام الذى يسمع منه ، ليس هو صوته وكلامه المعروف .

وإذا ضرب بدن الإنسى فإن الجنى تألم بالضرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه من ألم الضرب ، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى ، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه .

فإذا كان الجنيُّ تتغير صفاته وأحواله لحلوله فى الإنسى ، فكيف بنفس الإنسان .

وعندهم اتحاد اللاهوت بالناسوت أتم وأكمل من اتحاد النفس بالجسد .

فهل يقول عاقل — مع هذا الاتحاد — : إنهما جوهران ، لكل منهما أفعال اختيارية ، لا يشركه الآخر فيها ؟!

ويقولون — مع قولهم بالاتحاد — : إن الذى كان يصلى ويصوم ويدعو ويتضرع ويتعلم ويتألم ويضرب ويصلب ، هو نظير البدن ، والذى كان يأمر وينهى ويخلق ويرزق ، هو نظير النفس .

هذا مع قولهم : ان مريم ولدت اللاهوت مع الناسوت ، وإنه اتحد به مع كونه حياً وقبل حياته وعند مماته ، والجسد فى ذلك كله كسائر أجساد الآدميين ، لم يظهر فيه شىء من خصائص الرب أصلا ، بل ولا بعد إتيانه بالآيات ، فإن تلك كان يجرى مثلها وأعظم منها على يد الأنبياء ، فهذا أقرب أمثالهم وقد ظهر فساده .

وأبعد منه وأشد فساداً ، تمثيلهم ذلك بالنار والحديد .

ومعلوم عند كل من له خبرة ، أن النار إذا اتصلت بشيء من الأجسام الحيوانية والنباتية والجمادية ، مثل جسد الإنسان وغيره ، ومثل الخشب والقصب والقطن وغيره ، ومثل الحديد والذهب والفضة ، فإنها تغير ذلك الجسد وتبدل صفاته عما كانت ، فتحرقه أو تذيبه أو تلينه ، والنار المختلطة به لا تبقى ناراً محضة بل تستحيل وتتغير أيضاً

فقول هؤلاء : «ومثل ما تختلط النار والحديد ، فيلتحمان جميعاً ، فيكونان جمرة واحدة من غير أن تكون النار تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واستحالت إلى أن تكون ناراً تحرق » كلام باطل ملبس ، فإن الجمرة ليست حديدة محضة ولا ناراً محضة ، بل نوع ثالث .

وقوله : « لم تتغير النار إلى أن تصير حديدة ، ولا الحديدة إلى أن تصير ناراً » تلبيس .

فإن الاختلاط لا يتضمن الاستحالة ، والتغير ، كاختلاط الكثيفين الذى سلمه ، مثل الماء والخمر . والماء والعسل ، والسمن والعسل ، والذهب والوَرِق ، والنحاس والرصاص قد قال فيه : إنه لا الخمر خمر ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما ولكنهما استحالا جميعاً عن جوهرها ، فصارا إلى أمر متغير ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاستحالة عن حاله .

فيقال له : فهذا الذى سلمت فيه الفساد والاستحالة ، لم يصر الخمر فيه ماء ، ولا الماء له خمراً ، فكذلك مورد النزاع إذا لم تصر النار حديدة ولا الحديدة ناراً ، لم ينفعك هذا النفى ، ولم يكن هذا مانعاً من الاستحالة إلى نوع ثالث ومن الاستحالة والفساد ، كما ذكرته فى اختلاط الكثيفين . فإنه معلوم أن ما خالطته النار واتحدت به ، غيّرته وأحالته وأفسدت صورته الأولى . والنار الملتحمة به ليست ناراً محضة .

ومعلوم أيضاً أن الجمرة التي ضربتها مثلاً المسيح فقلت: إن الله وعيسى اتحدا كاتحاد النار والحديد حتى صارا جمرة ، فمعلوم أن الجمرة إذا ضربت بالمطرقة أو وضعت في الماء ، أو مُدَّتْ ، فإن هذه الأفعال تقع بالمجموع لا تقع على حديدة بلا نار ، ولا نار بلا حديدة .

فيلزم من ذلك أن يكون ما حلَّ بالمسيح من ضَرْبٍ وبصاق في الوجه ، ووضع الشوك على الرأس ، ومن أكل وشرب وعبادة ، ومن مَشْيٍ وركوب ، ومن حمل وولادة ، وغير ذلك مما حل بالمسيح ، ومن موتٍ ، إما متقدم ، وإما متأخر إذا نزل إلى الأرض ، ومن صلب ـ على قولهم ـ : أن يكون جميع ذلك حلَّ بالمسيح الذي هو عندهم إلهٌ تام وإنسان تام ، من غير فرق بين لاهوته وناسوته ، كما يكون ما يحل بجمرة النار ، من حمل ووضع وطرق بالمطرقة ، ومَدٍّ وتصوير بشكل مخصوص ، وإلقاء في الماء وغير ذلك حالٌّ بمجموع الجمرة ، لا يقول عاقل : إن ذلك يحل بالحديد دون النار ، بل هو حالٌّ بالجمرة المستحيلة من حديدة ونار ، ومن خشبة ونار ، ليست حديدة محضة ، ولا ناراً محضة ، ولا مجموع حديد محض ، ونار محضة ، بل جوهر ثالث مستحيل من حديد ونار كسائر ما يستحيل بالاتحاد والاختلاط إلى حقيقة ثالثة .

فلا فرق بين الشيئين إذا اتحدا واختلطا وصارا شيئاً واحداً من أن يكونا كثيفين ، أو أن يكون أحدهما كثيفاً والآخر لطيفاً ، لابد في ذلك كله أن يحصل لكل منهما من التغير والاستحالة ما يوجب الاتحاد ، وأن يكون المتحد المختلط المركب منهما شيئاً ثالثاً ، وليس هو أحدهما فقط ، ولا هو مجموع كل منهما على حاله .

فقولهم : « إنه مع الاتحاد إنسان تام وإله تام » ، كلام فاسد معلوم الفساد بصريح العقل .

وكلما ضربوا له مثلاً ، كان المثل حجة على فساد قولهم ، بل مع الاتحاد ليس

بإنسان تام ولا إله تام ، لكنه شيء ثالث مركب من إنسان ثالث ، استحال وتغير ، وإله استحال وتغير .

وإذا كان كل من هذين باطلاً — بل إنسانية المسيح باقية تامة كما كانت لم تستحل ولم تتغير ، ورب العالمين باق بصفات كماله ، لم يستحل ولم يتصف بشيء من خصائص المخلوقات ، ولا استحال عما كان عليه قبل ذلك — كان قولهم ظاهر الفساد .

فهذا مثلهم الثانى الذى ضربوه لله حيث شبهوا المسيح أو الله مع الإنسان بالنفس مع الجسد ، وشبهوه بالنار مع الحديد ، وهذا المثل أشد فساداً وأظهر .

وأما المثل الثالث — وهو تمثيل ذلك بالشمس مع الماء والطين — فهو أشد فساداً ، فإنهم قالوا كما تقدم : « ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لا تتغير ولا تستحيل عن نورها وبقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد ووسخ ونتن ونجس » .

فيقال : أما جرم الشمس الذى فى السماء فلم يخالط شيئاً من الماء والطين ، ولا اتحد به ولا حل فيه بوجه من الوجوه ، بل بينهما من البعد ما لا يقدر قدره إلا الله ، والله تعالى أجل وأعظم وأبعد من مخالطة الإنسان من الشمس للماء والطين .

فإذا كانت الشمس نفسها لم تتحد ولم تختلط ، ولا حلت فى الماء والطين ، بل ولا بغيرها من المخلوقات . فرب العالمين أولى أن ينزه عن الاتحاد والاختلاط والحلول بشيء من المخلوقات .

ولكن شعاع الشمس حل بالماء والطين والهواء وغير ذلك مما يقوم به الشعاع ، كما يحل شعاع النار فى الأرض والحيطان ، وإن كان نفس جرم النار القائم بنفسه الذى فى ذبالة المصباح هو جوهر قائم بنفسه ، لم تحل ذاته فى شيء من تلك المواضع .

. ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشيء القائم بنفسه المستنير ، كالشمس والقمر وكالنار ، قال تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) [سورة يونس : ٥] . وقال : (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) [النبأ : ١٣] وسمى سبحانه الشمس سراجاً وضياء ، لأن فيها ـ مع الإنارة والإشراق ـ تسخيناً وإحراقاً ، فهي بالنار أشبه ، بخلاف القمر فإنه ليس فيه ـ مع الإناره ـ تسخيناً فلهذا قال : (جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » .

. والمقصود هنا أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه ، كالشمس والقمر والنار ، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك من الهواء والأرض ، وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول ، ولا صفة قائمة بالأول ، ولكنه حادث بسببه .

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك ، هو عرض قائم بغيره ، وليس هو متحداً به البتة .

فهذا المثل لو ضربته النسطورية ، الذين يقولون « إن الناسوت واللاهوت جوهران بطبيعتين ، حل أحدهما بالآخر » لكان تمثيلاً باطلاً ، فإن الشمس لم تحل بغيرها ، ولا صارت مشيئتها ومشيئة غيرها واحدة كما تقوله النسطورية ، بل شعاعها حلّ بغيره ، والشعاع حادث وكائن عنها .

فإذا قيل : إن ما يكون عن الرب من نوره وروح قدسه وهداه وكلامه ومعرفته ، يحل بقلوب أنبيائه والمؤمنين من عباده ، ومثّل ذلك بحلول الشعاع بالأرض ، كان أقرب إلى المعقول ، ولهذا قال تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ)[النور: ٣٥] قال أُبَيّ بن كعب : مثل نوره في قلوب المؤمنين بهذا .

وما جاء في بعض الكتب المتقدمة أن الله يحل في قلوب الصديقين . فهذا معناه . وهو حلول معرفته والإيمان به ومثاله العلمي ، كما بسط في غير هذا الموضع .

وكذلك إذا قيل: نوره أو هداه أو كلامه، وسمى ذلك روحاً، يحل فى قلوب المؤمنين، فهو بهذا الاعتبار، والله قد سمى ذلك روحاً فقال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقال تعالى: (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) [غافر: ١٥] وقال تعالى: (أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ).

وما جاء فى الكتب المتقدمة من أن روح الله أو روح القدس يحل فى الأنبياء والمؤمنين. فهو حق بهذا الاعتبار.

وإذا قيل: كلام الله يحل فى قلوب القارئين. فهو حق بهذا الاعتبار.

وأما نفس ما يقوم بالرب، فلا يتصور أن يقوم هو نفسه بغير الرب، بل ما يقوم بالمخلوق من الصفات والأعراض، يمتنع أن يقوم هو نفسه بغيره.

فيمتنع فى صفات الشمس القائمة بها، من شكلها واستدارتها، وما قام بها من نور أو غيره، أن يقوم بغيرها، وكذلك ما قام بجرم النار من حرارة وضوء، فلا يقوم بغيرها، بل إذا جاورت النار، هواء أو غير هواء، حصل فى ذلك المحل سخونة أخرى غير السخونة القائمة بنفس النار، تسخن الهواء الذى يجاوره، كما تسخن القِدْر الذى يوقد تحتها النار فيسخن ثم يسخن الماء الذى فيها، مع أن سخونة النار باقية فيها، وسخونة القدر باقية فيها، وسخونة الماء به سخونة أخرى حصلت فى الماء، ليست واحدة من تينك، وإن كانت حادثة عنها، وجنس السخونة يجمع ذلك كله.

ولهذا ذكر الإمام أحمد عن السلف أنهم كرهوا أن يتكلم فى حلول كلام الله فى العباد بنفى أو إثبات، فإن لفظ «الحلول» لفظ مجمل يراد به معنى باطل، ويراد به معنى حق.

وقد جاء فى كلام الأنبياء لفظ « الحلول » بالمعنى الصحيح ، فتأوله من فى قلبه زيغ ، كالنصارى وأشباههم عن المعنى الباطل ، وقابلهم آخرون ، أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه ، وكلا الأمرين باطل .

وقد قدمنا أن الناس يقولون : أنت فى قلبي ، أو ساكن فى قلبي ، وأنت حال فى قلبي ونحو ذلك ، وهم لا يريدون أن ذاته حلت فيه ، ولكن يريدون أن تصوره وتمثله وحبه وذكره حل فى قلبه ، كما تقدم نظائر ذلك .

والمقصود هنا أن النسطورية لو شبهوا ما يدعونه من اتحاد وحلول بالشعاع مع الطين ، كان تمثيلهم باطلا ، فكيف بالملكية الذين هم أعظم باطلا وضلالا بقولهم : « ومثل الشمس المخالطة للطين والماء وكل رطوبة وحمأة » تمثيل باطل من وجوه .

منها : ـ أن الشمس نفسها لم تتحد ولم تحل بغيرها ، بل ذلك شعاعها .

ومنها : ـ أن الشعاع نفسه لم يتحد بالماء والطين ، ولكن حل به وقام به .

ومنها : ـ أن ذلك عام فى المخلوقات من وجه وبعباده المؤمنين من وجه ، لا يختص المسيح به ، فالمخلوقات كلها مشتركة فى أن الله خلقها بمشيئته وقدرته ، وأنه لا قوام لها إلا به ، فلا حول ولا قوة إلا به ، وهى كلها مفتقرة إليه ، محتاجة إليه ، مع غناه عنها ، ولهذا كانت من آيات ربوبيته وشواهد إلهيته .

ومن سماها ، مظاهر ، ومجالي ، بمعنى أن ذاته نفسها يظهر فيها ، فهو مفتر على الله . ومن أراد بذلك أنه أظهر بها مشيئته وقدرته وعلمه وحكمته ، فأراد بالمظاهر والمجالى ما يراد بالدلائل والشواهد ، فقد أصاب .

وكذلك إذا قال : هى آثاره ومقتضى أسمائه وصفاته .

وأما المؤمنون فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل فى قلوبهم وهو المثل الأعلى والمثل العلمى ، فلا اختصاص للمسيح بهذه . وكذلك كلامه فى قلوب عباده المؤمنين ، لا اختصاص للمسيح بذلك .

ومنها : ـ أن الشعاع لم يخالط الماء والطين، ولا يخالط شيئاً من الأعيان، ولا ينفذ فيه ولا يتحد به ، بل يكون على سطحه الظاهر فقط. لكن الشعاع يسخن ما يحل فيه ، فإذا سخن ذلك ، سخن جوفه بالمجاورة ، كما يسخن الماء بسخونة القدر من غير أن تكون النار خالطت القدر ، ولا الماء.

فأين هذا من قولهم : « إن الله رب العالمين اتحد بابن امرأة ، فصار إلهاً تاماً وإنساناً تاماً ؟ » .

وهل يقول عاقل : إن الماء والطين صار شعاعاً تاماً ، وطيناً تاماً ؟ ! بل الطين طين ، لكن أثر الشعاع فيه بتجفيفه ، لم يتحد به الشعاع ، ولا نفذ فيه ، ولا حلّ في باطنه .

فهذا المثل أبعد عن مذهبهم من تمثيلهم بالنار مع الحديد ، ومن تمثيلهم بالنفس مع الجسد ، فإن هناك اتصالا بباطن الحديد والبدن ، وهنا لم يتصل الشعاع إلا بظاهر الطين وغيره .

وأيضا فالنفس جوهر قائم بنفسه ، والشعاع عرض ، وكذلك النار جوهر ، فالشمس هنا لم تتحد ولم تحل بالطين ، بل شعاعها ، ولا بوصف الطين باتحاده بالشعاع ، ولا باختلاط الشعاع بباطنه ، ولا بحلول الشمس نفسها فيه .

وحينئذ فقول القائل : « إن الشمس لم تتغير ولم تستحل عن نورها ونقائها وضوئها مع مخالطتها كل وسخ ونتن ونجس » . إن أريد به نفس الشمس أو صفاتها القائمة بها ، فتلك لم تتحد بغيرها ، ولا حلت فيه ولا قامت بغيرها .

فإذا كانت الشمس كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فهو أولى أن لا يتحد بغيره ولا يحل فيه ولا يقوم به .

وإن أريد شعاعها فشعاعها ليس هو الشمس، فلا ينفعهم التمثيل به، فإنهم يقولون : إن الله نفسه اتحد بالمسيح ، والمسيح ـ عندهم ـ هو رب العالمين مع أنه إنسان تام ، فهو إله ـ عندهم ـ إله تام إنسان تام والطين ليس بشعاع تام، والشعاع

نفسه لا يخالط شيئاً . ولكن يقوم به ، وقيام العرض بالمحل غير مخالطته له، فإن المخالطة تكون باختلاط كل من الأمرين بالآخر ، كاختلاط الماء بالطين ونحو ذلك .

وأما ما يقوم بالسطح الظاهر فلا يقال : إنه مخالط بجميع الأجزاء . فلا يقال للشعاع الذى على الجبال والبحر : إنه مخالط لجميع الجبال والبحر ، ولا لشعاع النار : إنه مخالط للحيطان وداخل الأرض ، وقد تقدم أنهم قسموا هذا الباب ثلاثة أقسام :

أحدها : اختلاط أحد الشيئين بالآخر كالماء والخمر .

والثاني : ـ اتصال من غير اختلاط . كالماء والزيت وكالإناء الذى بعضه فضة وبعضه ذهب : وقالوا : إن هذا لا ينبغي أن يسمى اختلاطا مع افتراق الطبيعتين والقوامين . مثل مالا ينبغي أن يكون بين الماء والقلة التى هو فيها خلطة ، لأن طبيعة الفخار ليس بينها وبين الماء خلطة .

وهو الفرق موجود فى الشعاع والطين ، بل بينهما من الفرق أشد مما بين الماء والقلة ، فإن الماء جرم قائم بنفسه ، وهذا عرض قائم بغيره ، والجسم بالجسم أشبه من الجسم بالعرض .

والإله ـ عندهم ـ مخالط لجميع ناسوت المسيح ، لم يخل جزء منه من اتحاد الإله به ، فأين هذا من هذا ؟

وإذا قيل : إن الشعاع لم يستحل عن نوره ونقائه وضوئه مع مخالطته كل سواد ووسخ ونتن ونجس ، لم يكن مثلا يطابقه ، مع أنه لم يخالط الشعاع غيره .

ثم يقال : إن أراد بما لم يتغير نفس الشعاع القائم بالمحل ، فهذا ممنوع ، فإن الشعاع يتغير بتغير محله ، فيرى فى الأحمر أحمر ، وفى الأسود أسود ، وفى الأزرق أزرق ، حتى إن الزجاج المختلف الألوان إذا صار مطرحاً للشعاع ، ظهر الشعاع متلونا بتلون الزجاج ، فيرى أحمر وأزرق وأصفر .

وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، لله أمثالاً باطلة شر من أمثال النصارى، ولهم مثل السوء، ولله المثل الأعلى، وكان مما ضربوه لله من الأمثال أن شبهوه بالشعاع في الزجاج.

فالأعيان الثابتة في العدم - عندهم - هي الممكنات، ووجود الحق فاض عليها، فشبهوا وجوده بالشعاع، وأعيانها بالزجاج، وهذا باطل من وجوه.

منها: - أن القول بأن أعيان الممكنات ثابتة في العدم قول باطل.

ومنها: - أن قولهم: إن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق، هو أيضاً باطل.

ومنها: أن حلول الشعاع بالزجاج يقتضي حلول أحدهما بالآخر، وهم ينكرون الحلول، ويقولون: الوجود واحد.

ومنها: - أن الشعاع الذي على نفس الزجاج، ليس وجوده وجود الزجاج، وعندهم وجود الرب وجود الممكنات.

ومنها: أن الشعاع الحال بهذا الزجاج ليس هو بعينه ذلك الشعاع الحال بالزجاج الآخر وإن كان نظيره، وهؤلاء عندهم أن الوجود واحد بالعين لا يتعدد.

ومنها: - أن الشعاع عرض مفتقر إلى الزجاج، فهو مفتقر إليه افتقار العرض إلى محله، فيلزم إذا مثلوا به الرب أن يكون الرب مفتقراً إلى كل ما سواه، مع غنى كل ما سواه عنه، وهذا قلب كل حقيقة، وأعظم كفراً بالخالق تعالى، فإنه سبحانه الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه.

وكل من قال بحلول الله في شيء من المخلوقات من النصارى وغيرهم يلزمهم أن يكون مفتقراً إلى ما حل فيه، فإنه لا حقيقة للحلول إلا هذا.

ولهذا كان ما حل بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقراً إلى قلوب المؤمنين، لا يقوم إلا بها.

وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان لا تقوم إلا بها،

والشعاع مفتقر إلى محله . لا يقوم إلا به . وهكذا سائر النظائر .

وهؤلاء الذين شابهوا النصارى وزادوا عليهم من الكفر بقولهم : إن وجود الخالق وجود كل مخلوق . وإنه قائم بأعيان الممكنات . يقولون: إنه مفتقر إلى الأعيان فى وجوده . وهى مفتقرة إليه فى ثباتها . فيجعلون الخالق محتاجاً إلى كل مخلوق . والمخلوق محتاجاً إلى الخالق . ويصرحون بذلك كما يصرح بعض النصارى، بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت ، والناسوت محتاج إلى اللاهوت.

ومعلوم أن الله غنى عن كل ماسواه : وكل ماسواه . وكل ماسواه فقير إليه من كل وجه . فهو الصمد المستغنى عن كل شىء ، وكل شىء مفتقر إليه .

فمن قال: إنه مفتقر إلى مخلوق بوجه مّا . فهو كاذب مفتر كافر فكيف بمن قال: إنه مفتقر إلى كل شىء ؟!

والمثل الذى ضربوه له، يقتضى أن يكون مفتقراً إلى غيره ، وغيره مستغن عنه ، كالمثل الذى ضربه النصارى له ، لما مثلوه بشعاع الشمس مع محله ، فإن محل الشعاع مستغن عن الشعاع ، والشعاع مفتقر إلى محله .

فيقتضى هذا التمثيل أن الإله محتاج إلى الإنسان ، والإنسان مستغن عن الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فصـــل

وهـذا الذى قد ذكره هذا البترك « سعيد بن البطريق » المعظم عند النصارى ، المحب لهم ، المتعصب لهم فى أخبارهم ، التى بيّن بها أحوالهم فى دينهم ، معظما لدينهم ، مع ما فى بعض الأخبار من زيادة فيها تحسين لما فعلوه ، وكثير من الناس ينكر ذلك ويكذبه ، مثل ماذكره من ظهور الصليب ، ومن مناظرة أريوس وغير ذلك ، فإن كثيراً من الناس يخالفه فيما ذكره ، ويذكر أن أمر

ظهور الصليب كان بتدليس وتلبيس وحيلة ومكر، ويذكر أن أريوس لم يقل قط . إن المسيح خالق .

ولكن المقصود أنه إذا صدق هذا فيما ذكره ، فإنه بين أن عامة الدين الذى عليه النصارى ليس مأخوذاً عن المسيح ، بل هو مما ابتدعه طائفة منهم وخالفهم فى ذلك آخرون ، وأنه كان بينهم من العداوة والاختلاف فى إيمانهم وشرائعهم ما يصدق قوله تعالى (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [المائدة : ١٤] .

والنصارى يقرون بما ذكره هذا البترك أن أول ملك أظهر دين النصارى، هو قسطنطين، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، وهو نصف الفترة التى بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فإنها كانت ستمائة سنة، أو ستمائة وعشرين.

وإذا كان النصارى مقرين بأن ما هم عليه من الإيمان صنفه طائفة منهم مع مخالفة آخرين لهم فيه ليس منقولا عن المسيح ، فكذلك ما هم عليه من تحليل ما حرمه الله ورسوله ، وكذلك قتال من خالف دينه وقتل من حرم الخنزير، مع أن شريعة الإنجيل تخالف هذا ، وكذلك الختان ، وكذلك تعظيم الصليب .

وقد ذكروا مستندهم فى ذلك أن قسطنطين رأى صورة صليب كواكب .

ومعلوم أن هذا لا يصلح أن ينبنى عليه شريعة ، فإن مثل هذا يحصل للمشركين عباد الأصنام والكواكب ما هو أعظم منه ، وبمثل هذا بدّل دين الرسل وأشرك الناس بربهم، وعبدوا الأوثان فإن الشيطان يخيل هذا وأعظم منه .

وكذلك الإزار الذى رآه من رآه ، والصوت الذى سمعه ، هل يجوز لعاقل أن يغير شرع الله الذى بعثت به رسله ، بمثل هذا الصوت والخيال الذى يحصل للمشركين عبّاد الكواكب والأصنام ما هو أعظم منه ؟ مع أن هذا الذى ذكروه عن « بطرس » رئيس الحواريين ، ليس فيه تحليل كل ما حرمه بل

قال: « ماطهره الله فلاتنجسه » ومانجسه الله في التوراة فقد نجسه ولم يطهره ، إلا أن ينسخه المسيح والحواري لم يبح لهم الخنزير وسائر المحرمات إن كان قوله معصوماً كما يظنون .

والمسيح صلى الله عليه وسلم لم يحل كل ماحرمه الله في التوراة وإنما أحل بعض ماحرم عليهم ، ولهذا كان من الأوصاف المؤثرة في قتال النصارى . كما قال تعالى (قَاتِلوا الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) [التوبة : ٢٩] .

وقد ذكر من لعنه بعض طوائف النصارى لبعض في مجامعهم السبعة وغير مجامعهم مايطول وصفه ، ويصدق قوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)وحينئذ فيقول هؤلاء . « من خالفنا لعناه » كلام لافائدة فيه ، فإن كل طائفة منهم لاعنة ملعونة .

فليس في لعنهم لمن خالفهم إحقاق حق ولا إبطال باطل وإنما يحق الحق بالبراهين والآيات التي جاءت بها الرسل كما قال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وقد تقدم ماذكره سعيد بن البطريق من أخبارهم أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام ، يعبده المشركون ، فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقاً أعظم منه ، كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء . كما كان بالإسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه « ميكائيل »

فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك ، وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ، ويذبحون له .

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق . إلى الشرك بمخلوق أعلى منه ، أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب ، كالشمس والزهرة وغير ذلك .

فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء .

ولهذا قال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٭ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٭ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

فصــــل

وقد حصل بما ذكرناه الجواب عن قولهم : « وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به » .

وعرف أن هذا قول من أقوال النصارى ، وأن لهم أقوالا أخر تناقض هذا .

وكل فريق منهم يكفر الآخر إذ كانوا ليسوا على مقالة تلقوها عن المسيح والحواريين ، بل هي مقالات ابتدعها من ابتدعها منهم ، فضلوا بها وأضلوا كما قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا

أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) [المائدة : ٧٧] فذكر سبحانه أنهم ضلوا من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً فإنه يلزمهم الضلال الذى أصله الجهل .

ولا يوجد قط من هو نصرانى باطناً وظاهراً إلا وهو ضال جاهل بمعبوده وبأصل دينه ، لا يعرف من يعبد ، ولا بماذا يعبد ، مع اجتهاد من يجتهد منهم فى العبادة والزهد ومكارم الأخلاق .

ثم يقال على هؤلاء قولهم « طبيعتان » ويقولون أيضاً : « له مشيئتان » ويقولون أيضاً « إنه شخص واحد لم يزد عدده » فإنهم يقولون « إنهما اتحدا» كما ذكروه فى كتابهم هذا ، لا يقولون بشخصين لئلا يلزمهم القول بأربعة أقانيم.

ومنهم من يقول « هما جوهران » ومنهم من يقول « هو جوهر واحد » .

فإن قالوا « هو جوهر واحد » صار قولهم من جنس قول اليعقوبية ، لاسيما وهم يقولون « إن مريم ولدت اللاهوت والناسوت ، وإن المسيح اسم يجمع اللاهوت والناسوت ، وهو إله تام وإنسان تام » .

فإذا كان جوهراً واحداً لزم ذلك أن يكون اللاهوت قد استحال وتغير ، وكذلك الناسوت ، فإن الاثنين إذا صارا شيئاً واحداً فذلك الشىء الثالث ليس هو إنساناً محضاً ، ولا إلهاً محضاً ، بل اجتمعت فيه الإنسانية والإلهية .

ومع أنه قد كان الإنسان والإله اثنين متباينين ــ وهما فى اصطلاحهم ــ جوهران ، فإذا صار الجوهران جوهراً واحداً ، لا جوهرين ، فقد لزم ضرورة أن يكون هذا الثالث ليس هو إلهاً محضاً ولا إنساناً محضاً ، ولا هو جوهران ، إنساناً وإلهاً ، فإن هذين جوهران لا جوهر واحد ، بل هو شىء ثالث ، اختلط وامتزج واستحال من هذا وهذا ، فتبدلت حقيقة اللاهوت وحقيقة الناسوت، حتى صار هذا الجوهر الثالث الذى ليس لاهوتاً محضاً ولا ناسوتاً محضاً كسائر ما يعرف من الاتحاد .

فإن كل اثنين اتحدا فصارا جوهراً واحداً ، فلابد فى ذلك من الاستحالة فى اتحاد الماء واللبن والخمر، وسائر مايختلط بالماء ، بخلاف الماء والزيت فإنهما جوهران كما كانا ، لكن الزيت لاصق الماء وطفا عليه لم يتحد به ، ومثل اختلاط النار والحديد ، فإن الحديد استحال عما كان ولهذا إذا بُرِّدَ عاد إلى ما كان . وهكذا اتحاد الهواء مع الماء والتراب حتى يصير بخاراً أو غباراً ، وأمثال ذلك.

وفى الجملة فجميع مايعرفه الناس من الاتحاد إذا صار الإثنان واحدا وارتفعت الثنوية ، فلابد من استحالة الاثنين .

وإذا قيل : فيه طبيعة الاثنين ، ومشيئة الاثنين كما فى الماء واللبن قوة الماء وقوة اللبن .

قيل : لابد — مع ذلك — أن تتغير كل قوة عما كانت عليه فتنكسر الأخرى ، كما يعرف فى سائر صور الاتحاد ، إذا اتحد هذا مع هذا كسر كل منهما قوة الآخر عما كانت عليه .

كما إذا اتحد الماء البارد بالماء الحار انكسرت قوة الحر وقوة البرد عما كانت ، فيبقى المتحد مرتبة متوسطة بين البرد المحض والحر المحض .

وكذلك الماء واللبن وسائر صور الاتحاد .

وعلى هذا ، فيجب إذا اتحد أن تتغير قوة اللاهوت وطبيعته ومشيئته ، عما كانت ، وتنكسر قوة الناسوت وبطبيعته ومشيئته عما كانت عليه ، ويبقى هذا المتحد ممتزجا من لاهوت وناسوت ، وذلك يستلزم نقص اللاهوت عما كان وبطلان كماله ، كما أنه يوجب من كمال الناسوت مالم يكن .

فكل مايصفون به الناسوت من اتحاد اللاهوت به فهو مستلزم من نقص اللاهوت وسلب كماله الذى يختص به ، وبطلان صفاته التامة بحسب ماحصل له من ذلك الناسوت بحكم الاتحاد ، وإلا فإن كان اللاهوت كما كان ، فلا اتحاد بوجه من الوجوه ، بل الناسوت كما كان .

ثم هما اثنان لم يتحد أحدهما بصاحبه ولا صارا شيئاً واحداً .

وأيضاً فمع كون الجوهر واحداً يجب أن تكون مشيئته واحدة ، وطبيعته واحدة فإنه لو كان مشيئتان ، لكان محل إحدى المشيئتين ، إن كان هو محل الأخرى مع تضاد موجب المشيئتين ، لزم اجتماع الضدين في محل واحد .

فإن الإرادة الناسوتية ، تطلب الأكل والشرب ، وأن تعبد وتصوم وتصلى .

واللاهوتية : توجب امتناعه من إرادة هذه الأشياء .

وإرادته أن يخلق ويرزق ويدبر العالم . والناسوتية تمتنع من هذه الإرادة .

فإذا قامت الإرادتان والكراهتان بمحل واحد ، لزم أن يكون ذلك الجوهر الموصوف بهذا وهذا مريداً للشيء ممتنعاً من إرادته غير مريد له كارهاً للشيء غير كاره له ، وذلك جمع بين النقيضين من وجوه متعددة .

ويمتنع أن يقوم بالموصوف الواحد إرادتان جازمتان بالشيء ونقيضه ، أو كراهيتان جازمتان للشيء أو نقيضه ، والفعل لا يقع إلا بإرادة جازمة مع القدرة . فاللاهوت ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومتى شاء شيئاً مشيئة جازمة ، فإنه على ماشاء قادر .

والناسوت لا يفعل شيئاً من خصائص البشرية حتى يريد ذلك إرادة جازمة .

والناسوت يمتنع أن يريد إرادة اللاهوت ويكره ذلك ، فيصير الشيء الواحد مريداً للشيء إرادة جازمة ، قادراً عليه ليس مريداً له إرادة جازمة ، بل هو عاجز عنه .

ويلزم أيضاً إذا كانا جوهراً واحداً ، وقد ولد وصُفِعَ وضُرِبَ وصُلِبَ ، ومات ، وتألم أن تكون نفس اللاهوت ضرب وصلب ومات وتألم ، كما تقوله اليعقوبية ، وهذا لازم لجميع النصارى وهو موجب عقيدة إيمانهم .

فإن قالوا : بل هما جوهران مع كونهما عندهم شخصاً واحداً لا تتعدد فيه ، كما يقوله من يقوله من الملكية ، كان هذا كلاماً متناقضاً .

فإن الشخص الواحد الذى لا تعدد فيه ، جوهر واحد ، ولهذا حُدَّ بأنه جسم.

وإن شبهوا ذلك بالنفس مع الجسد ، لزمهم المحذور.

فإن الإنسان كما يقال فيه : إنه شخص واحد يقال : إنه جوهر واحد، بما بينهما من الاتحاد ، ولهذا يُحَدُّ بأنه جسم حساس : نام ، متحرك بالإرادة ، ناطق ، هذا يتناول جسده وروحه ، وللنفس والبدن مشيئة واحدة.

ومتى شاء الإنسان الفعل مشيئة جازمة مع قدرته عليه فعله ولم يكن معه جوهر آخر له مشيئة غير مشيئته.

فإذا شبهوا اتحاد اللاهوت بالناسوت بهذا، لزمهم أن يكونا جوهراً واحداً، ومشيئة واحدة ، وهذا قول اليعقوبية.

ولهذا تتألم النفس بما يحدث فى الجسد من الآلام ، ويتألم الجسم الذى هو القلب الصنوبرى ، بما يحدث فى النفس من الآلام.

فإذا تألمت النفس ، تألم قلب الجسد وغير قلب الجسد ، وكذلك إذا تألم الجسد ، وإذا صفع الجسد وصلب وصفع وبصق فى وجهه ، ووُضع الشوك عليه وتألم ومات ، كان ذلك كله حالاً بالنفس ، ونالها من إهانة الصفع وألم النزع ما ينالها، كما يسلمون لله أنه حلّ بنفس المسيح وبدنه ، فإنهم لا يتنازعون أن الإله حل ببدن المسيح ونفسه ، وإنما يتنازعون فى اللاهوت ، مع النفس مفارقة للبدن بالموت.

واللاهوتِ ـ عندهم ـ لم يفارق الناسوت بالموت ، بل صعد إلى السماء.

والمسيح الذى هو إله تام وإنسان تام ، يقعد عن يمين أبيه ، وكذلك يجىء يوم القيامة.

وأيضاً فالبدن إذا كانت فيه النفس ، تتغير صفاته وأحكامه . وتختلف أحواله . باجتماعها وافتراقها.

والنفس إذا كانت فى البدن تختلف صفاتها وأحكامها .

فيلزم أن يكون ناسوت المسيح مخالفاً فى الصفات والأحكام لسائر النواسيت، وأن يكون اللاهوت لما اتحد به ، تغيرت صفاته وأحكامه وهذا هو الاستحالة والتغير والتبدل للصفات ، مع أن ناسوت المسيح كان من جنس نواسيت البشر ، لم يظهر عليه إلا ما ظهر مثله على غيره ، بل ظهر على غيره من خوارق العادات أكثر مما ظهر عليه .

وبالجملة فأى مثل ضربوه للاتحاد ، كان حجة عليهم ، وظهر به فساد قولهم .

وإن قالوا : هذا أمر لا يعقل ، بل هو فوق العقول ، كان الجواب من وجهين .

أحدهما : أنه يجب الفرق بين ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه ، وبين ما يعجز العقل عن تصوره ومعرفته .

فالأول : من محالات العقول ، والثانى من مجازات العقول ، والرسل يخبرون بالثانى .

وأما الأول :ـ فلا يقوله إلا كاذب ، ولو جاز أن يقول هذا ، لجاز أن يقال : إن الجسم الواحد يكون أبيض أسود فى حال واحدة ، وإنه ـ بعينه ـ يكون فى مكانين ، وإن الشىء الواحد يكون موجودا معدوما فى حال واحدة ، وأمثال ذلك مما يعلم العقل امتناعه .

وقول النصارى مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، ليس هو مما يعجز عن تصوره .

يوضح هذا ، أنه لو قال قائل فى مريم أم المسيح « امرأة الله وزوجته » فإنه نكحها نكاحاً عقلياً كما يقولون : إن المسيح وَلَدُه وِلادةً عقلية ، لم يكن هذا القول أفسد فى العقل من قولهم فى المسيح ، كما قد بسطناه فى موضعه ، وهم يكفّرون من يقول ذلك ، ويحتجون بالعقل على فساده .

وإذا قال : «هذا فوق العقل» لم يقبلوه ، وكذلك كل طائفة من طوائفهم احتجت على الأخرى بالعقل .

وإذا قالوا : « قولنا فوق العقل » لم يقبلوا هذا الجواب .

فإن كان هذا الجواب صحيحاً ، فيجب أن لا يبحث في شيء من الإلهيات بالعقل ، بل يقول كل مبطل ما شاء من الباطل ، ويقول : كلامي فوق العقل كما يقوله أصحاب الحلول والاتحاد والوحدة ، والذين يقولون : إن وجود الخالق وجود المخلوق ، ويقولون : إن هذا فوق العقل ، وإنما نعلم بالذوق لا بالسمع ولا بالعقل .

الوجه الثاني : ـ أن يقال ما يعجز العقل عن تصوره إذا أخبرت به الأنبياء عليهم السلام قُبِلَ منهم لأنهم يعلمون ما يعجز غيرهم من معرفته .

وهذه الأقوال لم يقل الأنبياء شيئاً منها ، بل نفس فِرَقِ النصارى قالوها بآرائهم ، وزعموا أنهم استنبطوها من بعض ألفاظ الكتب .

فيقال لمن قالها منهم : أنت تتصور ما تقول أم لا تتصوره وتفهمه وتعقله؟

فإن قال : لا أتصور ما أقول ولا أفقهه ولا أعقله ، قيل له : فقد قلت على الله ما لا تعلم ، وقَفَوْتَ ما ليس لك به علم ،

ومن أعظم القبائح المحرمة في جميع الشرائع أن يقول الإنسان برأيه على الله قولاً لا يتصوره ولا يفهمه .

وجميع العقلاء يعلمون أن من قال قولا وهو لا يتصوره ولا يفقهه فإن قوله مردود عليه غير مقبول منه ، وإن قوله من الباطل المذموم ،

وإن قال قائلهم : إني أفقه ما أقول وأتصوره وأعقله ، قيل له : بَيِّنْهُ لغيرك حتى يفقهه ويعقله ويتصوره ، ولا تقل : « هو فوق العقل ، بل هو قول قد عقلته وفقهته » . وهذا تقسيم لا محيد لهم عنه .

فإنهم إن كانوا يفقهون ما يقولون ويعقلونه ، لزم أن يكون معقولا .

وإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه ، لزم أنهم قالوا على الله مالا يفقهونه ولا يعقلونه ، قولاً برأيهم وعقلهم ، لا نقلا لألفاظ الأنبياء ، فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم ، لم يكن عليه أن يفقه ويعقل ما يقول .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نَضَّر الله امرءا ، سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فقد يحفظ الرجل كلاما ، فيبلغه غيره وهو لا يفقه معناه ولا يعقله .

فمن نقل لفظ التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ألفاظ سائر الأنبياء ، لم نطالبه ببيان معناه .

بخلاف من ادّعى أنه فهم ما قاله الأنبياء وعَبَّر عن ذلك بعبارة أخرى ، فإنه يقال له : إن كنت فهمت ما قالوه ، فهو معنى واحد ، عبَّروا عنه بعبارة ، عَبَّرْتَ عنه بعبارة أخرى ، كالترجمان ، فهذا يعقل ما يقول ويفقهه .

وإن قال : إني لم أفهم كلامهم ، أو لم أفهم ما قلته ، فقد اعترف بجهله وضلاله وأنه من الذين لم يفهموا كلام الأنبياء عليهم السلام ، ولم يفقهوا ما قالوه هم .

فلو قالوا : لم نفهم كلام الأنبياء وسكتوا ، لكانوا أسوة أمثالهم من الجهال بمعاني كلام الأنبياء .

وأما إذا وضعوا عبارة وكلاماً ابتدعوه ، وأمروا الناس باعتقاده وقالوا : هذا هو الإيمان والتوحيد : وقالوا : إنا ـ مع هذا ـ لا نتصور ما قلناه ولا نفقهه ولا نعقله ، فهؤلاء من الذين يقولون على الله مالا يعلمون ، ويفترون على الله وعلى كتب الله وأنبياء الله بغير علم ، بل يقولون الكذب المفترى ، والكفر الواضح ، ويقولون ـ ذلك ـ إنا لا نعقله ، وهذا حال النصارى بلا ريب .

وهذا الموضع غلط فيه طائفتان من الناس : ١ ـ غالية غَلَتْ في المعقولات .

حتى جعلت ما ليس معقولا من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول.

٢ ـ وطائفة جَفَتْ عنه ، فردت المعقولات الصريحة وقدمت عليها ماظنته من السمعيات والحسيات .

وهكذا الناس فى السمعيات نوعان ، وكذلك هم فى الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان .

فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً . بخلاف الباطل ، فإنه مختلف متناقض ، كما قال تعالى فى المخالفين للرسل (وَالسَّماءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۞ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)، [سورة الذاريات : ٧ ـ ٩] . وإن ما علم بمعقول صريح ، لا يخالفه قط ، لاخبر صحيح ، ولا حس صحيح .

وكذلك ما علم بالسمع الصحيح ، لا يعارضه عقل ولا حس .

وكذلك ما علِمَ بالحس الصحيح ، لا يناقضه خبر ولا معقول .

والمقصود هنا ، الكلام مع من يعارض المعقولات بسمع أو حس .

فنقول لفظ « المعقول » يراد به المعقول الصريح الذى يعرفه الناس بفِطَرِهم التى فُطِرُوا عليها ، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض ، كما يعلمون تماثل المتماثلين ، واختلاف المختلفين ـ أعنى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين ـ فإن لفظ « الاختلاف » يراد به هذا وهذا .

وهذه المعقولات فى العلميات والعمليات هى التى ذم الله من خالفها بقوله (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [سورة الملك : ١٠] وقوله : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) [سورة الحج : ٤٦] ونحو ذلك .

وأما ما يسميه بعض الناس « معقولات » ويخالفه فيه كثير من العقلاء ، مثل القول بتماثل الأجسام ، وبقاء الأعراض ، فإن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة ، التى لا تقبل القسمة ، أو من المادة والصورة ، وأن ما لا يتناهى من

الأمور المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع وجوده ، إما فى الماضى والمستقبل ، أو فى الماضى فقط ، أو إن الكليات موجودة فى الخارج جواهر قائمة بأنفسها ، أو إن لنا دهراً أو مادة هى جوهر عقلى قائم بنفسه ، أو إنه يمكن وجود جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه ، ونحو ذلك مما يعده من يعده من النُّظَّار ، أنه عقليات وينازعهم فيه آخرون .

فليس هذا هو العقليات التى لا يجب لأجلها رد الحس والسمع ، وينبنى عليها علوم بنى آدم ، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية .

بخلاف العقليات الصريحة ، مثل كون الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد ، فإن هذا معلوم بفطرة الله التى فطر الناس عليها .

فإذا جاء الحس أو الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك ، مثل أن يرى الشخص الواحد فى « عرفات » وهو فى بلده لم يبرح ، أو يرى قاعداً فى مكانه ، وهو فى مكان آخر ، أو ترى أنه أغاث من استغاث به ، أو جاء طائراً فى الهواء ، مع العلم بأنه فى مكانه لم يتغير منه ـ فهذا إنما هو جِنِّىٌّ تصوَّر بصورة ذلك الشخص ليس هو نفسه ، فهذا يشبهه ليس هو إياه .

والحسيات إن لم يميز بينها بالعقل ، وإلا فالحس يغلط كثيرا ، فكذلك من ادَّعى فيما حصل له من المكاشفة والمخاطبة أمراً يخالف صريح العقل يعلم أنه غالط فيه ، كمن قال من القائمين بوحدة الوجود : « إنى أشهد بباطنى وجوداً مطلقاً مجرداً عن الأسماء والصفات ؛ لا اختصاص فيه ولا قيد البتة » فلا ينازع فى هذا ، كما قد ينازعه بعض الناس .

لكن يقال له : من أين لك أن هذا هو رب العالمين الذى خلق السموات والأرض ؟ فإن كون ماشهدته بقلبك هو الله ، أمر لا يدرك بحس القلب ، وإذا ادَّعيت أنه حصل لك فى الكشف ما يناقض صريح العقل ، علم أنك

غالط ، كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة التلمسانى :

يَاصَاحِبِي أَنْتَ تنهَانِي وَتَأْمُرنِي ... وَالْوَجْدُ أَصْدَقُ نَهَّاءٍ وَأَمَّارِ
فإنْ أطِعْكَ وَأَعْصِ الْوَجْدَ عُدْتُ عَمًا ... عن الْعِيَانِ إلَى أوْهَامِ أخْبَارِ
وَعَيْنُ مَا أَنْتَ تَدْعُونِي إلَيْهِ إذَا ... حَقَّقْتَهُ تَرَهُ الْمَنْهِيَّ يَاجَارِ

فيقال له :وجْدُكَ وذَوقك لم يفدك إلا شهود وجود مطلق بسيط ، لكن من أين لك أن هذا هو رب العالمين؟ بل من أين لك أن هذا ثابت فى الخارج من نفسك كلياً مطلقاً مجرداً ؟ بل إنما تشهده كلياً مطلقاً مجرداً فى نفسك .

ولست تعلم بحس ولا عقل ولا خبر أن هذا هو الخارج .

كما أن النائم إذا شهد حِسُّهُ الباطن أشياء لم يكن معه يقين أن هذا فى الخارج .

فإذا عاد إليه عقله علم أن هذا كان فى خياله فى المنام .

وكذلك السكران وغيره ممن يضعف عقله فهذا يشهد بحسه الباطن ، أو الظاهر أشياء وقد ضعف عقله عن كُنْهِ ذلك لما ورد عليه ، إذا ثاب إليه عقله ، علم أن ما شهده كان فى نفسه وخياله لا فى الخارج عن ذلك .

فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط ، وإن كان صادقاً فيما يشهده فى الحس الباطن أو الظاهر ، لكن الغلط وقع فى ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا فى مجرد الحس ، فإن الحس ليس فيه علم بنفى أو إثبات .

فمن رأى شخصاً ، فليس فى الحس إلا رؤيته .

وأما كونه زيداً أو عمراً ، فهذا لا بد فيه من عقل يميز بين هذا وهذا ، ولهذا كان الصغير والمجنون والبهيم والسكران والنائم ونحوهم ، لهم حس ، ولكن لعدم العقل لا يميزون أن هذا المشهود هو كذا أم كذا ، بل قد يظنون ظنوناً غير مطابقة . قال تعالى: (والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ

مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [سورة النور : ٣٩] .

فالظمآن ، يرى أن ما ظنه ماء ولم يكن ماء لاشتباهه بالماء والحس لم يغلط ، لكن غلط عقله .

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، معصومون ، لا يقولون على الله إلا الحق ، ولا ينقلون عنه إلا الصدق .

فمن ادّعى فى أخبارهم ، ما يناقض صريح المعقول ، كان كاذباً ، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح ، أو ذلك المنقول ليس بصحيح .

فما علم يقيناً أنهم أخبروا به ، يمتنع أن يكون فى العقل ما يناقضه .

وما علم يقيناً أن العقل حكم به ، يمتنع أن يكون فى أخبارهم ما يناقضه .

وقول أهل الإلحاد من النصارى وغيرهم ـ سواء ادّعوا الاتّحاد العام أو الخاص ـ قد علم بصريح العقل بطلانه ، فيمتنع أن يخبر به نبى من الأنبياء ، بل الأنبياء عليهم السلام قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته ، لا بما يعلم العقل بطلانه ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول .

ومن سوى الأنبياء ليس معصوماً ، فقد يغلط ويحصل لا فى كشفه وحسه وذوقه وشهوده أمور يظن فيها ظنوناً كاذبة .

فإذا أخبر مثل هذا بشىء ، علم بطلانه بصريح العقل ، علم أنه غالط .

وإذ أخبر غير الأنبياء بما يعجز عقل كثير من الناس عن معرفته ، لم يلزم أن يكون صادقاً ولا كاذباً ، بل لا يحكم بصدقه ولا كذبه إلا بدليل ، لاحتمال أن يكون غالطاً ، واحتمال أن يكون قد علم ما يعجز غيره عن معرفته .

وإذا قال القول المعلوم فساده بصريح العقل من ليس بنبى ، وقال : إن هذا فوق العقل ، أو هذا وراء طور العقل والنقل . أو هذا لا نعرفه إن لم نترك العقل والنقل ، أو قال :

هَمْ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وأَخْرَقُوا الـ سِّيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ
مَجَانِينُ إلاَّ أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ عَزِيزٌ على أبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

قيل : وهذا يمتنع أن يقوله نبي ، أو ينقله صادق عن نبي ، فإن أقوال الأنبياء لاتناقض العقل الصريح ، فكيف يقبل هذا ممن ليس بنبي ؟

وإن قال كما يقوله النصارى أوغيرهم : إن هذا دل عليه كلام الأنبياء ، أو فهمناه من كلام الأنبياء .

قيل لهم: الكلام فى معانى الألفاظ التى نطقت بها الأنبياء شيء ، والكلام الذى فهمتموه عنهم شيء آخر .

ولو قُدِّرَ أن ماذكرتموه أنتم أو غيركم ، فهمتموه من كلام الأنبياء ليس مخالفاً لصريح العقل ، لم نجزم بأن قائل ذلك يتصور ماقال، بل قد يكون فهم من كلامهم مالم يريدوه .

فكيف إذا كان هو ـ نفسه ـ لم يتصور ماقال ؟ بل هم معترفون بأنه غير معقول له ، وهو لايفهمه ، فكيف إذا كان الذى قاله معلوم الفساد بصريح العقل .

فهذه ثلاث مقدمات لو فهمه ، ثم قال : إنى فهمت كلامهم ، لم يكن فهمه حجة .

فكيف إذا قال : إنى لم أفهمه ، وإن هذا فوق طور العقل ؟

ولو قال هذا : لم يكن قوله حجة ، ولم يجب تصديقه من أن الأنبياء عنوا بكلامهم المعنى الذى اعترفوا أنه فوق طور العقل ، فكيف إذا عرف أن ذلك المعنى باطل ، يمتنع أن يقوله عاقل ، لانبي ولا غير نبي ؟!

فصــــــل

قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إنهم يقولون لنا : إذا كان اعتقادكم

فى البارى تعالى أنه واحد ، فما حملكم على أن تقولوا : أب وابن وروح قدس ، فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون فى الله ثلاثة أشخاص مركبة أو ثلاثة آلهة ، أو ثلاثة أجزاء ، وأن له ابناً ؟ ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ، ابن المباضعة والتناسل ، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون؟

قالوا : وهم أيضاً ، لما كان اعتقادهم فى البارى جلت عظمته أنه غير ذى جسم وغير ذى جوارح وأعضاء . وغير محصور فى مكان ، فما حملهم على أن يقولوا : إن له عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساق ووجهه يوليه إلى كل مكان ، وجَنْب ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام . فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وذو أعضاء وجوارح ، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان فى ظُلَلٍ من الغمام ، فيظن من لا يعرف اعتقادهم أنهم يُجَسِّمُون البارى ، حتى إن قوماً منهم اعتقدوا ذلك واتخذوه مذهباً . ومن لم يتحقق اعتقادهم ، يتّهمهم بما هم بريئون منه .

قال : فقلت لهم : إنهم يقولون : إن العلة فى قولهم هذا ، أن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام ، فهو أن القرآن نطق به ، وإن ذلك غير ظاهر اللفظ ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء وأن ذاته تنتقل ، فهم يلعنونه ويكفرونه ، فإذا كفَّروا من يعتقد هذا ، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن لا يعتقدوه .

قالوا : وكذلك نحن أيضاً النصارى ، العلة فى قولنا : إن الله ثلاثة أقانيم ، أب ، وابن ، وروح قدس ، أن الإنجيل نطق به . والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة ، والأجزاء والإبعاض وغير ذلك مما يقتضى الشرك والتكثير ، وبالأب والابن غير أبوة وبنوة نكاح أو تناسل ، أو جماع ، أو مباضعة .

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة ، أو ثلاثة آلهة متفقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء متفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة ،

أو أعراض، أو قوى، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض. والتشبيه ، أو بنوة نكاح ، أو تناسل ، أو مباضعة، أو جماع، أو ولادة زوجة، أو من بعض الأجسام، أو من بعض الملائكة ، أو من بعض المخلوقين ، فنحن نلعنه ونكفره ونحرمه .

وإذا لعنّا وكفّرنا من يعتقد ذلك ، فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعدُ أن لا نعتقده ، وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا : أب وابن وروح قدس ، لأن ظاهر ذلك يقتضي التكثير والتشبيه . ألزمناهم أيضاً - نحن - التجسيم والتشبيه لقولهم : إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجَنْب ، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان ، وأنه استوى على العرش من بعد أن لم يكن عليه ، وغير ذلك مما يقتضي ظاهره التجسيم والتشبيه .

والجواب من وجوه:

أحدها - أن يقال : من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه ، فهذا لا إنكار عليه ، بخلاف من ابتدع أقوالاً لم تقلها الرسل ، بل هي تخالف ما قالوه وحرّف ما قالوه ، إما لفظاً ومعنى، وإما معنى فقط ، فهذا يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف .

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، ويتبعون في ذلك أقوال رسله ، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل ، كما قال تعالى : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) [سورة الصافات : ١٨٠] أي عما يصفه الكفار المخالفون للرسل (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) [الصافات : ١٨١] لسلامة ما قالوه من النقص والعيب (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات : ١٨٢] .

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصّل، ونفي مجمل.

فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، كان معطلاً، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين، كان ممثلاً، والمعطل يعبد عدماً، والممثل صنما.

وقد قال تعالى: (لَيس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وهو ردٌّ على الممثلة (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وهو ردٌّ على المعطلة.

فوصفته الرسل بأنه حيٌّ منزه عن الموت، عليم منزه عن الجهل، قدير قوى عزيز، منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب، سميع بصير منزه عن الصمم والعمى، غنى منزه عن الفقر؛ جواد منزه عن البخل، حكم حليم؛ منزه عن السفه، صادق منزه عن الكذب، إلى سائر صفات الكمال، مثل وصفه بأنه ودود رحيم لطيف وقد قال تعالى: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ).

فالصمد اسم يتضمن إثباتَ صفات الكمال ونَفْيِ النقائص. وهو العليم الكامل في علمه، القدير الكامل في قدرته؛ الحكيم الكامل في حكمته.

ولنا مصنف مبسط في تفسير هذه السورة وآخر(١) في بيان أنها تعادل ثلث القرآن، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى «الصمد» وأن عامة ما قالوه حق؛ كقول من قال منهم: «إن الصمد الذى لا جوف له» ومن قال منهم: «إنه السيد الذى انتهى سؤدده» كما قيل: «إنه المستغنى عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه» وكما قيل: إنه العليم

(١) قوله: وآخر. يقصد به كتاب «جواب أهل العلم والإيمان، فيما أخبر به الرسول الرحمن من أن قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن» وقد طبع مرارا في القاهرة.

الكامل فى علمه، والقدير الكامل فى قدرته » إلى سائر صفات الكمال .

وذكر تعالى فى هذه السورة أنه أحد ، ليس له كفواً أحد ، فنفى بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفواً وبيّن أنه أحد لا نظير له .

وقال فى آية أخرى : (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [سورة مريم: ٦٥] وقال : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [سورة الشورى: ١١] وقال: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ)[سورة النحل: ٧٤] ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً) [سورة البقرة : ٢٢]

وماورد فى القرآن والسنة من إثبات صفات لله ، فقد ورد فى التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك .

فهو أمر اتفقت عليه الرسل ، وأهل الكتاب فى ذلك كالمسلمين .

وإذا كان كذلك ، فهم فى أماناتهم لم يقولوا ماقاله المسيح والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد فى كلام الأنبياء .

فليس فى كلام الأنبياء ـ لا المسيح ولا غيره ـ ذكر أقانيم لله ، لاثلاثة ولا أكثر ، ولا إثبات ثلاثة صفات ، ولا تسمية شىء من صفات الله ، ابناً لله ، ولاربًّا ، ولا تسمية حياته روحاً ، ولا أن لله ابناً هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وأنه خالق كما أن الله خالق ، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر ، لم تنقل عن نبى من الأنبياء .

فقالوا : فى شريعة إيمانهم : نؤمن بالله الأب ، مالك كل شىء ، صانع مايُرى وما لا يُرى ، وهذا حق .

ثم قالوا: وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلايق كلها ، مولود ليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، نور من نور ، مساوٍ للأب فى الذى الجوهر بيده أتقنت العوالم ، خلق كل شىء الذى من أجلنا ـ معشر الناس ـ ومن أجل خلاصنا نزل السماء ، وتجسّد من روح

القدس ، ومن مريم العذراء البتول ، وصار إنساناً و حُبِلَ به وولد من مريم وألم وصُلِبَ ودُفِنَ ، وقام في اليوم الثالث ، كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء .

ونؤمن بروح القدس المحيي ، وروح الحق المنبثق من أبيه ، أو الذى يخرج من أبيه روح محييه .

فأين كلام الأنبياء أن شيئاً من صفات الله أو من مخلوقاته يقال فيه : إنه أقنوم ، وإنا إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وإنه مساوٍ لله في الجوهر ، وإنه خالق كل شيء ، وإنه قعد عن يمين الله فوق العرش ، وإنه الذى يقضى بين الناس يوم القيامة ؟ !

وأين في كلام الأنبياء أن لله ولداً قديماً أزلياً ؟!

ومن الذى سمى كلام الله أو علمه أو حكمته ، مولوداً له وابنا له أو شيئا من صفاته مولوداً له أو ابناً له ؟ !

ومن الذى قال من الأنبياء : إنه مولود ، وهو ـ مع ذلك ـ قديم أزلى ؟!

وأين في كلامهم أن لله أقنوماً ثالثاً هو حياته ، ويسمى بروح القدس ، وأنه أيضاً رب حيٌّ محيي ؟!

فلو كان النصاري آمنوا بنصوص الأنبياء ، كما آمن المؤمنون ، لم يكن عليهم ملام .

ومن اعترض على نصوص الأنبياء ، كان لفساد فهمه ونقص معرفته .

ولكن هم ابتدعوا أقوالاً وعقائد ليست منصوصة عن أحد من الأنبياء عليهم السلام ، وفيها كفر ظاهر وتناقض بَيِّنٌ .

فلو قُدِّرَ أنهم أرادوا بها معنى صحيحاً ، لم يكن لأحد أن يبتدع كلاماً لم يأت به نبي يدل على الكفر المتناقض الذى يخالف الشرع والعقل ، ويقول :

إلى أن أردت به معنى صحيحاً من غير أن يكون لفظه دالا على ذلك ، فكيف والمراد الذى يفسرون به كلامهم فاسد متناقض كما تقدم ؟!

فهم ابتدعوا أقوالا منكرة وفسروها بتفسير منكر ، فكان الرد عليهم من كل واحد من الوجهين ، وهم ـ فى ذلك ـ نظير بعض ملاحدة المسلمين الذين يعتقدون إلهية بعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، ويصفون الله بصفات لم ينطق بها كتاب ، وهؤلاء ملحدون عند المسلمين .

بخلاف المؤمنين الذين آمنو بالله ورسله ، الذين آمنوا ، بما قالت الأنبياء ، ولم يبتدعوا أقوالا لم يأت بها الأنبياء ،وجعلوها أصل دينهم .

الوجه الثانى : ـ أن يقال : ماذكرتموه عن المسلمين كذب ظاهر عليهم . فهذا النظم الذى ذكروه ليس هو فى القرآن ، ولا فى الحديث ، ولا يعرف عالم مشهور من علماء المسلمين ، ولا طائفه مشهورة من طوائفهم ، يطلقون العبارة التى حكوها عن المسلمين ، حيث قالوا عنهم : « إنهم يقولون : إن لله عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساقا ووجهاً يوليه إلى كل مكان ، وجنباً » ولكن هؤلاء ركبوا من ألفاظ القرآن ـ بسوء تصرفهم وفهمهم ـ تركيباً زعموا أن المسلمين يطلقونه .

وليس فى القرآن مايدل ظاهره على ماذكروه فإن الله تعالى قال فى كتابه : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [سورة المائدة : ٦٤] واليهود أرادوا بقولهم « يد الله مغلولة » أنه بخيل ، فكذبهم الله فى ذلك ، وبيّن أنه جواد لا يبخل ، فأخبر أن يديه مبسوطتان ، كما قال : (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) [سورة الإسراء : ٢٩] فبسط اليدين . المراد به الجود والعطاء ، ليس المراد ما أوهموه من بسطه المجرد :

ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها ، صار من المعروف فى اللغة التعبير ببسط اليد عن العطاء .

فلما قالت اليهود «يد الله مغلولة» وأرادوا بذلك أنه بخيل ، كذبهم الله فى ذلك ، وبيّن أنه جواد ماجد .

وإثبات اليدين له موجود فى التوراة ، وسائر النبوات ، كما هو موجود فى القرآن .

فلم يكن هذا شيء يخالف ما جاءت به الرسل ، ولا ما يناقض العقل ، وقد قال تعالى لإبليس : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [سورة ص : ٧٥] فأخبر أنه خلق آدم بيديه ، وجاءت الأحاديث الصحيحة توافق ذلك .

وأما لفظ «عينين» فليس هو فى القرآن ، ولكن جاء فيه حديث .

وذكر الأشعرى عن أهل السنة حيث أنهم يقولون : إن لله عينين .

ولكن الذى جاء فى القرآن: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه : ٣٩] (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) [هود : ٣٧] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر : ١٣، ١٤] .

وأما قولهم « له وجه يوليه إلى كل مكان » فليس هذا فى القرآن، ولكن فى القرآن(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن: ٢٧، ٢٨] . وقوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[القصص : ٨٨]وقوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة : ١١٥] . وهذا قد قال فيه طائفة من السلف : فثمّ قبلة الله ، أى فثم جهة الله ، والوجه ، والجهة ، كالوعد والعدة ، والوزن والزنة .

والمراد بوجه الله وجهة الله ، الوجه ، والجهة والوجهة الذى لله يستقبل فى الصلاة ، كما قال فى أول الآية (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ)ثم قال(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللهِ) كما قال تعالى : (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [سورة البقرة : ١٤٢]

فإذا كان لله المشرق والمغرب ، ولكل وجهة هو موليها ، وقوله : موليها ، أي متوليها أي مستقبلها ، فهذا كقوله ، « فأينما تولوا فثم وجه الله » : أي فأينما تستقبلوا فثم وجهة الله وقد قيل : إنه يدل على صفة لله لكن يدل على أن ثم وجه الله وأن العباد أينما يولون ، فثم وجه الله ، فهم الذين يولون ويستقبلون ، لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان ، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه وكذب على المسلمين .

ومن قال بالقول الثاني من المسلمين ، فإن ذلك يقتضي أن الله محيط بالعالم كله ، كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء في دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد ، دون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وما أخبرت به الرسل عن الله تبارك وتعالى .

وأما قولهم : « وجنب » فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين ، أثبتوا لله جنباً ، نظير جنب الإنسان ، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) [سورة الزمر:٥٦] فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له ، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق ، كقوله تعالى : (بيت الله ، وناقة الله ، وعباد الله) بل وكذلك « روح الله » عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم .

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره ، مثل كلام الله ، وعلم الله ، ويد الله ونحو ذلك ، كان صفة له .

وفى القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان ، فإنه قال : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) والتفريط ليس فى شىء من صفات الله عز وجل .

والإنسان إذا قال : فلان قد فرّط فى جَنْبِ فلان أو جانبه ، لا يريد به أن التفريط وقع فى شىء من نفس ذلك الشخص ، بل يريد به أنه فرط فى جهته وفى حقه .

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق ، لا يكون ظاهره أن التفريط فى نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه ، بل ذلك التفريط لم يلاصقه ، فكيف يظن أن ظاهره فى حق الله أن التفريط كان فى ذاته .

وجنب الشىء وجانبه ، قد يراد به منتهاه وحده ، ويسمى جنب الإنسان جنباً بهذا الاعتبار ، قال تعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) [سورة السجدة : ١٦] وقال تعالى : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) [سورة آل عمران : ١٩١] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جَنْبٍ » .

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة الله ، كان الكلام فى هذا كالكلام فى سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات ، وفى التوراة من ذلك نظير ما فى القرآن .

وهذا يتبين بالوجه الثالث : وهو أن يقال ما فى القرآن والحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من وصف الله بهذه الصفات التى يسميها بعض الناس تجسيماً ، هو مثل ما فى التوراة وسائر كتب الأنبياء .

وهذا الذى فى التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب .

ولو كانوا هم ابتدعوا ذلك ، ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم ،

لكان النبي صلى الله عليه وسلم ذمّهم على ذلك ، كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص في مثل قوله : (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) [سورة آل عمران : ١٨١] وقوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [سورة المائدة : ٦٤] قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) [سورة ق : ٣٨]

فنفى عنه اللغوب الذى يظن فى لفظ الاستراحة الذى فى التوراة ، فإن فيها : أن الله خلق العالم فى ستة أيام ، ثم استراح فى يوم السبت ، فظن بعض الناس أنه تعب فاستراح .

ثم من علماء المسلمين مَنْ قال : إن هذا اللفظ حرّفوا معناه دون لفظه ، وهذا لفظ التوراة المنزلة . قاله ابن قتيبة وغيره .

وقالوا : معناه ثم ترك الخلق فعبّر عن ذلك بلفظ استراح .

ومنهم من قال : بل حرّفوا لفظه ، كما قال أبو بكر بن الأنبارى وغيرهم .

وقالوا : ليس هذا لفظ التوراة المنزلة وأما ما فى التوراة من إثبات الصفات فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك ، بل كان علماء اليهود إذا ذكروا شيئاً عن ذلك يقرهم عليه ، كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن حبراً من اليهود جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد إن الله عز وجل يوم القيامة يحمل السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك » : قال فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) الآية [سورة الزمر : ٦٧]

وفى التوراة : « إن الله كتب التوراة بإصبعه » .

وإذا ثبت أن مثل هذه النصوص فى التوراة والكتب المتقدمة باتفاق أهل الكتاب. ومما يشهد على ذلك من أخبار الرسول بنظير ذلك ، وترك إنكاره لما فى التوراة وتصديقه على ما كانوا يذكرونه من ذلك ، لم يكن المسلمون مختصين بذكر ماسموه تجسيما ، بل يلزم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ من ذلك نظير مايلزم المسلمين.

وقد افترق أهل الكتاب فى ذلك ، كما افترق فيه المسلمون ، منهم الغالى فى النفى والتعطيل ، ومنهم الغالى فى التشبيه والتمثيل .

والمسلمون ـ أئمتهم وجمهورهم ـ مقتصدون بين التعطيل والتمثيل ، وكذلك طائفة من أهل الكتاب .

والمقصود أنه إذا كانت هذه الصفات قد جاءت فى الكتب الإلهية ، التوراة وغيرها ، كما جاءت فى القرآن ، لم يكن للمسلمين بذلك اختصاص .

ولم يجز للنصارى أن يجعلوا ذلك نظير ما اختصوا به من التثليث والاتحاد فإن ذلك مختص بهم .

وهذه الصفات قد اشترك فيها الملل الثلاث لأن التثليث والاتحاد ليس منصوصاً عن أحد من الأنبياء عليهم السلام وهذه الصفات منصوصة فى القرآن والتوراة وغيرهما من كتب الأنبياء فكيف يجوز تشبيه هذا بهذا ؟!.

الوجه الرابع : ـ قولهم : « فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وأعضاء وجوارح » كلام باطل ، وذلك أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء ، وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء ، هى ـ فى حقهم ـ نظير تلك الأسماء فى حقه سبحانه وتعالى.

فسمى نفسه حيًّا ، كقوله : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ) [سورة البقرة : ٢٥٥] (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ) [سورة الفرقان : ٥٨] وسمى بعض عباده حيًّا

كقوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) [سورة الفرقان: ٥٨] مع العلم بأنه ليس الحيُّ كالحيِّ .

وسمى نفسه عليما ، كقوله : (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) وسمى بعض عباده عليما ، كقوله : (وبشّرناهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) فاعلم بأنه ليس العليم كالعليم .

وسمى نفسه حليما بقوله : (وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) وسمى بعض عباده حليما بقوله : (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) [الصافات : ١٠١] .

وسمى نفسه رءوفاً رحيما بقوله : (إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) وسمى بعض عباده رءوفاً رحيما، بقوله : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة : ١٢٨] وليس الرءوف كالرءوف ، ولا الرحيم كالرحيم .

وكذلك سمى نفسه ملكا جباراً متكبراً عزيزاً ، وسمى بعض عباده ملكا ، وبعضهم عزيزاً ، وبعضهم جباراً متكبراً ، وليس هو فى ذلك مماثلا لخلقه .

وكذلك سمى بعض صفاته علماً وقوة وأيداً ، وقدرة ورحمة ، وغضباً ورضى ويداً ، وغير ذلك .

وسمى بعض صفات عباده بذلك ، وليس علمه كعلمهم ، ولاقدرته كقدرتهم ولا رحمته وغضبه ، كرحمتهم وغضبهم . ولا يده كأيديهم .

وكذلك ما أخبر به عن نفسه من استوائه على العرش ، ومجيئه فى ظلل من الغمام وغير ذلك من هذا الباب ، ليس استواؤه كاستوائهم ، ولا مجيئه كمجيئهم .

وهذه المعانى التى تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى ، تذكر على ثلاثة أوجه : ١ ـ تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها ، كقوله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) [البقرة : ٢٥٥] (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ) [الذاريات : ٥٨] .

٢ ـ : وتارة تقيد بالمخلوق كقوله : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) [آل عمران : ١٨] .

٣ - وتارة تطلق مجردة .

فإذا قيدت بالخالق ، لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين .

فإذا قيل . علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك ، كانت هذه الإضافة توجب ما يختص به الرب الخالق ، وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق .

وكذلك إذا قيل : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) [المؤمنون : ٢٨] كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعبد وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختص بالرب عز وجل .

وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق ، تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تطلق على الخالق والمخلوق .

وهذه للناس فيها أقوال .

قيل : إنها حقيقة في الخالق مجاز في المخلوق ، كقول أبي العباس الناشيء .

وقيل بالعكس كقوله : غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة .

وقيل : حقيقة فيهما ، وهو قول الجمهور .

ثم قيل : هي مشتركة اشتراكا لفظيا وقيل : متواطئة وهو قول الجمهور .

ثم من جعل المشككة نوعاً من المتواطئة لم يمتنع - عنده - إذا قيل مشككة أن تكون متواطئة ، ومن جعل ذلك نوعاً آخر جعلها مشككة لا متواطئة .

وهذا نزاع لفظي ، فإن المتواطئة التواطؤ العام ، يدخل فيها المشككة .

إذ المراد بالمشككة ، ما يتفاضل معانيها في مواردها ، كلفظ الأبيض الذي يقال على البياض الشديد ، كبياض الثلج ، والخفيف كبياض العاج ، والشديد أولى به .

ومعلوم أن مسمى البياض في اللغة ، لا يختص بالشديد دون الخفيف .

فكان اللفظ دالا على ما به الاشتراك ، وهو المعنى العام الكلي ، وهو متواطيء بهذا الاعتبار ، وهو باعتبار التفاضل يسمى مشككاً .

وأما إذا أريد بالتواطيء ، ما تستوي معانيه : كانت المشككة نوعاً آخر .
لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عُرْفٌ حادث ، وهو خطأ أيضاً .

فإن عامة المعاني العامة تتفاضل ، والتماثل فيها في جميع مواردها - بحيث لا تتفاضل في شيء من مواردها - إما قليل وإما معدوم .

فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة ، بل مشككة ، كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة تختص بها ، وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين ، وقد قال مع ذلك : إنه « ليس كمثله شيء » وإنه « لم يكن له كفواً أحد » وأنكر أن يكون له سَمِيٌّ ، كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق ، قد أتي من سوء فهمه ونقص عقله ، لا من قصور في بيان الله ورسوله ، ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة .

فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عَرَضٌ مُحْدَثٌ باضطرار ، أو اكتساب ، فمن نفسه أُتِيَ ، وليس في قولنا علم الله ما يدل على ذلك .

وكذلك من فهم من قوله (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)[المائدة : ٦٤] ، و (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص : ٧٥] ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه ، فمن نفسه أُتِيَ ، فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات .

وكذلك إذا قال :(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [الفرقان : ٥٩] من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق ، كما يفهم من قوله (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) فمن نفسه أُتِيَ فإن ظاهر اللفظ يدل على استواء يضاف إلى الله عز وجل كما يدل في تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد .

وإذا كان المستوي ليس مماثلاً للمستوي ، لم يكن الاستواء مماثلاً للاستواء .

فإذا كان العبد فقيراً إلى ما استوى عليه ، يحتاج إلى حمله .

وكان الرب عز وجل غنياً عن كل ماسواه ، والعرش وماسواه فقيراً إليه ، وهو الذى يحمل العرش ، وحملة العرش ، لم يلزم إذا كان الفقير محتاجاً إلى ما استوى عليه أن يكون الغنى عن كل شىء وكل شىء محتاج إليه ، محتاجا إلى ما استوى عليه .

وليس فى الظاهر كلام الله عز وجل مايدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك ، بل توهم هذا من سوء الفهم لامن دلالة اللفظ .

لكن إذا تخيل المتخيل فى نفسه أن الله مثله ، تخيل أن يكون استواؤه كاستوائه ، وإذا عرف أن الله كمثله شىء ، لافى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، علم أن استواءه ليس كاستوائه ، ولا مجيئه كمجيئه ، كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ، ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه .

وما بين الأسماء كالمعنى العام الكلى كما بين قولنا ، حى وحى وعالم وعالم .

وهذا المعنى العام الكلى المشترك ، لا يوجد عاماً كلياً مشتركاً إلا فى العلم والذهن ؛ وإلا فالذى فى الخارج أمر يختص بالموصوف .

فصفات الرب عز وجل ، مختصة به ، وصفات المخلوق مختصة به ، ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق .

الوجه الخامس : ـ قولهم : « لما كان اعتقادهم فى البارى جلت قدرته أنه غير ذى جسم استعمال منهم للفظ الجسم فى القدر والغلظ لا فى ذى القدر والغلظ ، وهذا أحد مَوْرِدَىِ استعماله وهو الأشهر فى لغة العامة ، فيقولون : هذا الثوب له جسم ، وهذا ليس له جسم ، أى هذا له غلظ وكثافة دون هذا .

ولكن النظار أكثر ما يستعملون لفظ « الجسم » فى نفس ذى القدر فيقولون : للقائم بنفسه ؛ ذى القدر : إنه جسم .

وهذا اللفظ لما كثر استعماله فى كلام النُّظَّار ، تفرقوا فى معانيه لغة وعقلا

وشرعاً ، تفرقاً ضل به كثير من الناس، فإن هذا اللفظ أصله فى اللغة هو الجسد.

قال غير واحد من أهل اللغة كالأصمعى وأبى زيد وغيرهما : الجسم هو الجسد:
هذا إنما يستعمله أهل اللغة فيما كان غليظاً كثيفاً ، فلا يسمون الهواء
جسماً ولا جسداً ، ويسمون بدن الإنسان جسداً .

وقد تقدم أن الجسم يراد نفس الجسد ، ويراد به قدر الجسد وغلظه ،
قال تعالى : (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) [البقرة : ٢٤٧] وقال تعالى
(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) [المنافقون : ٤] وقد يراد به هذا وهذا .

ثم إن أهل النظر استعملوا لفظ « الجسد » فى أعم من معناه فى اللغة ،
كما فعلوا مثل ذلك فى لفظ « الجوهر » ولفظ « العرض» ولفظ « الوجود»
ولفظ « الذات » وغير ذلك .

فاستعملوا لفظ « الجسم » فيما يقوم بنفسه ، وتمكن الإشارة إليه
الحسية المختلفة .

ثم تنازعوا نزاعاً عقلياً فيما يشار إليه ، كالهواء والنار والتراب والماء وغير ذلك،
هل هو مركب من الجواهر المنفردة التى لا تقبل القسمة، أو من المادة والصورة؛
أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا ، على ثلاثة أقوال قد بسط الكلام
عليها فى غير هذا الموضع .

فمن اعترف أنها مركبة من هذا أو هذا ؟ يلزمه ـ إذ قال : إن الله جسم ـ
أن يكون الله مركباً من هذا أو هذا .

ولهذا قالوا : إن هذا باطل وأوجبوا ـ على أصلهم ـ نفى مسمى هذا الاسم
وهذا هو المشهور عند هؤلاء .

ومن اعتقد أنه ليس مركباً ، لا من هذا ، ولا من هذا ، قال : لا يلزمنى
إذا قلت : هو جسم ، أن يكون مركباً .

فمن هؤلاء من أطلق عليه لفظ « الجسم » وأراد به القائم بنفسه أو الموجود، كما أطلق هؤلاء لفظ الجوهر وقالوا : أردنا بالجوهر، القائم بنفسه وكما قال هؤلاء : ليس فى الوجود إلا جوهر أو عرض .

فإن الوجود إما قائم بنفسه، وهو الجوهر، أو بغيره، وهو العرض، والجوهر أشرف القسمين .

وقال الآخرون : ليس فى الوجود إلا قائم بنفسه : وهو الجسم ، أو قائم بغيره ، وهو العرض ، والجسم أشرف القسمين ، وقال : فما سماه أولئك جوهراً ، سماه أولئك جسما ، وكلاهما ليست تسميته لغوية ولا شرعية .

وإذا قال هؤلاء : هو جوهر لا كالجواهر ، كما يقال هو شىء لا كالأشياء . قال أولئك . إنه هو الجسم لا كالأجسام ، كما يقال هو شىء لا كالأشياء .

وإذا قال هؤلاء : الجوهر ينقسم إلى كثيف ولطيف قال أولئك : والجسم ينقسم إلى لطيف وكثيف .

والمقصود هنا : أن هؤلاء الذين نزهوه عما يمتنع عليه من مماثلة المخلوقين وسموه جسما ، نزاعهم مع النفاة قد يكون لفظياً ، كنزاع النصارى فى لفظ الجوهر ، وقد يكون عقلياً ، كنزاعهم فى أن المشار إليه : هل هو مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، أو لا من هذا ولا من هذا ؟

ومن قال من القائلين بأن جسم ، فيقول : إنه مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة، فهؤلاء مذمومون لفظاً ومعنى عند جماهير المسلمين وغيرهم ؛ وإن كان النصارى وغيرهم يعجزون عن الرد على هؤلاء ، إذا كان ما يعتمدون عليه فى تنزيه الله عن خصائص الأجسام طرقا ضعيفة ، لا تثبت على المعيار العقلى كما قد بسط فى موضع آخر .

بخلاف من كان نزاعه لفظيا، فهذا يذم ، إما لغة، وإما لغة وشرعا، لكونه

أطلق لفظاً لم يأذن به الشرع ، أو استعمله فى خلاف معناه اللغوى ، كما قد يذم النافى بمثل ذلك لغة وشرعاً ، إذا كان معناه صحيحاً .

وأما من كان من النفاة أو المثبتة ، نفى حقاً أو أثبت نفياً باطلا ، فهذا مذموم ذماً معنوياً شرعاً وعقلا .

وأما الشرع فالرسل وأتباعهم الذين من أمة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقولوا : إن الله جسم ، ولا إنه ليس بجسم ، ولا إنه جوهر ، ولا إنه ليس بجوهر .

لكن النزاع اللغوى والعقلى والشرعى فى هذه الأسماء هو مما أحدث فى الملل الثلاث بعد انقراض الصدر الأول من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء .

والذى اتفقت عليه الرسل وأتباعهم ما جاء به القرآن والتوراة ، من أن الله موصوف بصفات الكمال ، وأنه ليس كمثله شىء ، فلا يمثل صفاته بصفات المخلوقين ، مع إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ، ولا يدخل فى صفاته ما ليس منها ، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها .

إذا تبين هذا ، فالمسلمون لما كان اعتقادهم بأن الله تعالى موصوف بما وصف به نفسه ، وأنه ليس كمثله شىء ، وكان ما أثبتوه له من الصفات التى جاءت بها الرسل ، لم عليهم ملازم ، لأنهم أثبتوا ما أثبته الرسل ونفوا ما نفته الرسل ، فكان فى هذا النفى ما ينفى الوهم الباطل .

بخلاف من أثبت أموراً لم تأت بها الرسل ، وضم إليها ما يؤكد المعنى الباطل لا ما ينفيه ، وكان مما نفوا عنه أنه ليس بجسم مركب من الجواهر المفردة ، ولا من المادة والصورة .

أما على أحد قولى النظار بل وأظهرهما ، فإن ما سواه من الموجودات القائمة بأنفسها ليس مركباً ، لا من هذا ولا من هذا .

فهو سبحانه أحق بتنزيهه عن مثل هذا ، إذ كل نقص نفي عن المخلوق ، فالخالق أحق بتنزيهه منه .

وأما على القول الآخر ، فتارة يقولون لأن المركب من الجواهر المنفردة يمكن افتراق أجزائه ، وذلك ممتنع في حق الله تعالى ، وتارة يقولون ، لأنه مفتقر إلى أجزائه ، وذلك ممتنع في حق الله تعالى ، إذ جزؤه غيره ، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه قديماً أزلياً ، كما قد بسط الكلام على هذه الأمور في موضع آخر .

ثم منهم من لا يطلق من النفي والإثبات إلا الألفاظ الشرعية ، فكما لا يقول : هو جسم وجوهر ، لا يقول : ليس بجسم ولا جوهر .

ومنهم من يطلق هذه الألفاظ ، وهؤلاء منهم من ينفيها ، ومنهم من يثبتها .

وكل من الطائفتين قد يدخل في ذلك ما يوافق الشرع ، وقد يدخل في ذلك ما يخالف الشرع .

وكل من الطائفتين ، يدعي النظر العقلي أو اللغوي ، وربما اعتصم بعضهم بما يظنه دليلا شرعياً .

والغالب عليهم أنهم لا يعتصمون في ذلك بشرع ، إذ لم يكن في ذلك شرع ، وإنما يتكلفون تغيير اللغة التي بعث بها الرسول ، ثم يحملون ألفاظه على ما ابتدعوه من اللغة ، كما فعلته النصارى في حمل كلام الأنبياء على ما ابتدعوه من اللغة .

فإن الأنبياء لم يسموا علم الله وحياته ابناً ، وروح قدس ، ولا رباً ، فسمى النصارى علمه وحياته ، ابناً ، وروح قدس ، ورباً ، ثم حملوا كلام الأنبياء على ذلك .

كذلك طائفة من أهل الكلام كان السلف يسمونهم الجهمية ، أحدثوا

تسمية الواحد والأحد ونحوهما لما لا يشار إليه ولا يميز الحس منه شيئا عن شيء ، وهذا خلاف اللغة ، فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد فى النفى لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء قال تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) [المدثر : ١١] فسمى الإنسان وحيداً ، وقال تعالى : (وإِنْ كَانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) [النساء : ١١] فسمى المرأة واحدة . (وما أمرنا إلاَّ وَاحِدَةٌ)[القمر : ٥٠] وقال : (وإن أحَدٌ مِنْ الْمُشرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يسْمَعَ كَلامَ اللهِ) [التوبة : ٦] فسمى المستجير ـ وهو إنسان ـ أحداً .

وكذلك قوله تعالى: (لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) نفى أن يكون كفواً له .

فلو كان ما يشار إليه لا يسمى أحداً ، لم يكن قد نزهه عن مماثلة المخلوقات له ، فإن المشهود من المخلوقات كلها يشار إليها ، فإن لم يدخل فى « أحد » لم يكن قد نزه نفسه عن مماثلتها .

فهؤلاء لما أحدثوا أن مسمى الأحد والواحد لا يكون مشاراً إليه ، قالوا : والرب قد سمى نفسه أحداً وواحداً ، فيجب أن لا يكون مشارا إليه .

ولغة الرسول التى خاطب بها الناس لم تكن موافقة لما ابتدعوه من اللغة .

وكذلك الذين قالوا : « هو جسم » غيروا اللغة ، وجعلوا الجسم اسما لما يشار إليه ، أو لكل موجود ، ولكل قائم بنفسه .

وثم قالوا : وهو موجود ، أو قائم بنفسه ، أو مشار إليه ، فيكون جسما .

ولا يوجد فى اللغة اسم الجسم ، لا لهذا ، ولا لهذا ، ولا لهذا .

وقالوا : لا يلزم من كونه مشارا إليه أن يكون مركباً من الجواهر المفردة ، ولا من المادة والصورة .

وقال أولئك : بل يلزم أن كل مركب ، فإنه يسمى فى اللغة جسماً ، فيلزم أن يسمى جسماً ، إذا قلنا : هو مشار إليه ، أو يرى بالأبصار ، أو متصفاً بصفات تقوم به ،

وليس ماذكروه عن اللغة بمستقيم ، فإن أهل اللغة لا يعنون بالجسم ، المركب ، بل الجسم - عندهم - هو الجسد ، ولا يسمون الهواء جسما .

إذا تبين هذا فتمثيل هؤلاء النصارى باطل ، على قول كل طائفة ، من طوائف المسلمين .

فنهم من يقول : الجسم - فى اللغة - هو المركب ، والله ليس بمركب ، فليس بجسم . لا يقولون بما ذكروه من أن الله له وجه يوليه إلى كل مكان، وجنب ونحو ذلك .

وكذلك من قال : إن الله ليس بمركب ، وسماه جسما ، بمعنى أنه قائم بنفسه ، أو لم يسمه جسما ، لا يقول بذلك أيضاً ، ومن حكى عنه أنه يثبت له خصائص الأجسام المركبة .

فهؤلاء إن أطلقوا ما نفاه فلاحجة للنصارى عليهم ، وإن لم يطلقوه فحجتهم أبعد .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة على أفسد الناس قولا فى التجسيم ، فضلا عن غيرهم .

الوجه السادس : - أن يقال لهؤلاء النصارى : إما أن تعنوا بلفظ الجسم المعنى اللغوى ، وهو الجسد ، إما أن تعنوا به المعنى الاصطلاحى عند أهل الكلام كالمشار إليه مثلا .

فإن عنيتم الأول ، لم يلزم من نفى ذلك نفى ما ذكرتموه من الصفات ، لاسيما وأنتم تقولون: إنه جوهر ، وقسمتم الجوهر إلى لطيف وكثيف .

فإذا كان الكثيف هو الجسم ، واللطيف جوهر ليس بجسم : لم يمتنع على مثال هذا أن يكون له ما يناسبه من الصفات ، كالملائكة ، فإن الملائكة لا يمتنع وصفها بذلك ، وإن لم تكن أجساماً على هذا الاصطلاح ، بل هى

جواهر روحانية ، وكذلك روح الإنسان التي تخرج منه ، لا يمتنع وصفها بما يناسبها من ذلك ، وإن كانت ليس بجسم على هذا التقدير .

فتبيّن أن نَفْيَ مسمى الجسم اللغوي عن الشيء لا يمنع اتصافه بما ذكر من الصفات وأمثالها .

وإن عنيتم بالجسم ، القائم بنفسه أو المشار إليه ، لم يمتنع — عندكم — أن يكون جسما ، فإنكم سميتموه جوهراً ، وعنيتم القائم بنفسه .

فإن قام الدليل على أن كل قائم بنفسه مشار إليه ، كان أيضاً مشار إليه .

وإن قام دليل على أنه قائم بنفسه لا يشار إليه ، كان جوهراً وجسما عند من يفسر الجسم القائم بنفسه ، ومن فسره بالمشار إليه لم يسم عنده جسماً ، فتبين أنه على — أصلكم — لا يمنع أن يسمى جسما مع تسميتكم له جوهراً إلا إذا أثبت أن من الموجودات ما هو جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه ، وهذا لم يقيموا عليه دليلا ، وليس هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وإنما هو قول طائفة من الفلاسفة ، وقليل من أهل الملل وافقوهم .

ثم يقال لكم : أنتم قلتم : إنه حَيٌّ ناطق ، وله حياة ونطق ، بل زدتم على ذلك حتى جعلتموه أقانيم ثلاثة .

ومعلوم أن الحياة والنطق لا تعقل إلا صفة قائمة بموصوف ، ولا يعلم موصوف بالحياة والنطق إلا ما هو مشار إليه بل ما هو جسم كالإنسان .

فإن جاز لكم أن تثبتوا هذه الأعراض في غير جسم ، جاز لغيركم أن يثبت المجيء واليد ونحو ذلك لغير جسم .

وإن قلتم : هذا لا يعقل إلا لجسم ، قيل لكم : وذلك لا يعقل إلا لجسم فإن رجعتم إلى الشاهد ، كان حجة عليكم ، وإن جاز لكم أن تثبتوا الغائب حكما على خلاف الشاهد : أجاز لغيركم ، وحينئذ فلا تناقض بين ما نفاه المسلمون

وأثبتوه ، لو كان ماذكرتموه عليهم من النفى والإثبات حقاً على وجهه، فكيف وقد وقع التحريف فى الطرفين ؟!!.

الوجه السابع : أن يقال : غاية مقصودكم أن تقولوا : إن المسلمين لما أطلقوا ألفاظاً ظاهرها كفر عندهم ، لمجيء النص بها ، وهم لا يعتقدون ظاهر مدلولها، كذلك نحن أطلقنا هذه الألفاظ التى ظاهرها كفر ، لمجيء النص بها ، ونحن لا نعتقد مدلولها :

فيقال لكم : أولا : ـ إن ما أطلقه المسلمون من نصوص الصفات أطلقتموه أنتم ، كما وردت به التوراة ، فهذا مشترك بينكم وبينهم ، وما خصصتم به من التثليث ، والاتحاد لم يشركوكم فيه .

ثم يقال ثانيا : إن المسلمين أطلقوا ألفاظ النصوص، وأنتم أطلقتم ألفاظاً لم يرد بها نص .

والمسلمون قرنوا تلك الألفاظ بما جاءت به النصوص من نفى التمثيل .

وأنتم لم تقرنوا بألفاظكم ما ينفى ما أثبتموه من التثليث والاتحاد .

والمسلمون لم يعتقدوا معنى باطلا .

وأنتم اعتقدتم من التثليث فى الأقانيم ، والاتحاد ماهو معنى باطل .

والمسلمون لم يسموا صفات الله بأسماء أحدثوا تسمية الصفات بها ، وحملوا كلام الرسل عليها .

وأنتم أحدثتم لصفات الله أسماء . سميتموه أنتم بها ، لم تسمه بها الرسل ، وحملتم كلام الرسل عليها .

والمسلمون لم يعدلوا عن النصوص الكثيرة المحكمة البينة الواضحة إلى ألفاظ قليلة متشابهة .

وأنتم عدلتم عن هذا إلى هذا ،

والمسلمون لم يضعوا لهم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

وأنتم وضعتم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

والمسلمون لم يقولوا قولا لا يعقل .

وأنتم قلتم قولا لا يعقل .

والمسلمون لم يتناقضوا ، فيجعلوا الإله واحداً ، وتجعلونه اثنين ، بل ثلاثة، وأنتم تناقضتم .

فهذه الفروق وغيرها مما يبين فساد تشبهكم أنفسكم بالمسلمين .

الوجه الثامن : ـ قولكم : وكذلك ـ نحن ـ النصارى العلة فى قولنا : « إن الله ثلاثة أقانيم ، أب ، وابن ، وروح قدس » ، أن الإنجيل نطق به .

فيقال لكم : هذا باطل ، فإنه لم ينطق ، لا الإنجيل ولا شىء من النبوات بأن الله ثلاثة أقانيم ولا خص أحد من الأنبياء الرب بثلاث صفات دون غيرها ، ولا قال المسيح ولا غيره : إن الله هو الأب ، والابن ، وروح القدس ، ولا إن له أقنوما هو الابن ، وأقنوما هو روح القدس ، ولا قال : إن الابن كلمته أو علمه أو حكمته أو نطقه ، وإن روح القدس حياته ، ولا سمى شيئاً من صفاته ابناً ولا ولداً ، ولا قال عن شىء من صفات الرب : إنه مولود ، ولا إنه جعل القديم الأزلى مولوداً ، ولا قال لا عن قديم ، ولا مخلوق : إنه إله حق من إله حق ، ولا قال عن صفات الله : إنها آلهة ، وإن الكلمة إله ، والروح إله ، ولا قال : إن الله اتحد لا بذاته ولا بصفاته بشىء من البشر ، بل هذا كله مما ابتدعتموه ، وخرجتم به عن الشرع والعقل ؛ فخالفتم الكتب المنزلة والعقول الصريحة ، وكنتم ممن قيل فيه : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠] ؛ فإنكم أنتم الذين سميتم نطق الله ابناً ، وقلتم : سميناه ابناً ؛ لأنه تولد منه كما يتولد الكلام من العقل ، فكان ينبغى

أيضاً أن تسموا حياته ابناً ، لأنها منبثقة منه ، ومتولدة عنه أيضاً ، إذ لا فرق بين علم الرب وحياته .

فعلمه لازم له ، وحياته لازمة له ، فلماذا جعلتم هذا ابناً دون هذا .

وقلتم : إنه مولود من الله ، وإنه قديم أزلى وأنتم تعرفون بأن أحداً من الأنبياء لم يسم علم الله ولا كلامه ، ولا حكمته مولوداً منه ؟

والذى يعقله الخلق فى المولود الذى يولد من غيره ، كما يتولد العلم والكلام من نفس الإنسان أنه حادث فيه أو منفصل عنه ، لا يعقل أنه قائم به ، وأنه متولد منه قديم أزلى .

ثم قلتم فى أمانتكم : إنه تجسم من الروح القدس ، أو منه ومن مريم .

وهو إنما تجسم ـ عندكم ـ من الكلمة التى سميتموها ، الابن دون روح القدس .

وإن كان تجسم من روح القدس ، فيكون هو روح القدس ، لا يكون هو الكلمة التى هى الابن .

ثم تقولون : « هو كلمة الله وروحه » فيكون حينئذ أقنومين ، أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح ، وإنما هو ـ عندكم ـ أقنوم واحد .

فهذا تناقض وحيرة ، تجعلونه الابن الذى هو الكلمة ، وهو أقنوم الكلمة فقط .

وتقولون : تجسّم من روح القدس . ولا تقولون : إنه تجسم من الكلمة .

وتقولون : هو كلمة الله وروحه ، والكلمة والروح أقنومان .

ولا تقولون : إنه أقنومان ، بل أقنوم واحد .

وتقولون : إنه خالق العالم ، والخالق هو الأب ، وتقولون : ليس هو الأب .

وتقولون : إله حق من إله حق ، وتقولون : إله واحد ساوى الأب فى الجوهر .

وتقولون : ليس له مثل ، وليس شيء من هذا فى كلام أحد من الأنبياء ،

فكيف تشبهون أنفسكم بمن اتبع نصوص الأنبياء ولم يحرفها ؟

وغاية ما عندكم ما وجد فى إنجيل «مَتَّى» دون سائر الأناجيل ، من أن المسيح ، عليه السلام قال: عمِّدوا الناس باسم الأب، والابن ، والروح القدس.

وأنتم قد عرفتم فى كلام المسيح وغيره من الأنبياء، أنهم لا يريدون بالابن صفة الله لا كلامه ، ولا علمه، ولا حكمته .

ولا يريدون بالابن ، إله حق من إله حق ، ولا مولود قديم أزلى ، بل يريدون به وليه ، وهو ناسوت لا لاهوت ، كيعقوب والحواريين .

ولا يريدون بروح القدس نفس حياة الله ، ولا يريدون به أنه رب حى ، وإنما يريدون بها الملك؛ أو ما ينزل الله على قلوب أنبيائه وأصفيائه ، من الهدى والتأييد ونحو ذلك .

فروح القدس يكون ـ عندكم وعند المسلمين ـ فى الأنبياء وغيرهم، كما كانت فى داود وغيره ، وكانت فى الحواريين .

فلو قدر أن لفظ الابن وجد فى كلام المسيح مستعملا تارة كلمة الله ، وتارة فى وليه الناسوت ، وروح القدس مستعملا تارة فى حياته ، وتارة فيما ينزله على قلوب أنبيائه ، كان جزمكم بأنه أراد بذلك هنا صفات الله ، جزما باطلا.

مما وصف به المسيح من أنه ابن الله ، ومن أن روح القدس فيه ، قد وصف به غيره من الأنبياء والصالحين .

فإن كان الابن ، وروح القدس صفتين لله ، وجب أن يكون غير المسيح لاهوتاً وناسوتاً ، كالمسيح ؛ إذ الذى حل فى المسيح ، حل فى غيره .

ثم جزمكم بأن هذه صفات ، أقانيم ، وأنه ليس لله صفات ذاتية أو جوهرية أو غير ذلك إلا هذه الثلاثة ، ثم تفرقتم فى الثلاثة : هل المراد بالأقانيم الوجود والعلم والحياة ، أو الحكمة والكلام ، أو النطق بدل لفظ العلم ، أو المراد الوجود

والعلم والقدرة، بدل الحياة؛أو المرادالوجود والحياة والقدرة ، أو المراد الوجود مع الحياة والعلم والقدرة ؟ إلى أقوال أُخَر يطول أمرها .

فياليت شعرى ، ما الذى أراد المسيح بلفظ الأب والابن،وروح القدس ، من هذه الأمور التى اختلفتم فيها ، وكان مراده ما ادعيتموه من الأقانيم ؟؟

والأقانيم – لفظاً ومعنى – لا يوجد فى كلام أحد من الأنبياء ، بل قيل فيها : إنها لفظة رومية ، يفسرونها تارة بالأصل ، وتارة بالشخص ، وتارة بالذات مع الصفة ، ويفسرونها تارة بالخاصة ، وتارة بالصفة .

فلا تركتم كلام المسيح على حاله ، ولم تحرفوه هذه التحريفات ؟

ولقد أحسن بعض الفضلاء إذقال : لو سألت نصرانياً وابنه ، وابن ابنه عما يعتقدونه ؛ لأخبرك كل واحد بعقيدة تخالف عقيدة الآخر ، إذ كان أصل اعتقادهم جهلاً وضلالاً ، ليس معهم علم ، لا نقل ولا عقل ، فهم كما قال الله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ).

وليس معهم بما اعتقدوه من التثليث والاتحاد علم بوجه من الوجوه ، فضلا عما هو أخص من ذلك ، وهو علم يهتدون به ، فليسوا مهتدين فضلا عما هو أخص من الهدى وهو « كتاب منير » ، فليس معهم به كتاب منير.

ولو تكلمتم بهذا الكلام ، وقلتم : لا نفهم معناه ، أو ظاهره باطل ، وله تأويل مقبول ، كما حكيتموه عمن تشبهتم به من المسلمين من أن يتأوله فى الصفات ، لكان هذا أقرب إلى القياس .

فكيف والأمر بالعكس ما ذكرتم ؟؟

وذلك يتبين بالوجه التاسع : – وهو أنكم إنما ضللتم بعدولكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره ، إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التى لا تدل عليها لفظه ، لا نصاً ولا ظاهراً ، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله .

فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام ، لم تضلوا ، فإن الابن ظاهره كلام الأنبياء ، لا يراد به شيء من صفات الله ، بل يراد به وليه ، وحبيبه ونحو ذلك .

وروح القدس لا يراد به صفته ، بل يراد به وحيه وملكه ونحو ذلك .

فعدلتم عن ظاهر اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ ألبتة .

فكيف تدعون أنكم اتبعتم نصوص الأنبياء ؟ ! !

الوجه العاشر ـ إنكم بالغتم فى ذم المسيح وإنجيله ، كما بالغتم فى سب الله وشتمه ، وإن كنتم لا تعلمون أن ذلك ذم ، فلم ترضوا أن تجعلوا ظاهر كلام المسيح ما أنتم عليه من الكفر ، حتى جعلتم ظاهره كفراً لا ترضونه ، مثل ثلاثة آلهة ، متفقة أو متفرقة : أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء مفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة .

فهذا ونحوه هو الذى ادعيتم أنه ظاهر كلام المسيح عليه السلام .

وأنتم لا تقولون بهذا الظاهر ، بل تكفرون قائله ، كما يكفر المسلمون من يقول بالظاهر الذى هو التجسيم والتمثيل .

وهذا مما يتضمن أن كلام المسيح ظاهر فى إثبات ثلاثة آلهة ، وثلاثة أشخاص مؤلفة ، وثلاثة أجزاء متفرقة ، وثلاثة أشخاص مركبة .

كما زعمتم أن ظاهر القرآن التجسيم ، وأنكم عدلتم عن هذا الظاهر إلى إثبات الأقانيم الثلاثة التى جعلتم فيها كلمة الله ، هى ابنه ، وهو جوهر خالق يساويه فى الجوهر . وأن المسيح هو هذا الابن المساوى للأب فى الجوهر خالق العالمين ، وديان يوم الدين ، والجالس فوق العرش عن يمين الرب ، وأنه إله حق من إله حق ، والروح أيضاً إله ثالث ، والآلهة الثلاثة إله واحد .

وهذا الذى ذكرتموه فيه من عيب المسيح وذمه ، ما ينتصر الله به للمسيح ولمن افترى عليه منكم ومن غيركم .

فإن المسيح عليه السلام ـ على قولكم ـ لم يفصح لكم بأمانة تعتقدونها ، ولا بتوحيد تعرفون به ربكم ، عز وجل ، بل تكلم بما ظاهره إثبات ثلاثة آلهة ، وثلاثة أجسام مركبة ، وثلاثة أجزاء متفرقة ، وأنكم أنتم أصلحتم ذلك ، حتى جعلتموه ثلاثة أقانيم ، ووضع تلك الأمانة المخالفة لعقول ذوى العقول ، ولكل كتاب جاء به رسول ، مع أن المسيح لم ينطق بتثليث قط ، ولا باتحاد ، ولا بما يدل على ذلك .

وعمدتم على مانقله « متّى » عنه دون الثلاثة أنه قال : عَمِّدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح القدس .

وهذا الكلام ظاهره ـ بل نصه ـ حجة على خلاف قولكم ، وأنه أراد بالابن نفسه وهو الناسوت ، لم يرد به صفة الله ، وأراد بروح القدس ما أيده الله به ، أو روح القدس الذى نفخ فى أمه حتى حبلت به ، لم يرد به صفة الله تعالى .

فتأولتم كلامه على خلاف ظاهره ، تأويلا يخالف صريح المعقول ، وصحيح المنقول . فكيف تدعون أنكم تمسكتم بظاهر كلامه ؟!

ولما كان قول النصارى فى التثليث متناقضاً فى نفسه لا حقيقة له ، صار مجرد تصوره التام كافياً فى العلم بفساده من غير احتياج إلى دليل ، وإن كانت الأدلة تظهر بفساده .

ولهذا سلك من طائفة العلماء فى الكلام معهم هذا المسلك وهو أن مجرد تصور مذهبهم كاف فى العلم بفساده ، فإنه غير معقول .

وقالوا : إن النصارى ناقضت فى اللفظ ، وأحالت فى المعنى ، فلا يجوز أن يعتقد ما يدعون انتحاله لتناقضه .

وذلك أنهم يزعمون أن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا لا يصح اعتقاده ، لأنه لا يجوز أن يعتقد المعتقد فى الشىء أنه ثلاثة مع اعتقاده فيه أنه واحد ، لأن ذلك متضاد .

وإذا كان ذلك كذلك، فليس يخلو من أن يعتقد أنه ثلاثة ، أو أنه واحد .
وليس يحتاج أن يعرف بدليل بطلان قول من ادّعى أن الواحد ثلاثة ، وأن الثلاثة واحد ، لأن ذلك لا يعقل .

وهو كمن ادّعى في الشيء أنه موجود معدوم، أو قديم محدث، أو في الجسم أنه قائم قاعد ، متحرك ساكن .

وإذا كان كذلك فتناقضه أظهر من أن يحتاج فيه إلى دلالة .

وإذ قال النصارى : إنه أحديّ الذات ثلاثيّ الصفات :

قيل : لو اقتصرتم على قولكم : إنه واحد وله صفات متعددة ، لم ينكر ذلك عليكم جمهور المسلمين ، بل ينكرون تخصيص الصفات بثلاث . فإن هذا باطل من وجوه متعددة .

منها : أن الأب عندكم هو الجوهر ليس هو صفة ، فلا يكون له صفة إلا الحياة والعلم ، فيكون جوهراً واحداً له أقنومان ، وأنتم جعلتم ثلاثة أقانيم .

ومنها : أن صفات الرب لا تنحصر في العلم والحياة ، بل هو موصوف بالقدرة وغيرها .

ومنها : أنكم تارة تفسرون روح القدس بالحياة ؛ وتارة بالقدرة ، وتارة بالوجود .

وتفسرون الكلمة ، تارة بالعلم ، وتارة بالحكمة ، وتارة بالكلام .

فبطلان قولكم في إثبات ثلاث صفات كثيرة ، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون كل واحد منهما إلها .

فتجعلون الحياة إلهاً ، والعلم إلهاً ، وهذا باطل .

وأما من لم يثبت الصفات من المسلمين وغيرهم ، فيردون عليكم من وجوه أخرى ، كقول بعضهم : إذا قيل : ألستم تقولون : إن الأبعاض الكثيرة تكون

إنساناً واحداً ؛ والآحاد الكثيرة عشرة واحدة والأجسام الكثيرة داراً واحدة ومدينة واحدة وما جرى هذا المجرى ، مما هو أكثر من أن يحصى ، وأظهر من أن يخفى .

فكيف عبتم ذلك من النصارى ؟ ولِمَ أنكرتم أن يكون ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً؟

قيل : إن قولنا إنسان واحد ، ودار واحدة، وعشرة واحدة وما يجرى هذا المجرى ، أسماء تنبىء عن الجمل لا عن آحاد .

وإذا قلنا : إنسان واحد ، فكأنا قلنا جملة واحدة ، وكذلك إذا قلنا : عشرة واحدة ، لا أنا نثبته واحداً فى الحقيقة .

كيف ونحن نقول : إن أبعاض الإنسان متغايرة ؛ فكل بعض منها غير سائرها ، وكذلك كل واحد من العشرة غير سائرها ؟

فنحن وإن قلنا : إنسان واحد ، فلسنا نثبته شيئا واحدا فى نفسه ولو أثبتنا ذلك لتناقضنا مناقضة النصارى . وإنما قلنا : هى جملة واحدة ، ولو قالت النصارى مثل ذلك لم تتناقض حتى تزعموا أنها ثلاثة أشياء جملة واحدة .

فيكون مرادهم فى ذلك بوصفهم الأقانيم الثلاثة ، بأنها جوهر واحد مما نريد بقولنا : الأبعاض الكثيرة أنه إنسان واحد .

فيكون وصفهم لها بأنها جوهر ، إنما ينبىء أنها جملة، وليس هذا مما يذهبون إليه ، ولا يعتقدونه ولا يجعلون له معنى ، لأنهم لا يعطون حقيقة التثليث ، فيثبتون الأقانيم الثلاثة متغايرة ولا حقيقة التوحيد ؛ فيثبتون القديم واحداً ليس باثنين ولا أكثر من ذلك .

وإذا كان ذلك كذلك ، فما قالوه ، هو شىء لا يعقل ولا يصلح اعتقاده ويمكن أن يعارضوا على قولهم بكل حال .

فيقال لهم : إذا جاز عندكم أن تكون ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً ، فلِمَ

لا يجوز أن تكون ثلاثة آلهة جوهراً واحداً وثلاثة فاعلين جوهراً واحداً، وثلاثة أغيار جوهراً واحداً ، وثلاثة أشياء جوهراً واحداً ، وثلاثة قادرين جوهراً واحداً ، وكل ثلاثة أشياء جوهراً واحداً ؟ وكل مايجرى هذا المجرى من المعارضة ، فلا يجدون فصلا .

الوجه الحادى عشر : أن غلاة المجسمة الذين يكفرهم المسلمون أحسن حالا منكم ، شرعاً وعقلا ، وهم أقل مخالفة للشرع والعقل منكم .

فإذا كان هؤلاء خيراً منكم ، فكيف تشبهون أنفسكم بمن هو خير من هؤلاء من أهل السنة من المسلمين الذين لا يقولون ، لا بتمثيل ولا بتعطيل ؟

وبيان ذلك أن التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، وغير ذلك مما هو مأثور عن الأنبياء ، فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة في وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، وهو مسمى فيها بالأسماء الحسنى، موصوف بالصفات العليا ، وأن كل ما سواه مخلوق له ، ليس فيها تثليث ولا اتحاد الخالق بشيء من المخلوقات ، لا المسيح ولا غيره .

وفيها ألفاظ قليلة مشكلة متشابهة، وهى - مع ذلك - لا تدل على ماذكرتموه من التثليث والاتحاد ، لا نصاً ولا ظاهراً، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم ، وليس فيها شيء يحتمل جميع ماقلتم ، فضلا عن أن يكون ظاهراً فيه أو نصاً ، بل بعضها يحتمل بعض قولكم .

فأخذتم ذلك المحتمل وضممتم إليه من الكفر الصريح ، والتناقض القبيح ما صيرتموه أمانة لكم (أى عقيدة إيمان لكم) .

ولو كانت كلها تحتمل جميع ماقلتم ، لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل . ولو كان بعضها ظاهراً فيما قلتم ، لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل .

ولو قدر أن فيها نصوصاً صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة ، لكان

الواجب أن ينظروا بنور الله الذى أيّد به عباده المؤمنين ، فيتبعون أحسن ما أنزل الله ، وهو المعنى الذى يوافق صريح المعقول وسائر كتب الله ، وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره ، وإلا فوضوا معناه إلى الله ، إن كان ثابتاً عن الأنبياء.

وهؤلاء عدلوا عما يعلم بصريح المعقول ، وعما يعلم بنصوص الأنبياء الكثيرة ، إلى ما يحتمله بعض الألفاظ ، لموافقته لهواهم فلم يتبعوا (إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) .

وأما كفار الجسمة ، فهؤلاء أعذر وأقل كفراً من النصارى . فإن هؤلاء يقولون كما يقوله معهم النفاة : إن ظواهر جميع الكتب هو التجسيم .

ففى التوراة ، والقرآن من الآيات التى ظاهرها التجسيم ، مالا يحصى.

وليس فيها نص بما يقوله النفاة ، من أن الله ليس بداخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولا هو فوق العرش ، ولا يشار إليه ، ولا يصعد إليه شىء ، ولا ينزل منه شىء ، ولا يقرب منه شىء ، ولا يدنو من شىء ولا يدنو إليه شىء ، إلى نحو ذلك من النفى الذى يقوله نفات الصفات .

فمعلوم أنه ليس فى الكتب الإلهية لا التوراة ، ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ولا القرآن ـ ولا غير ذلك من النبوات ، من هذا حرف واحد ، وكلها مملوءة مما يقول هؤلاء : إنه تجسيم .

فيقول هؤلاء : نحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نعدل عنها إلى غيرها ، ولم نجد فى نصوصهم نصا محكما صريحاً بالنفى ، الذى يقوله نفاة الصفاة .

ووجدنا نصوصهم كلها بالإثبات الذى يقولون : إنه تجسيم .

فكان على قولنا وقولهم نصوص الأنبياء ظاهرة فى التجسيم وليس لهم نص يناقض ذلك ، فاتبعنا نصوصهم ، وكل من عارض إثبات الصفات ، لم يعارضها بنصوص صريحة عن الأنبياء ، لكن بحجج عقلية .

فيقول هؤلاء : إن النصارى خالفوا صريح المعقول ، وصريح كلام الأنبياء .

واتبعوا قليلا من متشابه كلامهم . ونحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نخالف شيئاً من صريح نصوصهم . ولكن مخالفنا يقول : إنا خالفنا العقل .

ونحن ننازعه فى ذلك ، وندعى أن العقل معنا لا علينا ، وأن ما تدعيه من المعقولات التى تعارض كلامهم الأنبياء ، فهى باطلة .

أو يقولون : نحن والنصارى متفقون ، على أنه لا نعارض كلام الأنبياء بالشُّبَهِ العقلية ، لكن نحن اتبعنا كلامهم المحكم الظاهر الكثير ، الذى لا نخالف له من كلامهم .

وهم خالفوا كلامهم الكثير المحكم ، واتبعوا قليلا من المتشابه .

ويقول الغلاة من هؤلاء الذين يكفرهم أئمة المسلمين وجمهورهم الذين يحكى عنهم : إن الله ينزل إلى الأرض عشية عرفة ، فيعانق المشاة ، ويصافح الركبان ، وأنه يتمشى فى الأرض ، يكون موطىء أقدامه مروجا ، ونحو ذلك .

ليس هذا القول بأعجب من قول النصارى ، الذين يقولون : إنه هو المسيح ، وإن اللاهوت والناسوت اتحد .

فنحن نقول أيضاً : إنه حلّ فى بعض الأجساد المخلوقة ، كما يقوله النصارى ، أو نقول : إنه تجسد كما تتجسد الملائكة والجن . وهذا أقرب من قول النصارى : إنه اتحد بجسم المسيح .

فإنا قد عهدنا اللطائف من الملائكة تتصور فى صورة بشرية ، ولم نعهد ملكا صار هو والبشر شيئاً واحداً .

فإذا لم يجز أن يتحد بالبشر ، فكيف يجوز أن يتحد رب الخلائق كلهم بالبشر ؟

قالوا : وقد يحل الجنىّ فى بدن الإنسىّ ، ويتكلم على لسانه ، إلا أنهما جوهران ومشيئتان وطبيعتان . ليس بينهما اتحاد ، لكنه دخل فيه وتكلم على لسانه .

والنصارى يقولون : إن رب العالمين اتحد بالبشر . فمنهم من يقول جوهر واحد ، ومنهم من يقول : شخص واحد وأقنوم واحد، ومنهم من يقول مشيئة واحدة، فلابد لكل منهم من نوع واتحاد، وهذا أبعد من حلول الجنى في الإنسى .

فإذا كان ما يقولونه ممتنعاً في الجن والملائكة ، فكيف برب العالمين ؟

ومن غلاة المجسمة، اليهود، من يحكى عنه أنه قال : إن الله بكى على الطوفان حتى رمد، وعادته الملائكة ، وأنه ندم حتى عض يده وجرى منه الدم، وهذا كفر واضح ، ولكن يقولون : قولنا خير من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون : إنه أخِذَ وضُرِبَ بالسِّياط وبُصِقَ في وجهه ، وَوُضِعَ الشوك على رأسه كالتاج ، وصُلِبَ بين لصين ، وفُعِل به من أقبح ما فعل باللصوص ، قطاع الطرق .

وقد صرح كثير منهم بأن هذا فُعِلَ اللاهوت والناسوت جميعاً .

وشريعة إيمانهم تدل على ذلك ، وهو لازم لمن أنكر ذلك منهم ، فإنه مع القول بالاتحاد ، الذى لابد لطوائفهم الثلاثة منه ، يمتنع أن تحل هذه العقوبات في هذا دون ذاك ، فلا يمكن أن يحل في الناسوت دون اللاهوت، فإن هذا إنما يتصور إذا كانا اثنين .

ومن قال بالاتحاد ، امتنع عنده أن يكون هناك اثنان .

وفى الجملة ، فالنصارى المثلثة ، إما أن يصرحوا بالاتحاد من كل وجه ، كاليعقوبية ، وهؤلاء يصرحون بأن الآلام حلّت باللاهوت .

وإما أن يقولوا بالاتحاد من وجه ، كقول الملكية : إنهما شخص واحد ؛ وقول النسطورية : هما مشيئة واحدة .

وحينئذ فما قالوه من التعدد والموت الذى يوجب المباينة ، وأنه لا يتصف

أحدهما بما يتصف به الآخر ، ولايحلُّ به ماحلَّ به ، فيكون متناقضاً لهذا .

فأحسن أحوالهم أن يتناقضوا فى الاتحاد ، كما تناقضوا فى التثليث وهذا حقيقة قول خيار هؤلاء يتكلمون بالكفر وبما يناقضه ، وبالتوحيد وبما يناقصه .

ومعلوم أن ما يفعله بنفسه من ندم وبكاء وحزن ، وهو دون ما يفعله أعداؤه به ، ومن ضرب ، وصفع ، وجعل الشوك على رأسه ، وصلبه بين لِصَّيْن وأن استغاثته بمن يخلصه من ذلك أشد نقصاً من ندمه وحزنه .

وإن قالوا : فعل هذا حتى يعلم عباده التشبه به . أمكن أولئك المجسمة أن يقولوا : بكى وندم ، وعض يده ندماً حتى جرى الدم ، حتى يعلم عبـاده التوبة من الذنوب .

ففى الجملة ، ما قال قوم من أهل الملل قولا فى الله ، إلا وقول النصارى أقبح منه .

ولهذا كان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول: لاترحموهم فقد سبوا الله مسبة ، ماسبه إياها أحد من البشر ، ولهذا يعظم الله فريتهم على الله فى القرآن، أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [سورة مريم :٨٨ ، ٩٥] .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « يقول الله عز وجل: كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، فأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياى فقوله : لن

يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » .

ورواه البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: « كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ، ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله : لى ولد ، فسبحانى أن أتخذ صاحبة ولا ولداً » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، إنه يُشْرَكُ به ، ويُجْعَلُ له نِدٌّ وهو يعافيهم ويرزقهم ويدفع عنهم » .

الوجه الثانى عشر : أن كل من يعتقد التجسيم ما يعتقد ، يمكنه أن يقول كما يقوله النصارى ، فإن النصارى عمدوا إلى ما هو جسد من جنس سائر أجساد بنى آدم . قالوا : إنه إله تام ، وإنسان تام . وليس فيه من الإلهية شىء ، فما بقى ـ مع هذا ـ يمتنع أن يعتقد فى نظائره ما يعتقد فيه .

فلو قال القائل: إن موسى بن عمران كان هو الله ، لم يكن هذا أبعد من قول النصارى ، فإن معجزات موسى ، كانت أعظم ، وانتصاره على عدوه أظهر ، وقد سماه الله فى التوراة إلهاً لهارون ولفرعون .

فإذا قيل فيه ما قالوا فى المسيح: إنه أظهر المعجزة بلاهوته ، وأظهر العبودية بناسوته ، لم يكن بطلان هذا أظهر من بطلان قول النصارى ، بل متى جوزوا اتحاد اللاهوت بالناسوت ، لم يمكنهم دفع ذلك عن أحد ممن يدّعى فيه إلا بدليل خاص بل إذا قيل لهم: حلّ فى كثير من الأنبياء والقداديس ، لم يمكنهم نفى ذلك.

وإذا قالوا : لم يخبر بذلك أحد ، ولم يبشر به نبى ، أو هذا غير معلوم.

قيل لهم : غاية هذا كله ، أنكم لا تعلمون ذلك ، ولم يقم عندكم دليل عليه ، وعدم العلم ليس علماً بالعدم ، فعدم علمكم ، وعدم علم غيركم بالشىء ، ليس علماً بعدم ذلك الشىء .

وكذلك عدم الدليل المعين، لا يستلزم عدم المدلول عليه، فإن كل ما خلقه الله دليل عليه، ثم إذا عدم ذلك، لم يلزم عدم الخالق فلا يجوز نفي الشيء لعدم الدليل الدال عليه إلا أن يكون عدم الدليل مستلزماً لعدمه، كالأمور التي تتوفر الهمم على نقلها إذا لم ينقل علم انتفاؤها.

والمقصود أنكم - مع العدم - لا يمكنكم النفي العام عن غير المسيح لعدم الدليل الدال عليه، فإنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول في نفس الأمر، لاسيما وهو كان متحداً بالمسيح عندهم أكثر من ثلاثين سنة، ومع هذا فكان يخفي نفسه ولا يظهر إلا العبودية.

فإذا قيل لهم: هكذا كان متحداً بغيره من الأنبياء والصالحين، ولكن أخفى نفسه لحكمة له في ذلك، أو أظهر على نفسه بعض خواص عباده، أو أظهر لطائفة لم ينقل إلينا خبرهم ونحو ذلك، لم يمكن - مع تصديق النصارى فيما يدعونه - الجزم بكذب هؤلاء. بل جوّز قول النصارى، جوز أن يكون متحداً بغير ذلك من الأجسام، فيجعل كثيراً من الأجسام المخلوقة هي رب العالمين، إذ كان ليس هو متحداً بها في نفس الأمر.

فإذا اعتقدوا الاتحاد فيها، كما اعتقدته النصارى في المسيح، لم يكن ثمّ إله في الحقيقة إلا ذلك الجسم الناسوتيّ المخلوق.

لكن ظن الضال أنه رب العالمين كما ظن عُبّاد العجل أن العجل إله موسى، فإذا جاز أن يتحد الرب عز وجل ببعض الأجسام، لم ينكر على أصحاب العجل إذا جوزوا أن يكون رب العالمين اتحد بالعجل، وقد رأوا منه نوع خرق عادة. فليس للنصارى أن ينكروا على عباد العجل. ولا عباد شيء من الأصنام، إذا أمكن أن يكون الرب عز وجل حلّ فيها عندهم، إن لم يقيموا دليلا على أن الرب لم يحل في ذلك.

فإذا قيل: إن موسى عليه السلام أنكر على عباد العجل.

قيل : نعم . وموسى ينكر على كل من عبد شيئاً من المخلوقات ، حتى لو عبد أحد الشجرة التى كلمه الله منها ، لأنكر عليه ، فإنكاره على النصارى أعظم .

والموسى عليه السلام ، لم يقل قط : إن الله يتحد بشيء من المخلوقات ويحل فيه ؟ بل أخبر من عظمة الله عز وجل بما يناقض ذلك .

ففى التوراة ، من نهيه عن عبادة ماسوى الله ، ومن تعظيم أمره ، وعقوبة المشركين به ، وبما أخبر به من صفات الله عز وجل ، ماينافض قول النصارى .

ولهذا كان من تدبر التوراة وغيرها من كلام الأنبياء عليهم السلام من النصارى ، تبين له أن دينهم يناقض دين الأنبيـاء كلهم ، وأن ماهم عليه من التثليث والاتحاد والشرك ، لم يبعث به أحد من الأنبياء عليهم السـلام . ومايفعلونه من دعاء المخلوقين كالملائكة ، أو كالأنبياء والصالحين الذين ماتوا ، مثل دعائهم مريم وغيرها ، وطلبهم من الأموات الشفاعة لهم عنـد الله ، لم يبعث به أحد من الأنبياء . فكيف وقد صوروا تماثيلهم ، ليكون تذكيراً لهم بأصحابها ويدعون تلك الصورة ؟ !

وإن قصدوا دعاء أصحابها ، فهم إذا صرحوا بدعاء أصحابها وطلبوا منهم الشفاعة وهم موتى وغائبون ، كانوا مشركين .

فكيف إذا كان الدعاء فى الظاهر لتماثيلهم المصورة ؟ ! وهذا مما يعترف به حذاق علمائهم بأنه مخالف لدين الأنبياء كلهم .

ولهذا وقع بينهم تنازع فى اتخاد الصور فى الكنائس ، لما ابتدعه بعضهم كما هو مذكور فى أخبارهم ، ولم يأت من ابتدع بحجة شرعية .

والمجسمة يعتقدون أن الله قديم أزلى ، وأنه عظيم جداً ، لا يقولون : إنه متحد بشيء من الأجسام المخلوقة ، ولا يحل فيها .

فمن قال باتحاده وحلوله فيها ، كان قوله شرا من قول هؤلاء المجسمة .

كما أن المتفلسفة الذين يقولون بأن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة بنفسها

أو لها علة تتشبه بها كما يقوله « أرسطو » وذووه ، أو يثبتون لها علة فاعلة لم تزل مقارنة لها كما يقوله « ابن سينا » وأمثاله .

وهؤلاء قولهم شر من قول اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين يثبتون للسموات والأرض خالقاً خلقها بمشيئته وقدرته .

ولو قال من قال منهم : إن ذلك جسم فغايته أن يثبت جسما قديما أزلياً موصوفاً بصفات الكمال .

ممن أثبت جسما قديماً أزلياً ليس موصوفاً بصفات الكمال ، كان قوله شراً من قول هذا .

فتبين أن المجسمة الذين يثبتون جسما ، قديماً أزلياً واجب الوجود بنفسه، عالماً بكل شيء ، قادراً على كل شيء مع قولهم : إنه تحله الحوادث ، وتقوم به الحركة والسكون ، خيراً من قول الفلاسفة الذين يقولون : إن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة الوجود بنفسها ، كما يقوله « أرسطو » وذووه ، وخير من النصارى أيضاً .

الوجه الثالث عشر : ـ قولهم : من قال ثلاثة آلهة مختلفة أو متفقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه فنحن نلعنه ونكفره .

فيقال لهم : وأنتم أيضاً تلعنون من قال : إن المسيح ليس هو إله حق من إله حق ، ولا هو مساوي الأب في الجوهر ، ومن قال : إنه ليس بخالق ، ومن قال : إنه ليس بجالس عن يمين أبيه ، ومن قال أيضاً : إن روح القدس ليس برب حق محيي ، ومن قال : إنه ليس ثلاثة أقانيم .

وتلعنون أيضاً مع قولكم إنه الخالق من قال : إنه الأب ، والأبُ هو الخالق ، فتلعنون من قال هو الأب الخالق ومن قال : ليس هو الخالق ، فتجمعون بين النقيضين .

فتلعنون من جرد التوحيد بلا شرك ولا تثليث ، ومن أثبت التثليث مع انفصال كل واحد عن الآخر ، وتجمعون بين النقيضين .

فمن أثبت أحدهما منفكاً عن الآخر لعنتموه ، كمن قال : عندي واحد ثلاثة .

فمن قال : هو واحد ليس بثلاثة كذبه ، ومن قال : هو ثلاثة ليس واحداً كذبه . ومن قال : عندي شيء موجود معدوم .

فمن قال : هو موجود ليس بمعدوم كذبه ، ومن قال معدوم ليس بموجود كذبه ، ومن قال : عندي شيء هو حي ميت ، هو عالم جاهل ، هو قادر عاجز .

فمن قال هو حي ليس بميت كذبه ، ومن قال : هو ميت ليس بحي ، كذبه .

فهكذا أنتم ، تجمعون بين قولين متناقضين ؛ أحدهما حق ، والآخر باطل .

فمن قال الحق ونفي الباطل ، لعنتموه . ومن قال الباطل ونفي الحق لعنتموه .

وأنتم تشبهون الملاحدة ، من الجهمية والفلاسفة والباطنية ، الذين يسلبون عنه النقيضين ، أو يمتنعون عن إثبات أحد النقيضين ، فيقولون : لا نقول هو حي ولا ليس بحي ، ولا هو عالم ، ولا ليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر .

بل منهم من يقول : لا نقول هو موجود ولا معدوم ولا نقول : هو شيء ، ولا نقول : ليس بشيء .

ومنهم من يقول : ليس بحي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز .

ومنهم من يقول : لا نطلق لا هذا ولا هذا .

فيقال لهم : رفع النقيضين كجمع النقيضين ، والامتناع عن إثبات أحد النقيضين ، كالامتناع عن نفي أحد النقيضين .

وكذلك من وصفه بأنه موجود واجب الوجود لذاته ، ثم وصفه بصفات تستلزم عدمه ، فقد جمع بين النقيضين .

وكل قول يتضمن جمع النقيضين وإثبات الشيء ونفيه ، أو رفع النقيضين ، الإثبات والنفي ، فهو باطل .

والنصارى ـ فى هذا الباب ـ من أبلغ الناس تناقضا ، يقولون الشىء ، ويقولون بما يناقضه ، ويلعنون من قال هذا ومن قال هذا .

وأيضاً فكل طائفة منكم تلعن الأخرى ، فإن أهل الأمانة تلعن الأريوسية وغيرهم من طوائف النصارى وهم يلعنونكم ، وكل من فرقكم الثلاثة ، النسطورية ، واليعقوبية ، والملكية ، تلعن الطائفتين الأخريين .

فأنتم واليعقوبية تلعنون من يقول : إن مريم لم تلد إلهاً ، ويقولون : إن مريم ولدت إنساناً تاماً إلهاً تاماً .

وأنتم والنسطورية تلعنون من قال : إنهما جوهر واحد بمشيئة واحدة وطبيعة واحدة .

ومن قال : إن اللاهوت تألم مع قولكم : إن اللاهوت مولود من مريم ، ومع قولكم المسيح الذى ولدته مريم : مات وصلب ، وفى أقوالكم من العجائب المتناقضة التى توجب أنكم ملعونون ، ما يطول وصفه ، فما منكم من أحد إلا وهو لاعن ملعون ، فلعنكم من قال بهذه المقالات ، لا يوجب أنكم على الحق ، بل يوجب أن يكون من جملة الملعونين عندكم ، كطائفة من طوائفكم ، والنصارى طوائف كثيرون مختلفون اختلافاً كثيراً .

والطوائف الثلاثة المشهورة فى الأزمان المتأخرة فهم بعض طوائفهم ، وإلا فهم طوائف كثيرون ، مختلفون فى التثليث والاتحاد .

وتجد كل صنف منهم ـ أو من غيرهم فى مقالاتهم ـ يحكى أقوالا غير الأقوال التى حكاها الآخرون .

ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم سعيد بن البطريق بترك الإسكندرية ، فى أثناء المائة الرابعة من دولة الإسلام ، وقد بحث لهم بحثاً استقصى فيه ـ بزعمه ـ نصر مذهبهم ، وهو ملكى ، وقد ذكرت كلامه فى غير هذا الموضع .

وفيهم من يقول : إن مريم زوجة الله ، وفيهم من يجعلها إلهاً آخر ، كالمسيح .

وفيهم من يثبت أن المسيح ابن الله ، الولادة المعروفة من الحيوان .

والأمانة التي جعلوها عقيدتهم وأصل إيمانهم في زمن قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، هي وغيرها من أقوالهم الظاهرة ، تدل على هذه الأمور المنكرة القبيحة دلالة بينة .

لكن علماؤهم يتأولونها بتأويلات تناقض مدلولها ، مع فساد تلك المعاني التي يحملونها عليها عقلا وشرعاً .

وليست تلك ألفاظ الأنبياء ، حتى يقال : حكمهم في ذلك حكم سائر الطوائف من المسلمين وغيرهم ، الذين يقولون ما يرونه متشابهاً من كلام الأنبياء ويقولون : إن الأنبياء تكلموا بما لا يعرف أحد معناه ، أو أنهم خاطبوا الجمهور بما أرادوا به تفهيمهم أموراً ينتفعون بها ، وإن كان ذلك كذباً باطلا في نفس الأمر .

فإن هؤلاء الطوائف ، وإن كان فيهم من الضلال والجهل ما قد بسط في غير هذا الموضع ، فقد فعلوا ذلك في ألفاظ الأنبياء التي لها حرمة النبوة .

بخلاف النصارى فإنهم وضعوا عقيدة وشريعة ، ليست ألفاظها منقولة عن أحد من الأنبياء .

الوجه الرابع عشر :- قولهم : ومرادنا بالأب والابن ، غير أبوة وبنوة نكاح ، ومن أراد ولادة زوجة لعناه .

فيقال : لفظ الولادة المعروف ، إنما يكون من أصلين ، وإنما يكون بانفصال جزء من الأصلين ، وإنما يكون بحدوث المولود ، سواء أريد ولادة الحيوان أو غيرها ، كما تتولد النار من بين الزنادين ، فإذا قدح أحدهما بالآخر ، خرج منهما جزء لطيف ، فاستحال ناراً ، ثم سقط على الحراق .

وقد توسع بعض الناس في الولادة حتى عبر به عما يحدث عن الشيء ، وإن لم يكن بانفصال جزء منه ، كتولد الشعاع عن النار ، والشمس وغيرها ، لأن هذا يحدث بشيئين أحدهما ، ما يصدر عنه ، من الشمس والنار . والثاني المحل

القابل الذى ينعكس عليه ، وهو الجرم المقابل له الذى يقوم به الشعاع .

فأما ما يحدث عن شىء واحد ، فلا يعرف أنه يسمى ولادة إن قدر وجود ذلك ، وكذلك لا يعرف ما يلزم الشىء الواحد أنه يسمى ولدا .

فأما ما يقوم بالموصوف من صفاته اللازمة له ، فهذا أبعد شىء عن أن يسمى هذا الملزوم ولادة ، بل لا تكون الولادة إلا عن أصلين .

وكل من قال : إن لله ولداً ، لزمه أن تكون له صاحبة بأى وجه فسر الولادة ، وأن يكون له ولد حادثا ولهذا قال تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [سورة الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١] فاستفهم تعالى استفهام إنكار ، يبين امتناع أن يكون له ولد ، إذا لم تكن له صاحبة فإن الولد لا يكون إلا من أصلين ، وهذا مما ينبغى أن يتفطن له ، فإن جعل ما يلزم مشىء الواحد متولداً عنه ، لا يعرف ، لاسيما صفاته القائمة به اللازمه له ، كعلمه ، وحياته ، لاسيما الصفات القديمة الأزلية لذات رب العالمين ، الذى لم يزل ولا يزال موصوفا بها ، فإن صفات العبد اللازمة له ، كحياته ، وقدرته ونحو ذلك ، ليست متولدة عند جميع العقلاء .

ولا يقول عاقل يعقل ما يقول : إن لون السماء وقدرها متولد عنها ، ولا إن قدر الشمس وضوءها القائم بها ، اللازم لها ، متولد عنها ، ولا يقول أحد : إن حرارة النار وضوءها القائم بها متولد عنها

وإنما يقال : ــ إن قيل ــ فيما ليس بقائم بها ، بل قائم بغيرها ، أو فيما هو حادث بعد أن لم يكن ، كالشعاع القائم بالأرض والحيطان ، وهذا ليس بقائم بها ، بل قائم بغيرها ، وهو حادث متولد عن أصلين ، لا عن أصل واحد .

فأما صفات المخلوق القائمة به اللازمة له ، فلا يقول أحد من العقلاء : إنها متولدة عنه .

والنصارى يزعمون أن كلمة الله التي يفسرونها بعلمه أو حكمته . وروح القدس التي يفسرونها بحياته وقدرته ، هي صفة له قديمة أزلية ، لم يزل ولا يزال موصوفا بها .

ويقولون — مع ذلك — إن الكلمة هي مولودة منه ، فيجعلون علمه القديم الأزلي متولداً عنه ، ويجعلون حياته القديمة الأزلية متولدة عنه .

وقد أصابوا في أنهم لم يجعلوا حياته متولدة عنه ، لكن ظهر بذلك بعض مناقضاتهم وضلالهم بأنه أنواع كثيرة . فإنه إن كانت صفة الموصوف القديمة اللازمة لذاته ، يقال : إنها ابنه وولده ومتولد عنه ، ونحو ذلك ، فتكون حياته أيضاً ابنه وولده . ومتولداً عنه ، وإن لم يكن كذلك ، فلا يكون علمه ابنه ولا ولده ، ولا متولدا عنه .

وأبلغ من ذلك أن روح القدس المنفصلة عنه ، القائمة بالأنبياء والصديقين ، لا يقولون : إنها ولده ، ولا إنها متولدة عنه ، بل يخصون ذلك بالكلمة ، فلا ينقلون عن أحد من الأنبياء أنه سمى شيئاً من صفات الله ابناً ولا ولداً ، ولا قال : إن علم الله أو كلامه أو حكمته ولده أو ابنه ، أو هو متولد عنه .

فعلم أن القوم في غاية التناقض في المعاني والألفاظ وأنهم مخالفون للكتب الإلهية كلها ، ولما فطر الله عليه عباده من المعقولات التي يسمونها نواميس عقلية ، ومخالفون لجميع لغات الآدميين ، وهذا مما يظهر به فساد تمثيلهم فإنهم قالوا : تولدت الكلمة عنه ، كما تولدت الكلمة والحكمة فينا عن العقل .

فيقال لهم : لو قدر أن الأنبياء سموا ذلك تولداً ، فما يتولد فينا حادث بعد أن لم يكن ، وحدوثه بتسبب من فعلنا وقدرتنا ومشيئتنا .

فأما صفاتنا اللازمة لنا ، التي لا اختيار لنا في اتصافنا بها ولم نزل متصفين بها ، فلا يقول عاقل : إنها متولدة فينا وعنا .

وأنتم تجعلون صفة الله القديمة اللازمة له ، التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، متولدة عنه .

فلو قدر أن ما ذكرتموه من التولد العقلي أمراً معروفا في اللغة والعقل والشرع ، لم يكن لكم أن تجعلوا علم الله وحكمته التي فسرتم بها كلمته ابناً له ومولوداً منه ، لم يزل مولودا منه ، لأن هذا باطل عقلا وشرعا ولغة .

أما العقل فإن صفة الموصوف اللازمة له — وإن كان مخلوقا — ليست متولدة عنه ، فكيف الصفة القديمة للموصوف القديم ؟

ولو جاز هذا ، جاز أن يجعل ما كان لازماً لغيره ولدا له ومولودا منه ، فيجعل كيفيات الأشياء وكمياتها متولدة عنه وأمثالها .

ويقال : إن طول الجسم وعرضه وعمقه متوالدة عنه ، وإن حياة الحي متولدة عنه وإن القوى والطبائع التي جعلها الله في الحيوان متولدة عنها .

وأما الشرع ، فإن هذا لو كان متولدا — وهو في بعض اللغات يسمى ولداً — لم يجز أن يحمل على ذلك كلام الأنبياء إلا أن يكون في لغتهم يسمى ولدا .

وكل من نظر في كتب الأنبياء من علماء النصارى وغيرهم ، لم يجد أحداً من الأنبياء يُسَمِّي علم الله وكلمته وحياته ، ولداً له ولا ابناً ، ولا قال : إن ذلك يتولد عنه .

فقولهم عن المسيح : عَمِّدُوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس أنه أراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية ، وأنها متولدة منه وأنه أراد بروح القدس ، حياة الله القديمة الأزلية ، كذب محض على المسيح عليه السلام لا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء أنهم سموا علم الله وحكمته ولا شيئاً من صفاته القائمة به ابناً ولا سموا حياته روح القدس .

وأما اللغة ، فإن هذا التعبير الذى ذكروا - وهو تسمية صفات الموصوف اللازمة له ولدا وابنا ومتولدا — لا يعرف فى لغات بنى آدم المعروفة .

وقد يتبنى الرجل ولد غيره فيتخذه ولداً ويجعله بمنزلة الولد وإن لم يكن متولدا عنه ، كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم ، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد فقال تعالى : (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) وقال تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [سورة الأنعام : ١٠٠، ١٠١] وقال تعالى : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

وأما اتخاذ الولد ، ففى مواضع متعددة كقوله تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ) [سورة الإسراء : ١١١] وقوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [سورة البقرة : ١١٦، ١١٧] وقوله : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ) [سورة الأنبياء : ٢٦ ، ٢٩] وقوله (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [سورة المؤمنون : ٩١] وقوله (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) .

وأهل الكتاب يذكرون أن فى كتبهم تسمية عباد الله الصالحين ابناً ، وتسمية الله أباً ، وتسمية المصطفين أبناء ، وهذا إذا كان ثابتاً عن الأنبياء فإنهم لا يعنون به إلا معنى صحيحاً .

واللفظ قد يكون له فى لغة معنى ، وله فى لغة أخرى معنًى غير ذلك ، والمراد بهذا الولد والابن ، لا ينافى كونه مخلوقاً مربوباً عبداً لله عز وجل .

وأما تسمية شىء من صفات الله ابنا أو ولدا ، فهذا لا يعرف عن أحد من الأنبياء ، ولا الأمم أهل اللغات سوى مبتدعة النصارى .

ولم يبق للتولد إلا معنيان ، أحدهما : ـ أن ينفصل عنه جزء .

والثانى : ـ أن يحدث عنه شىء إما باختياره ، وإما بغير اختياره وقدرته ، كحدوث الشعاع عن النار والشمس .

وكل من الأمرين لا يكون إلا عن أصلين ، ولا بد أن يكون حادثا لا يكون من صفاته اللازمة له ، فيمتنع أن يتولد عنه شىء إن لم يكن معه أصل آخر يتولد عنهما .

والتولد عنه بغير قدرته ومشيئته ، ممتنع عند أهل الملل ، المسلمين واليهود والنصارى وسائر الأمم ، سوى طائفة من المتفلسفة يقولون : إنه موجب بذاته، مستلزم لما يصدر عنه ، فهؤلاء قولهم يناسب هذا التولد .

والنصارى تكفر هؤلاء ، لكن قد ضاهوهم فى القول ، كما قال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ . ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) ، وهذا قاله طائفة من اليهود ، وهو معروف عن شخص يقال له فنحاص بن عازورا وأتباعه .

قال أبو محمد ابن حزم : والصدوقية ، طائفة من اليهود ، نسبوا إلى رجل

يقال له صدوق ، وهم يقولون ـ من بين سائر اليهود ـ : إن العزير ابن الله ، وكانوا بجهة اليمن .

ولكن المتفلسفة الذين يقولون بصدور العقول والأفلاك عنه ، وإن سمى ذلك تولدا ، فهم يجعلون ولده منفصلا عنه ، لكن يثبتون ولدا قديما أزليا صدر عنه بغير اختياره ، ويجعلون الشيء الواحد متولداً عنه .

وسائر الطوائف الذين أثبتوا لله ولداً جعلوه حادثاً منفصلا عنه .

فأما جعل صفته القائمة به ولداً ومولوداً ، فهذا لا يعرف عن غير النصارى .

فإذا أثبتوا له ولداً وابناً غير مخلوق ، والصفة القائمة به اللازمة له ، لم تتولد عنه ولا تسمى ابناً ولا ولداً عند أحد من الأنبياء وغيرهم ، تعيّن أن يكون الولد إما جزءا منفصلا عنه ، وإما معلولا له صادراً عنه بغير قدرته ومشيئته ، وأى القولين قالوه ، فهم فيه كفار مضاهئون لقول الذين كفروا من قبل .

وبعض علمائهم ، وإن أنكر ذلك ، لكنهم يقولون بما يستلزم ذلك .

ويشبهونه بالشعاع من الشمس ، ويقولون عنه الروح ، هو منبثق من الله ، خارج منه .

وهذا كله يناسب الولادة ، التى هى خروج شيء منه ، أو حدوث شيء عنه بغير اختياره ومشيئته ، ولا بد له ـ مع ذلك ـ من محل يقوم به ، فإن الشعاع لا يقوم إلا بالأرض .

والأمر المنبثق الخارج من غيره إما أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ، أو صفة قائمة بغيرها .

فإن كان جوهراً ، فقد انفصل من الرب جزء .

وإن كان عرضاً ، فلابد له من محل ، فيكون متولداً عن أصلين .

وتشبيههم بتولد الكلام عن العقل ، تشبيه باطل ، فإن ذلك يحصل بقدرة الإنسان ومشيئته ، وهو حادث بعد أن لم يكن .

هذا إذا عرف أن ما يقوم بقلب الإنسان من علم وحكمة ، يقال : إنه يتولد عنه ، ويقال : إنه ابنه مع أن هذا أمر غير معروف فى اللغات ، ولو كان معروفا فى لغة بعض الأمم ، لم يجز أن يفسر به كلام الأنبياء إن لم يكن معروفا فى لغتهم .

وأما مايدّعونه ، فإنهم يقولون : إن الكلمة لازمة لذات الله أزلا وأبداً ، وهى مولودة منه ، مع أنها غير مصنوعة ، فهذا كلام متناقض باطل من وجوه .

فإن المتولد عن الشىء ، لا يتولد إلا عنه وعن غيره .

وأما الشىء الواحد ، فلا يتولد عنه وحده شىء .

وأيضاً فإن ما تولد عن غيره لم يكن إلا حادثا .

وأما الصفة القديمة اللازمة لذات الرب ، فليست مولودة له ، ولا متولدة عنه ، بل هى قائمة به لازمة لذاته .

وأيضاً ، فإن المولود اسم مفعول ، يقال : ولده يلده فهو مولود ، وهذا لا يقال إلا فى الحادث المتجدد ، فإنه مفعول فعل الوالد .

والقديم الأزلى ، لا يكون مفعولا مولوداً .

وأيضاً فتسمية الصفة القديمة الأزلية ، مولوداً وابناً ، لا يوجد فى كلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

فهبْ أنّ هذا مما يسوغ لنا فى اللغة أن نقوله ، لكن لا يجوز أن نحدث لغة غير لغة الأنبياء ، ونحمل كلام الأنبياء عليها ، فإن هذا كذب عليهم .

وهكذا تفعل النصارى وأمثالهم من أهل التحريف بكلام الأنبياء ، يحدثون لهم لغة مخالفة لغة الأنبياء ، ويحملون كلام الأنبياء عليه .

مثال ذلك الأنبياء أخبروا بأن الله إله واحد ، وكفروا من أثبت إلهين اثنين ، وأمروا بالتوحيد ودعَوْا إليه ، وحرموا الشرك وكفروا أهله ، وأخبروا أن الله واحد أحد ، وكان مرادهم بذلك توحيده وأنه لا يجوز أن يعبد إلا الله ،

وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، ليس مقصودهم بذلك نفيَ صفاته .

فلم يقصدوا بلفظ « الأحد والواحد » أنه ليس له علم ولا قدرة، ولاشيء ، من الصفات .

فجاء طائفة من أهل البدع ، ففسروا لفظ اسم « الواحد » و « الأحد » بما جعلوه اصطلاحا لهم ، فقالوا : الواحد الذى ليس فيه تركيب ولا ينقسم ، ولو كان له صفات لكان مركباً ، ولو قامت به الصفات، لكان جسما ، والجسم مركب من الجواهر المفردة ، أو من المادة والصور ، فلا يكون أحداً ولا واحداً .

فيقال : هذا الذى قالوه لو قُدِّر أنه صحيح فى العقل واللغة ، فليس هو لغة الأنبياء التى خاطبوا بها الخلق ، فكيف إذا لم يكن هذا الواحد من لغة أحد من الأمم ؟!

بل جميع الأمم تسمى ما قام به الصفات واحداً ، بل يسمونه وحيداً، وقد يسمونه فى غير الإثبات أحدا كقوله (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ) [التوبة : ٦] وقوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) وأمثال ذلك .

وأما البحث العقلى فى هذا ، فقد بسطناه فى غير هذا الموضع ، وبيَّنَّا أن ما يسميه هؤلاء المتفلسفة تركيباً كقولهم : إن الشيء مركب من وجود وماهية ، وقولهم ، إن الأنواع مركبة من الأجناس والفصول ، هو باطل عند جميع جمهور العقلاء .

وليس فى الخارج إلا ذات متصفة بصفات، وليس فى الخارج وجود القائم بنفسه ، وماهية أخرى غير هذا الشيء الموجود القائم بنفسه مثلاً .

ولكن قد يعنى بلفظة « الماهية » ما يتصور فى الأذهان ، وبالوجود ما يوجد فى الأعيان ، وحينئذ ، فهذه الماهية غير هذا الموجود ، وحينئذ فيقال : هذه الماهية غير هذا الوجود .

وكذلك قولهم : إن الإنسان الموجود فى الخارج مركب من الجنس والفصل، فإن الإنسان الموجود هو ذات متصفة بصفات هو وغيره من الموجودات .

ولكن يتصور فى الذهن ما هو مركب من الحيوان والناطق ، كما يتصور ما هو مركب من الحيوان والضاحك ، وهذا تركيب ذهنىّ ، لا تركيب فى الخارج ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وتبيّن أن ما جعلوه من الصفات داخلا فى الماهية ، وما جعلوه خارجاً عنها لازماً لها ، وما هو مجموع أجزاء الماهية ، يرجع ـ عند التحقيق ـ إلى ما هو مدلول عليه بالتضمن والالتزام والمطابقة .

ومن ذلك تركيب الجسم من الجواهر المفردة ، أو من المادة والصورة .

وأكثر العقلاء ينكرون تركيب الجسم من هذا وهذا ، كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا ، كلام الأنبياء لا يجوز أن يحمل إلا على لغتهم التى عادتهم أن يخاطبوا بها الناس ، لا يجوز أن يحدث لغة غير لغتهم ويحمل كلامهم عليها .

بل إذا كان لبعض الناس ـ عادة ولغة ـ يخاطب بها أصحابه وقدر أن ذلك يجوز له ، فليس له أن يحمل ذلك لغة النبى ، ويحمل كلام النبى على ذلك .

ومن هذا إخبار الأنبياء بأن الله يقول ويتكلم وينادى ويناجى ، وأنه قال كذا وتكلم بكذا ، ونادى موسى ونحو ذلك .

والمعروف فى لغتهم ولغة سائر الأمم ، أن المتكلم من قام به الكلام وإن كان متكلماً بقدرته ومشيئته ، لا يعرف فى لغتهم أن المتكلم من أحدث كلاماً منفصلا عنه ، ولا أن المتكلم من قام به الكلام بدون قدرته ومشيئته .

فليس لأحد ـ إذا جعل اسم المتكلم لمن يحدث كلاماً بائناً عنه ، أو من قام به بدون قدرته ومشيئته ـ أن يحمل كلام الأنبياء على هذا .

بل المتكلم ـ عند الإطلاق ـ من تكلم بقدرته ومشيئته ، مع قيام الكلام به

وهذا هو المعروف فى لغة الأنبياء وسائر الأمم عند الإطلاق ، ونظائر هذا متعددة .

فمن فسر كلام الأنبياء بغير لغتهم المعروفة ، فهو ممن يدل كلامهم وحروفه والنصارى من هؤلاء .

وكذلك اسم العادل والظالم ونحوهما ، فإن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم أن العادل من قام به العدل وفعل العدل بمشيئته وقدرته .

والظالم من قام به الظلم ، وفعله بقدرته ومشيئته ، لا يسمون من لم يقم به الظلم ؛ ولكن قام بغيره ، ظالما ، لكونه قد جعل ذلك فاعلا له ولا يسمون من لم يفعل الظلم ـ ولكن فعله غيره فيه ـ ظالماً .

فمن جعل الظالم والكافر والفاسق من لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولكن فعله غيره فيه ، أو جعل الظالم من لم يقم به ظلم فعله ، ولكن جعل غيره متصفاً به ظالما ، فقد خرج عن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم .

وأبلغ من ذلك أن المحدث والحادث فى لغة جميع الأمم ، لا يسمى به إلا ما كان بعد أن لم يكن والمخلوق أبلغ من المحدث والحادث .

فليس لأحد ـ إذا أحدث إصلاحاً سمى به القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً ولكنه زعم أنه معلول لغيره فسماه محدثا بهذا الاعتبار ـ أن يقول : أنا أحمل كلام الأنبياء الذى أخبروا به ، أن السموات والأرض وما بينهما مخلوق أو مصنوع أو مفعول أو محدث ونحو ذلك من العبارات ، على أن مرادهم بذلك أنه معلول كونه قديما أزليا لم يزل .

وأما لفظ « القديم » فهو فى اللغة المشهورة التى خاطبنا بها الأنبياء يراد به

ما كان متقدماً على غيره تقدماً زمانياً، سواء سبقه عدم أو لم يسبقه كما قال تعالى ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وقال تعالى ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وقال الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فلهذا كان القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً، ولم يسبقه عدم، أحق باسم القديم من غيره.

وليس لأحد أن يجعل القديم والمتقدم اسماً لما قارن غيره فى الزمان لزعمه أنه متقدم عليه بالعلة، ويقول: إنه متقدم على غيره وسابق له بهذا الاعتبار وإن ذلك المعلول متأخر عنه بهذا الاعتبار، ثم يحمل ما جاء من كلام الأنبياء وأتباع الأنبياء وعموم الخلق على هذا الاصطلاح لو كان حقاً فكيف إذا كان باطلا.

وما ذكره من التقدم والسبق والتأخر بغير الزمان، أمر غير موجود ولا معقول، ولا يعرف فى الوجود من فعل شيئاً وكان علة فاعلة لا إله إلا وهو متقدم عليه سابق له، ليس مقارناً له فى الزمان ألبتة، بل متقدم عليه تقدماً زمانياً.

وكل ما يعرف أنه سبب أو علة فاعلة فإنه متقدم على مسببه ومعلوله، لكن قد يكون متصلا به، ليس بينهما زمان آخر.

فيقال: ليس هذا متأخراً عن هذا، أى هو متصل به ليس بينهما فصل.

ويقال: ليس ذلك متقدماً على هذا، أى ليس بينهما زمان، بل هو متصل به، إذ قد يراد بلفظ التقدم هذا، كقول النبى صلى الله عليه وسلم: «الجنازة متبوعة وليست بتابعة ليس منها من تقدمها» أى من كان قد تقدمها، حتى من لم يكن قريباً منها، لم يكن تابعاً لها، كما جاء فى الحديث الآخر «الراكب خلف الجنازة، والماشى أمامها ووراءها: وعن يمينها ويسارها قريباً منها» رواه أبو داود وغيره، وهو أبين حديث روى فى هذا الباب فى هذا الحكم، منه قوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى لا يتقدم عليه، بحيث يكون بينهما انفصال. بل كل منهما متصل بالآخر.

والمقصود هنا أن معرفة اللغة التى خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها ، أمر واجب متعين ، ومن سلك غير هذا المسلك، فقد حرف كلامهم عن مواضعه وكذب عليهم وافترى .

ومثل هذا التحريف والتبديل ، قد اتفق المسلمون واليهود والنصارى ، على أنه وقع فيه خلق كثير من أهل الكتب الثلاثة ، وأن التوراة والإنجيل حُرِّفا بهذا الاعتبار، وكذلك القرآن حرَّفه أهل الإلحاد والبدع ، بهذا الاعتبار.

فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن .

ومرادهم ــ عندهم ــ بالأب الرب ، وبالابن المصطفى المختار المحبوب .

ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سموا شيئاً من صفات الله ابناً ، ولا قالوا عن شيء من صفاته : إنه تولد عنه ، ولا إنه مولود له .

فإذا وجد فى كلام المسيح عليه السلام أنه قال : « عمِّدُوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس » ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية ، كان هذا كذباً بيِّناً على المسيح ، حيث لم يكن فى لغته أن لفظ الابن، يراد به صفة الله القديمة الأزلية .

وكذلك إذا لم يكن فى كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدس ، ماينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ، ويؤيدهم . كان تفسير قول المسيح ، روح القدس أنه أراد حياة الله، كذباً على المسيح .

وهذا من بعض الوجوه أفسد من قول بعض المتفلسفة : إن العقول والنفوس والفلك ، معلولة له متولدة عنه. لازمة له أزلا وأبداً، وإن كان هذا أيضاً باطلا فى صريح العقل، كما هو كفر بما أخبرت به الأنبياء ، كما قد بسط فى موضع آخر فإنه لا يصدر شيء عن فاعل الأشياء بعد شيء لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً للفاعل ولا يتأخر عنه . ولا يكون التوالد إلا عن أصلين .

والواحد من كل وجه الذى ليس له صفة ثبوتية ، لا وجود له ، ولو كان له وجود لم يصدر عنه شيء ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع أخر .

ومما يوضح ذلك أن خواص النصارى وعلماءهم ـ مع تجويزهم أن يقال : إن المسيح ابن الله ـ يلزمهم أن تكون مريم صاحبة الله وامرأته . كما قال ذلك من يغلو منهم .

ومنهم من يجعل مريم إلهاً مع الله كما جعل المسيح إلهاً .

فإن قالوا بذلك ، جعلوا لله صاحبة وولداً ، وجعلوا المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله ، كما فعل ذلك من فعله منهم .

فإنهم يعبدون مريم ، ويدعونها بما يدعون به الله سبحانه والمسيح ، ويجعلونها إلهاً كما يجعلون المسيح إلهاً .

فيقولون : يا والدة الإله ، اغفرى لنا وارحمينا ونحو ذلك ، فيطلبون منها ما يطلبونه من الله عز وجل .

ومنهم من يقول عن مريم : إنها صاحبة الله سبحانه وتعالى .

وبيان لزوم ذلك أن المسيح، عندهم إنسان تام وإله تام ناسوت ولاهوت، فناسوته من مريم ، ولاهوته الكلمة القديمة الأزلية وهى الخالق عندهم .

فالمسيح بين أصلين ، ناسوت ولاهوت ، فإذا كان الأب هو الله عندهم ، والكلمة المولودة عن الأب ابن الله ، فمعلوم أن اللاهوت لما التحم بالناسوت ليصير منها ، أن المسيح ازدوج به ، وقارنه ، وهذا معنى الزوجية .

فكما أنهم قالوا : إن الولادة عقلية لا حسية ، فكذلك الازدواج والنكاح، عقلى لا حسى . فإن اللاهوت ـ على قولهم ـ ازدوج بناسوت مريم ونكحها نكاحاً عقلياً ، وخلق المسيح من هذا وهذا .

وهم يقولون فى الأمانة : إن المسيح تجسد من مريم ومن روح قدس .

فإن فسروا روح القدس بجبريل - كما يقوله المسلمون - فهو الحق، وبطل قولهم. لكنهم يقولون: روح القدس هو الأقنوم الثالث - كما يقولون في الكلمة وهو اللاهوت عندهم.

فهم قد ذكروا أنه تجسد من الناسوت واللاهوت، فيلزمهم على هذا أن يكون المسيح هو الابن، وهو روح القدس، فيكون أقنومين، لا أقنوماً واحداً وقد تقدم تناقضهم في هذا.

والمقصود هنا أنهم إذا قالوا: إن الرب أو بعض صفاته اتحد بما خلق من مريم فلابد أن يحصل له اتصال بمريم قبل اتصاله بما خلق منها وذلك هو معنى النكاح والازدواج.

وعند جمهور النصارى أن مريم ولدت اللاهوت كما ولدت الناسوت، وهي أم اللاهوت، ويقولون في دعائهم: ياوالدة الإله.

واللاهوت الذي ولدته مريم هو - عندهم - رب العالمين، واللاهوت اتحد بالناسوت عندهم. من حين خلق الناسوت في بطن مريم، لم يحدث بعد الولادة.

فإذا جاز أن يكون لرب العالمين عندهم أم ولدته بوجه من الوجوه فإمكان أن يكون له صاحبة وزوجة، أولى وأحرى، وليس في ذلك ما يحيله العقل والشرع إلا وهو لكونها إما للاهوت أشد إحالة.

فإن جاز أن يكون اللاهوت أم والأم أصل، فلأن يكون له صاحبة هي زوجة ونظير أقرب وأولى، فإن من المعلوم أن ولد ذلك الشيء، وهو المتفرع المتولد عنه، أنقص بالنسبة إليه من نظيره.

فإذا قالوا: إن رب العالمين ولداً اتحد بالناسوت هو نظيره المساوي له في الجوهر، وقالوا إن الناسوت أم هذا المسيح الذي هو الله وهو ابن الله، وقالوا: إن الناسوت مريم، ولد اللاهوت، كما ولد الناسوت، ولم يكن هذا عيباً ينزه الرب عنه، فلأن يجعلوا له أم هذا الولد الذي حبلت به واتحد به اللاهوت وهو فيها، وولدت اللاهوت، صاحبة وزوجة للأب، أولى وأحرى، وإلا

فكيف تلد ابنه الذى هو اللاهوت ، ولا تكون صاحبته وامرأته ؟

وهم يقولون : نحن سمينا علمه مولوداً عنه ، لكونه تولد عنه تولد الكلمة عن العقل ، وهذا الولد اتحد بالناسوت ، فسمينا المجموع ولداً .

وبهذا يفرقون بين كون المسيح ابناً ، وغيره من الأنبياء يسمى ابناً .

فإنهم يقولون : هؤلاء أبناء بالوضع ، والمسيح ابن بالطبع ، أى أولئك سموا أبناء بمشيئة الرب وقدرته ، لأنهم اصطفاهم ، والكلمة التى جعلوها متحدة بالمسيح هى - عندهم - متولدة عن الله تولداً قديماً أزلياً ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ولهذا قالوا : مولود غير مصنوع ، فإن القديم الأزلى - مع كونه قائماً بذاته - لا يكون مصنوعاً عند أحد من العقلاء ، ولا القائلين بقدم العالم .

فإذا كانت الكلمة اتحدت بالمسيح المخلوق من مريم والتحمت به ، فإذا قيل - مع ذلك - : إن القديم مسّ المحدث أو لاصقه أو باشره ، كان أيسر من هذا كله .

والمسيح ولد ولادة حادثة عندهم ، غير الولادة القديمة التى للكلمة ، فيلزم أن تكون مريم قد صارت زوجة وامرأة ، بل نكحت نكاحاً حادثاً يناسب تلك الولادة الحدثة ، قال تعالى : (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ولهذا كان الحلول أسهل من الاتحاد.

فمن قال : إنه حلّ فى جسد المسيح ومسّه وباشره كما يحل الماء فى اللبن ، كان أهون ممن يقول : إنه اتحد به والتحم به .

فإذا قيل : إن مريم امرأة القديم وصاحبته وزوجته كان ما فى هذا من إثبات مباشرته لها ومماسته لها ، واتصاله بها .

ومهما قُدّر من اتصال الزوج زوجته أهون مما قالوه من اتحاد القديم بالمحدث ، ومصيره وإياه ، إما جوهراً واحداً ، وإما شخصاً واحداً ، وإما مشيئة واحدة .

ولهذا كان كل عاقل يعلم أن النكاح الحسى أسهل من الولادة الحسية .

فالذكر من الحيوان إذا نكح الأنثى فإنما مسّ الذكر للأنثى لم تصر الأنثى متولدة عنه فإذا جوزوا أن يكون للرب القديم الأزلى ، ما يتولد عنه ويتحد به ، وهو محدث مخلوق ، فَلَأَنْ يكون له ما يمسه أولى وأحرى .

وإذا قالوا : إن المسيح إنما كان ابناً ، لأن الكلمة القديمة التى هى ابن ، اتحدت به قبل ، فقد يسمى الناسوت الذى اتحد به القديم ابناً عندكم ، باسم القديم وجعلتموه إلهاً خالقاً ، فما المانع من جعل أم ذلك الناسوت الذى جعلتموه ابن الله ، صاحبةً لله وزوجته ، باعتبار أن القديم الأزلى حصل منه ومنها ما هو من القديم الأزلى ؟

الوجه الخامس عشر : ـ أن يقال : لفظ الابن وروح القدس ، قد جاء فى حق غير المسيح ـ عندكم ـ حتى الحواريين عندكم يقولون : إن المسيح قال لهم : إن الله أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم . ويقولون : إن روح القدس تحل فيهم .

وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى : اذهب إلى فرعون ، فقل له : يقول لك الرب : إسرائيل ابنى بكرى أرسله يعبدنى ، فإن أبيت أن ترسل ابنى بكرى ، قتلت ابنك بكرك .

فلما لم يرسل فرعون بنى إسرائيل كما قال الله قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين إلى ولد الحيوان إلى اليوم .

فهذه التوراة تسمى بنى إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره ، وتسمى أبناء أهل مصر أبناء فرعون ، ويتوسع فتسميه سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان .

وفى مزامير داود يقول « أنت ابنى ، سلنى أعطك » .

وفى الإنجيل يقول عن المسيح « أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم »

وقال : إذا صليتم فقولوا : « يا أبانا الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، افعل بنا كذا وكذا » .

ويقولون عن القديسين : إن روح القدس يحل فيهم ، وكذلك حلت فى

داود وغيره من الأنبياء ، بل عندهم إن الله يحل فى الصديقين كلهم .

فإن كان الابن وروح القدس ، يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، وجب أن يكون كل من الحواريين لاهوتاً وناسوتاً ، وكذلك الأنبياء ، فيكون النبي لاهوتاً وناسوتاً ، لأنه قد سمى عندكم ابن الله ، ونطقت فيه روح القدس ، لاسيما وأنتم قلتم فى الأمانة : إنه روح ممجد مسجود له ، ناطق فى الأنبياء .

فإن كان هذا يوجب حلول اللاهوت فى الناسوت ، أو اتحاده به ، لزم أن يكون غير المسيح من الأنبياء ، والحواريين . بل وأبناء إسرائيل ، لاهوتاً وناسوتاً ، إذ كان الذى جعلتموه اللاهوت ، حلّ بغير المسيح واتحد به ، أو سكن فيه ، أو احتجب به ، أو ماقلتم من الألفاظ التى استدللتم بها على أن اللاهوت حلّ فى المسيح ، كلفظ الابن وروح القدس ، موجودة عندكم فى غير حق المسيح.

والمعجزات التى احتججتم بها للمسيح ، قد وجدت لغير المسيح .

ولو قُدِّر أن المسيح أفضل من بعض أولئك ، فلا ريب أن المسيح عليه السلام أفضل من جمهور الأنبياء ، أفضل من داود وسليمان وأصحاب النبوات الموجودة عندكم ، وأفضل من الحواريين .

لكن مزيد الفضل يقتضى الفضيلة فى النبوة والرسالة ، كفضيلة إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك لا يقتضى خروجه عن جنس الرسل ، كما قال تعالى : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المائدة : ٧٥] وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) الآية كلها [المائدة : ٧٢ ، ٧٥] .

وجماع هذا الجواب : أن ما يوصف به المسيح عندهم ، من كونه ابن الله ، وكون الله حلّ فيه ، أو ظهر ، أو سكن ، وكون روح القدس ، أو روح الله حلت فيه ، وكونه مسيحاً . كل ذلك موجود عندهم فى حق غير المسيح .

فليس للمسيح اختصاص بشىء من هذه الألفاظ ، وإنما يوجد اختصاصه بلفظ «الكلمة» وكونه تجسّد من روح القدس وهذا هو الذى خصه به القرآن فإن الله قال: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)[النساء : ١٧١] . وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله وسلم أنه قال: « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه أدخله الله الجنة على ما كان له من عمل » فهذا الذى خصه به القرآن ، هو الذى خصته الكتب المتقدمة ، إذ كان القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.

وأما سائر ما يوصف به ، ويدّعون اختصاصه به ، من كونه ابناً لله ، وكونه مسيحاً ، فغيره أيضاً فى كتب الله يسمى ابناً ومسيحاً ، ولذلك ما يذكر من الألفاظ التى يحتجون بها على الحلول ، مثل كون الرب ظهر فيه أو حلّ أو سكن ، فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم فى حق غير المسيح ، بخلاف لفظ « الاتحاد » فإنه لا يوجد ـ عندهم ـ عن الأنبياء ، لا فى حق المسيح ولا غيره ، كما لا يوجد عندهم عن الأنبياء لفظ « الأقانيم » ولا لفظ « التثليث » ولا « اللاهوت » و« الناسوت » ولا تسمية الله جوهراً . بل هذا كله مما ابتدعوه كما ابتدعوا أيضاً تسمية صفات الله ابناً وروح القدس ، فهم ابتدعوا ألفاظاً لم

ينطق بها الأنبياء ، أثبتوا لها معانى باطلة وابتدعوا استعمال ألفاظ الأنبياء فى غير مرادهم ، وحملوا مرادهم عليها .

والألفاظ المتشابهة التى يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت ، موجودة — عندهم — فى حق غير المسيح .

فليس للمسيح خاصة فى كلام الأنبياء ، توجب أن يكون هو الله أو ابن الله.

وتلك الألفاظ قد عرف — باتفاقهم واتفاق المسلمين — أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثله العلى فى قلوب عباده الصالحين ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع ، وقد تقدم .

ومن قال من ضُلاَّل المسلمين: « إن الرب يتحد أو يحل فى الأنبياء والأولياء ، وإن هذا من السر الذى لا يباح به » فقوله من جنس قول النصارى فى المسيح ، وهذا كثير فى كلام كثير من المشايخ والمدّعِينَ للمعرفة والتحقيق والتوحيد ، فيجعلون توحيد العارفين أن يصير الموحِّد هو الموحَّد ، ومنهم من يقول : إن الله يحل فى قلب العارف ويتكلم بلسانه ، كما يتكلم الجنِّىُّ على لسان المصروع ، ويقول الأول :

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

ومن هؤلاء من يقول: إن هذا ، هو السر الذى باح به الحلاج وغيره . وهذا عندهم من الأسرار التى يكتمها العارفون ، فلا يبوحون بها إلا لخواصهم.

ومنهم من يقول : إنما قتل الحلاج لأنه باح بهذا السر ، وينشدون :

مَنْ بَاحَ بِالسِّرِّ كَانَ الْقَتْلُ شِيمَتَهُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَمْ يُؤْخَذْ لَهُ ثَارُ

وأمثال ذلك .

وهؤلاء فى دعواهم الاتحاد والحلول بغير المسيح ، شر من النصارى

فإن المسيح — صلوات الله عليه — أفضل من كل من ليس بنبي ، بل هو أفضل من جماهير الأنبياء والمرسلين .

فإذا كان من ادّعى أن اللاهوت اتحد به كافراً ، فكيف بمن ادّعى ذلك فيمن هو دونه ؟!

وهذا الاتحاد الخاص غير الاتحاد والحلول العام لقول الذين يقولون : إنه حالٌّ بذاته في كل مكان ، أو متحد بكل شيء .

وغلاة هؤلاء ومحققوهم يقولون : إنه عين الوجود ، والوجود واحد .

فيجعلون الوجود الخالق القديم الواجب هو عين وجود المخلوق المحدَث الممكن .

وهؤلاء مثل ابن عربي الطائي ، وصاحبه الصدر القونوي ، وصاحبه العفيف التلمساني ، وابن سبعين ، وصاحبه الششتري ، وعبد الله البلياني ، وعامر البصري ، وطوائف غير هؤلاء .

وهؤلاء يقولون : إن النصارى إنما كفروا لأنهم خصوا ذلك بالمسيح .

وحقيقة قول هؤلاء ، هو جحد الخالق وتعطيله ، كما قال فرعون « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » وقال « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » .

فإن فرعون ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، لكن ينكر أن له صانعاً مبايناً له خلقه ، وهؤلاء موافقون لفرعون في ذلك .

لكن فرعون أظهر الجحود والإنكار ، فلم يقل : الوجود المخلوق هو الخالق .

وهؤلاء ظنوا أنهم يقرون بالخالق وأن الوجود المخلوق ، هو الخالق ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في آخر هذا الكتاب .

وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد على مذهبهم ، كابن الفارض في قصيدته المسماه : بنظم السلوك حيث يقول :

لَهَا صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أُقِيمُهَا ... وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِيَ صَلَّتِ
كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى ... حَقِيقَتِهِ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةِ
مَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ وَلَمْ تَكُنْ ... صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةِ

إلى أن قال:

وَمَا زِلْتُ إِيَّاهَا وَإِيَّايَ لَمْ تَزَلْ ... وَلَا فَرْقَ بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أَحَبَّتِ

وقوله:

إِلَيَّ رَسُولًا كُنْتُ مِنِّي مُرْسَلًا ... وَذَاتِي بِإِيَّايَ عَلَيَّ كُلِّ اسْتَدَلَّتِ
فَإِنْ دُعِيتُ كُنْتُ الْمُجِيبَ وَإِنْ أَكُنْ ... مُنَادًى أَجَابَتْ مَنْ دَعَانِي وَلَبَّتِ
وَقَدْ رُفِعَتْ يَاءُ الْمُخَاطَبِ بَيْنَنَا ... وَفِي رَفْعِهَا عَنْ فِرْقَةِ الْفَرْقِ رِفْعَتِ

إلى أمثال هذه الأبيات.

وكذلك ابن إسرائيل في شعره قطعة من هذا كقوله:

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ ... وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَائِقُ

والتلمساني الملقب بالعفيف، كان من أفجر الناس، وكان أحذق هؤلاء الملاحدة.

ولما قرىء عليه كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي قيل له: هذا الكلام يخالف القرآن. فقال: «القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا» فقيل له: إذا كان الوجود واحداً، فلماذا تحرّم عليّ أمي وتباح لي امرأتي؟ فقال: الجميع عندنا حلال، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم.

وكلام هؤلاء كله متناقض ينقض بعضه بعضاً.

فإن قوله: «هؤلاء المحجوبون» وقوله: «قلنا حرام عليكم» يقتضي

الفرق بينه وبين المحجوبين ، وبين المخاطِب والمخاطَب ، وهذا يناقض وحدة الوجود .

وإذا قالوا : « هذه مظاهر للحق ومجالٍ » فإن كان الظاهر غير المظهر ، والمجلى غير المتجلى ، فقد ثبت التعدد ، وأن فى الوجود اثنين ظاهراً ومظهراً ، وإن جعلوهما واحداً ، فقد بطل جوابهم .

فصـــــل

قال الحاكى عنهم : فقلت فإنهم ينكرون علينا فى قولنا : إن الله تعالى جوهر . قالوا : إننا نسمع عن هؤلاء القوم أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة .

ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئاً من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون هذا علينا ، وذلك أنه ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، لأن أى أمر نظرناه وجدناه ، إما قائماً بنفسه غير مفتقر فى وجود إلى غيره ، وهو الجوهر ، وإما مفتقر فى وجوده إلى غيره ، لا قوام له بنفسه ، وهو العرض ، ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث .

فأشرف هذين القسمين ، القائم بذاته الغير مفتقر فى وجوده إلى غيره ، وهو الجوهر .

ولما كان البارى ــ تقدسة أسماؤه ــ أشرف الموجودات ، إذ هو سبب سائرها ، أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر .

ولهذا قلنا : إنه جوهر لا كالجواهر المخلوقة ، كما نقول : إنه شىء كالأشياء المخلوقة ، وإلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقره فى وجوده إلى غيره . وهذا فن القبيح ، أن يقال على الله تعالى .

فقلت لهم : إنهم يقولون : إنا إنما نمتنع من أن نسميه جوهراً ، لأن الجوهر ما قبل عرضاً وما شغل الحيز ، ولهذا من يطلق عليه القول بأنه تعالى جوهر ،

قالوا : إن الذى يقبل عرضاً ويشغل حيزاً هو الجوهر الكثيف ، فأما الجوهر اللطيف ، فما يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً ، مثل جوهر النفس ، وجوهر العقل ، وجوهر الضوء ، وما يجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة المخلوقة .

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضاً ، ولا تشغل حيزاً ، فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ومركب اللطائف بالكثائف ، يقبل عرضاً ويشغل حيزا كلا

والجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال : أما تسمية البارى جوهرا . فهو من أهون ماينكر على النصارى ، ولهذا كان من الناس من ينكره من جهة الشرع فقط ، أو اللغة ، ومنهم من ينكره من جهة العقل أيضاً ، ومنهم من يراه نزاعاً لفظياً .

وطائفة من المسلمين يسمونه جوهرا وجسما أيضاً ، وذلك أن المسلمين فى أسماء الله تعالى على طريقتين ، وكثير منهم يقول : إن أسماءه سمعية شرعية ، فلا يسمى إلا بالأسماء التى جاءت بها الشريعة . فإن هذه عبادة ، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع .

ومنهم من يقول : ما صح معناه فى اللغة ، وكان معناه ثابتاً له ، لم يحرم تسميته به ، فإن الشارع يحرم علينا ذلك ، فيكون عفواً .

والصواب القول الثالث ، وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء أو يخبر بها عنه .

فإذا دُعِىَ لم يُدْعَ بالأسماء الحسنى كما قال تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ) .

وأما الإخبار عنه ، فهو بحسب الحاجة ، فإذا احتيج فى تفهيم الغير المراد إلى أن يترجم أسماؤه بغير العربية . أو يعبر عنه باسم له معنى صحيح ، لم يكن ذلك محرما .

وأما الذين منعوه من جهة العقل ، فكثير .

منهم من يقولون : إن الجوهر ماشغل الحيز ، وحمل الأعراض ، والله سبحانه وتعالى ليس كذلك ، وهذا قول من نفى ذلك من أهل الكلام .

ومنهم من يقول: الجوهر ما إذا وجد كان وجوده لا فى موضوع ، وهذا إنما يكون فيما وجوده زائدا على ذاته ، وواجب الوجود ، وجوده عين ذاته ، فلا يكون جوهرا ، وهذا قول ابن سينا وأمثاله من متأخرى المتفلسفة .

وأما قدماء الفلاسفة ، كأرسطو وأمثاله ، فكانوا يسمونه جوهرا .

وعنهم أخذت النصارى هذه التسمية ، فإن أرسطو كان قبل المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، ولهذا قال هؤلاء فى كتابهم : نعجب ممن ينكر ذلك ، وهو قد قرأ شيئا من كتب الفلاسفة والمنطق .

وقد ذكرت طائفة أن أفلاطون وغيره كانوا ينكرون تسميته جوهراً ، وأن أرسطو سماه جوهراً . وممن حكى النزاع بينهم أبو النصر الفارابى .

وأما اللغة فإن لفظ الجوهر ليس من العربية العرباء ، ولهذا لا يعرف فى كلام العرب المحض ، وإنما هو معرب كما ذكر ذلك الجوهرى وغيره .

قال الجوهرى : الجوهر معرب ، الواحدة جوهرة ، فهو من العربية المعربة ، لا من العربية العرباء ، كلفظ سجيل ، وإستبرق ، وأمثال ذلك من الألفاظ المعربة ، وهذا اللفظ ليس موجوداً فى القرآن .

ومع هذا فلما عرب كان معناه فى اللغة هو الجوهر المعروف وتسمية القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز جوهراً ، فهو أمر اصطلاحى ، ليس هو من الأسماء اللغوية ولا العرفية العامة ؛ ولا الأسماء الشرعية .

وقد قيل: إنه مأخوذ من كلام الأوائل ، كاليونان وغيرهم ، فإنه يوجد فى كلامهم تسمية القائم بنفسه جوهراً .

وقد قيل : سموه بذلك،لأن جوهر الشيء أصله، والقائم بنفسه هو الأصل ـ وقد يسمون العرض القائم بغيره جوهراً .

وقيل : لأن لفظ الجوهر ، فَوْعَل ، من الجهر ، وهو الظهور والوضوح ،، والقائم بنفسه يظهر ويعرف قبل أن يعرف ماقام به من الأعراض :

والناس متفقون على إثبات الأعيان القائمة بنفسها التي تسمى جواهر أو أجساماً ، وتنازعوا في ثبوت الأعراض القائمة بها ، والنزاع عند محققيهم لفظي، فإن عاقلا لا ينازع أن الجسم يتحرك بعد سكونه .

لكن منهم من يقول : حركته ليست زائدة على ذاته .

ومنهم من يقول هي زائدة على ذاته ، وهو نظير نزاعهم في الصفات : هل هي زائدة على الذات أو ليست زائدة ؟

والتحقيق أن مسمى الإنسان إذا أطلق ، دخل فيه صفاته ، وإذا ميز بين هذا وهذا ، قيل : الذات والصفات .

ومن الناس من يخص بلفظ العرض مالم يكن من الصفات لازماً للموصوف .

والصفات اللازمة يسميها صفات ذاتية أو جوهرية .

ومنهم من يخص بالعرض مالا ينفى[1] عنده زمانين ، ويقول : صفات المخلوقات تسمى أعراضاً ، لأنها لا تقبل زمانين بخلاف صفات الله ، فإنها ثابتة فلا تسمى أعراضاً .

ومن نُظّار المسلمين وغيرهم من يسمى صفات كل موصوف أعراضاً ، إذا كان كذلك فلا يدخل في أسماء الله التي تذكر في أصول الإيمان التي يجب اعتقادها من الأسماء ، ماهو اصطلاح طائفة من الناس ، مع أنه يوهم معنى باطلا .

وهذا الموضع مما اضطرب فيه — مع النصارى — كثير من الناس .

---

(١) قوله : ينفى . كذا في الأصل . والصواب : « يبقى » كما هو مقرر في علم الفلسفة .

منهم : من يجعل الصفات أعياناً قائمة بنفسها وجواهر قائمة بنفسها .

ومنهم : ـ من يجعل الأعيان القائمة بنفسها صفات ، والصفات لا تقوم بأنفسها ، بل لابد لها من موصوف تقوم به .

والأولون نوعان .

منهم : ـ من نفى الصفات : وقال : لو أثبتنا له حياة وعلماً وقدرة ، لزم أن تكون هذه آلهة ، فإن القدم أخص وصفه ، فلو أثبتنا قديماً ليست هي الذات ، لزم أن يشارك الذات فى أخص وصفها ، فتكون ذاتاً أخرى قائمة بنفسها .

وهذه طريقة كثير من نفاة الصفات من مبتدعة المسلمين ، واليهود والنصارى احتجوا على نفى الصفات بأنا لو أثبتناها ، لزم أن تكون آلهة .

وقال من قال من المنتسبين إلى الإسلام : إنا لو أثبتنا الصفات ، لقلنا بقول النصارى حيث أثبتوا لله الأقانيم ، وحجة هؤلاء قائمة على النصارى ، وهم النوع الثالث ، فإنهم أثبتوا لله صفات وجعلوها جوهراً قائماً بنفسه ، فقالوا : إن الله موجود حيّ ناطق ، ثم قالوا : حياته جوهر قائم بنفسه ؛ ونطقه ـ وهو الكلمة ـ جوهر قائم بنفسه ، وقالوا فى هذا إنه إله من إله ، وهذا إله من إله ، فأثبتوا صفات لله وجعلوها جواهر قائمة بنفسها ، ثم قالوا : الجميع جوهر واحد ، فكان فى كلامهم أمور كثيرة من الباطل المتناقض .

منهم : ـ من جعل الصفات جوهراً .

ومنهم : ـ من جعل الجواهر المتعددة جوهراً واحداً .

والذين قالوا من نفاة الصفات من المعتزلة والجهمية : إن من أثبت الصفات ، فقد قال بقول النصارى ، فهو متوجه على من جعل الصفات جواهر .

وهؤلاء هم والنصارى يزعمون أن الصفات جواهر آلهة ، ثم قال هؤلاء ولا إله إلا الله ، فلا صفة له .

وقالت النصارى : بل الأب جوهر إله ، والابن جوهر إله ، وروح القدس جوهر إله ، ثم قالوا : والجميع إله واحد .

ونفس تصور هذه الأقوال التصور التام ، يوجب العلم بفسادها .

وليس الرسل وأتباعهم ، نطقوا : إن لله علما وقدرة وغير ذلك من الصفات ، وبينوا أن الإله واحد .

فإذا قال القائل : عبدت الله ، ودعوت الله ، فإنما دعا وعبد إلهاً واحداً ، وهو ذات متصفة بصفات الكمال ، لم يعبد ذاتاً ، لا حياة لها ولا علم ولا قدرة ، ولا عبد ثلاثة آلهة ولا ثلاثة جواهر ، بل نفس اسم الله يتضمن ذاته المقدسة المتصفة بصفاته سبحانه ، وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، ولا زائدة على مسمى اسمه ، بل إذا قُدِّر ذات مجردة عن الصفات ، فالصفات زائدة على هذه الذات المقدرة في الذهن المجردة عن الصفات ، ليست الصفات زائدة على الذات المتصفة بالصفات ، فإن تلك لا وجود لها إلا بصفاتها ، فتقديرها ـ مجردة عن صفاتها ـ تقدير ممتنع .

وقد تنازع المثبتة : هل يقال الصفات غير الذات ، أم يقال ليست غير الذات ؟ أم يقال : لا يقال هي غير الذات ، ولا يقال ليست غير الذات ؟

وتنازعوا في مسمى الغيرين : هل هما ما جاز مفارقة أحدهما الآخر مطلقاً ، أو ما جاز مفارقته بوجود أو زمان أو مكان ، أو هما ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ؟ وغير ذلك منازعات لفظية .

وكثير منهم فرّق في الصفات اللازمة بين بعضها وبعض .

فجعل بعضها زائداً على الذات ، وبعضها ليس بزائد على الذات ، وكان الفرق بحسب ما يتصوره ، لا بحسب ما الأمر عليه في نفسه .

فإذا أمكنهم تصور الذات بدون صفة ، قالوا : هذه زائدة ، وإلا قالوا : ليست زائدة ، وهذا يقتضي أنها زائدة على ما تصوروه هم من الذات ، لا أنه

فى الخارج ذات مجردة عن تلك الصفة وصفةزائدة عليها ، بل ليس إلا الذات المتصفة بتلك الصفات .

ولـكن يجب الفرق بين أن يقال : إن الصفات غير الذات ، وبين أن يقال : إنها غير الله ، فإن اسم الله متناول للذاته المتصفة بصفاته .

فإذا قال القائل : دعوت الله ، وعبدت الله ، فلم يدع ذاتاً مجردة ، ولا صفات مجردة ، بل دعا الذات المتصفة بصفاتها ، فاسمه تعالى يتناول ذلك . فليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، ولا زائدة على ذلك . وإن قيل : إنها زائدة على الذات المجردة .

ومن ظن أنها زائدة على الذات المتصفة بصفاتها التى تدخل صفاتهسا فى مسماها ، فقد غلط ، ولـكن الأذهان والألسنة تزلق فى هذا الموضع كثيراً .

فإذا قيل : الصفات مغايرة للذات ، لم يكن فى هذا من المحذور مافى قولنا : إن صفات الله ، غيرالله ، فإن اسم الله يتناول صفاته ؛

فإذا قيل : إنها غيره ، فهم من ذلك أنها مباينة له ، وهذا باطل .

ولهذا كان النفاة إذا ناظروا أئمة المسلمين ، كما ناظروا الإمام أحمد ابن حنبل فى محنته المشهورة ، فقالوا له : « ما تقول فى القرآن وكلام الله ، أهو الله ، أم غير الله ؟ » .

عارضهم بالعلم ، وقال لهم : « ماتقولون فى علم الله ، أهو الله ، أم غير الله ؟ » .

وأجاب أيضاً بأن المرسلين لم تنطق بواحد من الأمرين ، فلا حجة لكم فى كلام الله ورسوله ، فإن الله لم يقل لـكلامه : هو أنا ، ولا قال : إنه غيرى حتى يقول القائل ، إذا كان قد جعل كلامه غيره وسواه ، فقد أخبر أنه خالق لكل ماسواه .

فإن كان الاحتجاج بالسمع ، فلا حجة فيه ، وإن كان الاحتجاج بالعقل، فالمرجع فى ذلك إلى المعانى لا إلى العبارات .

فإن أراد المريد بقوله : هل كلامه وعلمه غيره أنه مباين له ، فليس هو غير إله بهذا الاعتبار .

وإن أراد بذلك أن نفس الكلام والعلم ، ليس هو العالم المتكلم ، فهو غير له بهذا الاعتبار .

وإذا كان اللفظ مجملا لم يجز إطلاقه على الوجه الذى يفهم المعنى الفاسد .

وأما الذين جعلوا الأعيان القائمة بأنفسها صفات ، فهم هؤلاء المتفلسفة النفاة للصفات ، ومن أشبههم ؛ فإنهم قالوا : إن رب العالمين عقل ، وعاقل ، ومعقول .

ولفظ « العقل » عندهم ، وإن كانوا يقولون : هو جوهر قائم بنفسه ، فقد صرحوا أيضاً بأنه نفسه علم ، حتى صرحوا بأن رب العالمين علم ، كما صرح بذلك ابن رشد وغيره ، ونقلوه عن أرسطو ، وأن العقول العشرة كل منها علم ، فهو علم وعالم ومعلوم . بل قالوا : عقل وعاقل ومعقول ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، فجعلوه نفسه لذة وعقلا وعشقا ، وجعلوا ذلك هو العالم العاشق الملتذ ، وجعلوا نفس العلم نفس العشق ، ونفس اللذة . فجعلوه نفسه صفات ، وجعلوه ذاتاً قائمة بنفسها ، وجعلوا كل صفة هى الأخرى، وهذا مما يعلم بصريح العقل بطلانه .

ومنهم من لا يصرح بأنه نفسه علم ، فإنه يقول : هو عاقل ومعقول وعقل، يقول : إنه يعلم نفسه بلا علم ، بل هو العالم ، وهو المعلوم ، وهو العلم .

وحقيقة كلامهم يعود إلى قول أولئك ، فإنهم إذا قالوا : إن العلم الذى يعلم به ذاته هو العالم ، وهو المعلوم . فقد جعلوا نفس العلم نفس العالم ، ونفس العلم

نفس المعلوم ، وهذا هو حقيقة قول أولئك ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

الوجه الثانى : ـ أن يقال لهم : أنتم تقولون : إنكم متبعون للكتب الإلهية ، وإذا كان كذلك لم ينبغ لكم أن تدخلوا فى شريعة إيمانكم من الأسماء إلا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

والأنبياء لم يسم الله أحد منهم جوهراً ، وإنما سماه بذلك أرسطو وأمثاله ، وهؤلاء كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، ولم يكونوا يعرفون الله المعرفة الصحيحة ، ولا يقولون : إنه خالق السموات والأرض ، ولا إنه بكل شىء عليم ، ولا على كل شىء قدير ، وإنما كانوا يعبدون الكواكب العلوية ، والأصنام السفلية ، ويعبدون الشياطين ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت .

وإنما صاروا مؤمنين ، لما دخل إليهم دين المسيح ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعد الإسكندر المقدونى ـ صاحب أرسطو ـ بنحو ثلاثمائة سنة .

وكانوا يسمون الملك من ملوكهم بطلميوس ، كما تسمى القبط ملكها فرعون ، والحبشة ملكها النجاشى ، والفرس كسرى ، ونحو ذلك .

وحينئذ فعدولكم عن طريقة الأنبياء والمرسلين ، إلى طريقة الكفار والمشركين المعطلين من الضلال المبين .

وفى كتبهم : أن بولص لما صار إلى أثينة ، دار الفلاسفة ، وفيها دار الأصنام ، وجد مكتوباً على باب دار العلماء والأصنام مكتوباً « الإله الخفى الذى لا يعرف ، هو الذى خلق العالم » .

فكانوا لا يعرفون رب العالمين ، فكيف يعدل عن طريقة رسل الله وأنبيائه ، كموسى ، وداود ، والمسيح إلى طريقة هؤلاء الكفار المشركين المعطلين ؟ ! .

ولكن النصارى ركبوا ديناً من دينين من دين الأنبياء الموحدين، ودين المشركين، فصار في دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء، وقسط مما ابتدعوه من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم، وهي ألفاظ لا توجد في شيء من كلام الأنبياء، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب، بدل الصلاة إليها، والصيام في وقت الربيع، ليجمعوا بين الدين الشرعي، والأمر الطبيعي وغير ذلك.

الوجه الثالث: ــ قولهم: إن الذي يشغل حيزاً ويقبل عرضاً هو الجوهر الكثيف.

فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً، مثل جوهر النفس، وجوهر العقل، وجوهر الضوء.

فيقال: الكلام في الجواهر، هل هي منقسمة إلى متحيز وغير متحيز، أو كلها متحيز؟ هو متصل بالكلام على نفس الإنسان الناطقة.

فنقول: إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة، ووجود الجن، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك سلف الأمة وأئمتها، يعرفون وجود النفس التي هي روح الإنسان التي تفارق بدنه حين الموت، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، وإن كان كثير من أهل الكلام يزعم أنها عرض من أعراض البدن، أو جزء من أجزائه، فهذا قول محدث في الإسلام لم يذهب إليه أحد من السلف والأئمة، وإن كان محكياً عن أكثر المتكلمين، فليس الذين قالوا هذا من سلف الأمة ولا أئمتها، بل هم من أهل الكلام المحدث المذموم عند السلف.

وأئمة الأمة، وكثير من المتفلسفة الداخلين في أهل الملل يقولون: إن الذوات التي تسميها الأنبياء الملائكة، هي التي تسميها المتفلسفة المشاؤون عقولاً،

أو عقولا ونفوسا ، وهذا غلط عظيم ، كما قد بسط فى موضعه .

فإن العقول التى يثبتها هؤلاء المتفلسفة ، لا حقيقة لها عند الرسل وأتباعهم ، بل ولا حقيقة لها عند العقل الصريح أنها أعراض قائمة بأنفسها .

وقد صرحوا بأن واجب الوجود نفسه هو علم ، وجعلوا نفس العلم هو نفس العالم ، ونفس تصور هذا القول يكفى فى العلم بفساده ، كما أن هؤلاء المتفلسفة ، أتباع أرسطو لا يعرفون الملائكة ، بل ولا الجن ، وإنما علمهم بمعرفة الأجسام الطبيعية ، وتكلموا فى الإلهيات بكلام قليل نزر . باطله أكثر من حقه ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وهؤلاء يزعمون أن العقل الأول أبدع ما دونه من العقول والأفلاك إلى أن ينتهى الأمر إلى العقل العاشر ، فهو مبدع ما تحت فلك القمر .

وهذا كله من أعظم الكفر عند الرسل وأتباعهم أهل الملل .

فإن مضمون هذا ، أن ملكاً من الملائكة خلق كل ما تحت السماء ، وملكا فوقه خلق كل ما سوى الله سبحانه ، وهذا من أعظم الكفر فى دين المرسلين وأهل الملل ، المسلمين ، واليهود ، والنصارى قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء آية : ٢٦ ـ ٢٨] فأخبر أن الملائكة لا تسبقه بالقول ، ولا تعمل إلا بأمره ، فضلا عن أن يكون ملك هو خلق كل شىء .

وهؤلاء يقولون : إن الوحى والكلام الذى جاءت به الرسل ، إنما هو فيض من هذا العقل الفعال على قلوب الأنبياء

والله تعالى ـ عند هؤلاء ـ لم يكن يعرف موسى ولا عيسى ولا إبراهيم

ولا محمداً ولا غيرهم من الرسل ، ولا يعرف الجزئيات ، بل عند أرسطو وأتباعه ، أنه لا يعلم شيئاً من الأشياء ، بل ولا خلق عندهم شيئاً ، بل ولا يقدر عندهم على خلق شيء ، فضلا عن أن يكون على كل شيء قدير ، وأن يكون قد أحاط بكل شيء علماً .

وأرسطو وقومه ، كانوا مشركين يعبدون الأصنام بمقدونية ، وأثينة ، وغيرهما من مدائن فلاسفة اليونان ، وكان وزيراً للاسكندر بن فيلبس المقدونى ، وكان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، ولم يكن وزيراً لذى القرنين الذى بنى سد يأجوج ومأجوج ، وكان عامة علم القوم علم الطبيعيات والحسابيات وأما العلم الإلهى ــ وهو الذى يسمونه علم ما بعد الطبيعة ، وهو منتهى فلسفتهم ــ فإنما تكلموا فيه على أمور كلية ، قسموا الوجود إلى جوهر وتسعة أعراض يجمعها بيتان :

زيد الطويل الأسود بن مالك   فى داره بالأمس كان متكى

فى يده سيف نضاه فانتضى   فهذه عشر مقولات سوا

وهى : ١ : ــ الجوهر . ٢ : ــ والكم . ٣ : ــ والكيف .
٤ : ــ الأين . ٥ : ــ ومتى . ٦ : ــ والإضافة .
٧ : ــ والملك . ٨ : ــ والوضع . ٩ : ــ وأن يفعل .
١٠ : ــ وأن ينفعل .

وقد نازعه أتباعه وغيرهم فى هذا الحصر ، وقالوا : إنه لا دليل عليه .

ومنهم من جعلها ثلاثة .

ومنهم من قال غير ذلك ، وأثبت العلة الأولى بناء على حركة الفلك ، وأنه يتحرك حركة شوقية ، فلا بد له مما يتشبه به .

فالعلة الأولى هى علة لحاجة الفلك إليها من جهة أنه يتحرك ليتشبه بها

كحركة المؤتم بإمامه ، والمقتدى بقدوته ، وقد يقولون : كتحريك المشوق لعاشقه .

وكلام أرسطو فى ذلك موجود ، وقد نقلته بألفاظه وتكلمت عليه فى غير هذا الموضع ، وقد ذكر ذلك فى مقالة اللام وهى آخر فلسفته ، ومنتهى حكمته .

وفى كتاب أثولوجيا « ولم يثبت أن الرب مبدع للفلك ، ولا علة فاعلة ». ولاسماه واجب الوجود ، ولا قسم الموجودات إلى واجب قديم وممكن قديم.

بل ذلك فعل المتأخرين ، كابن سينا وأمثاله ، وقد بسطنا الكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

والمتأخرون الذين سمعوا كلام أهل الملل ، أرادوا إصلاح كلامه وتقريبه إلى المعقول ، لعله توافق ماعلم بصريح المعقول ، وصحيح المنقول .

فتكلم عليه ثابت بن قرة ، وبيّن أن الفلك إذا كان لا قِوَامله إلا بطبيعة ، ولا قِوَام لطبيعته إلا بحركته ، ولا قوة لحركته الإرادية إلا بمحرك لها .

وزعموا أن المحرك يجب ألا يكون متحركا ، وقرروا ذلك بأدلة فاسدة ، قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع ، فقالوا : إنه إنما تحرك الفلك من جهة نسبة الفلك به ، وإن لم يكن هو القادر على تحريك الفلك ، بل ولاشعور منه بالفلك .

وعبر عن ذلك ابن رشد الفيلسوف وأمثاله ، فقالوا : إنه يأمر الفلك بالحركة وقوام الفلك بطاعته لأمر الله .

مع أنه عندهم لا إرادة له ولا علم له بما يأمر به ، بل كونه أمراً، هو معنى كون الفلك يتشبه به ، كما يأمر المعشوق عاشقه أن يحبه ، وإن كان المعشوق لاشعور له ولا إرادة فى أن يحبه ذلك .

ثم لو قُدِّر أنه هو الآمر ، فإنما يصدر بسبب أمره ، مجرد حركة الفلك . ولهذا شبهوا ذلك بأمر السلطان لعسكره بأمر يطيعونه فيه ، فجعلوا الحركات

معلولة له بهذا الاعتبار، لم يثبتوا أنه أبدع شيئاً من الأفلاك والعناصر والمولدات ولا العقول ولا النفوس، لا أبدع أعيانها ولا صفاتها ولا أفعالها، بل غايته أن يكون آمراً لها بالحركة كأمر الملك لعسكره، مع أنه عندهم ليس آمراً بالحقيقة بل ولا علم له بشيء من الموجودات.

بل غاية ما يزعم أرسطو وأتباعه: أن للفلك حاجة إليه من جهة تشبهه به.

وأما كونه هو علة موجبة للفلك، وإنما يقول هذا من يقوله من متأخريهم، كابن سينا.

وأما الفارابي، فهو الذي وسّع القول في هذا الباب، وقسم الموجود إلى واجب وممكن، وجعل الأفلاك واجبة ممكنة به، وفي ذلك من الفساد والاضطراب، ما قد بسط في غير هذا الموضع.

وبنى ابن سينا الكلام في نفي صفاته عن كونه واجب الوجود.

وأما الفارابي في كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» وغير ذلك، فاعتمد على كونه أول. وكذلك أرسطو في كتاب «أثولوجيا» اعتمد على كونه هو الأول، وشبهه بالأول في العدد، وعلى ذلك بنوا نفي الصفات، وأنا لو أثبتناها لخرج عن كونه أول، مع أنهم لم يقيموا حجة على كونه أول بهذا المعنى الذي زعموه كما لم يقيموا حجة على كونه واجب الوجود بالمعنى الذي ادعوه، بل تكلموا بألفاظ مجملة متشابهة، تحتمل حقاً وباطلا. فإنه معلوم أن الله واجب الوجود بذاته، موجود بنفسه، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، وهو القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال.

وهؤلاء جعلوا وجوب الوجود بمعنى أنه لا يتعلق بغيره، فلا يكون له صفة.

وكونه أول: بمعنى أول الأعداد الذي لا تعدد فيه.

ومعلوم أن الواحد والأول المجرد عن كل شيء إنما يقدر في الأذهان، لا في الأعيان.

فالذهن يقدر واحداً واثنين وثلاثة وأربعة ، إلى سائر الأعداد المجردة .

والعدد المجرد عن المعدود ، إنما يوجد فى الأذهان ، لا فى الأعيان .

فأما الموجود فى الخارج ، فإنما هى أعيان قائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها .

والأول منها هو ذات متصفة بصفاتها ، لا يوجد فى الأعيان شىء ليس بذات قائمة بنفسها ، ولا صفة قائمة بغيرها ، بل لا يوجد ذات مجردة عن صفاتها ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

ولكن نبهنا هنا عليها ، لأن هؤلاء القوم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ، أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة ، ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئاً من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون علينا هذا .

فكان كلام هؤلاء النصارى يتضمن تعظيم الفلاسفة ، وأهل المنطق ، وأن من قرأ كتبهم ، عرف بها عن الحق فى الإلهيات ، ما لا يعرفه سائر أهل الملل .

وهذا يدل على جهل هؤلاء النصارى ، بما جاءت به الرسل ، وبما يعرف بالعقل المحض .

أما الأول فلأن المسيح وأتباعه كالحواريين ومن اتبعهم ، ليس فيهم من عظم هؤلاء الفلاسفة ، ولا استعان بهم ، ولا التفت إليهم ، بل وهم عندهم من أئمة الكفر ، ورؤوس الضلال .

وكذلك موسى وأتباعه ، وكذلك محمد وأتباعه .

وليس فى رسل الله وأنبيائه ، ولا فى أتباعهم من يعظمهم ، ولا يستعين بكلامهم ، بل الرسل وأتباعهم متفقون على تضليلهم وتجهيلهم .

وأما العقليات ، فإنما يعظم كلام هؤلاء الفلاسفة فى العلوم الكلية والإلهية من هو من أجهل الناس بالمعارف الإلهية والعلوم الكلية ، إذ كان كلامهم فى ذلك فيه من الجهل والضلال ما لا يحيط به إلا ذو الجلال .

وإنما كان القوم يعرفون ما يعرفونه من الطبيعيات والرياضيات ، كالهندسة وبعض الهيئة وشيئاً من علوم الأخلاق والسياسة المدنية والمنزلية ، التي هي جزء مما جاءت به الرسل .

واليهود والنصارى ـ بعد النسخ والتبديل ـ أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات ، فضلا عما وراء ذلك .

فاعتضاد هؤلاء النصارى بهؤلاء المتفلسفة يدل على عظيم جهلهم بالشرعيات والعقليات ، وهذا قد بسط الكلام عليه في مواضع متعددة .

إذ كان الرد على الفلاسفة لا يختص به النصارى ، بل الكلام في ذلك معهم ومع من يعظمهم من أهل الملل عموما .

ومعلوم أن المنتسبين إلى الإسلام من أتباع الفلاسفة ، كالفارابي ، وابن سينا ، والسهروردي المقتول ، وابن رشد الحفيد وأمثالهم ، أحذق بهم وأعلم من النصارى .

وكتب الفلاسفة التي صارت إلى المسلمين ، من الطب والحساب والمنطق ، وغير ذلك ، هذبها المنتسبون إلى الإسلام ، فجاء كلامهم فيها خيراً من كلام أولئك اليونان .

والنصارى واليهود إنما يعتمدون في هذه العلوم على ما وضعه هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام ، مع أن هؤلاء عند علماء المسلمين جهال ضلال في الإلهيات والكليات ، فكيف يكون سلفهم ومن يعظمهم من اليهود والنصارى ؟

ولما صار أولئك اليونان عارفين بالله ، موحدين له ، عابدين له مؤمنين بملائكته وكتبه ورسله ، لما دخل إليهم أتباع المسيح يدعونهم إلى دين الله الذي بعث به المسيح .

وكل من كان من أتباع المسيح ، غير مبدل لشيء من دينه قبل النسخ ، فإنه من المؤمنين المسلمين المهتدين ، وهم من أولياء الله المتقين من أهل الجنة .

ومن ظن أن كلام الرسل يوافق هؤلاء اليونان ، فإن ذلك يدل على جهله بما جاءت به الرسل وبما يقوله هؤلاء .

وإنما يوجد مثل هذا فى كلام الملاحدة من أهل الملل ، ملاحدة اليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وأمثالهم من الملاحدة المنتسبين إلى تشيع ، أو إلى تصوف ، كابن عربى وابن سبعين وأمثالهما.

وفى الكتب المضنون بها على غير أهلها ونحو ذلك من الكلام المنسوب إلى أبى حامد قطعة من ذلك .

وهؤلاء قد يحتجون بالحديث المأثور « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : اقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطى ، وبك الثواب ، وعليك العقاب » .

وهذا الحديث كذب موضوع على النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك أهل العلم بالحديث ، كأبى جعفر العقيلى ، وأبى حاتم ابن حبان البستى وأبى الحسن الدارقطنى ، وأبى الفرج ابن الجوزى وغيرهم .

ثم لفظه لو كان صحيحاً حجة ، على نقيض مطلوبهم ، فإنه قال : « أول ما خلق الله العقل » بنصب « أول » وفى لفظ « لما خلق الله العقل قال له » .

فلفظه يقتضى أنه خاطبه فى أول ما خلقه ، فحرفوا لفظه وقالوا : أول ما خلق الله العقل بالضم ، وليس هذا لفظه ولكن لفظه يقتضى أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ، ولهذا قال : ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، وهذا يقتضى أنه خلق قبله غيره.

وعندهم هو أول المبدعات ، يمتنع أن يتقدمه شىء ، مع أنه وسائر العقول والأفلاك ــ عندهم ــ قديمة أزلية ، لم تزل ولا تزال .

ثم قال : فبك آخذ ، وبك أعطى ، وبك الثواب وعليك العقاب .

فجعل به هذه الأنواع الأربعة .

وعندهم أن العقل صدر عنه جميع العالم العلوى والسفلى ، وذلك أن لفظ

« العقل » فى الحديث سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً ، هو العقل فى لغة الأنبياء والمرسلين ، هو عقل الإنسان ، وهو عرض قائم به ، وهذا صفة قائمة بالإنسان ، ليس هو جوهراً قائماً بنفسه .

والعقل فى لغة هؤلاء الفلاسفة ، هو جوهر قائم بنفسه .

وأما النفس الفلكية ، فلهم فيها قولان :

١ — قيل إنها عرض قائم بالفلك وهو قول أكثرهم .

٢ — وقيل : بل جوهر قائم بنفسه ، ولهذا يميل ابن سينا .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر هؤلاء أن ثم جوهراً لطيفاً ، غير الجوهر الكثيف ، ومثلوا ذلك بالنفس والعقل والضوء .

ثم إن النصارى لم يقيموا على ثبوت شىء من ذلك دليلا ، ولا دليل . ذلك مما دلت عليه الكتب الإلهية .

فإن النفس الفلكية والعقول العشرة ، لم ينطق بها كتاب ولا رسول ، بل ولا دل عليها دليل عقلى ، وأدلة المتفلسفة عليها ضعيفة .

وإنما دل العقل على ما أخبرت به الرسل من الملائكة .

ولكن هؤلاء الذين حملوا كلام الرسل على ما يوافق قول هؤلاء المتفلسفة يجعلون اللوح المحفوظ ، هو النفس الفلكية ، كما يجعلون العقل والقلم هو العقل الأول ، والعرش هو الفلك التاسع ، وغير ذلك مما قد بسط الكلام عليه فى موضع آخر .

وإذا لم يقيموا حجة شرعية ولا عقلية على ما مثلوا به من الجواهر اللطيفة لم يكن لهم حجة على من قال : إن الجوهر ما يشغل حيزاً ويقبل عرضاً .

ولما قرنوا النفس بالعقل ، كان ذلك ظاهراً فى أنهم أرادوا النفس الفلكية

فأما إن أرادوا النفس الإنسانية ، فهذه ثابتة ، قد أخبرت بها الرسل وأتباعهم ، كما بسط فى موضعه .

لكن هذه لاتقرن بالعقل الذى هو جوهر ، والعقل صفة هذه ، وهو مصدر عقل يعقل عقلا .

وقد يراد بالعقل غريزة قائمة بها ، ويراد بالعقل العمل بالعلم كما قد بسط فى موضع آخر .

الوجه الرابع : قولهم : «وجوهر الضوء » .

فيقال لهم : إن أردتم بالضوء ، نفس الشمس والنار ، فهذا جسم متحيز ، يشغل حيزاً ، أو يقبل عرضاً ، ليس هو من الجواهر اللطيفة التى مثلتم بها .

وإن أردتم بالضوء . الشعاع القائم بالهواء والجدران ونحو ذلك ، فليس هذا بجوهر ، لا لطيف ولا كثيف ، بل هو عرض قائم بغيره .

الوجه الخامس : قولكم : « إن الجوهر اللطيف لايقبل عرضاً » كلام ممنوع ، وهو باطل أيضاً فإن نفس الإنسان تقبل الأعراض القائمة بها وكذلك النفس الفلكية عند من أثبتها . يقوم بها إرادات وتصورات متجددة .

ولفظ « العرض » فى اصطلاح النظائر يراد به ماقام بغيره سواء كان صفة لازمة أو عارضة ، وهذا موجب تقسيم النصارى ، كما هو قول الفلاسفة .

فإنهم قالوا : ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، لأنه أى أمر نظرناه وجدناه إما قائماً بنفسه ، غير مفتقر فى وجوده إلى غيره وهو الجوهر . وإما مفتقر فى وجوده إلى غيره ، لاقوام له بنفسه وهو العرض .

قالوا : ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث .

وهذا الذى قالوه هو تقسيم أرسطو وأتباعه ، وهو يسمى المبدأ الأول جوهراً وهذا تقسيم سائر النظار .

لكن أكثرهم لا يدخلون رب العالمين فى مسمى الجوهر ، ومنهم من يدخله فيه ويعض النزاع فى ذلك لفظى .

وإذا كان الأمر على ماقالوه . فالضوء القائم بالأرض والهواء ، عرض ليس جوهراً قائماً بنفسه ، وهم قد جعلوه جوهرا . وهذا تناقض بيِّن .

وأيضاً ، فالجواهر اللطيفة ، تقوم بها الأعراض كالحياة والعلم ، بل والرب - على قولهم - تقوم به الحياة والعلم .

فإذا سموه جوهراً ، لزمهم أن يسموا صفاته أعراضاً إذا قالوا : لاموجود إلا جوهر أو عرض .

فهؤلاء إن عنوا بالعرض هذا ، فكل جوهر يقبل الصفات . وإن أرادوا بالعرض ما يعنيه المتفلسفة بالصفات العرضية التى يفرقون بينها وبين الذاتية ، مع أن هذا ليس مقتضى كلامهم ، فقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن تقسيم هؤلاء الصفات اللازمة للموصوف إلى ذاتية عرضية ، تقسيم باطل . وبتقدير أن يكون حقاً . فالنفس أيضاً تقبل الصفات العرضية . بل وكذلك كل جوهر سواء كان لطيفاً أو كثيفاً .

فقولكم : إن الجوهر اللطيف لا يقبل عرضاً ، مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء ومايجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة ، كلام باطل على كل تقدير .

وإن عنوا بلفظ العرض شيئاً آخر لم يفهمهم ذلك ، فإن المتكلمين الذين قالوا : الجوهر ما يشغل حيزاً ويقبل عرضاً إنما أرادوا بالعرض ما يقوم بغيره من المعانى ، سواء كان لازماً أو عارضاً له . ومعلوم أن كل جوهر ، فإنه تقوم به المعانى . والخالق تعالى - عندهم - تقوم به الحياة والعلم ، فإذا كان الخالق تقوم به المعانى وهم يسمونه جوهراً ، فكيف لاتقوم بغيره المعانى ؟

وهؤلاء يثبتون جوهراً لاتقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه تقوم به

المعانى؛ وهذا اصطلاح لهم لا يوافقهم عليه أحد .

ثم يتناقضون فيقولون: الموجود إما جوهر وإما عرض، وهذا يناقض قولهم: الموجود إما جوهر وإما عرض، فليس فى الموجودات إلا هذا أو هذا، بل وموجب كلامهم أنها قائمة بذات الله، فكيف بذات غيره ؟

وإن قالوا : نعنى بالأعراض، الصفات العارضة أو القائمة بالأجسام، كان هذا مناقضاً لقولهم : الموجود إما جوهر، وإما عرض، مع قولهم : إن الرب جوهر ثلاثة أقانيم . والأقنوم ذات وصفة ، مع أقوالهم : إن الرب جوهر.

فقولهم يقتضى أن الرب جوهر تقوم به الأعراض . فكيف غيره؟

ثم يقال : إذا قدر أنهم يدّعون ثبوت جوهر لا تقوم به الأعراض : فهذا اصطلاح لهم ، وافقوا فيه نفاة الصفات من الفلاسفة كأرسطو وأتباعه . فإنهم يقولون : إن الرب جوهر لا يتصف بشىء من الصفات الثبوتية . لكن ليس هذا قول النصارى . فتبين أنهم فى قولهم : إن الرب جوهر. وفى قولهم: إن من الجواهر ما لا تقوم به الصفات. موافقون للمشركين الفلاسفة، أرسطو وأتباعه، لا موافقين للمسيح والحواريين . وأنهم أثبتوا الصفات لله موافقة للمسيح والحواريين . ثم جعلوه جوهراً . ثم قالوا : إن الجوهر اللطيف لا تقوم به الصفات . وهذا قول الفلاسفة المشركين المعطلين وهذا تحقيق ما ذكرناه عنهم من أنهم ركبوا ديناً من دين المسيح والحواريين ومن دين الكفار المشركين .

ونظار المسلمين لهم فى تسمية صفات الله القائمة به أعراضاً نزاع بينهم : بعضهم يسميها أعراضاً وبعضهم ينكر هذه التسمية مع اتفاق هاتين الطائفتين على قيام الصفات به .

وجمهور نظار المسلمين لا يسمونه جوهراً وبعضهم يسميه جوهراً .

وأما من أنكر قيام الصفات به ، فذاك لا يسمى الله جوهراً ولا جسماً .

وهؤلاء النصارى متناقضون تناقضاً بيناً ، ولهذا كان لهم طريقة لا يوافقهم

عليها أحد من طوائف العقلاء وذلك يظهر .

« الوجه السادس : ـ وهو أن الناس لهم فى إثبات الصفات القائمة بذات الله تعالى قولان .

فسلف المسلمين وأئمتهم ، وجمهور الخلق من أهل الملل وغير أهل الملل ، يثبتون قيام الصفات بالله تبارك وتعالى . وهل تسمى أعراضاً ؟ على قولين .

والقول الثانى :ـ قول من ينفى الصفات ،مثل الملاحدة الجهمية ونحوهم من مبتدعة المسلمين ، ومن وافقهم من الفلاسفة ، وبعض اليهود والنصارى.

فهؤلاء لاتقوم به المعانى والصفات عندهم ،فلايقولون تقوم به الأعراض .

ثم من هؤلاء ، من يسميه جوهراً كأرسطو وأتباعه، ومنهم من لا يسميه جوهراً كمتأخرى الفلاسفة ،ابن سينا وأمثاله. مع جمهور نظار المسلمين وغيرهم.

وأما الجمهور القائلون بقيام المعانى به . فبعضهم يسميها أعراضاًوإن لم يسمه جوهراً . وقد سماه بعضهم جوهراً . وبعضهم ينفى أن يكون أعراضاً . وبعضهم يسكت عن النفى والإثبات . فلايسميها أعراضاً . ولا ينفى تسميتها بذلك . أو يستفصل القائل عن كونها أعراضاً .

وأماهؤلاء النصارى فقالوا : هو جوهر ثلاثة أقانيم . ووصفوه بالصفات الثبوتية . وهى الحياة . والنطق . وقالوا: الموجود إما جوهر . وإما عرض، فلزمهم أن تكون صفات الله أعراضاً عندهم .

ثم قالوا : الجوهر اللطيف .لا تقوم به الأعراض، ونزهوا الرب أن تقوم به الأعراض . مع قولهم : إنه جوهر ، فتناقضوا تناقضاً بيناً ،حيث جمعوا بين كلام الرسل وأتباعهم ، وبين كلام المشركين المعطلين الفلاسفة .

فما تلقوه عن المسيح فهو حق ، وما ابتدعوه من قول من خالف الرسل فهو باطل .

فجمعوا فى لهم بين الحق الباطل ، وسلكوا مسلكا لا يعرف عن غيرهم.

وإيضاح هذا أن يقال فى :

الوجه السابع : ـ أن هذا الذى ذكروه تناقض بيّن، فإنهم قالوا : الموجود إما جوهر وإما عرض ، فالقائم بذاته هو الجوهر ، والقائم بغيره هو العرض .

ثم قالوا : إنه موجود حىٌّ ناطق ، له حياة ونطق .

فيقال لهم : حياته ونطقه ، إما جوهر ، وإما عرض ، ليس جوهراً ، لأن الجوهر ما قام بنفسه ، والحياة والنطق لا يقومان بأنفسهما ، بل بغيرهما ، فهما من الأعراض ، فتبيّن أنه عندهم جوهر تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه جوهر لايقبل عرضا .

وإن قيل : أرادوا بقولهم : « لا يقبل عرضا » ما كان حادثا .

قيل : فهذا ينقض تقسيمهم الموجود إلى جوهر وعرض ، فإن المعنى القديم الذى يقوم به ليس جوهراً وليس حادثا .

فإن كان عرضاً ، فقد قام به العرض وقبله ، وإن لم يكن عرضاً ، بطل التقسيم .

فتبيّن من هذا ، أنهم يقال لهم : أنتم قلتم : إنه شىء حىٌّ ناطق ، وقلتم : هو ثلاثة أقانيم ، وقلتم : المتحد بالمسيح أقنوم الكلمة ، وقلتم فى الأمانة : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، إله حق من إله حق من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساوٍ ، للأب فى الجوهر .

ثم قلتم : إن الرب جوهر ، وقلتم : إن الذى يشغل حيزاً أو يقبل عرضاً الجوهر الكثيف .

فأما الجوهر اللطيف فلا يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً ، ومثل جوهر النفس وجوهر العقل ، وما يجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة .

فإذا كانت هذه الجواهر اللطيفة المخلوقة عرضاً ، ولا تشغل حيزاً ،

فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ، ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزاً كلا . فصرحتم بأنه جوهر لا يقبل عرضاً ، وقلتم: ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، فإن كان قائماً بنفسه غير محتاج فى وجوده إلى غيره ، فهو الجوهر ، وإن كان مفتقراً فى وجوده إلى غيره ، لا قِوَام له بنفسه ، فهو العرض .

فيقال لكم : الابن القديم الأزلى الموجود من جوهر أبيه ، الذى هو مولود غير مخلوق ، الذى تجسد ونزل ، هو جوهر قائم بنفسه أم هو عرض قائم بغيره ؟ والوجود عندكم إما جوهر وإما عرض .

فإن قلتم : هو جوهر ، فقد صرحتم بإثبات جوهرين ، الأب جوهر ، والابن جوهر ؛ ويكون حينئذ أقنوم الحياة جوهراً ثالثاً ، فهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر قائمة بأنفسها .

وحينئذ فيبطل قولهم: إنه إله واحد ، وإنه أحَدِىّ الذات، ثلاثى الصفات ، وإنه واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، إذ كنتم قد صرحتم ــ على هذا التقدير ــ بإثبات ثلاثة جواهر .

وإن قلتم : بل الابن القديم الأزلى ، الذى هو الكلمة ، التى هى العلم والحكمة ، عرض قائم بجوهر الأب ، ليس هو جوهراً ثانياً ، فقد صرحتم بأن الرب جوهر تقوم به الأعراض ، وقد أنكرتم هذا فى كلامكم ، وقلتم : هو جوهر لا تقوم به الأعراض ، وقلتم : إن من المخلوقات جواهر لا تقوم بها الأعراض ، فالخالق أولى ، وهذا تناقض بيِّن ، لا حيلة فيه لمن تدبر كلامهم ، أوله وآخره .

فإن كلامهم هذا يوجب أنه جوهر واحد ، لا يقوم به شىء من الأعراض .

وهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم ، وسواء سموها صفات أو خواص أو أعراضاً ، أو قالوا : الأقنوم هو الذات والصفة .

فيقال لهم : الرب مع الأقانيم ، ثلاثة جواهر ، أو جوهر واحد له ثلاث صفات ، أو جوهر واحد لا صفة له ؟

فإن قالوا : ثلاثة جواهر ، وأثبتوا ثلاثة ، وبطل قولهم : إن الرب جوهر واحد ، وإله واحد ، وصرحوا بإثبات ثلاثة آلهة .

وإن قالوا : بل جوهر واحد له ثلاث صفات ، فقد صرحوا أن هـذا الجوهر تقوم به الصفات ، وإذا قامت به الصفات ـ وقد سموه جوهراً ، وقالوا : كل موجود إما جوهر ، وإما عرض ، لزمهم قطعاً أن تكون صفاته أعراضاً ، فبطل قولهم : إنه جوهر لا تقوم به الأعراض .

وإن قالوا : جوهر واحد ، لا تقوم به الصفات بحال ، بطل قولهم : له حياة ونطق ، وإذا نفوا الصفات ، أبطلوا التثليث والاتحاد ، وبطلت الأمانة مع مخالفتهم لكتب الأنبياء ، فإنها مصرحة بإثبات الصفات ، ومع مخالفتهم لصريح العقل .

والمقصود أنهم يتناقضون تناقضاً بيناً ، لأنهم أثبتوا جوهراً لا تقوم به الأعراض ، مع قولهم : الموجود إما جوهر وإما عرض ، ومع قولهم : إنه جوهر ثلاثة أقانيم .

فإذا لم تقم به الأعراض ، لم يكن له صفات ، فإن الصفة قائمة بغيرها ، ليست جوهراً ، بل هي ـ إذا كان الموجود إما جوهر وإما عرض ـ من قسم الأعراض ، لا من قسم الجواهر ، فكان هذا الكلام نافياً لقيام الصفات به مطلقاً .

ثم قالوا بالأقانيم التي توجب إما إثبات صفات ، وإما إثبات جواهر ثلاثة قائمة بنفسها ، مع أنها إذا قامت بنفسها ، لزم اتصافها بالصفات .

ولا ريب أن القوم يجمعون في قولهم ، بين النقيضين ، بين إثبات الصفات ونفيها ، وبين إثبات ثلاثة جواهر ، ثلاثة آلهة ، وبين قولهم : الإله واحد.

وسبب ذلك ، أنهم ركبوا لهم اعتقاداً بعضه من نصوص الأنبياء المحكمة ، كقولهم : الإله واحد ، وبعضه من متشابه كلامهم ، كلفظ الابن ، وروح القدس ، وبعضه من كلام الفلاسفة المشركين المعطلين ، كقولهم : جوهر لا تقوم به الصفات .

ومما يوضح ذلك أنك تجد عامة علماء النصارى ـ فضلا عن عامتهم ـ لا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، مع اتفاقهم على أن المسيح لم ينسخها كلها ، ولم يقرها كلها ، بل أخبرهم أنه إنما جاء ليتممها لا ليبطلها ، وقد أحل بعض ما حرم فيها ، كالعمل في السبت .

ومعلوم أن المقصود بالرسل تصديقهم . فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا . فإذا كان عامة النصارى لا يميزون ما أمرهم به مما لم يأمرهم به ، ولا ما نهاهم عنه مما لم ينههم عنه ـ مع اعترافهم بأنه أقر كثيراً من شريعة التوراة ، بل أكثرها ، وأحل بعضها فنسخه ورفعه ، وهم لا يعرفون هذا من هذا ، لم يكونوا عارفين بما جاء به المسيح ، ولا يعرفون ما أمرهم الله على لسان موسى وسائر الأنبياء ـ فإنهم لا يجوز لهم العمل بكل ما في التوراة ، بل قد نسخ المسيح بعض ذلك باتفاقهم ، واتفاق المسلمين على ذلك .

ولا يجوز لهم تعطيل جميع شريعة التوراة ، بل يجب عليهم العمل بما لم ينسخه المسيح .

وعامتهم لا يعرفون ما نسخه ، مما لم ينسخه ، فلا يمكنهم العمل بالتوراة والانتفاع بها في الشرع ، حتى يعرفوا المنسوخ منها من غير المنسوخ .

وعامتهم لا يعرفون ذلك ، فلم يكونوا حينئذ على شريعة منزلة من الله ، لا من جهة المسيح ، ولا من جهة موسى ، فلم يعلموها ، بل كان ذلك مجهولا عند عامتهم وجمهورهم أو جميعهم ، فكانوا محتاجين إلى أن يعرفوا ما شرعه الله مما لم يشرعه .

فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشرع ، أمر فيه بمحاسن ما فى الكتابين ، وعوض عما نسخه بما هو خير منه .

فصل

ثم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من الفضل ، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان ، شريعة عدل ، وشريعة فضل ، لأنه لما كان البارى عدلا وجواداً ، وجب أن يظهر عدله على خلقه .

فأرسل موسى إلى بنى إسرائيل ، فوضع شريعة العدل ، وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت فى نفوسهم .

ولما كان الكمال الذى هو الفضل ، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال ، وجب أن يكون هو ـ تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه ـ الذى يضعه ، لأنه ليس شىء أكمل منه ، ولأنه جواد ، وجب أن يجود بأجل الموجودات .

وليس فى الموجودات أكمل من كلمته ، ولذلك وجب أن يجود بكلمته ، فلهذا وجب أن يتحد بذات محسوسة ، يظهر منها قدرته ووجوده .

ولما لم يكن فى المخلوقات أجل من الإنسان ، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة ، من مريم البتول المصطفاة على نساء العالمين .

وبعد هذا الكمال ما بقى شىء يوضع ، لأن جميع ما تقدمه منقصة وما يأتى بعد الكمال ، غير محتاج إليه لأنه ليس شىء يأتى بعد الكمال فيكون فاضلا ، بل دوناً ، أو أخذ منه ، والأخذ منه ، فهو فضل لا يحتاج إليه ، وفى هذا القول مقنع ، والسلام على من اتبع الهدى .

وهذا مما عرفته من أن القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم فى محمد عليه الصلاة والسلام ، وما يحتجون به عن أنفسهم .

فإن يكن ما ذكروه صحيحاً ، فلله الحمد ، وإن يكن خلاف ذلك ، فولانا يكتب ذلك بعد أن جعلونى سفيراً ، والحمد لله رب العالمين .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها :ـ أن يقال : بل الشرائع ثلاثة ، شريعة عدل فقط ، وشريعة فضل فقط ، وشريعة تجمع العدل والفضل ، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل ، وهذه أكمل الشرائع الثلاث ، وهى شريعة القرآن الذى يجمع فيه بين العدل والفضل ، مع أننا لا ننكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل ، وكذلك المسيح أيضاً أوجب العدل وندب إلى الفضل .

وأما من يقول : إن المسيح أوجب الفضل وحرم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه ، أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان ، فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين .

لكن قد يقال : إن ذكر العدل فى التوراة أكثر ، وذكر الفضل فى الإنجيل أكثر ، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال :

والقرآن بيّن أن السعداء أهل الجنة ، فهم أولياء الله نوعان ، أبرار مقتصدون ، ومقرّبون سابقون .

فالدرجة الأولى تحصل بالعدل ، وهى أداء الواجبات وترك المحرمات :

والثانية ـ : لا تحصل إلا بالفضل ، وهو أداء الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات .

فالشريعة الكاملة ، تجمع العدل والفضل كقوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) فهذا عدل واجب ، من خرج عنه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال : (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة : ٢٨٠]

فهذا فضل مستحب مندوب إليه ، من فعله أثابه الله ورفع درجته ، ومن تركه لم يعاقبه .

وقال تعالى : (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ) [النساء : ٩٢] فهذا عدل ، ثم قال : (إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا) فهذا فضل

وقال تعالى : (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) فهذا عدل ، ثم قال : (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) فهذا فضل .

وقال تعالى : (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) فهذا عدل ، ثم قال : (إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) [البقرة : ٢٣٧] فهذا فضل .

وقال تعالى : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) فهذا عدل ، ثم قال : (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) [النحل : ١٢٦] فهذا فضل .

وقال تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) فهذا عدل ، ثم قال : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) [الشورى : ٤٠] فهذا فضل .

وهو ـ سبحانه ـ دائماً يحرم الظلم ، ويوجب العدل ، ويندب إلى الفضل ، كما في آخر سورة البقرة ، لما ذكر حكم الأموال .

والناس فيها ، إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم .

فالمحسن ، المتصدق ، والعادل ، المعاوض كالبايع ، والظالم كالمرابي .

فبدأ بالإحسان والصدقة ، فذكر ذلك ورغب فيه فقال : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلاَ خوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ الآيات [البقرة : ٢٦١ - ٢٦٣] .

ثم ذكر تحريم الربا فقال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

ثم لما أحل البيع ذكر المداينات ، وذكر حكم البيع الحالّ والمؤجل ، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن ، وختم السورة بأصول الإيمان ، من الإيمان بالكتب والرسل ، بعد أن افتتحها بذلك ، وذكر أصناف الناس ، وهم ثلاثة ، إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .

فذكر نعت المؤمنين ، ثم ذكر نعت الكافرين ، ثم ذكر نعت المنافقين .

ثم مهد أصول الإيمان ، فأمر بعبادة الله تعالى ، وذكر آياته وآلائه .

ثم قرر نبوة رسوله ، ثم ذكر اليوم الآخر ، والوعد والوعيد ، ثم ذكر بدء العالم وخلق السموات والأرض ، ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له ، وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض .

ثم بعد أن عمّ بالدعوة جميع الخلق ، خص أهل الكتاب فخاطبهم .

خاطب اليهود أولا بنى إسرائيل ، ثم النصارى ، ثم خاطب المؤمنين .

فقرر لهم قواعد دينه ، فذكر أصل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعاءه لأهل مكة ، ووكد الأمر بملة إبراهيم .

ثم ذكر ما يتعلق بالبيت ، من اتخاذه قبلة ، ومن تعظيم شعائر الله التى عنده ، كالصفا والمروة ، ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام فى المطاعم للناس عموماً ، ثم للذين آمنوا خصوصاً .

ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص وبالموت ، من الوصية .

ثم ذكر شرائع الدين ، فذكر صيام شهر رمضان ، وما يكون فيه من الاعتكاف .

ثم ذكر ما يتصل بشهر الصيام ، وهو أشهر الحج ، فذكر الحج، وذكر حكم القتال عموماً وخصوصاً ، في البلد الحرام .

ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، ذكر بعد ذلك الحلال والحرام في الفروج .

فذكر أحكام وطء النساء ، والمحيض ، والإيلاء منهن ، والطلاق لهن ، واختلاعهن .

وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم ، واعتداد النساء ، وخطبتهن في العدة ، وطلاقهن قبل الدخول وبعده .

ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن ، ثم قرر المعاد ، وما يدل عليه من إحياء الموتى في الدنيا مرة بعد مرة .

فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه في الدين، أصوله وفروعه ، وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل ، ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل ، وختمها بالإيمان بالكتب والرسل .

فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه .

وأمر فيها الخلق عموماً ، وخصوصاً بعد عموم ، وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته ، والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة التي أمر بها ، وإن من كان من أتباع الرسل ، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، قائماً بهذه الأصول ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،

بخلاف من بدّل منهم الكتاب ، أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار.

فمن كان متبعاً لشرع التوراة ، قبل مبعث المسيح ، غير مبدل له ، فهو من السعداء .

وكذلك من كان متبعاً لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، غير مبدل له ، فهو من السعداء .

ومن بدل شرع التوراة ، أو كذب بالمسيح ، فهو كافر ، كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام .

وكذلك من بدل شرع الإنجيل ، أو كذب محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهو كافر ، كالنصارى بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فقدماء اليهود والنصارى ، الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل سعداء.

وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ ، وتركوا اتباع الكتاب والرسول الذى أرسل إليهم وإلى غيرهم ، وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم ، فهم كفار .

ورد دعاوى اليهودى والنصارى الكاذبة، مثل قول هؤلاء : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً) وقول هؤلاء : (لن يدخل الجنة إلا من كان نصاري) فقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وبيّن من كفر اليهود والنصارى ، ما عرف بهم حالهم .

لكن أكثر ما ذكر فى هذه السورة ، اليهود ، كما أن أكثر ما ذكر فى سورة آل عمران النصارى ، فإن هذه نزلت أول مقدمه المدينة ، وكان اليهود جيرانه .

وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر ، لما قدم عليه نصارى وفد نجران ،

وفيها فرض الحج ، لما طهر الله مكة من المشركين ، فكان أكثر دعائه في أول الأمر للمشركين ، لأنهم جيرانه بمكة ، ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة ، ثم للنصارى لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام ، واليمن ، والمجوس أيضاً لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان .

وهذا هو الترتيب المناسب ، يدعو الأقرب إليه فالأقرب ، ثم يرسل رسله إلى الأبعد .

وهو صلى الله عليه وسلم ، كان ، أولا ، مشغولا بجهاد المشركين واليهود ، فلما صالح المشركين صلح الحديبية ، وحارب يهود خيبر عقيب ذلك فتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة الذين شهدوا صلح الحديبية ، فتفرغ لمن بَعُدَ عنه ، فأرسل رسله إلى جميع مَنْ حواليه ، من الأمم .

أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة ، فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشي الذي أسلم ، وأخبر الناس بموته يوم مات ، وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة ، فصلّى عليه بهم صلاة الجنازة ، كما كان يصلي على سائر موتى المسلمين .

وتولى بعد النجاشي آخر ، فأرسل إليه كما ذكره مسلم في صحيحه وغيره .

وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود ، وإلى ملوك العرب .

وكان في العرب خلق كثير يهود ، وخلق كثير نصارى ، وخلق كثير مجوس .

فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، عربهم وعجمهم .

الوجه الثاني : ـ أن يقال لهم : الناس لهم في أمر الله ونهيه ، قولان مشهوران .

أحدهما : أنه يرجع إلى محض المشيئة ، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق ، وإن اتفق أن يكون مصلحة ، وإن كان الواقع كونه مصلحة ، وهذا قول من يقول : لا يفعل ولا يحكم لسبب ، ولا لحكمة ولا لغرض .

والقول الثاني ـ وهو قول جمهور الناس ـ إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه ، كما قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء : ١٠٧] وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) [طه : ١٢٣ ـ ١٢٦] .

فإن قيل بالأول ، لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل ، وإن قيل بالثاني ، ففي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من الحكم والمصالح ، وأعظم مما كان في إرسال موسى والمسيح ، والذي حصل به من صلاح العباد في المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح ، من جهة الأمر والخلق .

فإن شريعته من الهدى ودين الحق ، أكمل مما في الشريعتين المتقدمتين ، ويسّر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ، ما لم يتيسر مثله لمن قبله ، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها ، ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها .

بخلاف شريعة من قبله ، فإن موسى صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني إسرائيل ، وكان فيهم من الرد والعناد في حياة موسى وبعد موته ، ما هو معروف .

وقد ذكر النصارى في كتابهم هذا من ذلك ما تقدم .

ولم تكن شريعة التوراة في الكمال ، مثل شريعة القرآن ، فإن القرآن

وفيه من ذكر الميعاد ، وإقامة الحجج عليه وتفصيله ، ووصف الجنة والنار ، مالم يذكر مثله في التوراة .

وفيه من ذكر قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء ، مالم يذكر في التوراة .

وفيه من ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته ، ووصف ملائكته وأصنافهم ، وخلق الإنس والجن ، مالم يفصل مثله في التوراة .

وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلة ، مالم يذكر مثله في التوراة .

وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ، مالم يذكر مثله في التوراة .

وفيه من مناظرة المخالفين للرسل ، وإقامة البراهين على أصول الدين ، مالم يذكر مثله في التوراة ، مع أنه لم ينزل كتاب من السماء أهدى من القرآن والتوراة .

وفي شريعة القرآن تحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث .

وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم ، حرمت عليهم عقوبة لهم .

وفي شريعة القرآن ، من قبول الدية في الدماء ، مالم يشرع في التوراة ، وفيها من وضع الآصار والأغلال التي في التوراة مايظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل .

وأما الإنجيل ، فليس فيه شريعة مستقلة ، ولا فيه الكلام على التوحيد وخلق العالم وقصص الأنبياء وأممهم ، بل أحالهم على التوراة في أكثر الأمر . ولكن أحلّ لهم المسيح بعض ما حرم عليهم ، وأمرهم بالإحسان والعفو عن المظالم ، واحتمال الأذى ، والزهد في الدنيا ، وضرب الأمثال لذلك .

فعامة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة ، بمكارم الأخلاق المستحسنة ،

والزهد المستحب ، وتحليل بعض المحرمات ، وهذا كله في القرآن ، وهو في القرآن أكمل .

فليس في التوراة والإنجيل والنبوات ، ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن ، أو ما هو أفضل منه .

وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ، ودين الحق ، ما ليس في الكتابين .

لكن النصارى لم يتبعوا ، لا التوراة ولا الإنجيل ، بل أحدثوا شريعة لم يبعث بها نبي من الأنبياء كما وضعوا لقسطنطين الأمانة ، ووضعوا له أربعين كتاباً ، ويسمونها القوانين ، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء ، وفيها شيء كثير مخالف لشرع الأنبياء ، وصاروا إلى كثير من دين المشركين ، الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى وكذبوا رسله ، فصار في دينهم من الشرك وتغيير دين الرسل ، ما غيروا به شريعة الإنجيل ، ولهذا التبست عند عامتهم شريعة الإنجيل بغيرها ، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، ولا ما شرعه ، مما أحدث بعده .

فالمسيح لم يأمرهم بنصب الصُّوَر وتعظيمها ، ولا دعا من صورت تلك التماثيل على صورته ولا أمر بهذا أحد من الأنبياء .

لا يوجد قط عن نبي أنه أمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم ، فضلاً عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها ، فإن هذا من أصول الشرك ، الذى نهت عنه الرسل ، وهذا كان أصل الشرك في بني آدم من عهد نوح عليه السلام .

قال الله تعالى عن قوم نوح (وَقَالُوا : لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) .
[نوح ٢٣ ، ٢٤] .

قال كثير من العلماء ، منهم ابن عباس وغيره : وهؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم ، وقد ذكر ذلك المسيح وعلماء النصارى .

والمسيح عليه السلام لم يأمرهم بعبادته ولا قاله : إنه الله ، ولا أمرهم بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد .

والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرمه الله في التوراة من الخبائث ، كالخنزير وغيره ، فاستحلوا الخبائث المحرمة وغيّروا شريعة التوراة والإنجيل.

والمسيح لم يأمرهم أن يصلوا إلى المشرق ، ولم يأمرهم أن يعظموا الصليب ، ولم يأمرهم بترك الختان ولا بالرهبانية ولا بسائر ما ابتدعوه بعده .

ولهذا لما ظهر فساد دين النصارى، صار بعض الناس، كأبي عبدالله الرازي يقول : لم يظهر الانتفاع بدين المسيح ، إلا في طائفة قليلة كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الدين الذي كان عليه جمهور النصارى ، ليس هو دين المسيح.

ويبين هذا بـ «الوجه الثالث» : ـ وهو أن يقال هب : إن شريعة الكتابين كانت كافية، فإنما ذلك إذا كانت محفوظة معمولا بها، ولم يكن الأمر كذلك ، بل كانت قد درس كثير من معالمها .

وقد اختلف أهل الكتاب في المسيح وغيره اختلافاً عظيماً كما قال تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [المائدة ١٤] وقد قال تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي فاختلفوا (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) [البقرة : ٢١٣]

والوقت الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قد بقي أحد مظهراً لما بعث الله به الرسل قبله .

فبعثه على حين فترة من الرسل ، وطموس من السُّبُل ، أحوج ما كان الناس إلى رسول ، كما في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » .

وكان الناس حين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إما أميين ، لا كتاب لهم يشركون بالرحمن ، ويعبدون الأوثان ، وإما أهل كتاب قد بدّلوا معانيه وأحكامه ، وحرّفوا حلاله وحرامه ، ولبسوا حقه بباطله ، كما هو الموجود .

فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء ، مما هم عليه مما أحدثوه بعدهم ، لم يعرف جمهورهم ذلك ، بل قد صار الجميع ـ عندهم ـ ديناً واحداً .

فبعث الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذى أنزله عليه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فميّز به الحق من الباطل والهدى من الضلال والغيّ من الرشاد قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إلى قوله : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [المائدة ١٥ ـ ١٩] .

الوجه الرابع : إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة ، بين هذا وهذا ، كما قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)[البقرة: ١٤٣] وقال فى وصف أمته : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح : ٢٩] إلخ ، وقال أيضاً : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[المائدة : ٥٤] فوصفهم بالرحمة للمؤمنين ، والذلة لهم ، والشدة على الكفار والعزة عليهم.

وكذلك كان صفة محمد صلى الله عليه وسلم نبيهم ، أكمل النبيين وأفضل الرسل ، بحيث قال : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة ، وأنا نبي التوبة ، وأنا الضحوك القتال » فوصف نفسه بأن نبي الرحمة والتوبة وأنه نبي الملحمة ، وأنه الضحوك القتال .

وهذا أكمل من نعت بالشدة والبأس غالباً ، أو باللين غالباً .

وقد قيل : إن إن سبب ذلك أن بنى إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت بقهر فرعون لهم ، واستعباد فرعون وقومه لهم ، فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم ، ويزول عنهم ذلك الذل .

ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه ، وقال لهم موسى : (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا : يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة الآيات ٢١ – ٢٤] .

وأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال له قائلهم يوم بدر : والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ، قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » لكن نقاتل أمامك ووراءك : وعن يمينك وعن يسارك والذى بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك » .

وكان الكلام قريباً من « بدر » والبحر من جهة الغرب .

و « برك الغماد » مكان من يمانى مكة ، بينه وبين مكة عدة ليال .

والكفار كانوا ـ إذ ذاك بمكة ، وأصحابه[1] من ناحية المدينة شامى مكة ، فمكة جنوبهم والبحر غربهم .

يقول : لو طلبت أن ندخل بلد العدو ، ونذهب إلى تلك الناحية لفعلناه .

قالوا : فلما نصر الله بنى إسرائيل وأظهرهم ، ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا وقست قلوبهم وصاروا شبيهاً بآل فرعون .

فبعث الله المسيح عليه السلام باللين والصفح ، والعفو عن المسىء واحتمال أذاه ليُليِّن أخلاقهم ، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة .

فأفرط هؤلاء فى اللين ، حتى تركوا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وتركوا الحكم بين الناس بالعدل ، وإقامة الحدود ، وترهّب عُبّادُهم منفردين .

مع أن فى ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله ، وسفك الدماء بغير حق ، مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم ، ومما لم يأمروهم به ، ما شاركوا فيه اليهود .

فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الكاملة العادلة ، وجعل أمته

(١) قوله وأصحابه : أى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

عدلا خياراً لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف ، بل يشتدون على أعداء الله ، ويلينون لأولياء الله ، ويستعملون العفو والصفح ، فيما كان لنفوسهم ، ويستعملون الانتصار والعقوبة ؛ فيما كان حقاً لله .

وهذا كان خلق نبيهم كما فى الصحيحين عن عائشة قالت : « ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له قط ، ولا امرأةً له قط ، ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شىء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله ، لم يقم لغضبه شىء ، حتى ينتقم لله ، وماعرض عليه أمران ، أحدهما أيسر من الآخر ، إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثماً ، فإن كان مأثماً كان أبعد الناس منه » .

وفى الصحيحين عن أنس أنه قال : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أفٍ قط ، ولاقال لشىء فعلته لِمَ فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله لم لا فعلته ؟ ولا لما صنعت ، لم لاصنعت ، وكان بعض أهله إذا عتبونى على شىء يقول : دَعُوهُ ، فلوقدرشىء لكان هذا» مع قوله فى الحديث الصحيح لما سرقت امرأة كانت من أشرف قريش من بنى مخزوم فأمر بقطع يدها ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ؟ فكلموه ، فكلمه فيها ، فقال : « يا أسامة أتشفع فى حدٍ من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ففى شريعته صلى الله عليه وسلم من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما فى الإنجيل ، وفيها من الشدة والجهاد وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين ، أعظم مما فى التوراة ، وهذا هو غاية الكمال .

ولهذا قال بعضهم : بُعِثَ موسى بالجلال ، وبُعِثَ عيسى بالجمال ، وبعث محمد بالكمال .

الوجه الخامس : — إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم ، وذلك نوعان :

أحدهما : — أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم ، مثل رزقهم الذى لولا هو ، لماتوا جوعاً . ونصرهم الذى لولا هو لأهلكهم عدوهم . ومثل هداهم الذى لولا هو لَضلُّوا ضلالا يضرهم فى آخرتهم .

وهذا النوع من النعمة لابد لهم منه وإن فقدوه حصل لهم ضرر ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، وإما فيهما .

ولهذا كان فى سورة النحل ، وهى سورة النِّعم ، فى أولها ، أصول النعم فى أثنائها كمال النعم .

والنوع الثانى : — النعم التى يحصل بها من كمال النعم وعُلُوِّ الدرجة ، ما لا يحصل بدونها ، كما أنهم فى الآخرة نوعان : أبرار أصحاب يمين ، ومقربون سابقون ، ومن خرج عن هذين ، كان من أصحاب الجحيم .

وإذا كانت النعمة نوعين ، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من هذين الوجهين ، وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة ، فإن الناس بدونه كانوا جهالا ضالين أُمِّيُّهُمْ وأهلُ الكتاب منهم .

ولم يكن قد بقى من أهل الكتاب أتباع المسيح ، ومن هو قائم بالدين الذى يوجب السعادة عند الله فى الآخرة ، بل كانوا قد بدَّلوا وغيَّروا .

وأيضاً فلو قُدِّر أنهم لم يبدلوا شيئاً ، ففى إرساله من كمال النعم وفواضلها ، وعُلُوِّ الدرجات فى السعادة ، مالم يكن حاصلا بالكتاب الأول .

فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نوعَىِ النعم .

ومن استقرأ أحوال العالم ، تبيَّن له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة

أعظم من إنعامه بإرساله صلى الله عليه وسلم ، وإن الذين ردوا رسالته ، هم ممن قال الله فيهم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) [إبراهيم : ٢٨].

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام : ٥٣] وقال تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) [آل عمران : ١٤٤]

الوجه السادس : — أن يقال قولهم : « إنا نعجب من هؤلاء القوم » إلى آخر الفصل . قول جاهل ظالم يستحق أن يقال له : بل العجب من هذا العجب هو الواجب ، بل هو الذى لا ينقضى منه العجب ، وأن كل عاقل ليعجب ، ممن عرف دين محمد صلى الله عليه وسلم وقصده الحق ، ثم اتبع غيره ، ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط فى الجهل والضلال ، أو مفرط فى الظلم واتباع الهوى.

وذلك أن أهل الأرض نوعان : أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وغير أهل الكتاب كالمشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ، وكالمجوس من الفرس وغيرهم ، وكالصابئة من المتفلسفة وغيرهم .

وأهل الكتاب يسلمون لنا ، أن مَنْ سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم منفعة ظاهرة ، وأنه دعا جميع طوائف المشركين والمجوس والصابئين إلى خير مما كانوا عليه ، بل كانوا أحوج الناس إلى رسالته .

وأما أهل الكتاب . فاليهود يسلمون لنا حاجة النصارى إليه ، وأنه دعاهم إلى خير ما كانوا عليه .

والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه . وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه .

فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم دعا سائر الطوائف وغيرهم إلى خير مما كانوا عليه .

وهذه شهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه .

فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم إذا كانوا غير متهمين عليهم؛ فإنهم معادون لمحمد وأمته ومعادون لسائر الطوائف .

وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة · فإنهم خصومه ، وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة .

وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه . واعترفوا بأنه أفضل من ناموس موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام . بل لهم من الطعن فى نواميس غيره ، ماليس هذا موضع ذكره .

بخلاف ناموس محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يطعن فيه أحد منهم إلا من كان خارجاً عن قانون الفلسفة التى توجب عندهم العدل والكلام بعلم .

فأما من التزم منهم الكلام بعلم وعدل ، فهم متفقون على أن ناموس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل ناموس طرق العالم ، فكيف يتعجب من مثل هذا الناموس ؟ !

الوجه السابع : — أن يقال لأهل الكتاب خصوصاً ، فيقال لليهود : أنتم أذل الأمم ، فلو قدر أن ما أنتم عليه دين الله الذى لم يبدل ، فهو مغلوب مقهور فى جميع الأرض ، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فيبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، حتى يصير دين الله الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، منصوراً ظاهراً بالحجة والبيان والسيف والسنان ؟؟

ويقال للنصارى : أنتم لم تخلصوا دين الله الذى بعث به رسله من دين

المشركين والمعطلين بل أخذتم من أصول المشركين المعطلين من الفلاسفة وغيرهم، ما أدخلتموه فى دينكم وليس لكم على أكثر الكفار لاحجة علمية ، ولا يد قهرية ، بل للكفار فى قلوبكم من الرعب والخوف والتعظيم ، ما أنتم به من أضعف الأمم حجة ، وأضيقها محجة وأبعدها عن العلم والبيان وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان ، تارة تخافون من الكفار الفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين ، فإما أن توافقوهم على أقوالهم وإما أن تخضعوا لهم متواضعين .

وتارة تخافون من سيوف المشركين ، فإما أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم ، وإما أن تذلوا لهم خاضعين .

ففيكم من ضعف سلطان الحجة ، وضعف سلطان النصرة ، ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه .

فالعجب منكم ، كيف تعدلون عما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة إلى مافيه شقاؤكم فى الدنيا والآخرة ؟! هذا هو العجب ، ليس العجب ممن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وفى خلافه شقاوة الدنيا والآخرة .

ومثل هذا لا يرد على المسلمين ، فإنه لم يزل ولا يزال فيهم طائفة قائمة بالهدى ودين الحق ، ظاهرة بالحجة والبيان ، واليد واللسان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين . كما ثبت فى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله . لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى لفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة حتى يأتى الله بأمره » .

الوجه الثامن — أن يقال لأهل الكتاب ، اليهود : أنتم لما كنتم متبعين موسى عليه السلام . كنتم على الهدى ودين الحق : فكنتم منصورين ثم كثرت فيكم الأحداث التى تعرفونها . كما قال تعالى لكم (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ

أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) [المائدة الآيتان: ٥٩ ، ٦٠] .

وقوله : « وعبد الطاغوت » معطوف على قوله « لعنه الله » أى من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت ، ليس داخلا فى خبر جعل ، حتى يلزم إشكال كما ظنه بعض الناس .

وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات ، وقتلوا الأنبياء .

وقال تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) [الإسراء الآيات ٤ ـ ٨] وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين .

فالخراب الأول لما جاء « بُخْتَنَصَّر » وسباهم إلى بابل ، وبقى خرابه سبعين سنة .

والخراب الثانى : بعد المسيح بنحو سبعين سنة .

وقد قيل : هذا تأويل قوله : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) [المائدة ٧٨] .

فبعد الخراب الثانى ، تفرقوا فى الأرض ، ولم يبق لهم ملك .

وبين الخرابين ، كانوا تحت قهر للملوك الكفار .

وبعث المسيح عليه الصلاة والسلام ، وهم كذلك .

ويقال للنصارى : أنتم مازلتم مقهورين مغلوبين مستذلين فى الأرض ، حتى ظهر قسطنطين وأقام دين النصرانية بالسيف ، وقتل من خالفه من المشركين واليهود .

لكن أظهر ديناً مبدلا مغيراً ، ليس هو دين المسيح عليه السلام .

ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفاراً من المجوس ، وغيرهم مجوساً مشركين .

وكانوا فى بعض الأزمنة يقهرون النصارى على بلادهم .

وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين ، أمم .

وكان الشرك والكفر ظاهراً فى أرض اليمن والحجاز والشام والعراق .

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ظهوراً لم يعرف فى أمة من الأمم ، ولم يحصل مثله لنبى من الأنبياء ، وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور ، وموسى وعيسى ، وداود وسليمان وغيرهم من الرسل مالم يكن ظاهرا ، لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم .

فأهل الكتاب ، وإن كانوا خيراً من غيرهم ، فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله ولا باليوم الآخر ، ولا شرائع دينه ، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار ، بل ولا كانوا منصورين عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [التوبة ٢٩]

أما اليهود ففيهم من التنقص بالأنبياء وسبهم ، وذكر عيوب نزههم الله منها ، ما هو معروف .

حتى إن منهم من يقول : إن سليمان كان ساحراً ، وداود كان منجماً لم يكن نبياً ، إلى أمثال ذلك مما يطول وصفه .

ففيهم من كفر بالأنبياء ، من جنس ما كان فى سلفهم الخبيث .

وأما النصارى ـ فمع غلوهم فى المسيح وأتباعه ـ يستخفون بغيره ، فتارة يجعلون الحواريين ، مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم ، وتارة يقولون كما قال اليهود : إن سليمان لم يكن نبياً ، بل سقط من النبوة ، وتارة يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء ، إنما أريد به المسيح .

مع أن اللفظ لا يدل على ذلك ، بل يتأولون كُتُبَ الله بمجرد هوى أنفسهم .

وتارة يقولون: إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعة ، صار مثل واحد من الأنبياء وأفضل منه ، ووجب طاعته كما تجب طاعة الأنبياء ، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يغيروا شرائع الأنبياء ، ويضعوا ديناً ابتدعوه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، أقاموا توحيد الله الذى كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل ، وآمنوا بكل كتاب أنزله الله ، وكل رسول بعثه الله، وأقاموا دين الرحمن إقامة لم يقمها أحدٌ من الأمم .

فعامة أهل الأرض مع محمد ، إما مؤمن به باطناً وظاهراً ، وهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون .

وإما مسلمون فى الظاهر ، تقيةً وخوفاً من أمته ، وهم المنافقون ؛

وإما مسالمون له بالعهد والذمة والهدنة وهم أهل الذمة والهدنة فى جميع الأرض ، وإما خائفون من أمته .

وحيث كان الواحد والطائفة من أمته متمسكا بدينه ، كان نوره ظاهراً وبرهانه قاهراً معظماً منصوراً ، يعرف فضله على كل ما سواه .

وهذا أمر يعرفه الناس فى أرض الكفار من المشركين وأهل الكتاب لما خص الله به محمداً وأمته من الهدى ودين الحق .

وقد أظهروا دين الرب فى مشارق الأرض ومغاربها بالقول والعمل .

فهل يقول عاقل ممن عنده علم وعدل : إنه لا فائدة فى إرسال محمد وإنه

يستغنى بما عند أهل الكتاب عن رسالته ؟!.

الوجه التاسع : — أن يقال : هم معترفون بانتفاع المشركين به غاية الانتفاع، فإنه أقام توحيد الله ودينه فيهم ، وأنه عظّم المسيح وردّ على اليهود قولهم فيه وأهانهم ، وحينئذ فهذا من أعظم الفوائد وأجلّ المقاصد، وأعظم نعم الله على عباده .

ثم هو — مع ذلك — قال : إن الله أرسله وأمره بذلك .

فإن كان كاذباً ، فالكذاب المفترى على الله من شرّ الكفار . ومن يكون كذلك لا يحصل منه هذا الخير العظيم الذى ما حصل مثله من أحد من الأنبياء ، فإنه أزال دين المشركين ، ودين المجوس ، وقمع اليهود .

وكل واحدة من هذه الثلاث لم يقدر عليه أحد قبله من الأنبياء والمرسلين .

وإن كان صادقاً ، فهو قد أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من الأمم ، وأخبر عن الله بكفر كل من لم يؤمن به ، وهذا الوجه مما يخاطب به كل صنف .

فيقال لكل صنف من الأمم : أنتم معترفون بأن من سواكم إذا اتبعوا دين محمد كان خيراً لهم مما هم عليه .

فاليهود معترفة ، بأن النصارى إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين النصارى .

والنصارى معترفون بأن اليهود إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين اليهود .

وأهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، معترفون بأن من سواهم إذا اتبعوا كان خيراً لهم مما هم عليه .

فالمجوس والمشركون من العرب ، والسودان والترك وأصناف الخزر والصقالبة ، إذا اتبعوه كان خيراً لهم مما هم عليه :

وسائر أصناف الكفار معترفون بأن اتّباعه خير من غيره .

ومن ليس من أهل الكتاب ، عامتهم ، معترفون بأن دين المسلمين خير من اليهود والنصارى .

وحينئذ فيقال : من جاء بهذا الدين الذى يفضله جميع أهل الأرض على غيره ، يمتنع أن يكون من أكفر الناس وأحقهم بغضب الله وعقابه .

وكل من قال : إنه رسول الله ، فإن كان صادقاً ، كان من خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

وإن كان كاذباً ، كان من شر أهل الأرض وأحقهم بغضب الله وعقابه .

ومن حصل منه هذا الخير والعلم والهدى وما فيه صلاح الدنيا والآخرة أعظم مما حصل من جميع الخلق . يمتنع أن يكون من أكفر النـاس المستحقين لغضب الله وعقابه ، فوجب أن يكون من خير أهل الأرض ، بل هو خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

الوجه العاشر : ـ إن الله سبحانه وتعالى كانت سنته قبل إنزال التوراة إذا كذَّب نبي من الأنبياء أن ينتقم له من أعدائه بعذاب من عنده ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، وقوم هودٍ بالريح الصرصر ، وقوم صالح بالصيحة ، وقوم شعيب بالظلة ، وقوم لوط بالحاصب ، وقوم فرعون بالغرق ، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[القصص ٤٢] فلما أنزل التوراة ، أمر أهل الكتاب بالجهاد ، فمنهم من نكل ، ومنهم من أطاع .

وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقـدرة ، كما قال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) [الفتح ٢٨] .

فقول هؤلاء : إن التوراة جاءت بالعدل ، والإنجيل بالفضل ، فلا حاجة إلى غيرهما لو قُدِّر أنه حقٌ ، إنما يستقيم إذا كان الكتابان لم يبدَّلا بل كانا

متبعين علماً وعملا ، وكان أهلهما مع ذلك منصورين مؤيدين على من خالفهم، فكيف وكل منهما قد بُدِّلَ كثيرمما فيه ، وأهلهما غير منصورين على الكفار؟! بل الكفار ظاهرون عليهم في أكثر الأرض ، كأرض اليمن والحجاز، وسائر جزيرة العرب وأرض العراق وخراسان والمغرب، وأرض الهند والسند والترك.

وكان بأيدى أهل الكتاب الشام ومصر وغير ذلك ، ومع هذا ، فكانت الفرس قد غلبتهم على ذلك .

ثم إن الله أظهر النصارى عليهم ، فكان ظهورهم توطئة وتمهيداً لإظهار دين الإسلام.

فإن الفرس المجوس ، لما غلبوا الروم ، ساء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ، وفرح بذلك مشركو العرب ، وكانوا أكثر من المؤمنين،لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، والمجوس أقرب إلى المشركين منهم إلى أهل الكتاب ، ووعد الله المؤمنين أن تَغْلِبَ الروم بعد ذلك ، وأنه يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

فأضاف النصرة إلى اسم الله الذى هو الفاعل ، ولم يقل بنصر الله إياهم، وذلك أنه حين ظهرت الروم على فارس، كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد ظهروا على المشركين واليهود .

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك يدعو ملوك النصارى بالشام ومصر إلى الإيمان به فعرفوه وعرفوا أنه النبي المبشر به ، وكان ذلك أول ظهور دينه .

ثم أرسل طائفة من أصحابه إلى « مؤتة » ثم خرج بالمسلمين معه عام تبوك إلى الشام ، ثم فتح هذه البلاد أصحابه فكان تأييد دين الله وظهوره وإذلال المشركين والمجوس وغيرهم من الكفار ، على يديه ويدى أمته ، لا على يد اليهود والنصارى .

فلو قُدِّرَ أن شرع أولئك كامل لا تبديل فيه ، لكان مغلوبا مقهورا ،

وكان الله قد أرسل من يؤيد دينه ويظهره ، فكيف وهو مبدّل ؟!

ولو لم يبدل فدين أحد أكمل وأفضل منه ، فذاك مفضول مبدل ، وهذا فاضل لم يبدل ، وذلك مغلوب مقهور ، وهذا مؤيد منصور ، وببعض هذا تحصل الفائدة فى إرساله ؟!

فكان من أجلّ الفوائد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف يقال: إنه لا فائدة فى إرساله .

الوجه الحادى عشر : — قولهم : « لما كان البارى عدلا جواداً أوجب أن يظهر عدله وجوده » .

فيقال لهم : جود الجواد غير إلزام الناس بترك حقوقهم ، فإن الجواد هو الذى يحسن إلى الناس ، ليس هو الذى يلزم الناس بترك حقوقهم .

وهؤلاء يزعمون أن شريعة الإنجيل ألزمت الناس بترك حقوقهم ، وأنه لا ينصف مظلوم من ظالمه . ولهذا ليس عندكم حكم عدل يحكمون به بين الناس، بل الحكم عندهم حكمان .

حكم الكنيسة ، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم .

والثانى حكم الملوك ، وليس هو شرعا منزلا ، بل هو بحسب آراء الملوك .

ولهذا تجدهم يردون الناس إلى حكم شرع الإسلام فى الدماء والأموال ونحو ذلك ، حتى فى بعض بلادهم يكون الملك والعسكر وأكثر أهل البلد نصارى ، وفيهم طائفة قليلة مسلمون لهم حاكم ، فيردون الناس فى الدماء والأموال إلى حكم شرع المسلمين .

وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه ، فالحاكم الذى يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه ، كان حاكما بالظلم لا بالعدل .

ولو أمرنا كل وليّ مقتول أن لا يقتص من القاتل ، وكلّ صاحب دين أن لا يطالب غريمه بل يدعه على اختياره ، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم وظلم الأقوياء الضعفاء وفسدت الأرض ، قال تعالى : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) .

فلابد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ، ولابد — مع ذلك — من ندب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل .

وهذه شريعة الإسلام كما تقدم ماذكرناه من الآيات ، مثل قوله : (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) [المائدة ٤٥] وقوله : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ) [البقرة ٢٨٠] وقوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [الشورى ٤٠] وقوله : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) [النحل ١٢٦] وقوله : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران ١٣٤] وقوله : (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الشورى الآيتان ٤١ ، ٤٢] وقوله : (وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا) [النساء ٩٢] وقوله : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [الشورى ٤٣]

وقال أنس : ما رُفع للنبي صلى الله عليه وسلم أمر شيء فيه القصاص ، إلا أمر فيه بالعفو ، فكان يأمر بالعفو ، ولا يلزم الناس به .

ولهذا لما عتقت بريرة جارية عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لها أن تفسخ النكاح ، وطلب زوجها أن لا تفارقه ، فشفع إليها أن لا تفارقه ،

فقالت : أتأمرني ؟ قال : لا ، إنما أنا شافع ، فلم يوجب عليها قبول شفاعته صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثاني عشر : ـ قولهم : « ولما كان الكمال الذي هو الفضل ، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال » .

فيقال لهم : العدل والفضل ، لا يشرعه إلا الله ، فشريعة التوراة لم يشرعها إلا الله ، وشريعة الإنجيل لم يشرعها إلا الله عز وجل .

يبين ذلك أن الله كلم موسى من الشجرة تكليما ، وهم غاية ما قرروا به إلهية المسيح أن زعموا أن الله كلم الناس من ناسوت المسيح ، كما كلم موسى من الشجرة .

ومعلوم عند كل عاقل ، لو كان هذا حقا أن تكليمه لموسى من الشجرة أعظم تكليم كله الله لعباده ، فكيف يقال : إن شريعة العدل لم يشرعها الله عز وجل .

ثم يقال لهم : بل شريعة العدل أحق بأن تضاف إلى الله ، من شريعة الفضل ، فإن الأمر بالإحسان والعفو ، يحسنه كل واحد .

وأما شريعة العدل والحكم بين الناس به ، فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس .

ولهذا يوجد من الذين يصلحون بين الناس بالإحسان خلق كثير .

وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل ، فناس قليل .

فكيف يقال : إن الذي يأمر بشرع الفضل هو الله ، دون الذي يأمر بشرع العدل ؟!

والله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليقوم الناس بالقسط ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد ٢٥]

وأمر المسيح عليه السلام للمظلوم بالعفو عن الظالم ، ليس فيه ما يدل على أنه من الواجب الذي من تركه استحق الذم والعقاب ، بل هو من المرغّب فيه ، الذي من فعله استحق المدح والثواب .

وموسى عليه السلام أوجب العدل الذي من تركه استحق الذم والعقاب .

وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل ، وبين استحباب الفضل .

لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف في تركه ، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله .

فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة .

وهذا فيه رغبة بلا رهبة ، ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة الآيتان ١١٧ ، ١١٨] ولهذا قيل: إن المسيح عليه السلام بُعِثَ لتكميل التوراة ، فإن النوافل تكون بعد الفرائض كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » .

وإلا فلو قيل: إن المسيح عليه السلام أوجب على المظلوم العفو عن الظالم بمعنى أنه مستحق للوعيد ، وللذم وللعقاب إن لم يعف عنه ، لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم ظالماً ، مستحقاً للذم والعقاب ؛ وهذا ظلم ثانٍ

للمظلوم الذى انتصف ، فإن الظالم ظلمه أولا ، فلما انتصف منه ظلم ظلماً ثانياً ، فهو ظلم لعادل انتصف من ظالمه .

وما أحسن كلام الله حيث يقول : (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [الشورى الآيات ٣٦ ـ ٤٣] وقال : (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) [الحج ٦٠] .

فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله ، حيث يشرع العدل فقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ثم ندب إلى الفضل فقال : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

ولما ندب إلى العفو ؛ ذكر أنه لا لوم على المنتصف لئلا يظن أن العفو فرض فقال : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

ثم بين أن السبيل إنما يكون على الظالمين فقال : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

ثم لما رفع عنهم السبيل ؛ ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو ؛ فقال : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

فهذا أحسن شرع وأجمله ؛ يرغب فى الصبر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب ،

ويذكر مافيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعدل، ويبين أنه لاحرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ماظلم.

فهل يمكن أن تأتي شريعة تجعل على المنتصف سبيلاً مع عدله، وهي لاتجعل على الظالم سبيلا مع ظلمه ؟!

فعلم أن ما أمر به المسيح من العفو، لم يكن لأن تاركه مستحق للذم والعقاب، بل لأنه محروم مما يحصل للعافي المحسن من الأجر والثواب، وهذا حق لايناقض شرع التوراة.

فعلم أن شرع الإنجيل، لم يناقض شرع التوراة، إذ كان فرعا عليها، ومكملا لها.

وحينئذ، فزعمهم أن شرع الإنجيل شرعه الله، دون شرع التوراة، كلام مَنْ هو مِنْ أجهل الناس وأضلهم، ولهذا كان هذا فرعا على قولهم بالاتحاد، وأن المسيح هو الله.

فذاك الضلال، أوجب هذا القول المحال.

فصـــل

وجميع ما احتجوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما من كلام الأنبياء عليهم السلام، إنما تكون الحجة فيه علمية برهانية، إذا أقاموا الدليل على نبوة من احتجوا بكلامه، بأن بينوا إمكان النبوة، ثم تبينوا وقوعها في الشخص المعين بالطرق التي يستدل بها على نبوة النبي.

وهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل احتجوا بذلك، على أنها مقدمة مسلمة يسلمها المسلمون لهم، وهذا لاينفعهم لوجوه:

أحدها: ـ أن فيمن ذكروه، لم يثبت عند المسلمين أنه نبي، كحبقوق وعاموص

الثاني: ـ أن من ثبت عند المسلمين نبوته، كموسى، وعيسى، وداود

وسليمان ، لم يثبت عندهم أنهم قالوا جميع ما ذكروه من الكلام ، وأن ترجمته بالعربية هو ماذكروه ، وأن مرادهم به مافسروه .

الثالث : ـ أن جمهور المسلمين لايعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد إلا بإخبار محمد صلى الله عليه وسلم بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء ، إلا بعد التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا طلب هؤلاء من المسلمين أن يسلموا نبوة هؤلاء ، دون نبوة محمد ، لم يمكن المسلمون أن يسلموا ذلك لهم ، ولا يسوغ ذلك للمسلمين ، لا عقلا ولا نقلا .

وحينئذ فإذا لم يقيموا الأدلة على نبوة أولئك ، لم يكونوا قد ذكروا ، لاحجة برهانية ، ولاحجة جدلية .

الرابع : ـ أن المسلمين لم يصدقوا بنبوة موسى وعيسى ، إلامع إخبارهما بنبوة محمد .

فإن سلموا أنهما أخبرا بنبوة محمد ، ثبتت نبوته ونبوتهما .

وإن جحدوا ذلك ، جحد المسلمون نبوة من يدّعون أنه موسى وعيسى الذين لم يخبرا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الخامس : ـ أن المسلمين وكل عاقل ، يمتنع ـ بعد النظر التام ـ أن يقر بنبوة موسى وعيسى دون محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانت نبوته أكمل ، وطرق معرفتها أتم وأكثر .

وما من دليل يستدل به على نبوة غيره إلا وهو على نبوته أدل ، فإن جحد نبوته يستلزم جحد نبوة غيره بطريق الأولى .

ولكن من قال ذلك ، هو متناقض كما تناقض سائر أهل الباطل .

ولهذا قال تعالى فى الكفار : (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) [الذاريات الآيتان ٨ ، ٩] .

فصـــل

قد ذكرنا فى جواب أول كتابهم ، بيان امتناع احتجاجهم بشىء من كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام ، على ما يخالف دين المسلمين من دينهم .

ونحن نبسط هذا هنا فنقول : لاريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، لاعقلى ولاشرعى ، سواء كان من الخبريات أو الطلبيات ، فإن الدليل الصحيح يستلزم صحة المدلول عليه .

فلو قام على الباطل دليل صحيح ، لزم أن يكون حقاً مع كونه باطلا ، وذلك جمع بين النقيضين ، مثل كون الشىء موجوداً معدوماً .

وأهل الكتاب معهم حق فى الخبريات والطلبيات ، ومعهم باطل، وهو ما بدّلوه فى الخبريات ، سواء كان المبدل هو اللفظ أو معناه ، وما ابتدعوه ، أو ما نسخ من العمليات .

والمنسوخ الذى تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل .

فإن الذى اتفقت عليه ، هو الذى لا بد للخلق منه فى كل زمان ومكان ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [المائدة ٦٩] .

وعامة السور المكية ، كالأنعام والأعراف وال ، حم ، وال ، طس، وال آلر ، هى من الأصول الكلية التى اتفقت عليها شرائع المرسلين، كالأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والصدق والعدل والإخلاص، وتحريم الظلم والفواحش، والشرك والقول على الله بلا علم ، وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور . ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد صلى الله

عليه وسلم ، يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء .

ولهذا يذكر الله ذلك بياناً لإنعامه على محمد ودلالة لنبوته ، كقوله تعالى لما ذكر قصة مريم : — (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) [آل عمران الآيات ٤٢ — ٤٤] وقال تعالى — لما قص قصة نوح — (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود ٤٩] فذكر آلاءه ونعمته وآيته ، بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه أيضاً كانوا يعلمونها ، لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك .

وقد علم بالنقل المتواتر أن محمداً صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ، وبها نشأ بعد أن كان مسترضعاً في بادية سعد بن بكر ، قريباً من الطائف ، شرق مكة ، وهو صغير ، ثم حملته مرضعته حليمة السعدية إلى أمه بمكة ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك .

وأهل مكة يعلمون حاله ، وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له .

فكان من أعلام رسالته ، ودلائل نبوته عليهم ، أولا ، وعلى غيرهم آخراً ، فإنهم كانوا مشاهدين له ، يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد .

وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة : ويعلم أن قومه المكذبين له — مع حرصهم على الطعن فيه ، ومع علمهم بحاله — لو كان قد تعلم من أهل الكتاب ، لقالوا : هذا قد تعلمه منهم ، وقال تعالى : (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ

وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يونس ١٦]

والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه بياناً لآلاء الله التى هى آياته ونعمه ، فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه ، وفيه إنعام الله على الخلق بذلك .

وقال تعالى ـ لما ذكر قصة يوسف ـ : (ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) [يوسف ١٠٢]

وقال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) [القصص الآيات ٤٣ ، ٤٦] .

فنفى سبحانه شهوده لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها ، تنبيهاً للناس على أنه أخبر بالغيب الذى لم يشهده ولم يعرفه ، من جهة أخبار الناس ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ، ولا عاشر غير قومه .

وكل من عرف حاله ، يعلم أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك ، لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله ، فى باب أسماء الله ، وصفاته وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه ، مع العلم بأن فى هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ، ما يمتنع اتفاق اثنين عليه ، إلا عن مواطأة بينهما .

ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه ، لم يتواطئا ، بل لم يواطىء محمد

صلى الله عليه وسلم أحداً من الرسل قبله ، ولا واطئوه .

والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب فيه ، وإما أن يغلط .

فالكاذبان المتعمدان للكذب ، لا يتفقان فى القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة .

وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما فى مثل ذلك .

بل الاثنان من آحاد الناس ، إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة رآها وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة ، عرف صدقهما . فكيف بالأمور الغائبة : التى لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى ؟ فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وأما القدر الذى يخالف ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم مما ينقلونه عن الأنبياء ، فهو نوعان :

أحدهما : ماوقع فيه النسخ من الشرائع ، وهذا لا يعمه ، لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب ، نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية ، فإنه قليل جداً بالنسبة إلى ما لم ينسخ ، وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء ، إذا اعتبر ماأمر به محمد صلى الله عليه وسلم ، وجد عامة ذلك متفقاً لم ينسخ منه إلا القليل .

والثانى : - الخبريات ، وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمداً خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله ، وهذا باطل ، فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض ، إذ هم - كلهم - صادقون مصدقون .

فإن علم أن محمداً رسول الله وأن موسى رسول الله ، وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض .

لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر هذا ، فيكون فى أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره ، لا ما يناقض خبر غيره .

وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو ـ عامته ـ مما حرفوا معناه وتأويله ، وقليل منه حرف لفظه .

وأهل الكتاب — اليهود والنصارى — مع المسلمون متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها ، إما عمداً ، وإما خطأ فى ترجمتها وفى تفسيرها وشرحها وتأويلها .

وإنما تنازع الناس : هل وقع التحريف فى بعض ألفاظها ؟ فكل مايدعى مدع أن محمداً صلى الله عليه وسلم ناقضه فلابد له من أن يثبت مقدمتين ، إحداهما ثبوت ذلك اللفظ عن ذلك النبى ، والثانى ثبوت معناه .

وكل من احتج بنقل عن نبى ، فلابد له من هاتين المقدمتين ، الإسناد والمتن ، فلابد من ثبوت اللفظ ، ولابد له من ثبوت معنى اللفظ .

وإذا كان النقل ليس بلغة النبى ، بل بلغة أخرى . فلابد من الترجمة الصحيحة ، وعامة النصارى ، ليس عندهم كتب الأنبياء بلغة الأنبياء .

فإن موسى والمسيح ومن بينهما من أنبياء بنى إسرائيل ، إنما كانوا يتكلمون باللغة العبرانية .

والمسيح كان عبرانياً ، لم يتكلم بغير العبرانية ، وإنما تكلم بغيرها ، كالسريانية واليونانية والرومية بعض من اتبعه .

وجمهور النصارى لايعرفون بالعبرانية ، فلايحسنون أن يقرءوا بالعبرانية لاتوراة ولا إنجيلا ، ولاغير ذلك ، وإنما يتكلمون بذلك باللغة الرومية ، أو السريانية أوغيرها ، وإن كان فيهم قليل ممن يتكلم بالعبرانية .

بخلاف اليهود فإن العبرانية فاشية فيهم .

وحينئذ فمن احتج من أهل الكتاب بشىء من كلام الأنبياء المنقولة بالرومية والسريانية أو العبرانية ، فإنه يحتاج مع إثبات النقل إثبات الترجمة وصحتها ، فإنهم كثيراً مايضطربون فى الترجمة ويختلفون فى معناها .

فهذه مقدمات ثلاث ، لابد لهم منها فى كل ما يحتاجون من كلام الأنبياء ، ولو لم يدَّعُوا أنه معارض لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم .

فكيف إذا ادَّعُوا مناقضته لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟!

فإن قدر أنه ثبت أن نبياً أخبر بشىء . امتنع قطعاً أن يخبر محمد بنقيضه .

فإن فيما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً ماليس بثابت لفظه مثل بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وفيما ثبت لفظه ماليس معناه صريحاً فى المناقضة ، بل لا يدل على ذلك .

فكم ممن يفسر القرآن بما لا يدل عليه لفظ القرآن ، بل ولا قاله أحد من الصحابة ولا التابعين .

كمن يقول: إن شعيباً النبى كان هو حما موسى ، وليس فى القرآن والسنة وكلام الصحابة إلا مايدل على نقيض ذلك .

وكمن يقول : إن الرسل الذين أرسلوا إلى القرية كانوا من أتباع المسيح . وليس فى القرآن والمنقول عن الصحابة إلا مايدل على نقيض ذلك .

وأما ماعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر به ، فقد قامت الأدلة القاطعة اليقينية على صدقه وصدق ما أخبر به ، أعظم مما قامت على صدق غيره وصدق ماجاء به ، فمهما عارض ذلك علم أنه كذب على الأنبياء .

ولا يمكن أحداً من الخلق أن يذكر دليلا قطعياً على صحة ذلك النقل ، بل غايتهم أن يذكروا طريقاً ظنياً لا يفيدهم إلا الظن ، والظن لا يعارض اليقين .

فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يمكن صاحب النظر والاستدلال أن يعلمه علماً يقيناً ، لا يرتاب فيه .

وما يناقضه لاسبيل لأحد إلى العلم به ، ولا يتصور أن يقوم بقلبه منه إلا الظن والتقليد ، وكلاهما لا يناقضان العلم فهذا أصل جامع ، ثم العارف يعبر عنه

مع كل إنسان بحسب مايوصل معناه إلى ذلك المخاطب .

والمقصود هنا أن يقال: كل مايحتجون به على مخالفات ماثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم لايمكن أن يقوم لهم عليه دليل ، لاشرعى ولا عقلى ، وهذا نعلمه مجملا .

ونحن نبين ذلك مفصلا فنقول : مايحتجون به إما أن يكون حجة عقلية ، وإما أن يكون سمعية .

أما العقليات ؛ فمعلوم أن الحجج العقلية الدالة على فساد ماتقوله النصارى ، أظهر مما يحتجون به على صحة دينهم .

ومن احتج منهم ، أو من اليهود بحجة عقلية على مخالفة شيء من دينه فلها أجوبة .

أحدها : ـ أن يبين أن ذلك يلزم غيره من الأنبياء ، فإنهم جاءوا بذلك أو بأعظم منه .

فلايقدح أحد بحجة عقلية فى محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا كان ذلك قد جاء بطريق الأولى فى غيره من الأنبياء ، كما بينا فى الرد على الرافضة ، أنه لا يقدح أحد فى الخلفاء الثلاثة . أبى بكر وعمر وعثمان إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه ، فى عَلِيّ ، فيمتنع أن يكون علىّ سليما من القوادح فى إمامته إلا والثلاثة أسلم منه مما يقدح فى إمامتهم .

ويمتنع أن يكون موسى وعيسى وداود برآء مما يقدح فى نبوتهم ، إلا ومحمد أبرأ مما يقدح فى نبوته .

وهكذا كما إذا احتج محتج بما فى القرآن من آيات الصفات ؛ فيقال له : فى التوراة وغيرها من كتب الأنبياء مثل ذلك وأعظم .

وإذا احتج بإنزال المتشابهات ، فيقال له : فى الكتب المتقدمة من المتشابهات أعظم مما فى القرآن .

وهل ضلّت النصارى إلا باتباع المتشابهات من كلام الأنبياء وترك المحكم ؟

والثانى : — أن يبين أن مثل تلك الحجة لاتصلح أن يعارض بها ماجاءت به الأنبيـاء كما إذا أخذ بعض الناس يطعن فى شىء من الشرائع بالرأى ، بُيّنَ له أن ماثبت عن الأنبياء لا يعارض برأى ولا قياس .

الثالث : — أن يبين فساد تلك الحجة العقلية .

إن كانت من باب الخبريات بُيِّن فسادها كما قد بسطنا القول فى ذلك فى كتاب « رد تعارض العقل والشرع » وذكرنا أن جميع مايحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليـات ، فإنه باطل فذكرنا مايعتمد عليه النفاة فى هذا الباب .

وإن كان من باب الطلبيات . فهى من باب الأمر والنهى .

فمن كان مذهبـه أنه لا يبطل أحكام الله ، ولا يقول بأن حسن الأفعال وقبحها يعلم بالعقل ، ولا ينزه الله عن فعل ، ولا عن حكم ، بل يجوز عليه كل شىء . وإنما ينفى ذلك بالخبر السمعى أو العادة ، فهـذا يجيب بهذا الجواب ، لكن عامة القلوب والعقول لاتقبل هذا .

وأما على قول الجمهور ، فيبين ما فى مأموراته من الحِكَمِ والمصالح ، وما فى منهياته من المفاسد والضرر ، ويبين رجحان ماجاء فيه على مايعارض به ، بل ويبين رجحان شرائع الأنبياء على سياسات سائر الأمم ، ويبين رجحان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الشرائع ، وهذا مبسوط فى مواضع .

وأما إذا احتج أهل الكتاب فى مناقضة محمد صلى الله عليه وسلم بحجة سمعية سواء كانت من كلامه . أو كلام غيره من الأنبياء عليهم السلام ، كان الجواب من وجوه .

أحدها : ـ أن يقال لهم : لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبى من الأنبياء مع

التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنكم لا يمكنكم أن تحتجوا بكلام أحد من الأنبياء حتى تثبت نبوته .

والطريق التى بها تثبت نبوة الأنبياء تثبت نبوة محمد بمثلها وبأعظم منها .

بل نحن نبين أن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره ، لأن كل مايستدل به على نبوة نبى ، فمحمد صلى الله عليه وسلم أحق بجنس ذلك الدليل من غيره ؛ ومايعارض به نبوة نبى . فالجواب عن محمد صلى الله عليه وسلم أولى من الجواب عن غيره .

فهو مقدم فيما يدل على النبوة وفيما يجاب به عن المعارضة ، وهو أكمل فى ذلك . فيمتنع عن العلم والعدل أن يصدق بنبوة غيره مع التكذيب بنبوته ، كما يمتنع مع العلم والعدل فى كل اثنين ، أحدهما أكمل من الآخر فى فن، أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل .

وقولنا مع العلم والعدل ، لأن العالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضول. والجاهل قد يعرف المفضول ولا يعرف الفاضل .

فإن كثيراً من الناس يعلمون فضيلة متبوعهم إما فى العلم أو العبادة ، ولا يعرفون أخبار غيره حتى يوجد أقوام يعظمون بعض الأتباع دون متبوعه الذى هو أفضل منه عند التابع وغيره لا يعرفونه ، فهؤلاء ليس عندهم علم ، ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء يرجح المفضول، لعدم العلم بأخبار الفاضل .

وهذا موجود فى جميع الأصناف ، حتى فى المدائن يفضل الإنسان مدينة يعرفها على مدينة هى أكمل منها ، لكونه لا يعرفها .

والحكم بين الشيئين بالتماثل أو التفاضل ، يستدعى معرفة كل منهما ؛ ومعرفة ما اتصف به من الصفات التى تستدعى التماثل والتفاضل .

كمن يريد أن يعرف أن البخارى أعلم من مسلم، وكتابه أصح ، أو أن سيبويه أعلم من الأخفش . ونحو ذلك .

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) وقال تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) .

والكلام في شيئين ، أحدها ، في كون المفضول يستحق تلك المنزلة دون الفاضل ، وهذا غاية الجهل والظلم .

كقول الرافضة الذين يقولون : إن علياً كان إماماً عالماً عادلا ، والثلاثة لم يكونوا كذلك .

وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون : إن موسى كان رسولا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك ، فإن هذا في غاية الجهل والظلم .

بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين المنزلة ، ولكن فضل المفضول ، فهذا أقل جهلا وظلماً .

ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون ، تارة في الكتب المنزلة عليهم ، وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل ، وتارة في أممهم .

فمن عنده علم وعدل ، فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب ، كالتوراة ، والإنجيل . أو في معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعجزات غيره ، أو في شريعته ، وشريعة غيره ، أو في أمته وأمة غيره ، وجد من التفضيل على غيره مالا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم .

فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر ، وغيره هو النبي الصادق ؟!

نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره مايبين لهم ذلك ، كما أن كثيراً من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم على علي رضي الله عنه .

فهؤلاء فى الجهل . وطلب العلم عليهم فرض ، خصوصاً أمر النبوة .

فإن النظر فى أمر من قال: « إنى رسول الله إليكم » مقدم على كل شيء ، إذ كان التصديق بهذا مستلزماً لغاية السعادة والتكذيب به مقتضياً لغاية الشقاوة

فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء ، وبين الحق والباطل ، والهدى والضلال . والفرق بين أولياء الله وأعدائه .

وكما يسلك هذه الطريق العقلية فى القياس والاعتبار، بأن يعتبر حال محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه وشرعه وأمته ، بحال غيره وكتابه وشرعه وأمته، وينظر: هل هما متماثلان أو متفاضلان ؟ وأيهما أفضل ؟

وإذا تبين أن حاله أفضل ، كان تصديقه أولى ، وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب .

بل لو كانا متماثلين ، لوجب كونه صادقا ، بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل .

فإن المتنبى الكذاب لا يقارب الصادق ، بل بينهما من التباين ، ما لا يخفى إلا على أعمى الناس .

فكذلك يسلك هذا الطريق فى جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وأممهم ، بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأممهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج ٤٦] وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف ١٠٩] وقال تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ *

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف الآيات ١٠٩ ، ١١١] .

وقال تعالى ـ لما ذكر آل فرعون ـ : (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) [القصص ٤٢] ، وكذلك قال تعالى عن عاد : (وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) [هود ٦٠] وقال تعالى عن قوم شعيب : (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) .

وإذا ذكر الأنبياء عليهم السلام . قال تعالى : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ) وقال تعالى : (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ، ومثل هذا فى القرآن كثير ، فيذكر من حال الأنبياء وأتباعهم وما حصل لهم من الكرامة ، وما حصل للكفار بهم من الخزى والعذاب ، وحسن حال هؤلاء ، وقبح حال هؤلاء .

ومما يوضح ذلك أن من اعتبر حال أهل الملل : من المسلمين والنصارى ، وحال غيرهم فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، تبين أن حال أهل الملل أكمل بما لا يحصى .

وإذا نظر ما عند غير أهل الملل ، من الحكمة العلمية والعملية كحكمة الهند واليونان ، والعرب فى الجاهلية والفرس وغيرهم ، وجد ما عندهم بعض ما عند أهل الملل ، من الحكمة العلمية والعملية .

فيمتنع أن يكون علماء اليونان والهند ونحوهم ، على حق وهدى ، وعلماء المسلمين واليهود والنصارى على باطل وضلال .

وكذلك يمتنع أن تكون تلك الأمة لها علم نافع وعمل صالح ، وأهل الملل ليسوا كذلك .

فني الجملة لايوجد فى غير أهل الملل من علم نافع وعمل صالح ، عن حكمة علمية وعملية ، إلا وذلك فى أهل الملل أكمل .

ولا يوجد فى أهل الملل شر ، إلا وهو فى غيرهم أكثر .

وهؤلاء فلاسفة اليونان، الذين قد شهروا عند كثير من الناس باسم الحكمة.

وحكمتهم كحكمة سائر الأمم ، نوعان : نظرية وعملية .

والعملية فى الأخلاق ، وسياسة المنزل ،وسياسة المدائن .

وكل من تأمل ما عند اليهود والنصارى ، بعد النسخ والتبديل، من سياسة الأخلاق والمنزل والمدائن ، وجده خيراً مما عند أولئك بأضعاف مضاعفة .

فإن أولئك عمدة أمرهم ، الكلام على قوى النفس الشهوية والغضبية ، وقوى العلم والعدل، كأمور من جنس آداب العقلاء ،ليس عندهم من معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن عبادته وحده لاشريك له ، شيء له قدر .

والذى عندهم من العلوم الطبيعية والحسابية ، ليس مما ينفع بعد الموت إلا أن يستعان به على ما ينفع بعد الموت .

والذى عندهم من العلم الإلهى قليل جداً ، مع ما فيه من الخطأ الكبير .

وكل ما عندهم من علم نافع وعمل صالح ، فهو جزء مما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

فيمتنع أن يكون هؤلاء المسلمون بالحكماء وأتباعهم ، على حق فى الاعتقاد ، وصدق فى الأقوال ، وخير فى الأعمال ، كما هو غاية مطلوبهم .

والأنبياء وأتباعهم ، ليسوا كذلك .

واعتبر ذلك بمن تعرف من خاصة هؤلاء وعامتهم ، وخاصة هؤلاء وعامتهم وإن كان بينهما من التفاوت ، كما بين أهل الجنة والنار .

فالاعتبار فى مثل ذلك ، بما جاء به التنزيل . قال تعالى: (آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) والمقصود أنه بالاعتبار والقياس العقلى والموازنة . توزن الشىء بما يناظره ، وتعتبر به قياس الطرد ، وقياس العكس .

فيظهر لكل من تدبر ذلك أن أهل الملل أولى بالحق والصدق والخير من غيرهم ، وإن كان لأولئك من الحكمة ما يناسب أحوالهم .

وحكماؤهم أفضل من عوامهم ، وهم خير من الكفار بالرسل الذين ليس لهم من الحكمة مالهم ، وهذا مما استفادوه أتباع الأنبياء منهم ، فيكون هذا من دلائل نبوتهم وأعلام رسالتهم ، استدلالا بالأثر على المؤثر ، وبالمعلول على علته .

وكذلك من تدبر حال المسلمين وحال اليهود والنصارى ، تبين له رجحان حال المسلمين ، فيكون هذا من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعلام رسالته .

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن النبوة تعلم بطرق كثيرة وذكرنا طرقاً متعددة فى معرفة النبي الصادق والمتنبى الكذاب ، غير طريق المعجزات .

فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشىء ، يسر الله أسبابه ، كما يسر ما كانت حاجتهم إليه فى أبدانهم أشد .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم، منها إلى الماء ، كان مبذولا لكل أحد فى كل وقت .

ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت ، كان وجود الماء أكثر لذلك .

فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم ، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها .

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك ، أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك ، أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم ، وشواهد نبوتهم ، وحسن

حال من اتبعهم وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح ، وقبح حال من خالفهم وشقاوته وجهله وظلمه ، ما يظهر لمن تدبر ذلك (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور : ٤٠] .

وهذا الذى ذكرناه ، من اعتبار الشيء بنظرائه وموافقيه وأشباهه ، واعتباره بأضداده ومخالفيه ، حتى يعرف فى المتشابهين أيهم أكمل وأفضل ، وفى المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى ، والعدل موجود فى سائر الأمور علمها وعملها ، كعلم الطب والحساب والنحو والفقه وغير ذلك ، فيمتنع ـ مع العلم والعدل ـ أن يقال : جالينوس كان طبيباً ، وأبقراط لم يكن طبيباً ، أو أن يقال: الأخفش كان نحوياً ، وسيبويه لم يكن نحوياً ، أو أن زفر والحسن بن زياد ، ويونس بن خالد السمتى كانوا فقهاء ، وأبو حنيفة لم يكن فقيهاً ، أو أن أشهب ، وابن القاسم ، وابن وهب كانوا فقهاء ، ومالك لم يكن فقيها ، أو أن المزنى والبويطى والربيع كانوا فقهاء ، والشافعى لم يكن فقيهاً ، أو أن أبا داود وإبراهيم الحربى وأبا بكر الأثرم كانوا فقهاء ، وأحمد بن حنبل لم يكن فقيهاً ، أو أن علياً كان إمام عدل وأبو بكر وعمر لم يكونا إمامى عدل ، أو أن نور الدين الشهيد كان عادلا ، وعمر بن عبد العزيز لم يكن عادلا ، أو أن كوشيار كان يعلم الهيئة وبطليموس لم يكن يعرف الهيئة ، أو أن أبا على بن الهيثم كان يعرف علم الهندسة وإقليدس لم يكن يعرف ذلك ، أو أن النابغة الجعدى كان شاعراً ، والنابغة الذبيانى لم يكن شاعراً ، أو أن يقال : إن القمر مستنير ، والشمس ليست مستنيرة ، أو أن عطارد نجم ثاقب ثقب ضوءه ، والمشترى ليس بنجم ثاقب ، أو أن مسلماً كان عالماً بالحديث ، والبخارى لم يكن كذلك ، أو أن كتابه أصح من كتاب البخارى . ونحو ذلك مما يطول تعداده .

فصـــل

والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم، وهو أن منهم من يقول: «محمد لم تبشر به النبوات، بخلاف المسيح فإنه بشرت به النبوات».

وزعموا أن من لم تبشر به، فليس بنبي.

وهذا السؤال يورد على وجهين:

أحدهما: ـ أنه لايكون نبياً حتى يبشر به.

والثاني: ـ أن من بشرت به أفضل أو أكمل، ممن لم تبشر به، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح، اختص به.

وأنتم قد قلتم: مامن طريق تثبت به نبوة نبي إلا ومحمد تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل.

فأما هذا الثاني، فيستحق الجواب، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضاً لكن هل يجب الإجابة عنه؟ فيه قولان، بناء على أصل.

وهو، أنه: ـ هل من شرط النسخ الإشعار بالمنسوخ؟ ولنظار المسلمين فيه قولان:

أحدهما: ـ أنه لابد إذا شرع حكما يريد أن ينسخه، فلابد أن يشعر المخاطبين بأنى سأنسخه، لئلا يظنوا دوامه، فيكون ذلك تجهيلا لهم.

والثاني: ـ لايشترط ذلك.

وأيضاً، فمن بعث بعد موسى بشريعة، هل يجب أن يكون مبشراً به؟ فيه قولان.

وبكل حال، فلاريب عند علماء المسلمين أن المسيح عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) الآية [الصف: ٦]، وقال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) [الأعراف ١٥٧] وقال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) [الفتح ٢٩] وقال تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) [البقرة ١٤٦] و [الأنعام: ٢٠] فى موضعين من القرآن، أحدها فى التوحيد أو القرآن، والآخر فى القبلة، والقرآن ومحمد.

فقال فى الأول: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ: لاَ أَشْهَدُ قُلْ: إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام الآيتان ١٩، ٢٠] وهذا فى سورة الأنعام، وهى مدنية.

وقال فى سورة البقرة وهى مدنية: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ

إذاً لمن الظالمين * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) [البقرة الآيات : ١٤٤ ، ١٤٧] وقال تعالى: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) [البقرة ٨٩] قال تعالى : (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) [الأنعام ١١٤] وقال تعالى : (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟) وقال تعالى : (كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقال تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) الآية [المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) [الإسراء ١٠٧، ١٠٨] وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) [القصص ٥٢ ، ٥٤] وقال تعالى : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) الآية [يونس ٩٤] .

وإذا كان كذلك، فيقال : معلوم باتفاق أهل الملل ، أنه ليس من شرط نبوة كل نبي ، أن يبشر به من قبله ، إذا النبوة ثابتة بدون ذلك، لاسيما ونوح وإبراهيم وغيرهما ، لم يعلم أنه بشر بهما من قبلهما ، وكذا عامة الأنبياء الذين

قاموا فى بنى إسرائيل ، لم يتقدم لهم بشارات ، إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة ، كداود وأشعيا وغيرهما .

وإنما قد يُدَّعَى هـذا ، فيمن جاء بنسخ بعض شرع من قبله ، كما جاء المسيح بنسخ بعض أحكام التوراة ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم .

ففى مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم : هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ على قولين .

وحينئذ فنقول : فالمسلمون يقولون : شريعة التوراة والإنجيل لم تشرع شرعا مطلقاً ، بل مقيداً ، إلى أن يأتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مثل الحكم الموقت بغاية لا يعلم متى يكون ، كقوله تعالى : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) وقال تعالى : (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) ومثل هذا جائز باتفاق أهل الملل .

وهل يسمى هذا نسخاً ؟ فيه قولان :

قيل : لا يسمى نسخاً ، كالغاية المعلومة . كقوله تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) فإن ارتفاع وجوب الصيام بمجىء الليل ، لا يسمى نسخاً باتفاق الناس .

فقيل إن الغاية المجهولة ، كالمعلومة .

وقيل : بل هذا يسمى نسخاً ، ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل ، اليهود وغيرهم .

وعلى هذا فثبوت نبوة المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما لا تتوقف على جواز النسخ المتنازع فيه ، فإن ذلك إنما يكون فى الحكم المطلق ، والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقاً .

وسواء قيل : إن الإشعار بالناسخ واجب ، أو قيل : إنه غير واجب ، فعلى

القولين قد أشعر أهل الشرع الأول ، بأنه سينسخ .

فإن موسى بَشَّرَ بالمسيح ، وكذلك غيره من الأنبياء .

وموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء بشّروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان هذا هو الواقع . فنبوة المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم ، لاتتوقف على ثبوت النسخ المتنازع فيه .

وحينئذ فنقول : العلم بنبوة محمد ونبوة المسيح لاتتوقف على العلم بأن من قبلها بَشَّرَ بهما ، بل طرق العلم بالنبوة متعددة .

فإذا عرفت نبوته بطريق من الطرق ، ثبتت نبوته عند من علم ذلك وإن لم يعلم أن من قبله بَشَّرَ به .

لكن يقال : إذا كان الواجب أو الواقع ، أنه لابد من إخبار مَنْ قبله بمجيئه ، وأن الإشعار بنسخ شريعته مَنْ قبله واجب أو واقع ، صار ذلك شرطاً في النبوة ، ومن علم نبوته ، علم أن هذا قد وقع ، وإن لم ينقل إليه .

فإذا قال المعارض : عدم إخبار مَنْ قبله به ، قد يقدح في نبوته ، فإنه إذا قُدِّر أنه لم يخبر به من قبله والإخبار شرطاً في النبوة ، كان ذلك قدحا .

قيل : الجواب هنا من طريقين :

أحدها : أن يقال : إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة ، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازماً لنبوته ، واجباً أو واقعاً ، وإما أن لايكون لازماً :

فإن لم يكن لازما لم يجب وقوعه وإن كان لازماً علم أنه قد وقع .

وإن كان ذلك لم ينقل إلينا . إذ ليس كل ماقالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا .

وليس كل ما أخبر به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء ، وصل إلينا وهذه مما يعلم بالاضطرار .

ولو قُدِّر أن هذا ليس فى الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومَنْ قبله لم يذكروه ، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل . ويمكن أنه كان فى كتب غير هذه الكتب . ويمكن أنه كان فى نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها ونسخت هذه مما أزيل منه وتكون تلك النسخ التى هو موجود فيها غير هذه ؛ فكل هذا ممكن فى العادة لا يمكن الجزم بنفيه .

فلو قُدِّر أنه ليس فى هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب ، لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به .

فإذا لم يمكن اليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم تبشر به الأنبياء ، لم يكن معهم علم بعدم ذلك ، بل غاية مايكون عند أحدهم ظن ، لكونه طلب ذلك ، فلم يجده .

ودلائل نبوة المسيح ومحمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن ، فإن الظن لا يدفع اليقين ، لاسيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمداً كان مكتوباً باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء ، كما فى صحيح البخارى أنه قيل لعبد الله ابن عمرو : «أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال : إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا تجزى بالسيئة السيئة ، ولكن تجزى بالسيئة الحسنة ، وتعفو وتغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صما ، وقلوباً غلفا ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله » .

ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور ، قد يراد به الكتب المعينة ، ويراد به الجنس ، فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره ، كما فى الحديث الصحيح

عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خُفِّفَ على داود القرآن ، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن » والمراد به قرآنه ، وهو الزبور ، ليس المراد به القرآن الذى لم ينزل إلا على محمد .

وكذلك ماجاء فى صفة أمة محمد « أناجيلهم فى صدورهم » فسمى الكتب التى يقرؤونها ـ وهى القرآن ـ أناجيل .

وكذلك فى التوراة « إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى » فسمى الكتاب الثانى توراة .

فقوله : « أخبرنى بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة » قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها ، وكلها تسمى توراة ، ويكون هذا فى بعضها .

وقد يراد به التوراة المعينة ، وعلى هذا فيكون هذا فى نسخة لم تنسخ منها هذه النسخ ؛ فإن النسخ الموجودة بالتوراة التى وقفنا عليها ، ليس فيها هذا .

لكن هذا عندهم فى نبوة أشعيا قال فيها : « عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى . ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه ، لا أعطى أحدا ، يحمد الله حمداً جديداً ، يأتى من أقصى الأرض ، وتفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى مشتح ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفى . أثر سلطانه على كتفيه » .

وهذه صفات منطبقة على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، وهى من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به .

ولفظ التوراة ، قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التى يُقرُّ بها أهل الكتاب ، فيدخل فى ذلك الزبور ، ونبوة أشعيا ، وسائر النبوات غير الإنجيل .

فإن كان المراد بلفظ التوراة والإنجيل فى القرآن هذا المعنى ، فلاريب أن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة بهذا الاعتبار، كثير متعدد ظاهر ، كما سنبين بعضه .

وحينئذ فتكون التوراة فى قوله : ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ متناولة لجنس الكتب التى يُقِرُّ بها أهل الكتاب .

ولفظ الإنجيل يختص بما عند النصارى ولهذا لم يذكركونه فى الزبور مع أنه مذكور فيه ، إذ كان مندرجا فى لفظ التوراة .

الطريق الثانى من الجواب : ـ أن نبين أن الأنبياء قبله ، بَشَّرُوا به .

وهذا هو دليل مستقل على ثبوته ، وعَلَمٌ عظيم من أعلام رسالته .

وهذا أيضاً ، يدل على نبوة ذلك النبى إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة ، ويدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لإخبار من تثبت نبوته بنبوته .

هذا إذا وجد الخبر ممن لا نعلم ثبوته ، ولم يذكر فى كتابنا .

وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى ، كموسى والمسيح ، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة على المدلول الواحد ، وهو أيضاً يتضمن أن كل ماثبتت به نبوة غيره ، فإنه تثبت به نبوته ، وهو جواب ثان ، لمن يجعل ذلك شرطاً لازماً لنبوته .

فصــــــل

ثم العلم بأن الأنبياء قبله ، بشروا به يعلم من وجوه :

أحدها : ـ ما فى الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب من ذكره .

الثانى : ـ إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها ، من كتب أهل الكتاب ، ممن أسلم ، وممن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها .

وهذا مثل ماتواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب ، كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنه رسول الله ، وأنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه وكانوا

هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه، من غير رهبة ولا رغبة .

ولهذا قيل : إن المدينة فتحت بالقرآن ، لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها .

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب فى القرآن قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) [البقرة ٨٧ ، ٩٠]

ومثل ما تواتر عن أخبار النصارى بوجوده فى كتبهم ، مثل إخبار هرقل ملك الروم ، والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية، والنجاشى ملك الحبشة، والذين جاءوه بمكة ، وقد ذكر الله عنهم فى القرآن فى قوله عن اليهود « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به».

وقال عن النصارى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [المائدة ٨٣] وقوله : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا)؛ [القصص ٥٢ ، ٥٣]

وقال ابن إسحق : حدثنى محمد ابن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه » .

فقال معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة ، يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته » .

فقال سلام بن مشكم ، أخو بنى النضير : ماجاءنا شيء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكر لكم » ،

فأنزل الله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [البقرة : ٨٩] .

وقال أبو العالية وغيره : كانوا — يعنى اليهود — إذا استنصروا بمحمد على مشركى العرب يقولون : « اللهم ابعث هذا النبى الذى تجده مكتوباً عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم » .

فلما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآيات (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) .

وروى ابن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، ثم الظفرى ، عن رجال من قومه قالوا : « ومما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل الكتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض مايكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » فكنا كثيراً مانسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به

ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات التى فى البقرة « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

قال ابن إسحاق : وحدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حدثنا يحيى بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارى قال : حدثنى من شئت من رجال قومى عن حسان بن ثابت الأنصارى قال : « والله إنى لغلام يفعة ، ابن سبع سنين أو ثمان سنين ، أعقل كل ماسمعت إذ سمعت يهوديا يقول على أطم يثرب ، يصرخ : « يامعشر اليهود » فلما اجتمعوا عليه قالوا : « مالك ويلك ؟ » قال : « طلع نجم أحمد الذى يبعث الليلة » .

وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة قال : «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُرْدِفِىّ . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم حارٍّ من أيام مكة ، حتى إذا كنا بأعلى الوادى ، لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا ابن عمرو مالى أرى قومك قد شنفوك ؟ »

قال : أما والله ، إن ذلك لغير مأثرة كانت منى فيهم ، ولكن أراهم على ضلال .

فخرجت أبتغى هذا الدين ، فأتيت إلى أحبار يثرب ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ماهذا بالدين الذى أبتغى » .

فخرجت حتى آتى أحبار خيبر ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ماهذا بالدين الذى أبتغى » .

فقال لى حبر من أحبار الشام « إنك لتسأل عن دينٍ مانعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة .

فخرجت ، فقدمت عليه فأخبرته بالذى خرجت له ، فقال : «إن كل من رأيت فى ضلالة ، ممن أنت ؟

قال : قلت أنا من أهل بيت الله ، ومن أهل الشوك والقرظ .

فقال: إنه قد خرج فى بلدك نبى ، أوخارج قد خرج نجمه ، فارجع فصدّقه واتبعه، وآمن به ، فرجعت فلم أحس شيئاً بعد ، قال: فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره فقدمنا إليه السفرة .

قال زيد : ما أ كل شيئاً ذبح لغيرالله ، فتفرقا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاف بالبيت .

قال زيد: وأنا معه ، وكان صنمان من نحاس يقال لهما « أساف » و « نائلة » مستقبل الكعبة ، يتمسح بهما الناس إذا طافوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمسهما ، ولا تمسّح بهما » .

قال زيد : فقلت فى نفسى ، وقد طفنـا ، لأمسهما حتى أنظر مايقول ، فمسستهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. « ألم تنهه ؟ » فلاوالذى أكرمه، مامسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب . ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه يبعث أمة وحده » .

وروى البخارى حديث خروج زيد بن عمرو قريباً من هذا اللفظ .

وقال ابن إسحاق حدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقش ، قال « كان بين أبياتنا يهودى ، فخرج على بادي قومه بنى عبد الأشهل ذات غداة ، فذكر البعث والقيـامة ، والجنة والنار ، والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد موت ، وذلك قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : « ويحك يافلان » أو « ويلك » وهذا كائن ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون من أعمالهم ؟

قال : نعم والذى يحلف به، لوددت أن حظّى من تلك النار ، أن يوقدوا

أعظم تنور فى داركم ، فيحمونه ، ثم يقذفونى فيه ، ثم يطينون علىّ ، وإنى لأنجو من تلك النار غداً .

فقيل : يا فلان ، فما علامة ذلك ؟

قال : نبي يبعث من ناحية هذه البلاد ، وأشار إلى مكة واليمن بيده .

قالوا : فمتى نراه ؟

فرمى بطرفه فرآنى وأنا مضطجع بفنايات أهلى وأنا أحدث القوم فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله وإنه لحى بين أظهرهم ، فآمنا به وصدقناه ، وكفر به بغياً وحسدا .

فقلنا له : يا فلان، ألست الذى قلت ماقلت ، وأخبرتنا ؟ قال: ليس به» .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فمرض ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يايهودى أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة صفتى ومخرجى ؟ » قال: لا .

قال الفتى : بلى والله يارسول الله إنا نجد فى التوراة نعتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أقيموا هذا من عند رأسه وَلُوا أخاكم» رواه البيهقى بإسناد صحيح .

وقال ابن إسحق: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال : هل تدرى عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابنى سعيد ، وأسد بن عبيد ، نفر من بنى هذيل ، لم يكونوا من بنى قريظة ، وبنى النضير، كانوا فوق ذلك؟

فقلت: لا ، قال : فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له :

ابن الهيبان ، فأقام عندنا ، والله مارأينا رجلا قط لا يصلى الخمس خيراً منه فقدم علينا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وكنا إذا أقحطنا وقلّ علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان ، اخرج فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة فنقول: كم ؟ فيقول: « صاعاً من تمر مُدَّيْن من شعير » فنخرجه ، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه ، فنستقى ، فوالله مايقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة .

فحضرته الوفاة واجتمعوا إليه فقال: يامعشر يهود ماترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قالوا : أنت أعلم . قال : فإنه إنما أخرجنى توقع خروج نبي قد أظل زمانه هذه البلاد ومهاجره ، فاتبعوه ولا تُسْبَقُنَّ إليه إذا خرج . يامعشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وسَبْيِ الذرارى والنساء ممن خالفه ، ولا يمنعنَّكم ذلك منه » ثم مات .

فلما كان الليلة التى فتحت فيها قريظة ، قال أولئك الثلاثة الفتية ، وكانوا شباناً أحداثاً : يامعشر يهود والله إنه الذى ذكر لكم ابن الهيبان .

فقالوا : ماهو به . قالوا : « بلى والله إنه لصفته » ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم .

قال ابن إسحق : فلما فتح الحصن ، رد ذلك عليهم.

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب ، لما حدثه عن هرقل وقد تقدم حديثه فى أول الكتاب وذكر فيه : أن هرقل لماسأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يكن ماتقول فيه حقاً ، إنه لنبي . وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

وزاد البخارى فى حديثه ، وقال ابن الناظور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فنظر فقال : إن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هـذه الأمة ؟

قال : تختتن اليهود فلا يهمنك شأنهم ، وابعث إلى من فى مملكتك من اليهود فيقتلونهم .

ثم وجدنا إنساناً من العرب فقال: انظروا ، أمختتن هو؟ فنظروا ، فإذا هو مختتن .

وسأله عن العرب فقال: يختتنون .

وقال فيه : وكان برومية صاحب له ، كان هرقل نظيره فى العلم ، فأرسل إليه وسار إلى حمص ، فلم يرم من حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى .

وكذلك النجاشى ملك الحبشة ، لما هاجر الصحابة إليه ، لما أذاهم المشركون ، وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم ، وقرءوا عليه القرآن ، قال : فأخذ عوداً بين إصبعيه فقال : ماعدا عيسى ابن مريم ماقلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته فقال : وإن نخرتم ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، يعنى أنتم آمنون .

وقال هذا ، لأن قريشاً أرسلوا هدايا إليه وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين وقالوا : «هؤلاء فارقوا ديننا ، وخالفوا دينك ، الحديث» رواه أحمد وغيره .

وفى الصحيحين حديث ورقة بن نوفل الذى ترويه عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى قالت : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد إلى أن قالت : فأتت به خديجة ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال ورقة : « هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ليتنى جذعاً أنصرك نصراً مؤزراً إذ يخرجك قومك ، قال: أَوَ مُخرِجِيَّ هم ؟ قال: نعم. لم يأت أحد بمثل ماجئت

به إلا عُودِيَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » ثم لم ينشب ورقة أن توفى » .

وقال ابن إسحق : وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك ـ وهو بمكة ـ من النصارى ، حين ظهر خبره بالحبشة ، فوجدوه فى المجلس فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم .

فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن .

فلما سمعوا ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقال: خيّبكم الله من رَكْبٍ ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم رَكْباً أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم .

فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

ويقال : فيهم نزل قوله تعالى : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) الآية .

وعن محمد بن عمر بن سعيد بن محمد بن جبير : حدثتنى جدتى أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : سمعت أبى جبيراً يقول : « لما بعث الله نبيه ، وظهر أمره بمكة ، خرجت إلى الشام ، فلما كنت ببصرى ، أتتنى جماعة من النصارى ، فقالوا لى : أمن الحرم أنت ؟ قلت : نعم ، قالوا : فتعرف هذا الذى تنبأ فيكم ؟ قلت : نعم قال : فأخذوا بيدى فأدخلونى ديراً لهم ، فيه تماثيل وصُوَر ، فقالوا لى : انظر

هل ترى صورة هذا النبي الذي بعث فيكم ؟ فنظرت فلم أر صورته قلت : لا أرى صورته .

فأدخلوني ديراً أكبر من ذلك الدير، فيه صوراً أكثر مما في ذلك الدير ،

فقالوا لي : انظر هل ترى صورته ؟ فنظرت ، فإذا أنا بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصورته ، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لي : انظر هل ترى صفته ؟ قلت : نعم . قالوا : هو هذا ؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : اللهم نعم . أشهد أنه هو .

قالوا : أتعرف هذا الذي أخذ بعقبه ؟ قلت : نعم .

قالوا : نشهد أن هذا صاحبكم ، وأن هذا الخليفة من بعده » رواه البخاري في تاريخه ، وقال فيه : « قال الذي أراه الصور لم يكن نبي إلا كان بعده نبي ، إلا هذا النبي » ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة .

وروى موسى بن عقبة أن هشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، ورجلا آخر ، قد سماه ، بعثوا إلى ملك الروم زمن أبي بكر ، قال : فدخلنا على جبلة ابن الأيهم وهو بالغوطة ، فذكر الحديث وأنه انطلق بهم إلى الملك وأنهم وجدوا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا ، فاستخرج منه خرقة حرير سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وذكر صفة آدم ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة وفيها صورة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم أراهم حريرة فيها صورة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : هذا آخر الأبواب لكني عجلته لأنظر ما عندكم ، ثم فتح أبوابا أخر وأراهم صورة بقية الأنبياء ، موسى ، وهرون وداود وسليمان وعيسى ابن مريم عليهم السلام ، وصفة لوط ، وصفة إسحاق ، وذكر أن هذا عندهم قديما من عهد آدم ، وأن دانيال صورها بأعيانها .

وروى مثل هذا عن المغيرة بن شعبة ، أنه لما دخل على المقوقس ملك

مصر والإسكندرية ملك النصارى ، أخرج له صور الأنبياء ، وأخرج له صورة نبينا صلى الله عليه وسلم فعرفها .

والوجه الثالث : — نفس إخباره بذلك فى القرآن مرة بعد مرة ، واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور فى كتبهم ، مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً فى كتبهم ، فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر ، أنه كان من أعقل أهل الأرض ، فإن المكذبين له ، لا يشكون فى أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ، ما أوجب أن يقيم مثل هـذا الأمر العظيم ، الذى لم يحصل لأحد مثله ، لا قبله ولا بعده ، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به ، وهو من أحرص الناس على تصديقه ، وأخبرهم بالطرق التى يصدق بها . وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به .

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم ، بل علم انتفاء ذلك ، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه ، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلا ، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم ، وعند من يخبرونه ، وهو ضد مقصوده ، وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتى إلى من لا يعلم أنه لا يكذب . ويعلم أنه ليس بشاهد ولا حضر قضيته ، ويقول : هذا يشهد لى ، وهذا يشهد لى .

فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية ، فيقول : أولئك لسنا نشهد له . ولا حضرنا هذه القضية .

فهذا لا يفعله عاقل ، يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين ، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له .

الرابع : — أن يقال : لما قامت الأعلام على صدقه ، فقد أخبر أنه مكتوب فى الكتب المتقدمة وأن الأنبياء بشروا به ، علم أن الأمر كذلك ، لكن هذا لا يذكر إلا بعد أن يقام دليل منفصل على نبوته .

والطريق الأول ، هو من أظهر الحجج على أهل الكتاب ، وأظهر الأعلام على نبوته .

وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن فى أيدى أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة ، وصنفوا فى ذلك مصنفات، وهذه البشارات من هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح صلى الله عليه وسلم .

واليهود يقرون باللفظ ، لكن يدّعون أن المبشّر به ليس هو المسيح عيسى ابن مريم ، وإنما هو آخر ينتظر .

وهم ـ فى الحقيقة ـ لاينتظرون إلا المسيح الدجال ، وينتظرون أيضاً مجىء المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء ، كما بسط فى موضع آخر ، ويحرفون دلالة اللفظ ويقولون : إنها لاتدل على نبى منتظر ، كما قالوا فى قوله : « سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك ياموسى أنزل عليه توراة مثل توراة موسى ، أجعل كلامى على فيه » .

قال بعضهم : ليس هذا إخبارا ، بل هذا استفهام إنكار ، وقدروا ألف استفهام ، وليس فى النص شىء من ذلك .

فاليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح ، وذلك عند المسلمين والنصارى لايقدح فى البشارات بالمسيح ، بل تبين دلالة النصوص عليه ، وبطلان تحريف اليهود .

وكذلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة ، لايقدح فيها تحريف أهل الكتاب : اليهود والنصارى ؛ بل تبين دلالة تلك النصوص على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبطلان تحريف أهل الكتاب .

الوجه الخامس : ـ أن يقال معلوم أن ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، أعظم حادث حدث فى الأرض .

فلم يعرف قط دين ، انتشر ودام كانتشاره ودوامه ، فإن شرع موسى وإن دام ، فلم ينتشر انتشاره ودوامه ، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام .

وأما شرع المسيح ، فقبل قسطنطين ، لم يكن له ملك ، بل كانوا يكونون ببعض بلاد الروم وغيرها ، وكانوا مستضعفين بقتل أعيانهم أو عامتهم فى كثير من الأوقات .

ولما انتشر تفرق أهله فرقا متباينة ، يكفر فيها بعضهم بعضاً .

ثم إن شرع محمد صلى الله عليه وسلم ، ظهر فى مشارق الأرض ومغاربها . وفى وسط الأرض المعمورة الإقليم الثانى والثالث والرابع ، وظهرت أمته على النصارى فى أفضل الأرض وأجلها عندهم ، كأرض الشام ومصر والجزيرة وغيرها ، ودام شرعه ، فله اليوم أكثر من سبعمائة سنة .

ومعلوم أن هذا المدعى للنبوة ، سواء كان صادقاً أو كاذباً ، لابد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور الدجال الكذاب ، تحذيراً للناس من فتنته . وأنه كذاب يظهر على يده أمور يفتتن بها الناس ، مع أن الدجال مدته قليلة . فلو كان مايقوله المكذب لمحمد حقاً وأنه كاذب ليس برسول لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال من وجوه كثيرة ، لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال ؛ فلو كان كاذباً ، لكان الذين افتتنوا به أضعاف أضعاف من يفتتن بالدجال ، فكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال ، إذ ليس فى العالم من زمان آدم إلى اليوم ، كذاب ظهر ودام هذا الظهور والدوام ؛ فكيف يغفل الأنبياء التحذير عن مثل هذا لو كان كاذباً ؟

وإذا كان صادقاً ، فالبشارة للإيمان به ، من أولى مايبشر به الأنبياء من المستقبلات ، ويخبر به ، فعلم أنه لابد أن يكون فى الكتب ذكره .

وقد وجد مواضع كثيرة فى الكتب ، تزيد على مائة موضع ، استدلوا بها على أنه مذكور ، وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود فى

كتبهم ، وتواتر عن كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم ، أو من أعظم سبب إسلامهم ، علمهم بذكره فى الكتب المتقدمة .

أما بأنه وجد ذكره فى الكتب ، كحال كثير ممن أسلم قديماً وحديثاً .

وإما بما ثبت عندهم من أخبار أهل الكتاب ، كالأنصار فإنه كان من أعظم أسباب إسلامهم ما كانوا يسمعونه من جيرانهم أهل الكتاب من ذكره ونعته ، وانتظارهم إياه ، وأن من خيارهم من لم يسكن أرض يثرب مع شدتها ، ويدع أرض الشام مع رخائها إلا لانتظاره لهذا النبي العربي الذى يبعث من ولد إسماعيل .

ولم يمكن أحد قط أن ينقل عن شىء من الكتب أنه وجد فيها ذكره بالذم والتكذيب والتحذير كما يوجد ذكر الدجال .

وعند أهل الكتاب من ذكر أصحابه كعمر بن الخطاب وغيره ، وعدلهم وسيرتهم عن المسيح وغيره ، ما هو معروف عندهم .

فإذا كان الذين استخرجوا ذكره من كتب أهل الكتاب ، والذين سمعوا خبره من علماء أهل الكتاب إنما يذكرون نعته فيها بالمدح والثناء ، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين ، ذكروه بالمدح والثناء ، ولم يذكروه بذم ولا عيب .

وكل من ادّعى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه ، لم يكن إلا صادقاً فى دعوى النبوة ، يمتنع أن الأنبياء يثنون على من يكذب فى دعوى النبوة (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) وهذا مما يبين أنه لابد أن يكون الأنبياء ذكروه وأخبروا به ، وأنهم لم يذكروه إلا بالثناء والمدح ، لا بالذم والعيب ؛ وذلك ـ مع دعوى النبوة ـ لا يكون إلا إذا كان صادقاً فى دعوى النبوة فتبين أنهم بشروا بنبوته ، وهو المطلوب.

تبين من ذلك أن الأنبياء أخبروا أهل الكتاب بما سيكون منهم من

الأحداث ، وما يسلط عليهم من الملوك الذين يقتلونهم ويخربون بلادهم « كـ « بخت نصّر » وسنجاريب .

ولـكن هؤلاء الملوك لم يدّعوا أنهم أنبياء ، ولم يَدْعُوا إلى دين فلم تحتج الأنبياء إلى التحـذير من اتباعهم وقد حذروا من اتبـاع من يَدّعِي النبوة وهو كاذب .

ومحمد صلى الله عليه وسلم قد قهر أهل الـكتاب ، وسبى من سبى ، وقتل من قتل ، وأخرجهم من ديارهم ، فلابد أن يذكروه ويذكروا الأحداث تجرى عليهم فى أيامه .

وإذا كان كاذباً مُدّعياً للنبوة . فلابد أن يحذروهم من اتباعه .

ومعلوم أن عامة أهل الـكتاب ومن نقل عنهم إما أن يقول : ليس موجوداً فى كتبنا أو يقول : إنه موجود بالمدح والثناء ، لا يمـكن أحد أن ينقل عن الـكتب المتقدمة أنه موجود فيها بالذم والتحذير .

ولو كان مذكوراً عندهم بالذم والتحذير ، لـكان هذا من أعظم مايحتجون به عليه فى حيـاته ، وعلى أمته بعد مماته ، ويحتج به من لم يسلم منهم على من أسلم .

فإنه معلوم أن كثيراً من أهل الـكتاب ، كان عندهم من البغض له والعدواة وتـكذيبه والحرص على إبطال أمره ، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد ، ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن فسروا قول المسلمين « الله أكبر » بأنه أكبر صنم وأن النبى أمرهم بتعظيم هذا الصنم .

وقال بعضهم فيـه : إنه أوجب الزنا على المرأة المطلقة . ثلاثا ، عقوبة لزوجها بأنه لا ينكحها حتى يزنى بها غيره .

وقال بعضهم : إنه تعلم من بحيرا الراهب ، مع علم كل من عرف سيرته بأنه

لم يجتمع بـ « بحيرا » وحده ، ولم يره إلا بعض نهار ومع أصحابه لما مروا به لما قدموا الشام في تجارة ، وأن بحيرا ، سألهم عنه ولم يكلمه إلا كلمات يستخبره فيها عن حاله ولم يخبره بشيء .

ومع طعن بعض أهل الكتاب فيه بأنه بعث بالسيف ، حتى يقولوا إنما قام دينه بالسيف ، وحتى يوهموا الناس أن الذين اتبعوه إنما اتبعوه خوفاً من السيف ، وحتى يقولوا : إن الخطيب إنما يتوكأ على سيف يوم الجمعة إشارة إلى أنه إنما يقوم الدين بالسيف ، إلى أمثال هـذه الأمور التي هي من أظهر الأمور كذبا عليه ، يعرف أدنى الناس معرفة بحاله أنها كذب ، وهم ـ مع هذا ـ يتشبثون بها .

فلو كان عندهم أخبار عن الأنبياء توجب ذمه وتكذيبه والتحذير من متابعته ، لكان إظهارهم لذلك ، واحتجاجهم به ، أقوى وأبلغ ، وكان ذلك مما يجب في العادة اشتهاره بين خاصتهم وعامتهم ، قديماً وحديثاً ، وكان ظهور ذلك فيهم أولى من ظهور خبر الدجال فيهم وفي المسلمين ، فإن هذا الأمر من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله واشتهاره .

فإذا لم يكن كذلك ، علم أنه ليس في كتب الأنبياء ما يوجب تكذيبه وذمه ، وقد قام الدليل على أنه لابد من أن تذكره الأنبياء وتخبر بحاله ، فإذا لم يخبروا أنه كاذب ، علم أنهم أخبروا أنه نبي صادق ، كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة .

فالكتاب الذي بعث به . مملوء بشهادة أهل الكتب له ، والكتب الموجودة فيها مواضع كثيرة شاهدة له من وجوه متعددة ، والأخبار متواترة عمن اطلع على ما فيها بذلك ، والأخبار متواترة عمن أسلم لأجل ذلك ؛ وهذا مما يوجب القطع بأنه مذكور فيها بما يدل على صدقه في دعوى النبوة ، وليس فيها ما يخبر بكذبه والتحذير منه ، وهذا هو المطلوب .

وفي الجملة أمره أظهر وأشهر ، وأعجب وأبهر ، وأخرق للعادة من كل أمر ظهر في العالم من البشر .

ومثل هذا إذا كاذباً ، فلكذبه لوازم كثيرة جداً تفوق الحصر ، متقدمة ومقارنة ومتأخرة .

فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذباً ، لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه ، فكيف مثل هذا ؟ فإذا انتفت لوازم الكذب انتفى الملزوم .

وصدقه لازم لأمور كثيرة كلها تدل على صدقه ، وثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ، ماضيه ومقارنه ومتأخره .

ومدعي النبوة لا يخلو من الصدق أو الكذب ، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات ، فأدلة الصدق مستلزمة له ، وأدلة الكذب مستلزمة له ، والصدق له لوازم والكذب له لوازم .

فصدقه يعرف بنوعين ، بثبوت دلائل الصدق المستلزمة لصدقه وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه .

كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه ، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه ، والله أعلم .

والشيء يعرف تارة بما يدل على ثبوته ، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه ، وهو الذي يسمى قياس الخلف .

فإن الشيء إذا انحصر في شيئين ، لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر ، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر .

ومدعي النبوة إما صادق ، وإما كاذب ، وكل منهما له لوازم . يدل انتفاؤها على انتفائه ، وله ملزومات ، يدل ثبوتها على ثبوته .

فدليل الشيء مستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها ، وآيات الربوبية ، وأدلة الأحكام الشرعية وغير ذلك .

وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه كانتفاء لوازمه مثل صدق الكذاب.

يقال : لو كان صادقا ، لكان متصفاً بما يتصف به الصادقون .

وكذلك كذب الصادق يقال : لو كان كذابا لكان متصفاً بما يتصف به الكذاب فإنه قد عرف حال الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذابين ، فانتفاء لوازم الكذب ، دليل صدقه ، كما أن ثبوت ما يستلزم الصدق دليل صدقه .

وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه ، وبانتفاء لوازم صدقه ، وهكذا سائر الأمور .

فصل

ومما ينبغي أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة ، أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إما شهادتها بنبوته . وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله . وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين والملحدين . كما ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه .

كما في قوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، وقوله: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) وقوله : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وقوله : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) وقوله : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) وقوله : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) [المائدة ٨٤] وقوله : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) [الإسراء ١٠٧ ، ١٠٨] ، ذلك مثل قوله فى التوراة ما قد ترجم بالعربية . « جاء الله من طور سينا » وبعضهم يقول فى الترجمة : « تجلى الله من طور سينا وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » .

قال كثير من العلماء ـ واللفظ لمحمد بن قتيبة ـ ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا ، كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير ـ أرض الخليل بقرية تدعى « ناصرة » ـ وباسمها سمى من اتبعه من نصارى .

وكما وجب أن إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وجبال فاران هى جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى أن فاران هى مكة ، فإن ادعوا أنها غير مكة ، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم .

قلنا : أليس فى التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران والنبى الذى أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف .

فهل تعلمون ظهر دين ظهور الإسلام وفشا فى مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟

وقال أبو هاشم بن ظفر: «ساعير» جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح.

قلت : وبجانب بيت لحم ، القرية التى ولد فيها المسيح ، قرية تسمى إلى اليوم ساعير، ولها جبال تسمى ساعير .

وفى التوراة : أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير ، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم .

وعلى هذا ، فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقاً ؛ جبل حراء الذى ليس حول مكة جبل أعلى منه ، ومنه كان نزول أول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم وحوله من الجبال ، جبال كثيرة ، حتى قد قيل : إن بمكة اثنى عشر ألف جبل وذلك المكان يسمى فاران ، إلى هذا اليوم ، وفيه كان ابتداء نزول القرآن :

والبرية التى بين مكة ، وطورسينا تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعى أنه — بعد المسيح — نزل كتاب فى شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبى .

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ـ سبحانه ـ ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزمانى، فذكر إنزال التوراة ، ثم الإنجيل ، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال فى الأول : جاء أو ظهر ؛ وفى الثانى : أشرق ؛ وفى الثالث : استعلن.

وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر ، أو ما هو أظهر من ذلك ، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى .

وأما نزول القرآن ، فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء ، ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ، ظهر به نور الله وهداه فى مشرق الأرض ومغربها ، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين ،

كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً .

والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن الوهاج يحتاجون إليه فى وقت دون وقت ، بل قد يتضررون به بعض الأوقات .

وأما السراج المنير ، فيحتاجون إليه كل وقت ، وفى كل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « زويت لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِىَ لى منها » .

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح ، وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطورسينا ، وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى ، وناداه من واديه الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين ، وهى مكة ، والبلد الذى أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه ، وهو الذى جعله الله حرماً آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، وجعله آمنا ، خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً ، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله ، فقال : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) [إبراهيم : ٣٧] قال تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [البقرة : ١٢٥ ، ١٢٦]

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، واستجاب الله لدعاء إبراهيم ، وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [البقرة : ١٢٧-١٢٩] وقد استجاب الله دعاء إبراهيم ، فبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وذكر ذلك في غير موضع قال تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) [آل عمران : ٩٦، ٩٧] وقال تعالى (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ * رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) [سورة قريش] وقال تعالى : (وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [القصص : ٥٧] وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) [العنكبوت: ٦٧].
وقال تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج : ٢٦ – ٢٩] قال تعالى : (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المائدة : ٩٧] .

فقوله تعالى : (والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة ، التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة ، التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طورسينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال « فاران » .

ولما كان ما في التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق .

وأما القرآن ، فإن أقسم بها تعظيماً لشأنها ، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته ، وكتبه ، ورسله .

فأقسم بها على وجه التدريج ، درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات .

فأقسم أولا ، بالتين والزيتون ، ثم بطورسينا ثم بمكة ، لأن أشرف الكتب الثلاثة ، القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، وكذلك الأنبياء .

فأقسم بها على وجه التدريج ، كما في قوله : (والذاريات ذرواً *

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) [الذاريات : ١ ـ ٣]

فأقسم بطبقات المخلوقات ، طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ، ثم بالسحاب الحاملات للمطر ، فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً .

وقد قيل : إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله : (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) ، فسماها جوارى كما سمى الفلك جوارى فى قوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوارِى فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) والكواكب فوق السحاب .

ثم قال : (فالمقسمات أمراً) وهى الملائكة ، التى هى أعلا درجة من هذا كله .

وما ذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين ، من تربية إسماعيل فى برية « فاران » فهكذا هو فى التوراة ، قال فيها : « وغدا إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزا وسقاء من ماء ، ودفعه إلى هاجر ، وحمله عليها ، وقال لها : اذهبى فانطلقت هاجر فضلَّت فى برية سبع ، ونفد الماء الذى كان معها ، فطرحت الغلام تحت شجرة وجلست فى مقابلته على مقدار رمية سهم ، لئلا تبصر الغلام حين يموت ، ورفعت صوتها بالبكاء ، وسمع الله صوت الغلام ، فدعا ملك الله هاجر وقال لها : مالك ياهاجر؟ لاتخشَىْ فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، فقومى فاحملى الغلام ، وشُدِّى يديك به ، فإنى جاعله لأمة عظيمة » .

وفتح الله عينها فبصرت بئر ماء ، فسقت الغلام وملأت سقاءها ، وكان الله مع الغلام فربى وسكن فى برية « فاران » .

فهذا خبر الله فى التوراة أن إسماعيل ربى وسكن فى برية فاران ، بعد أنه كاد يموت من العطش ، وأن الله سقاه من بئر ماء .

وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربى بمكة ، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت ، فعلم أن أرض مكة من فاران .

والله تعالى قد أخبر فى القرآن فى غير موضع بكون إسماعيل كان بمكة ، فقال عن الخليل (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

وقال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وهذه البشارة التى فى التوراة لهاجر بإسماعيل ، وقول الله : (إنى جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً) وإن هاجر فتحت عينها فرأت بئر ماء فدنت منها ، وملأت المزادة ، وشربت وسقت الصبى ، وكان الله معها ، ومع الصبى حتى تربى ، وكان مسكنه فى برية « فاران » .

وفى موضع آخر قال عن إسماعيل : إنه يجعل يده فوق أيدى الجميع .

ومعلوم باتفاق الأمم ، ونقل المتواتر أن إسماعيل تربى بأرض مكة ، فعلم أنها «فاران» ، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الحرام الذى مازال محجوجاً

من عهد إبراهيم، تحجه العرب، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حج إليه موسى بن عمران، ويونس بن متّى، كما في الصحيح من رواية ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بوادى الأزرق بين مكة والمدينة، فقال: «أيّ وادٍ هذا؟» ، فقالوا: هذا وادى الأزرق، فقال: «كأنى أنظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم هابطاً من الثنية، واضعاً أصبعيه فى أذنيه، له جؤار إلى الله عزوجل فى التلبية، ماراً بهذا الوادى» قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية، فقال: «أيّ ثنية هذه؟» قالوا: هرشى، فقال: «كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، عليه جبة صوف. خطام ناقته ليف خلبة، ماراً بهذا الوادى ملبيا».

وفى رواية: «أما موسى فرجل آدم، جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة ليف».

ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، أوجب حجه على كل أحد، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها.

والبئر الذى شرب منها إسماعيل وأمه، هى بئر زمزم، وحديثها مذكور فى صحيح البخارى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً ليعفى أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، فى أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندها جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفا إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى، ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا .

وفى لفظ «وتبعته» أم إسماعيل حتى بلغوا كداء ، نادته من وراء يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال: إلى الله ، قالت : رضيت بالله ، ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند البيت ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فقال:(رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ - حتى بلغ - يَشْكُرُونَ) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال يتلبَّط ، انطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر، هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا،حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت، هل ترى من أحد ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم: فلذلك سعى الناس بينهما .

فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتاً ، فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم سمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال : بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم » ، أو قال: «لو لم تغرف من الماء ، لكان زمزم عيناً معيناً » .

قال: فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كدا ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى ، وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ؟ ولكن لاحق لكم فى الماء ، قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبَّ الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوَّجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل .

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته فلم يجده ، فسأل امرأته فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : بِشَرٍّ نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه .

قال : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟

قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، وقال : تغير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، قد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك فطلقها .

ثم تزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده .

فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا .

قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؛ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله .

فقال : ماطعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : لم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم ، دعا لهم فيه » قال: « فهما لا يخلو عنهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » .

قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، ومريه أن يثبت عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟

قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير .

قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويقول لك : أن تثبت عتبة بابك .

قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك .

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نَبْلاً له تحت دوحة قريبة من زمزم .

فلما رآه ، قام إليه ، فصنع كما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد .

ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال: وتعيننى ؟ قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قال فجعلا يبنيان ، حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وصارت السقاية في ولده في العباس وأولاده ، يسقون منها ، ويسقون أيضاً الشراب الحلو . والشرب من ذلك سنة .

والله تعالى قال في إسماعيل : « إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً » وهذا التعظيم المؤكد بـ « جدا جدا » يقتضي أن يكون تعظيما مبالغاً .

فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد ، وأن ذريته ليس منهم شيء ، كما يقوله كفرة أهل الكتاب ، لم يكن هناك تعظيم مبالغاً فيه بجداً جداً ، إذا أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية .

ومجرد كون الرجل له نسل وعقب ، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله .

وكذلك قوله « أجعله لأمة عظيمة » إن كانت تلك الأمة كافرة ، لم تكن عظيمة ، بل كان يكون أبا لأمة كافرة ، فعلم أن هذه الأمة العظيمة ، كانوا مؤمنين ، وهؤلاء يحجون البيت . فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به .

وليس في أهل الكتاب إلا المسلمون ، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه ، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجون البيت . أمة أثنى الله عليها ، وشرفها ، وأن إسماعيل عظمه الله جداً جداً بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة ، وهذا هو ، كما امتن الله على نوح وإبرهيم بقوله : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) وقال في الخليل : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ولما قال في نوح : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) كان في ذريته أهل الإيمان كلهم .

فعلم بذلك أن إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون وأن إسماعيل

معظم جداً جداً ، كما عظم الله نوحاً وإبراهيم . وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل .

لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت ؛ ولا يحج إليه بعد مجيء محمد غيرهم .

ولهذا لما قال تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) قالت اليهود أو بعض أهل الكتاب : فنحن مسلمون . قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) فقالوا : لا نحج . فقال : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وأيضاً فهذا التعظيم المبالغ فيه ، الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس ، لم يظهر إلا بنبوة محمد . فدل ذلك على أنها حق مبشر به .

ومثل هذا بشارة أخرى بمحمد صلى الله عليه وسلم من كلام « شمعون » بما رضوه من ترجمتهم وهو : « جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » .

فهذا تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالنبوة من جبال « فاران » وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

ولم يخرج أحد قط ؛ وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ، مما يسمى « فاران » سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسيح لم يكن بأرض فاران ألبتة .

وموسى إنما كلم من الطور ، والطور ليس من أرض فاران ، وإن كانت البرية التي بين الطور وأرض الحجاز من فاران . فلم ينزل الله فيها التوراة ؟ وبشارات التوراة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجبل « ساعير » .

ومثل هذا ما نقل عن نبوة « حبقوق » أنه قال : جاء الله من التيمن ،

وظهر القدس على جبال « فاران » وامتلأت الأرض من تحميد « أحمد » وملك بيمينه رقاب الأمم ، وأنارت الأرض لنوره ، وحملت خيله فى البحر.

ومن ذلك ما فى التوراة التى بأيديهم فى السفر الأول منها ، وهى خمسة أسفار فى الفصل التاسع فى قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال: « ياهاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين » .

فلما شرحت له الحال قال : ارجعى فإنى سأكثر ذريتك وزرعك حتى لايُحْصَوْنَ ، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسمينه إسماعيل ، لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك ، وولدك يكون وحى الناس ، ويكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به ، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته .

قال المستخرجون لهذه البشارة : معلوم أن يد بنى إسماعيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن فوق أيدى بنى إسحاق ، بل كان فى بنى إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبنى إسماعيل فوقهم يد ، ثم خرجوا منها لما بعث الله موسى ، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض ، لم يكن لأحد عليهم يد، ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود ، وملك سليمان الذى لم يؤت أحد مثله ، وسلط عليهم بعد ذلك بخت نصّر، فلم يكن لبنى إسماعيل عليهم أمر ، ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثانى، حيث أفسدوا فى الأرض مرتين ، ومن حينئذ زال ملكهم وقطّعهم الله فى الأرض أمماً ، وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط ، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم ، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ولا الأميين فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم الذى دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

فلما بعث ، صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع ، فلم يكن فى الأرض سلطان أعز من سلطانهم ، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم ، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين .

فظهر بذلك تحقيق قوله فى التوراة « وتكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به » وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر .

فإن قيل: هذه بشارة بملكه وظهوره ؟

قيل : الملك ملكان ، ملك ليس فيه دعوى نبوة ، وهذا لم يكن لبنى إسماعيل على الجميع ، وملك صدر عن دعوى نبوة .

فإن كان مدعى النبوة كاذباً (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) ، وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأفجرهم ، وملكه شر من ملك الظالم الذى لم يدَّعِ نبوة كـ« بختنصر » وسنحاريب .

ومعلوم أن الأخبار بهذا لا يكون بشارة ، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا كما لو قيل: « يكون جبارا طاغيا يقهر الناس على طاعته ، ويقتلهم ، ويسبى حريمهم ، ويأخذ أموالهم بالباطل » فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة ، ولا بشر الخبر بذلك ، وإنما يكون بشارة تسره إذا كان ذلك يعدل وكان علوه محموداً لا إثم فيه وذلك من مدَّعِي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب .

فصل

وقال داود فى الزبور فى قوله : « سبحوا لله تسبيحاً جديداً » وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة . يسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه .

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى أذانهم للصلوات الخمس وعلى الأماكن العالية ، كما قال جابر بن عبد الله : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبّرنا وإذا هبطنا سبّحنا فوضعت الصلاة على ذلك » رواه البخارى .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من الجيوش ، أو السرايا ، أو الحج ، أو العمرة . إذا أوفى على ثنية أو فدفد . كبّر ثلاثا ، ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن معه بالمدينة الظهر أربعا ، والعصر بذى الحليفة ركعتين ، ثم بات بها حتى أصبح ، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء ، حمد الله وسبح وكبّر ، ثم أهلّ بعمرة وحج » وذكر الحديث .

وعن أبى هريرة : أن رجلا قال : يارسول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى . قال : « عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

فلما أن ولّى الرجل قال : « اللهم اطوِ له البعد وهوّن عليه السفر » رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى .

وروى ابن ماجه عنه « أوصيك بتقوى الله ، والتكبير على كل شرف » .

وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم وجيوشه إذا علوا شرفا كبّروا ، وإذا هبطوا ، سبّحوا .

وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة فى أعيادهم ، عيد الفطر ، وعيد النحر ،

في الصلاة والخطبة ، وفي ذهابهم إلى موضع الصلاة ، وفي أيام «منى» الحجاج وسائر أهل الأمصار يكبرن عقب الصلوات : فإمام الصلاة يسن له الحمد والتكبير .

وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب : أنه كان يكبر في قبة بمنى ، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره . فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون ، حتى ترتج منى تكبيراً .

وقال : وكان ابن عمر و ابن عباس ، يخرجان إلى السوق أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما . ويكبرون على قرابينهم وهديهم وضحاياهم ، كما كان نبيهم يقول عند الذبح : «بسم الله والله أكبر» ويكبرون إذا رموا الجمار ، ويكبرون عند الصفا والمروة ، ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن ، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه .

قال تعالى : لما ذكر صوم رمضان الذي يقيمون له عيد الفطر : ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقال — لما ذكر الهدى الذي يقرب في عيد النحر ، وهو يوم الحج الأكبر قال — : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج ٣٦ ، ٣٧] والنصارى يسمون عيد المسلمين «عيد الله الأكبر» لظهور التكبير فيه ، وليس هذا لأحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ، ولا غيرهم من المسلمين ، وإنما كان موسى يجمع بني إسرائيل بالبوق ، والنصارى شعارهم الناقوس .

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة ، فإنما هو شعار المسلمين ، فإن الأذان شعار المسلمين ، وبهذا يظهر تقصير من فسر ذلك بتلبية الحجاج .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا غزا أقواما ، لم يغز حتى يصبح ، فإن سمع آذانا أمسك ، وإن لم يسمع أذانا أغار بعد ما يصبح » .

وفى لفظ مسلم « كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان ، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار » فسمع رجلا يقول : الله أكبر الله أكبر ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على الفطرة » ثم قال : « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال : « خرجت من النار » .

وعن عصام المزنى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية يقول : « إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً » رواه أحمد ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

وكذلك قوله : « بأيديهم سيوف ذات شفرتين » وهى السيوف العربية التى بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد .

وقوله : « يسبحونه على مضاجعهم » بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا على جنوبهم ، ويصلى الفرض أحدهم قائماً ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع ، فعلى جنب ، فلا يتركون ذكر الله فى حال ، بل يذكرونه حتى فى هذه الحال ، ويصلون فى البيوت على المضاجع . بخلاف أهل الكتاب .

والصلاة أعظم التسبيح كما فى قوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) وقوله : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) .

وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) وهذا معنى قول داود : سبحوا الله تسبيحا جديداً يعنى التسابيح التى شرعها الله جديداً ، كالصلوات الخمس التى شرعها للمسلمين جديدا .

ولما أقامها جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم قال : « هذا وقتك ، ووقت الأنبياء قبلك » .

فكان الأنبياء يسبحون فى هذه الأوقات ، وذلك هو التسبيح المتقدم والتسبيح الجديد للمسلمين كما يدل عليه سائر الكلام .

ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارى ، لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة ، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم الله بهم من الأمم ، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم ، ولم يكونوا يجاهدونهم بالسيف ، بل النصارى قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف .

ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ويغفلون عما عندهم من أن الله أمر موسى بقتال الكفار ، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره ، وقاتلهم يوشع وداود وغيرهما من الأنبياء ، وإبراهيم الخليل قاتل ، لدفع الظلم عن أصحابه .

فصــــل

قالوا : وقال داود فى مزاميره ــ وهى الزبور ــ : من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد ــ أيها الجبار ــ بالسيف لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك اركب كلمة الحق وسمة التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك .

قالوا : فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى خرّت الأمم تحته ، وقرنت شرائعه بالهيبة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر » .

وقد أخبر داود أن له ناموساً وشرائع وخاطبة بلفظ الجبار ، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله بخلاف المستضعف المقهور .

وهو صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ونبى الملحمة وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين .

بخلاف من كان ذليلا للطائفتين ، من النصارى المقهورين مع الكفار ، أو كان عزيزاً على المؤمنين من اليهود ، بل كان مستكبراً كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً .

فصـــل

قالوا : وقال داود فى مزمور له : « إن ربنا عظيم محمود جداً » وفى ترجمة إلهنا قدوس ، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحاً .

قالوا : فقد نص داود على اسم محمد وبلده وسماها قرية الله ، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها .

قلت : قد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو ، وروى أنه عبد الله بن سلام فى غير البخارى « أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة » فقال : « إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ، وذكر صفته موجودة فى نبوة أشعياء ، وليست موجودة فى نفس كتاب موسى » .

وتقدم أن لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التى عند أهل الكتاب .

وكذلك مايوجد كثيراً من قول كعب الأحبار وغيره ، ممن ينقل عن

أهل الكتاب : قرأت فى التوراة ، إنما يريدون به جنس الكتاب الذى عند أهل الكتاب ، لايخصون بذلك كتاب موسى .

وإذا كان هذا معروفا عندهم ، وقد خوطبوا بهذه اللغة فإن قوله تعالى فى القرآن (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ) يراد بالتوراة جنس الكتب التى عند أهل الكتاب ، فيتناول ذلك كتاب موسى ، وزبور داود ، وصحف سائر الأنبياء ، سوى الإنجيل ، فإنه ليس عند أهل الكتاب ، وإنما هو عند النصارى خاصة .

وأما سائر كتب الأنبياء ، فالأمتان يُقِرَّان بها ويؤيد ذلك أن الله كثيرا مايقرون فى القرآن بين التوراة والإنجيل وإنما يذكر الزبور مفردا كقوله تعالى (الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ) [آل عمران : ١ـ٤] وقوله : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ) وقوله تعالى (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ) وأهل الكتاب يجدونه مكتوبا فى الكتب التى بأيديهم ، وهو فى كثير منها أصرح مما هو فى كتاب موسى خاصة .

فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب ، فلا يسترتيب عاقل فى كثرة ذكره ونعته ونعت أمته فى تلك الكتب .

ومعلوم أن الله أراد بذلك ، الاستشهاد بوجوده فى تلك الكتب ، وإقامة الحجة بذكره فيها .

فإذا كان ذكره فى غير كتاب موسى أكبر وأظهر عندهم ، كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى .

فإذا حمل لفظ التوراة فى هذا على جنس الكتب ، كما هو موجود فى لغة

من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين ، كان هذا فى غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة ، وتصديق بعضها بعضاً .

وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتى النبيون مطلقاً كما قال تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) وقال : (وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) والزبور ذكره مفرداً فى موضعين من القرآن فى قوله : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً) وقال تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً) فذكره مفرداً .

وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة ، لا بلفظ التوراة فى غير موضع فقال : (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) وقال (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) إلى قوله : (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ) وقال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا : مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ) .

وقال تعالى : (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) .

وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب التى عند أهل الكتاب جميعاً ، وغيره داخل فى هذا الاسم ، كان ظهور اسمه ونعته فى التوراة ووجودهم ذلك فيما عندهم وتكرره فى غاية القوة ، وكان معرفتهم لذلك ، كما يعرفون أبناءهم واضحاً بيناً ، وإن قدر أن هذه الكتب التى يعترف بها عامتهم لم يكتم منها بل هى باقية كما كانت .

فصل

وقالوا : قال داود فى مزموره « لترتاح البوادى وقراها ، ولتصر أرض « قيذار » مروجاً ، وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب ، ويذيعوا تسابيحه فى الجزائر » .

قالوا : فمن البوادى من الأمم سوى أمة محمد ، ومن « قيذار » سوى ابن إسماعيل جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب ؟

فصل

وقالوا : وقال داود فى مزموره « ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ، ويخر أهل الجزائر بين يديه ، ويلحس أعداؤه التراب ، ويسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ؛ ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويُصَلَّى عليه ويبارك فى كل حين » .

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته ، لا على المسيح .

فإن محمداً جاز من البحر الرومى إلى البحر الفارسى ، ومن لدن الأنهار ، كسيحون وجيحون ، إلى منقطع الأرض بالمغرب ، كما قال : « زُوِيَت لى

الأرض ، مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِىَ لى منها » .

وهو يصلى عليه ويبارك فى كل حين ، فى كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها ، يقول كل من أمته : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، فيصلى عليه ويبارك .

وقد خرّتْ أهل الجزائر بين يديه ، أهل جزيرة العرب ، وأهل الجزيرة التى بين الفرات ودجلة ، وأهل جزيرة قبرص ، وأهل جزائر الأندلس .

وخضعت له ملوك الفرس ، فلم يبق منهم إلا من أسلم أو أدّى الجزية على يد وهم صاغرون ، بخلاف ملوك الروم ، فإن فيهم من لم يسلم ويؤدى الجزية . فلهذا خص ملوك فارس ودانت له الأمم .

فعامة الأمم التى تعرفه وتعرف أمته ، كانت إما مؤمنة به أو مسلمة له معاقدة ، أو مهادنة مصالحة ، أو خائفة منهم ، وأنقذ الضعفاء من الجبارين .

وهذا بخلاف المسيح ، فإنه لم يتمكن هذا التمكن فى حياته ، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن ولا جازوا ماذكر ، ولا صُلِّىَ عليه وبورك عليه فى اليوم والليلة ، فإن النصارى يدّعُون إلهية المسيح ، فلا يصلون عليه ، وإنما يصلون له .

فصل

وقالوا فى نبوة أشعياء قال أشعياء : « فقيل لى قم نظاراً ، فانظر ماذا ترى ، فقلت : أرى راكبين متوابين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها للمنجر » .

قالوا : فراكب الحمار هو المسيح ، وراكب الجمل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار .

وبمحمد صلى الله عليه وسلم سقطت بابل .

فصـــل

ومما ينبغي أن يعرف : أن الكتب المتقدمة بشّرت بالمسيح ، كما بشّرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال .

والأمم الثلاثة ـ المسلمون واليهود والنصارى ـ متفقون على أن الأنبياء أنذرت بالمسيح الدجال وحذرت منه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال ، حتى نوح أنذر أمته وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته : إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه ك ف ر ، يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء »

والأمم الثلاثة متفقون على أن الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود .

فالأمم الثلاثة متفقون على الإخبار بمسيح هُدًى من نسل داود ، ومسيح ضلالة وهم متفقون على أن مسيح الضلالة لم يأت بعد ، وسيأتي ، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتي .

ثم المسلمون واليهود والنصارى متفقون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم ، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى ابن مريم مع إقرارهم بأنه من ولد داود .

قالوا : « لأن المسيح المبشّر به تؤمن به الأمم كلها » وزعموا أن المسيح ابن مريم إنما بعث بدين النصارى ، وهو دين ظاهر البطلان ، ولهذا إذا خرج المسيح الدجال اتبعوه ، فيخرج منه سبعون ألف مطياس من يهود أصبهان .

ويسلط المسلمون على اليهود ، فيقتلونهم حتى يقول الحجر والشجر : « يا مسلم هذا يهودي ورائي ، تعال فاقتله » كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح .

والنصارى يقرون بأن المسيح مسيح الهدى بُعث ويقرون أنه سيأتي مرة ثانية ، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثاني ، هو يوم القيامة ، ليجزي الناس

بأعمالهم ، وهو – فى زعمهم – هو الله ، والله الذى هو اللاهوت ، يأتى فى ناسوته ، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك .

وأما المسلمون ، فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه ، وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل حيث قال فى الحديث الصحيح « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلا ، وإماماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » .

وأخبر فى الحديث الصحيح أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب ، نزل عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، بين مهروذتين واضعاً يديه على منكبى ملكين ، فإذا رآه الدجال إنماع كان ينماع الملح فى الماء ، فيدركه فيقتله بالحربة ، عند باب لُد الشرقىّ ، على بضع عشرة خطوة منه ، وهذا تفسير قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) أى يؤمن بالمسيح قبل أن يموت ، حين نزوله إلى الأرض ، وحينئذ لا يبقى يهودى ولا نصرانى ، ولا يبقى دين إلا دين الإسلام ، وهذا موجود فى نعته عند أهل الكتاب .

ولكن النصارى ظنوا أن ذلك مجيئه بعد قيام القيامة ، وأنه هو الله ، فغلطوا فى ذلك كما غلطوا فى مجيئه الأول . حيث ظنوا أنه هو الله .

واليهود أنكروا مجيئه الأول ، وظنوا أن الذى بُشِّرَ به ليس هو إياه ، وليس هو الذى يأتى آخراً ، وصاروا ينتظرون غيره ، وإنما هو بعث إليهم أولاً فكذبوه ، وسيأتيهم ثانياً ؛ فيؤمن به كل من على وجه الأرض من يهودى ونصرانى ، من قتل أو مات ، ويظهر كذب هؤلاء الذين كذبوه ، ورموا أمه بالفرية ، وقالوا : إنه ولد زنا وهؤلاء الذين غَلَوْا فيه وقالوا : إنه الله .

ولما كان المسيح عليه السلام نازلا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، صار بينه وبين محمد من الاتصال ، ما ليس بينه وبين غير محمد ، ولهذا قال النبى صلى الله

عليه وسلم فى الحديث الصحيح « إن أولى النـاس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بينى وبينه نبى » .

وروى « كيف تهلك أمة أنا فى أولها ، وعيسى فى آخرها » .

وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما فيما رواه أشعيا حيث قال : « راكب الحمار وراكب الجمل » .

فصـــل

قالوا : وقال أشعياء النبى عليه السلام مثنياً على مكة شرفها الله : « ارفعى إلى ماحولك بصرك ، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصـير إليك ذخائر البحرين ، وتحج إليك عساكر الأمم ، حتى يعم بك قطار الإبل الموبلة ، وتضيق أرضك عن القطرات التى تجتمع إليك ، وتساق إليك كباش مدين ، ويأتيك أهل سبأ ، ويسير إليك أغنام فاران ، ويخدمك رجال مأرب » يريد سدنة الكعبة وهم أولاد مأرب بن إسماعيل .

قالوا : فهذه الصفات كلها حصلت بمكة ، فحملت إليها ذخائر البحرين ، وحج إليهـا عساكر الأمم ، وسيقت إليها أغنام فاران — الهدايا والأضاحى — و« فاران » هى البرية الواسعة التى فيها مكة ، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبلة الحاملة للناس ، وأزوادهم إليها ، وأتاها أهل سبأ ، وهم أهل اليمن .

فصل

قالوا : وقال أشعياء للنبى صلى الله عليه وسلم معلناً باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى جعلت أمرك محمداً ، يامحمد ياقدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » .

قالوا : فهل بقى بعد ذلك لزائغ مقال ، أو لطاعن مجال ؟

وقول أشعياء : إن اسم محمد موجود من الأبد ، موافق لقول داود الذى حكيناه أن اسمه موجود قبل الشمس .

وقوله : « ياقدوس الرب » يعنى يا من طهره الرب ، وخلصه من شوائب بشريته واصطفاه لنفسه .

فصـــــل

قالوا : وقال أشعياء « وشهد لهذه الأمة بالصلاح والديانة ، سأرفع علماً لأهل الأرض بعيداً ، فيصفر لهم من أقاصى الأرض ، فيأتون سراعاً » .

والنداء ، هو ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، من التلبية فى الحج ، وهم الذين جعلوا لله الكرامة ، فوحّدوه وعبدوه ، وأفردوه بالربوبية ، وكسروا الأصنام ، وعطلوا الأوثان .

والعلم المرفوع ، هو النبوة ، وصفيره ، دعاؤهم إلى بيته ومشاعره ، فيأتونه سامعين مطيعين .

فصل

قالوا : وقال أشعياء النبى والمراد مكة ، شرفها الله تعالى «سيرى واهتزى أيتها العاقر ، التى لم تلدى ، وانطقى بالتسبيح ، وافرحى إذا لم تحبلى . فإن أهلك يكونون أكثر من أهلى » ـ يعنى بأهله بيت المقدس ـ ويعنى بالعاقر ـ مكة شرفها الله ـ لأنها لم تلد قبل نبينا عليه السلام .

ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس ، لأنه بيت الأنبياء ، ومعدن الوحى ، فلم تزل تلك البقعة ولادة .

فصل

قالوا : وقال أشعياء النبى ونص على خاتم النبوة « وُلِدَ لنا غلام ، يكون عجباً وبشراً ، والشامة على كتفيه ، أركون السلام ، إله جبار ، وسلطانه سلطان السلام ، وهو ابن عامله ، يجلس على كرسى داود » .

قالوا : الأركون ، هو العظيم بلغة الإنجيل ، والأراكنة المعظمون .

ولما أبرأ المسيح مجنونا من جنونه ، قال اليهود : « إن هـذا لا يخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين » يعنون عظيمهم .

وقال المسيح فى الإنجيل : « إن أركون هـذا العالم يدان » يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين ، وسماه إلهاً على نحو قول التوراة « إن الله جعل موسى إلهـاً لفرعون » أى حاكما عليه ومتصرفا فيه ، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه : « إنكم آلهة » .

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بأخص علاماته وأوضحها ، وهى شامته ، فلعمرى لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح ، وقد وصفه بالجلوس على كرسى داود ، يعنى أنه سيرث بنى إسرائيل ، نبوتهم وملكهم ، ويبتزهم رياستهم .

فصل

قالوا : وقال أشعياء فى وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم : « ستمتلىء البادية والمدن من أولاد قيدار ، يسبحون ، ومن رؤوس الجبـال ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويسبحونه فى البر والبحر » .

قلت : وقيدار ، هو ابن إسماعيل باتفاق النـاس ، وربيعة ومضر من ولده ، ومحمد صلى الله عليه وسلم من مضر .

وهذا الامتلاء والتسبيح فى البر والبحر ، لم يحصل لهم إلا ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، والتسبيح الصلوات الخمس ، وقد جعلت لهم الأرض مسجداً وطهوراً ، فهم يصلون الخمس فى البر والبحر .

فصـل

قالوا : وقال أشعياء : والمراد مكة « أنا رسمتك على كفى ، وسيأتيك

أولادك سراعا ، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخربك ، فارفعى بصرك إلى ماحولك ، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك ، فتسمى باسمى إنى أنا الحى ، لتلبسى الحلل ، وتزينى بالإكليل مثل العروس ، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك ، وليهابن كل من يناويك ، وليكثرن أولادك حتى يقول : من رزق هؤلاء كلهم ؟ وأنا وحيدة فريدة ، يرون رقوب ، فمن ربى لى هؤلاء ، ومن تكفل لى بهم » ؟

قالوا : وذلك إيضاح من أشعياء بشأن الكعبة ، فهى التى ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة ، وو كل بخدمتها الخلفاء والملوك ، ومكة هى التى بارك الله لها الأولاد من حجاجها ، والقاطنين بها .

قلت : وذلك أن مكة هى التى أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها ، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة ، لم يهنها أحد من البشر قط ، بل أصحاب الفيل لما قصدوها ، عذبهم الله العذاب المشهور ، ولم تزل عامرة محجوجة ، من لدن إبراهيم الخليل .

بخلاف بيت المقدس ، فإنه قد أخرب مرة بعد مرة ، وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله ، وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها ، هو للكعبة دون بيت المقدس كما قال تعالى : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

والحجاج بن يوسف كان معظماً للكعبة لم يرمها بمنجنيق ، وإنما قصد ابن الزبير خاصة . وأما كثرة أولادها ، وهم الذين يحجون إليها أو يستقبلونها فى صلاتهم ، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس .

فصل

قالوا : وقال أشعياء — حاكياً عن الله تعالى — : « اشكر حبيبى وابنى أحد » . فسماه الله حبيباً وسماه ابنا .

وداود ابنا ، غير أن الله خصه عليهم بمزية فقال : « حبيبي ابني اشكره » فتمجد أشعيا لشكر محمد ، ووجب عليه وعلى قومه شكره وإجلاله ، ليتبين قدره ومنزلته عنده . وتلك منزلة لم يؤتها غيره من الرسل .

وقال أشعياء : « إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد » وهذا إفصاح من أشعيا باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليُرنا أهل الكتاب نبياً نصّت الأنبياء على اسمه صريحاً ، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

قالوا: وقال حبقوق ـ وسمى محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين في نبوته ـ « إن الله جاء من التيمن والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، وامتلأت الأرض مع حمده ، شعاع منظره مثل النور ، يحوط بلاده بعزه ، تسير المنايا أمامه ، وتصحب سباع الطير أجناده ، قام فمسح الأرض ، فتضعضعت له الجبال القديمة ، وانخفضت الروابي ، وتزعزعت ستور أهل مدين ، ولقد حاز المساعي القديمة » .

ثم قال « زجرك في الأنهار واختتام صوامك في البحار ، ركبت الخيول وعلوت مراكب الإنقاذ ، وستنزع في قسيك أغراقاً ونزعا ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء ، ولقد رأتك الجبال فارتاعت ، وانحرف عنك شؤبوب السيل ، وتعبرت المهاوي تعبراً ورعباً ، رفعت أيديها وجلاً وخوفاً ، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان تباريك ، تدوخ الأرض غضباً ، وتدوس الأمم زجراً ، لأنك ظهرت بخلاص أمتك ، وإنقاذ تراث آبائك » .

قالوا : وهذا تصريح بمحمد ، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد رام ستر النهار ، وحبس الأنهار ، وأنّى يقدر على ذلك ؟!!

وقد سماه باسمه مرتين ، وأخبر بقوة أمته وسير المنايا أمامهم ، واتباع جوارح الطير آثارهم .

وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ، ولا تصلح إلا له ، ولا تدل إلا عليه ،
فمن حاول صرفها عنه ، فقد حاول ممتنعاً .

قلت : وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن ، وهي ناحية مكة والحجاز ،
فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام ، ومحمد صلى الله عليه
وسلم جاء من ناحية اليمن ، وجبال فاران هي جبال مكة ، كما تقدم بيان ذلك .
وهذا مما لا يمكن النزاع فيه .

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد ، فأنوار الإيمان والقرآن ظهرت منه
ومن أمته .

وامتلاء الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم ، فأمر ظاهر ، فإن أمته
هم الحامدون ، لا بد لهم من حمد الله في كل صلاة وكل خطبة ، ولا بد لكل
مُصَلٍّ في كل ركعة من أن يقول : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ،
مالك يوم الدين » .

فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي ، فإذا قال الرحمن
الرحيم ، قال : أثنى عليّ عبدي ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدني عبدي .

فهم يفتتحون القيام في الصلاة بالتحميد ويختمونها بالتحميد وإذا رفعوا
رءوسهم من الركوع ، يقول إمامهم : سمع الله لمن حمده ، ويقولون جميعاً : ربنا
ولك الحمد ، ويختمون صلاتهم بتحميده ، بجمل التحيات له والصلوات
والطيبات ، وأنواع تحميدهم فيه والثناء عليه ، مما يطول وصفه .

فصـــــل

قالوا : وقال دانيال — وهو يهدد اليهود ، ويصف لهم أمة محمد صلى الله
عليه وسلم — : « وإن الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبياً ، ومنزل عليهم كتاباً ،
ومملكهم رقابكم ، يقهرونكم ويذلونكم بالحق ، ويخرج رجال قيدار في جماعات

الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم إلى النار ، نعوذ بالله من النار » .

قلت : وذلك أن رجال بنى قيدار ، هم ربيعة ومضر أبناء عدنان ، وهما جميعاً من ولد قيدار بن إسماعيل ، والعرب كلهم من بنى عدنان وبنى قحطان فعدنان أبو ربيعة ومضر وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس .

وأما قحطان ، فقيل: هم من ولد إسماعيل ؛ وقيل: هم من ولد هود .

ومضر ولده إلياس ابن مضر ، وإلياس بن مضر وقريش ، هم من ولد إلياس بن مضر .

وهوازن ، مثل عقيل ، وكلاب ، وسعد بن بكر ، وبنو نمير ، وثقيف وغيرهم ، هم من ولد إلياس بن مضر .

وهؤلاء انتشروا فى الأرض ، فاستولوا على أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها ، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة ، سكنت مضر فى حران وماقرب منها ، فسميت ديار مضر ، وسكنت ربيعة فى الموصل وماقرب منها ، فسميت ديار ربيعة .

وقال « تنزل الملائكة على خيل بيض » وهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض ، فإنها نزلت يوم « بدر » لنصر النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، ونزلت يوم الأحزاب ، وأحاطت ببنى قريظة .

تم بحمد الله، وجميل توفيقه، وحسن معونته
طبع الجزء الثالث من كتاب «الجواب الصحيح
لمن بدّل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ويليه الجزء الرابع، وأوله « فصل وقال
دانيال عليه السلام» .

والله المستعان على الإتمام ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على محمد عبدالله ورسوله، وعلى
آله وصحبه وسلم .

٢٧ رجب سنة ١٣٨١ هـ
٤ يناير سنة ١٩٦٢ م

فهرس

الجزء الثالث من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح »

صفحة
٣ الحسن بن أيوب ، يتحدث عن اضطراب النصارى في اتهامهم الإسلام .
١١ احتجاج « بطريرك الاسكندرية » على البدع « الكنيسة » .
١٧ قسطنطين وأثره في الديانة النصرانية .
٢٤ عيد الفصح عند النصارى واليهود .
٢٦ قصة « وجود الصليب » واكتشافه .
٢٨ استبداد الملوك النصارى مع المخالفين لهم في الدين .
٣٣ مجمع القسطنطينية ـ ولعنهم المخالفين لأفكارهم .
٣٤ ظهور أهل الكهف في عهد (ثذوس)
٣٧ مجمع (أفسس) لمناقشة مقالة (نسطورس) .
٤٥ اختلاف طوائف النصارى في « الولادة والصلب » .
٤٣ ابن تيمية يناقش (المتحدث باسم المسيحية المحرفة) من وجوه .
٧٣ وجوه اتفاق القائلين « بوحدة الوجود » كابن عربي ، والقائلين باتحاد « اللاهوت والناسوت » من النصارى .
٨٤ الردّ على خرافة حلول « اللاهوت » في « الناسوت » .
٨٨ ومن خرافات النصارى ، تمثيل حلول عيسى ـ بالكلمة الموجودة في العقل

صحيفة

٩٣ الردّ على من يدعى المشابهة بين عقيدة المسيحيين فى « المسيح » وعقيدة المسلمين فى « أزلية القرآن » .

١٠٤ كيف يصلب الإله ويموت ؟

١١٧ الإمام أحمد كره أن يتكلم فى « مسألة حلول كلام الله فى العباد » بنفى و إثبات .

١٢٢ بدأ اعتناق الحكومات للدين المسيحى .

١٢٥ ردود مقنعة على الذين يدعون حلول اللاهوت فى الناسوت .

١٣١ الكلام عن الله بغير علم .

١٣٧ مناظرة بين مسلم ونصرانى ـ حول التثليث عند النصارى وتوحيد الصفات عند المسلمين .

١٤٠ الفرق بين (توحيد الصفات) و (القول بالتجسيم) .

١٧٣ قول النصارى فى عقيدتهم . أقبح قول قاله أهل الملل .

١٩٣ من النصارى من يجعل مريم إلهاً مع الله .

١٩٦ لفظ (الابن) و (روح القدس) قد ورد فى (الإنجيل) فى حق غير المسيح .

١٩٩ من ضلال المسلمين ـ من قال بالاتحاد أو الحلول .

٢٠٣ بحث منطقى كلامى حول الصفات ـ هل هى جواهر أو أعراض ؟

٢١٣ أرسطو . . . والمقولات العشر .

٢١٤ فلاسفة الملل ، أرادوا أن يقربوا بين ما يراه أرسطو ، وبين ما تقرره أديانهم .

صفحة

٢٢٨ المسيحيون يرون أن شريعة « التوراة » شريعة العدل ، وأن شريعة « الإنجيل » شريعة الفضل ـ وأنه لا حاجة بالناس إلى شريعة الإسلام ـ وابن تيمية يرد عليهم .

٢٣٥ نماذج مما في « الشريعة الإسلامية » من فضل ـ عما في الشريعتين السابقتين

٢٤٠ (شريعة القرآن) هي الوسط بين (شدة التوراة) و (لين الإنجيل) .

٢٥٨ على المسيحين ، إذا أرادوا أن يكون احتجاجهم بالتوراة والإنجيل علمياً ، أن يقيموا الأدلة على نبوة من يحتجون بكلامهم .

٢٦٠ لا يقوم على الباطل دليل صحيح .

٢٦٣ هل خالف محمد صلى الله عليه وسلم ، في الخبريات الأنبياء السابقون ؟

٢٧٥ هل من لم تبشر به النبوات ليس بنبي ؟

٢٩٩ شهادات الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

٣٢١ داود يبشر في مزاميره بمحمد صلى الله عليه وسلم .

٣٢٤ الديانات السابقة بشرت بمحمد والمسيح .

٣٢٦ أشعيا يتحدث عن مكة شرفها الله .

٣٢٨ أشعيا يصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٣٣٢ دانيال يصف الأمة المحمدية .

الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨ هـ

قدم له وأشرف على طبعه

علي السيد صبح المدني

الجـــزء ٤

مطبعة المدني

٦٨ شارع العباسية — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

وقال دانيال عليه السلام — وذكر محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه فقال : « ستنزع فى قسيك إغراقاً ، وترتوى السهام بأمرك يامحمد ارتواء » .

فهذا تصريح بغير تعريض ، وتصحيح ليس فيه تمريض .

فإن نازع فى ذلك منازع فليوجد لنا آخر ، اسمه محمد ، له سهام تنزع ، وأمر مطاع لا يدفع .

وقال دانيال النبي أيضاً ، حين سأله بخت نصر ، عن تأويل رؤيا رآها ، ثم نسيها : رأيت أيها الملك صنما عظيما قائماً بين يديك ، رأسه من ذهب ، وساعداه من الفضة ، وبطنه وفخذاه من النحاس ، وساقاه من الحديد ، ورجلاه من الخزف ، ورأيت حجراً لم تقطعه يد إنسان ، قد جاء وصك ذلك الصنم ، فتفتت وتلاشى ، وعاد رفاتا ، ثم نسفته الرياح ، فذهب وتحول ذلك الحجر ، فصار رجلا عظيما حتى ملأ الأرض كلها ، فهذا ما رأيت أيها الملك ؟

فقال بخت نصر : صدقت فما تأويلها ؟

قال دانيال : أنت الرأس الذى رأيته من الذهب ، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة ، وهما دونك ، ويقوم بعدهما مملكة أخرى وهى دونها ، وهى التى تشبه النحاس ، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذى يدق كل شيء .

فأما الرجلان التى رأيت من خزف ، فمملكة ضعيفة ، وكلمتها سخيفة .

وأما الحجر الذى رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم فدقه ، فهو نبي يقيمه

الله إله السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية ، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى تمتلىء منه الأرض ومن أمته ، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا. فهذا تعبير رؤياك أيها الملك .

قلت : فهذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم لا بعث المسيح ، فهو الذى بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها ، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته ، في مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوساطها .

فصل

قالوا : وقال دانيال النبي أيضاً : « سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك فى غيرهم ؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه، فقال : السلام عليك يادانيال ، إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا على ، وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فسلت عليهم بخت نصر ، فقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ، وهدم مسجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راض عنهم ، ولا مقيلهم عثرات ، فلا يزالون فى سخطى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبى بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر ، وأرسلت إليها ملاكى وبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته ، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلى ، وأرقيه من سماء

إلى سماء حتى يعلو فأدنيه، وأسلم عليه وأوحى إليه، ثم أرده إلى عبادى بالسرور والغبطة ، حافظاً لما استودع صادقاً فيما أمر ، يدعو إلى توحيدى باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى ، فيكذبونه ويؤذونه .

ثم سرد دانيال قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أملاه عليه الملك ، حتى أوصل آخر أيام أمته بالنفخة ، وانقضاء الدنيا .

وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرءونها ، ويقولون: « لم يظهر صاحبها بعد » .

قال أبو العالية : فأنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم وأخباركم وسيرتكم ولحون كلامكم ، وكان أهل الناحية – يعنى أرض السوس حيث دانيال مدفون بها – إذا أجدبوا كشفوا عن قبره ، فيسقون ، فكتب أبو موسى فى ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر : أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، وادفنه بالليل فى واحد منها ، لئلا يفتتن الناس به .

فصل

قالوا : قال كعب – وذكر صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى التوراة ، ويريد بها التوراة التى هى أعم من التوراة المعينة – : أحمد عبدى المختار ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ويعفو ويغفر، مولده بكة، وهجرته طابا ، وملكه بالشام ، وأمته الحامدون ، يحمدون الله على كل نجد ، ويسبحونه فى كل نزلة ، وينضون أطرافهم ويأتزرون على أنصافهم ، وهم رعاة الشمس ، ومؤذنهم فى جو السماء ، وصفهم

فى الجهاد والصلاة سواء ، رهبان بالليل : أسد فى النهار : لهم دوى كدوى النحل : يصلون الصلاة حيث ما أدركتهم ولو على كناسة » ،

فصل

قالوا : قال ابن أبى الزناد : حدثنى عبد الرحمن بن الحارث عن عمر بن حفص : وكان من خيار الناس: قال: « كان عند أبى وجدى ورقة يتوارثونها قبل الإسلام ، فيها اسم الله وقوله الحق ، وقول الظالمين تبار ، هذا الذكر لأمة تأتى فى آخر الزمان ، يتزرون على أوساطهم ، ويرصدون أطرافهم ، ويخوضون البحور إلى أعدائهم : فيهم صلاة لو كانت فى قوم نوح ما هلكوا بالطوفان ، وفى ثمود ما هلكوا بالصيحة » .

فصل

قالوا : قال أشعياء — وذكر قصة العرب فقال : « ويدوسون الأمم دياس البيادر ، وينزل البلاء بمشركى العرب ، وينهزمون بين يدى سيوف مسلولة وقسى موترة من شدة الملحمة » . وهذا إخبار عما طرأ بعبدة الأوثان من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ويوم حنين ، وفى غيرها من الوقائع .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

فصل فى كلمة الإنجيل وتفسيرها

قالو : وقال يوحنا الإنجيلى : قال يسوع المسيح فى الفصل الخامس عشر من إنجيله « إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء » .

وقال يوحنا التلميذ أيضاً ، عن المسيح أنه قال لتلاميذه : « إن كنتم تحبونى

فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يثبت معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لم يطق العالم أن يقبلوه ، لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتاماً لأنى سآتيكم عن قريب » .

وقال يوحنا : قال المسيح : « من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى ، وعنده يتخذ المنزل ، كلمتكم بهذا لأنى عندكم مقيم ، والفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم ، استودعتكم وأمى ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبونى ، كنتم تفرحون بمضيِّ إلى الأب ، فإن أنتم ثبتم فى كلامى ، وثبت كلامى فيكم ، كان لكم كل ما تريدون ، وبهذا يمجد أبى » .

وقال أيضاً : « إذا جاء الفارقليط الذى أبى أرسله ، روح الحق الذى من أبى ، هو يشهدلى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ، ولا تشكوا فيه » .

وقال أيضاً : « إن خيراً لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أذهب ، لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فهو يوبخ العالم عن الخطيئة ، وإن لى كلاماً كثيراً ، أريد أن أقوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب » .

وقال يوحنا الحوارى : قال المسيح : « إن أركون العالم سيأتى ، وليس لى شىء » .

وقال متّى التلميذ : قال المسيح : ألم يقروا أن الحجر الذى أرذله البناءون ، صار رأساً للزاوية من عند الله ، كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ، ومن أجل ذلك أقول لكم : إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى ، تأكل ثمرها ، ومن سقط على هذا الحجر ينشرح ، وكل من سقط هو عليه يمحقه » .

وقال يوحنا التلميذ ، فى كتاب رسائل التلاميذ المسمى بفراكسيس :

«ياأخاى . إياكم أن تؤمنوا بكل روح ، لكن مَيِّزُوا الأرواح التى من عند الله من غيرها ، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدانياً ، فهى من عند الله ، وكل روح لا يؤمن بأن يسوع المسيح جاء ، وكان جسدانيا ، فليست من عند الله ، بل من المسيح الكذاب ، الذى سمعتم به ، وهو الآن فى العالم » .

وقال شمعون الصفا ، رئيس الحواريين ؛ فى كتاب فراكسيس : « إنه قد حان أن يبتدىء الحكم من بيت الله ابتداء » .

قلت : وهذا اللفظ ، لفظ الفارقليط ، فى لغتهم ذكروا فيه أقوالا :

قيل : إنه الحماد ، وقيل : إنه الحامد ، وقيل : إنه المعز ، وقيل : إنه الحمد ، ورجح هذا طائفة ، وقالوا : الذى يقوم عليه البرهان فى لغتهم أنه الحمد : والدليل عليه قول يوشع : من عمل حسنة تكون له فار قليط جيد ــ أى حمد جيد ــ وقولهم المشهور فى مخاطبتهم : فارقليط وفارقليطان وما زاد على الجميع ، أى حمد ، ومنه كما يقول تحويد ، ومنه رويده يأتى بعد قوله : وواحد منهما بقى عبرانيا .

ومن قال : معناه المخلص ، فيحتجون بأنها كلمة سريانية ، ومعناها المخلص ، وقالوا : هو مشتق من قولنا : « فار » ويقال بالسريانية « فاروق » بجعل فارق .

قالوا : ومعنى « ليط » كلمة يراد بها التثبت والتقدير ، كما يقال فى العربية : رجل هو ، وحجر هو ، وبدر هو ، وذكر هو .

قالوا : وكذلك يراد فى السريانية « ليط » .

والذين قالوا : هو المعز ، قالوا : هو فى لسان اليونان ، المعز .

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم يكن لغته سريانية ولا يونانية ، بل عبرانية .

ويجاب عنه بأنه تكلم بالعبرانية ، وترجم عنه بلغة أخرى ، كما أملوا أحد

الأناجيل باليونانية ، وآخر بالسريانية ، والآخر بالرومية ، وواحد منها بقي عبرانيا .

وقد اختلف فيه ، فمن النصارى من قال: هو روح نزلت على الحواريين ، وقد يقولون : إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ، ففعلت الآيات والعجائب ، ولهذا يقول من خبر أحوال النصارى : إنه لم ير أحد منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفارقليط الموعود به .

منهم من يزعم أنه المسيح نفسه، لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوما ، وكونه قام من قبره .

وتفسيره بالروح باطل ، وأبطل منه تفسيره بالمسيح لوجوه :

منها : أن روح القدس مازالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده ، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب: أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده ، وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين « اللهم أيده بروح القدس » وقال: « إن روح القدس معك مازلت تنافح عن نبيه » .

وإذا كان كذلك ولم يسم أحد هذه الروح فارقليطا، دل على أن الفارقليط أمر غير هذه .

وأيضا فمثل هذه مازالت يؤيد بها الأنبياء والصالحون وما بشر به المسيح أمر عظيم ، يأتي بعده أعظم من هذا .

وأيضاً فإنه وصف الفارقليط بصفات لا تناسب هذا وإنما تناسب رجلا يأتي

بعده نظيراً له ، فإنه قال: «إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطا آخر يثبت معكم إلى الأبد ».

فقوله «فارقليطا آخر » دل على أنه ثان لأول كان قبله ، ولم يكن معهم فى حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليهم روح ، فعلم أن الذى يأتى بعده نظيراً له ، ليس أمراً معتادا يأتى الناس .

وأيضاً فإنه قال « يثبت معكم إلى الأبد» وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر .

ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته ، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره . فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد .

وهذا يبين أن هذا الثانى صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول .

وهذا إنما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فإنه أخبر أن هذا الفار قليط الذى أخبر به ، يشهد له ، ويعلمهم كل شىء ، وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح ، وأنه يوبخ العالم على الخطيئة . فقال « والفارقليط الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم » .

وقال : « إذا جاء الفارقليط الذى أنى أرسله ، وهو يشهد لى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه » .

وقال « إن خيراً لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط » فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فهو يوبخ العالم على الخطيئة ، وإن لى كلاما كثيراً أريد أن أقوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذ جاء روح الحق ، ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب » .

فهذه الصفات والنعوت التى تلقوها عن المسيح ، لا تنطبق على شىء فى قلب .

بعض الناس ، لا يراه أحد ولا يسمع كلامه ، وإنما تنطبق على من يراه الناس ويسمعون كلامه ، فيشهد للمسيح ، ويعلمهم كل شيء ، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح ، ويوبخ العالم على الخطيئة ، ويرشد الناس إلى جميع الحق ، وهو لا ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبرهم بكل ما يأتي ، ويعرفهم جميع ما للرب العالمين .

وهذا لا يكون ملكا لا يراه أحد ، ولا يكون هدى ولا علما في قلب بعض الناس ، بل لا يكون إلا إنسانا عظيم القدر ، يخاطب الناس بما أخبر به المسيح . وهذا لا يكون إلا بشراً رسولا بل يكون أعظم من المسيح ، فإن المسيح بين أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح من خطاب الناس في أمور عظيمة لا تحملها عقول أولئك ، ويعلم ما لا يعلمه المسيح ، ويخبر بكل ما يأتي وبما يستحقه الرب ، حيث قال : « وإن لي كلاماً كثيراً ، أريد أن أقوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ، ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للأب » .

وهذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات ، وعن ملائكته ، وعن ملكوته ، وعن ما أعده الله في الجنة لأوليائه ، وفي النار لأعدائه ، أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : «حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »

وقال ابن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم .

وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى : (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) قال : ما يؤمنك أن لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت ، وكفرك بها تكذيبك بها .

فقال لهم المسيح عليه السلام : « إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ،

ولكنكم لاتستطيعون حمله » وهو الصادق المصدوق فى هذا ولهذا ليس فى الإنجيل من صفات الله وصفات ملكوته ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة ، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة ، مع أن موسى كان قد مهد الأمر للمسيح ، ومع هذا فقد قال لهم المسيح « إن لى كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ، ولكنكم لاتستطيعون حمله » ثم قال : « ولكن إذا جاء روح الحق ، ذلك الذى يرشدكم إلى جميع الحق » وقال : « إنه يخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم بجميع ما للرب »

فدل هذا على أن هذا الفارقليط ، هو الذى يفعل هذا دون المسيح .

وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أرشد الناس إلى جميع الحق ، حتى أكمل الله له الدين ، وأتم به النعمة ، ولهذا كان خاتم الأنبياء فإنه لم يبق شيء يأتى به غيره ، وأخبر محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما يأتى من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال ، والجنة وأنواع نعيمها ، والنار وأنواع عذابها ، فلهذا كان فى القرآن من تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار ، وما يأتى من ذلك ، أمور كثيرة ، لاتوجد ، لا فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، وذلك تصديق قول المسيح : إنه يخبر بكل ما يأتى .

ومحمدٌ بعثه الله بين يدى الساعة ، كما قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه ، السبابة والوسطى » .

وكان إذا ذكر الساعة ، علا صوته ، واحمر وجهه ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش .

وقال : « إنى نذير لكم بين يَدَىْ عذاب شديد » .

وقال : « أنا النذير العريان » .

فأخبر من الأمور التى تأتى فى المستقبل بما لم يخبر به نبى من الأنبياء ، كما نعته به المسيح حيث قال : « إنه يخبركم بكل ما يأتى » ولا يوجد مثل هذا

قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين .

وأيضاً فقال : « ويعرفكم جميع ما للرب » فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله ، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات ، وماله من الحقوق وما يجب من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، بحيث يكون ما يأتى به جامعاً لكل ما يستحقه الرب .

وهذا لم يأت به أحد غير محمد ، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة ، هذا كله .

ومعلوم أن ما نزل على الحواريين ، لم يكن فيه هذا كله ولا نصفه ولا ثلثه ، بل ما جاء به المسيح أعظم مما جاء به الحواريون ، وهذا الفارقليط الثانى جاء بأعظم مما جاء به المسيح .

وأيضاً ، فإن المسيح قال : « إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أبى ، هو يشهد لى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه » .

فبين «أنه أخبركم به لتؤمنوا به إذا جاء ولا تشكوا فيه ، وأنه يشهد له» وهذه صفة من بشر به المسيح ، ويشهد للمسيح كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦]

وأخبر أنه يوبخ العالم على الخطيئة ، ولم يوجد أحد وبخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس ، ووبخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان ، ووبخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ، ووبخ المجوس ، وكانت مملكتهم أعظم الممالك ، ووبخ أهل الكتابين ، اليهود والنصارى ، وقال فى الحديث الصحيح عنه « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب »

لم يقتصر على مجرد الأمر والنهى ، بل وبخهم وقرعهم وتهددهم .

وأيضاً فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع .

وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو وحى يسمعه ، ليس هو شيئاً تعلمه من الناس ، أو عرفه باستنباطه ، وهذه خاصة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المسيح ومن قبله من الأنبياء ، كانوا يتعلمون من غيرهم ، مع ما كان يوحى إليهم فعندهم علم ما يسمعونه من الوحى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم ينطق إلا بما يسمعه من الوحى ، فهو مبلغ لما أرسل به ، وقد قيل له : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة ٦٧] فضمن الله له العصمة إذا بلغ رسالاته ، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق ، وألقى إلى الناس ما لم يمكن غيره من الأنبياء إلقاءه ، خوفاً أن يقتلوه ، كما يذكرون عن المسيح وغيره .

وقد أخبر المسيح بأنه لم يذكر لهم جميع ما عنده ، وأنهم لا يطيقون حمله .

وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم ، إذا أخبرهم بحقائق الأمور .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أيده الله تأييداً ، لم يؤيده لغيره ، فعصمه من الناس ، حتى لم يخف من شىء يقوله ، وأعطاه من البيان والعلم ، ما لم يؤته غيره .

فالكتاب الذى بعث به ، فيه من بيان حقائق الغيوب ، ما ليس فى كتاب غيره .

وأيد أمته تأييداً أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم ، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح : « إن لى كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ، ولكن لا تستطيعون حمله » .

وروى أن المسيح قال : « جئتكم بالأمثال ، وهو يجيئكم بالتأويل » .

ولا ريب أن أمة محمداً أكمل عقولا ، وأعظم إيماناً ، وأتم تصديقاً وجهاداً .

ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية ، وإيمانهم ، أعظم .

وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٥ ـ ٢٨٦] ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قال : قد فعلت .

وأيضاً فإنه أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له ، وأنه يعلمهم كل شىء ، وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح ، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس ، لا يكون هذا شيئاً فى قلب طائفة قليلة .

ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه أظهر أمر المسيح وشهد له بالحق ، حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض ، وعلموا أنه صدق المسيح ونزهه عما افترته عليه اليهود ، وعما غلت فيه النصارى ، فهو الذى شهد له بالحق .

ولهذا لما سمع النجاشى من الصحابة ما شهد به محمد للمسيح قال لهم : « ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود » .

وجعل الله أمة محمد شهداء على الناس ، يشهدون عليهم بما علموه من الحق ، إذ كانوا وسطاً عدلا ، لا يشهدون بباطل ، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا ، بخلاف من جار فى شهادته فزاد على الحق أو نقص منه ، كشهادة اليهود والنصارى فى المسيح .

وأيضاً ، فإن معنى الفارقليط ، إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز ، فهذا الوصف ظاهر فى محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه وأمته ، الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد ، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته .

ولما كان حماداً جوزى بوصفه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكان اسمه محمداً وأحمد .

وأما محمد على وزن مكرم ومعظم ، وهو الذى يحمد حمداً كثيراً مبالغاً فيه ، ويستحق ذلك ، فلما كان أحمد ، كان محمداً ، وفى شعر حسان بن ثابت :

وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهٰذَا مُحَمَّدُ

وأما أحمد ، فهو أفعل التفضيل ، هو أحمد من غيره ، أى أحق بأن يكون محموداً ، أكثر من غيره ، يقال هذا أحمد من هذا ، أى هذا أحق بأن يحمد من هذا ، فيكون فيه تفضيل له على غيره فى كونه محمداً .

فلفظ « محمد » يقتضى فضله فى الكمية ، ولفظ « أحمد » يقتضى فضله فى الكيفية .

ومن الناس من يقول : أحمد ، أى أكثر حمداً من غيره .

فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحماد .

وقال من رجح ، أن معنى الفارقليط فى لغتهم هو الحمد كما تقدم : وإذا كان كذلك فهو ماجاء فى القرآن : « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » قالوا : ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد ، مثل ما نقول فى لغتنا : ضارب ومضروب .

وأما من فسره بالمعز ، فلم يعرف قط نبى أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد ، فهو أحق باسم المعز من كل إنسان .

وأما معنى المخلص ، فهو أيضاً ظاهر فيه ، فإن المسيح هو المخلص الأول .

كما ذكر فى الإنجيل ، وهو معروف عند النصارى أن المسيح صلوات الله عليه قد سمى مخلصاً ، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول ، وقد بشر بفارقليط آخر ، فإنه قال : « وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطا آخر ، يثبت معكم إلى الأبد » ، فهذا بشارة بمخلص ثان يثبت معهم إلى الأبد ، والمسيح هو المخلص الأول .

وأما ما ينزل فى القلوب ، فلم يسمه أحد مخلصاً ، ولا فارقليطاً ، ولا يجوز أن يفسر كلام المسيح إلا بلغته ومعانيه المعروفة فى لغته ، التى خاطب بها ، وكذلك سائر الأنبياء ، بل وسائر الناطقين .

وقد وصف هذا المخلص الثانى بأنه يثبت معهم إلى الأبد .

ومحمد هو المخلص الذى جاء بشرع باقٍ إلى الأبد : لا ينسخ .

وأيضاً فإن فى الإنجيل ، إنجيل يوحنا ، أن المسيح قال : « إن أركون العالم سيأتى ، وليس لى شىء » .

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم عظيم القدر ، والأراكنة : العظماء ، وقد كانوا يقولون عن المسيح : إن أركون الشياطين بعينه ، أى عظيم الشياطين ، وهو من افتراء اليهود على المسيح .

فقول المسيح عليه السلام « أركون العالم » إنما ينطبق على عظيم العالم ، وسيد العالم ، وكبير العالم .

وقد أخبر أنه سيأتى ، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح أو أحداً مثله .. ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم وأطاعه العالم ، غير محمد صلى الله عليه وسلم وهذا من بشارة المسيح به .

وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما كان أول أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى ، رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور ، أضاءت له قصور الشام ببصرى » .

وبالجملة، فمعلوم باتفاق أهل الأرض، والاضطرار، أنه لم يأت بعد المسيح من سادالعالم، باطناً وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع فى السر والعلانية فى محياه وبعد مماته، فى جميع الأعصار، وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً، أحد، غير محمد، فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله فى الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء.

محمد أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم ونوه بذكرهم وتعظيمهم، فبه آمن بالأنبياء والرسل، مثل موسى والمسيح وغيرهما، أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم.

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب، كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب فى المسيح، وكانوا يقدحون فى داود وسليمان وغيرهما، بما هو معروف عندهم.

وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل مالم يكونوا يعرفونه، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم صدق المسيح فى أخباره: بأنه أركون العالم، فقال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر: آدم فمن دونه تحت لوائى، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا.

وهو صاحب لواء الحمد، وهو صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة، فهو سيد العالمين حقاً، وهذا مطابق لقول المسيح: «إنه أركون العالم» فهو أركون الآخرين فى الدنيا والآخرة، وهو أركون الأولين والآخرين فى الآخرة.

وقول المسيح: «إن أركون العالم سيأتى، وليس لى شىء» تضمن الأصلين

بإثبات الرسول ، وإثبات التوحيد وأن الأمر كله لله ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وقول المسيح : « ليس لي شيء » تنزيه له مما نُسِبَ إليه من الربوبية ، وهذا النفي يشترك فيه جميع الخلق ، قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) [آل عمران ١٢٨] وقال تعالى : (قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَاأَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَاأَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَايُوحَى إِلَيَّ)[الأنعام ٥٠] وقال : (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (أي ملجأ وملاذا) إِلاَّ بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)[الجن : ٢١ ـ ٢٣]وقال تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ) [الأعراف : ١٨٨]

وأيضا ففي نبوة أشعيا أنه وصف محمداً بأنه أركون السلم ، والسلم هو السلام الإسلام ، فهو يبين أنه سيد دين الإسلام .

ولا ريب أن الأنبياء كلهم بعثوا بدين الإسلام ، لكن لم يظهر هذا الدين واسمه ، وانتشر ذكره من بينهم في الأرض ، كما ظهر لمحمد ، فمحمد أركون الإسلام الذي يجمع كل خير وبر ، كما أن إبليس أركون الشر ، قال تعالى عن نوح : (يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[يونس : ٧١ ـ ٧٢]

فهذا نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

وقال تعالى عن إبراهيم : (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [البقرة : ١٣٠ - ١٣٢]، (وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) [النمل : ٤٤] وقالت بلقيس : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، [النحل : ٤٤]. وقالت السحرة ، لما أسلموا ، وأراد فرعون قتلهم : (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) ، [الأعراف : ١٢٦] وَقَالَ:(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) ، [المائدة ٤٤]؛ وَقَالَ :(وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُون) ، [المائدة ١١١] وقال تعالى : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران ٥٢ ، ٥٣]

فإن قيل : فقد سمى المسيح الفارقليط روح الحق ، وسماه روح القدس .

قيل : قد قال يوحنا فى كتاب ، أخبار الحواريين المسمى «افراكيس» : « يا أحبابى إياكم أن تؤمنوا بكل روح ، لكن ميزوا الأرواح التى من عند الله من غيرها ، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء ، فكان جسدانياً ، فهى من عند الله ، وكل روح لا يؤمن بأن المسيح قد جاء ، فكان جسدانيا ، فليست من عند الله ، بل من المسيح الكذاب الذى هو الآن فى العالم» .

وإذا كان كذلك علم أن الروح - عندهم - يتناول النبى المرسل من البشر .

وجبريل الذى نزل بالوحى على محمد ، هو روح القدس ، وهو روح الحق كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل ١٠٢] وقال : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ) [الشعراء : ١٩٣]وقال : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة ٩٧] وهذا الروح إنما جاء بمجيء محمد ، والكلام الذى نزل به ، هو الذى بلغه محمد ، ولهذا قال الله تعالى : (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) فاصطفى الله جبريل من الملائكة ، واصطفى محمداً من البشر ، ولهذا يشير القول الذى هو القرآن إلى نزول هذا تارة ، وإلى نزول هذا تارة ، كما قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) [التكوير : ٢٠ ، ٢١] فهذا الرسول هنا جبريل وقال فى الأخرى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الحاقة : ٤٠ ـ ٤٣] فهذا الرسول هنا محمد ، وأضافه إلى كل منهما بلفظ الرسول ، لتضمنه أنه بلغه عن مُرْسِله ، لم يقل : إنه لقول ملك ، ولا نبىٌّ بل كَفَّرَ من قال : إنه قول البشر ، كما ذكر ذلك عن الوحيد ، وقد قال تعالى فى القرآن : (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [الطلاق : ١٠ ـ ١١] ومعلوم أن الرسول نفسه لم ينزله بل أبدل الرسول من الذكر ، لأن الرسول جاء بالذكر .

ولما كان الرسول الملكى والرسول البشرى والذكر المنزل أمورا متلازمة ، يلزم من ثبوت واحد ، ثبوت الآخرين ، ومن الإيمان بواحد ، الإيمان بالآخرين

فيلزم من كون القرآن حقاً ، كون جبريل ومحمد حقاً ، وكذلك يلزم من كون محمد حقاً ، كون جبريل والقرآن حقاً ، ويلزم من كون جبريل حقاً كون القرآن ومحمد حقاً .

ولهذا جمع الله بين الإيمان بالملائكة وبالأنبياء من جهتين ، من جهة أنهم أخبروا به قبل أن يبعث بسنين كثيرة ، فكان الأمر كما أخبروا به . وهذا آية لنبوتهم .

وإخبارهم بنبوته ، دليل على نبوته ، فصار ما في الكتب المتقدمة من خبره ، دليلا على نبوة من قبله ، وعلى نبوته .

وكما أن إخباره هو أيضاً عنهم مع بعد العهد خبراً لم يتعلمه من بشر دليلا على نبوته وقد أخبر بنبوتهم ، فثبتت نبوته ونبوتهم صلى الله عليهم أجمعين .

الجهة الثانية أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه ، ولا تشاعر ، لم يأخذوا عنه ، ولم يأخذ عنهم .

وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة ، يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطىء . فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر ، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة ، علم أن كلا من المخبرين صادق . قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) [يوسف : ٧] وقص قصته في السورة إلى أن قال :(ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) [يوسف : ١٠٢ ـ ١٠٦] إلى قوله : (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف : ١٠٨ ـ ١١١] وقال تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً) [الكهف: ٨٣] وقال : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً) [الإسراء : ٨٥] وقال : (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً) [الكهف : ٩] وقال تعالى ، لما قص قصة نوح فى سورة هود ، وهى أطول ما قصه الله فى القرآن من قصة نوح :(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود : ٤٩] فذكر سبحانه أن هذا الذى أوحاه إليه من أنباء الغيب ، ما كان يعلمه هو ولا قومه من هذا .

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك ، لا من أهل الكتاب ، ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلا قومه ، وقومه يعلمون ذلك منه ، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك . ويعلمون أيضاً أنه هو لم يكن تعلم ذلك ، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم ، وهم لا يعلمون ذلك ، صار هذا حجة على قومه ، وعلى من بلغه خبر قومه.

ومثل هذا ما أخبرهم عن قصة آدم ، وسجود الملائكة له ، وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة ، وهبطه هو وزوجته ، وأخبرهم عن نوح ودعائه على قومه ، ومكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وهذا فى التوراة الموجود بأيدى أهل الكتاب مقدار لبثه فى قومه قبل الغرق وبعده .

وأخبرهم عن قصة الخليل وما جرى له مع قومه ، وإلقائه فى النار ، وذبح ولده ، ومجىء الملائكة إليه فى صورة ضيفان ، وتبشيره بإسحاق ويعقوب ، وذهاب الملائكة إلى لوط ، وما جرى للوط مع قومه ، وإهلاك الله مدائن قوم لوط ، وقصة يعقوب مع بنيه ، كقصة يوسف وما جرى له بمصر ، وقصة موسى مع فرعون ، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة ، وآياته كالعصا واليد البيضاء والقمل والضفادع والدم ، وفلق البحر ، وتظليل الغمام على بنى إسرائيل ، وإطعامهم المنّ والسلوى ، وانفجار الماء من الحجر اثنى عشر عينا لسَقيهم ، وعبادتهم العجل ، وقتل بعضهم بعضاً لما تاب الله عليهم ، وقصة البقرة ، ونتق الجبل فوقهم ، وقصة داود ، وقتله لجالوت ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، وقصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وغير ذلك من أحوال بنى إسرائيل إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى ، وعيسى ابن مريم ، وأحوال المسيح وآياته ، ودعائه لقومه . والآيات التى بُعِثَ بها ، وتفاصيل ذلك ، وذكر قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار ، مفصلة مبينة بأحسن بيان ، وأتم معرفة ، مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادعى النبوة ، أنه لم يتعلم هذا من بشر ، بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك ، ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك ، لا يهودى ولا نصرانى ولا غيرهم ، كان هذا من عظيم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبى أو من أخذ عن نبى فإذا لم يكن هو قد أخذه عن نبى ، تعيّن أن يكون نبياً .

ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ، من طرق .

أحدها : ـ أن قومه المعادين له ، الذين هم من أحرص الناس على القدح في نبوته ، مع كمال علمهم ، لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر ، اطمنوا عليه بذلك وأظهروه ، فإنهم ـ مع علمهم ـ بحاله يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان ، ومع حرصهم على القدح فيه ، يمتنع أن لا يقدحوا فيه ، ويمتنع أن لا يظهر ذلك .

الثانى : ـ أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون : إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك .

الثالث : ـ أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم ، لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه ، ولو أظهروا ذلك ، لنقل ذلك وعُرِفَ ، فإن هذا من الحوادث التى تتوفر الهمم والدواعى على نقلها .

الرابع : ـ أنه حين بعث ، كان الناس إما مشركا ، وإما كتابياً ، فلم يكن هناك أحد على الدين الذى دعا إليه .

وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين من قريش وغيرهم ، لم يكونوا يعرفون هذه القصص ، ولو قدّر أنهم كانوا يعرفونها ، فهم أول من دعاهم إلى دينه فعادوه وكذبوه ، فلو كان فيهم من علمه ، أو يعلم أنه تعلّم من غيره ، لأظهر ذلك .

الخامس : ـ أن مثل هذا لو كان ، فلابد أن يعرفه ، ولو خواص الناس ، ولو كان فى أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك ، وكان ذلك يشيع ، ولو تواصوا بكتمانه ، كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية ، ولكان خواصه فى الباطن يعلمون كذبه ، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه فى الباطن ، كما عرف فى نظائر ذلك .

فكيف ، وكان أخص أصحابه ، وأعلمهم بحاله ، أعظمهم محبة وموالاة ؟ بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر ، فإن خواص أصحابه لا يعظمونه فى الباطن .

فإذا علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية المعاداة ، وكانوا يطلبون القدح فى نبوته بكل طريق ، يخبرون أنه لم يكن عندهم بشر يعلمه مثل هذا ، وأنه لم يكن فى قومه ولا بلده من يعرف هذا .

علم الناس ماعلمه قومه من أن هـذا إنما أنبأه به الله ، وكان هذا من إعلامه وآياته وبراهينه ، وهذا مما بين الله فى القرآن أنه من آياته ، وأنه حين أخبر قومه بهذا مع تكذيبهم وفرط عداوتهم له ، ولم يمكن أحداً منهم أن يقول له : بل فينا من كان يعلم ذلك ، وأنت كنت تعلم ذلك ، وقد تعلمته منا أو من غيرنا .

فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم ، مع فرط عداوتهم له ، آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولاهم يعلمون ذلك .

ولهذا لما كان بعضهم يفترى عليه فرية ظاهرة كانوا كلهم يعلمون كذبه ، وإذا اجتمعوا وتشاوروا فى أمره يعترفون أن هذا كذب ظاهر عليه ، كما كان بعضهم يقول : إنه مجنون ، وبعضهم يقول : إنه كاهن ، وبعضهم يقول : إنه ساحر ، وبعضهم يقول : إنه معلَّم ، تعلمه من بشر ، وبعضهم يقول : أضغاث أحلام .

فحكى الله أقوالهم ، مبينا ظهور كذب من قال ذلك ، وأنه قول ضال حائر ، قد بهره حال الرسول فحار فلم يدر مايقول ، كما قال تعالى :(تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأصِيلاً * قُلْ أنزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ إنَّهُ كَانَ غَفوراً رَحيماً) [الفرقان ١ ـ ٦] فأخبر عمن قال ذلك ، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب ، فإن هذه القصص المذكورة فى القرآن ، لم يكن بمكة من يعرفها ، فضلا عن أن يعليها كما قال :(وَمَا كُنتَ تَتْلو مِنْ قبلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بيمينكَ) [العنكبوت ٤٨] وقال : (مَا كُنتَ تعلَمُها أنتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قبْلِ هٰذا) [هود ٤٩] ولهذا قال : (قُلْ أنزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ) [الفرقان ٦] فأخبر أن هذا من علم من يعلم السر ، إذ كان البشر لا يعلمون ذلك إلا من جهة أخبار الأنبياء ، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء .

ثم ذكر ما اقترحوه فقالوا :(وَقالوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأكلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِى الأسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إليْهِ مَلَكٌ فيكونَ معهُ نذيراً * أوْ يُلقَى إليهِ كَنزٌ أَوْ تكُونَ له جنَّةٌ يأكلُ منها وَقالَ الظالمونَ : إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رجُلاً مسْحُوراً * انظُرْ كيفَ ضَرَبوا لكَ الأمْثالَ فضلُّوا فلاَ يَسْتَطِيعونَ سَبيلاً) [الفرقان ٧ ـ ٩] .

أمر بالنظر فى كيفية ماضربوه من الأمثال ، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهوراً لا يخفى على الناظر ، ولهذا قال : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » إذ كان ظاهراً أن هذا ضلال عن طريق الحق ، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلا .

وقال تعالى : (فإذا قَرَأْتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ منَ الشيطانِ الرَّجيمِ * إنَّهُ ليْسَ له سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ آمنوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يتوكلونَ * إنّما سلطانهُ عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالذِينَ هُمْ به مُشركونَ * وَإذا بدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ واللهُ أعْلَمُ بما يُنَزِّلُ قالوا : إنما أنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يعلَمُون * قُلْ نزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ منْ رَبِّكَ بالحَقِّ ليُثَبِّتَ الذِينَ آمنوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَد نَعْلَمُ

أنهم يقولون إنما يُعلِّمُهُ بشرٌ لِسانُ الذي يُلحِدون إليه أعجَميٌّ وهذا لِسانٌ عربيٌّ مُبينٌ) [النحل : ٩٨ ـ ١٠٣] فأخبر عما افتراه بعضهم من قوله : إنما يعلمه هذى القرآن بشر .

وكان بمكة مولى أعجمى لبعض قريش قيل : إنه مولى لبنى الحضرمى ، والنبى لا يحسن يتكلم باللسان العجمى ، وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا اللسان العربى .

فلما قالوا : إنه افترى هذى القرآن ، وأنه علمه إياه بشر ، قال تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون ﴾ أى يضيفون إليه هذى التعليم وينسبونه إليه ، وعبر عنه بلفظ الإلحاد ، لما فيه من الميل ، فقال : لسان هذا الشخص الذى قالوا : إنه يعلمه القرآن، لسان أعجمى، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذى التعليم إلى رجل عربى ، بل إلى هذى لأعجمى ، لكونه كان ربما يجلس أحياناً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك الأعجمى لا يمكنه أن يتكلم بهدى الكلام العربى ، بل هو أعجمى ، ومحمد لا يعرف بالعجمية ، لكن غاية ذاك الأعجمى كعبد بنى الحضرمى أن يعرف قليلاً من كلام العرب الذى يحتاج إليه فى العادة ، مثل الألفاظ التى يحتاج إليها فى غالب الأوقات ، كلفظ الخبز ، والماء ، والسماء ، والأرض ، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من سور القرآن .

فَبَيَّنَ سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه ، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة فى تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك ، وإنما قالوا ماظهر بطلانه لكل أحد ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولا يخفى بطلانه ، بل ما يظهر كذبه لكل أحد .

فتبيّن أنه لم يمكنهم أن يقولوا : إنه تعلم أخبار الغيوب من أحد .

وهذه القصة قصة نوح ـ لاسيما قصته المستوفاة فى سورة هود كما تقدم ـ لا يعلمها إلا نبى أو من تلقاها عن نبىّ . فإذا عرف أنه لم ينقلها عن أحد عُلِمَ

أنه نبي، ولهذا قال تعالى في آخرها: (تلكَ منْ أنباء الغَيبِ نوحيها إليكَ ما كُنتَ تَعلَمُها أنت وَلا قومُكَ من قبلِ هذا فاصْبِرْ إنَّ العَاقبةَ للمتَّقين) [هود : ٤٩]؛ والقول في سائر القصص ، كالقول فيها .

وكما قال في سورة يوسف : (ذلكَ منْ أنباء الغَيبِ نوحيهِ إليكَ وَما كُنت لديْهمْ إذْ أجْمَعوا أمْرهمْ وَهمْ يَمكُرونَ) [يوسف : ١٠٢] وقال في سورة آل عمران ، لما ذكر قصة زكريا ومريم : (ذلكَ منْ أنباء الغَيبِ نوحيهِ إليكَ وما كنت لديْهم إذْ يُلقونَ أقلامَهمْ أيُّهمْ يَكفُلُ مَرْيَمَ وما كُنتَ لديْهمْ إذْ يَختَصِمونَ) [آل عمران : ٤٤] وقال في قصة موسى : (وما كُنتَ بجانبِ الغربيِّ إذْ قضيْنا إلى موسَى الأمرَ وما كُنتَ من الشَّاهدينَ * ولكنَّا أنشأْنا قرُوناً فتطاولَ عليهمُ العُمُرُ وما كُنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْينَ تَتلُو عليهمْ آياتِنا ولكنَّا كُنَّا مُرْسِلين * وما كُنتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا ولكنْ رحْمَةً منْ ربِّكَ) الآية [القصص ٤٤ ـ ٤٦] .

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر ، فنبه بقوله : « وما كنت لديهم » على أنك إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك ، إذ كان معلوماً عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك .

وقد قال تعالى : (قُلْ لوشاء اللهُ ما تلوتُهُ عليكمْ ولا أدْرَيكمْ به فقد لَبِثْتُ فيكمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أفلا تعقِلُونَ) بين بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب وإدراءهم ، أي إعلامهم به ، هو بمشيئة الله وقدرته ، لا من تلقاء نفسه ، كما قال قبل هذا : (وإذا تُتلَى عليهِمْ آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يرجونَ لقاءنا ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْهُ قل ما يكون لي أنْ أبدِّلَهُ مِنْ تلقاء نفسي إنْ أتبِعُ إلا ما يُوحَى إليَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ قُلْ لوشاء اللهُ ما تلوتُهُ عليكمْ ولا أدْرَيكمْ به) الآية [يونس ١٥ ، ١٦] .

فبيّن أنه لبث فيهم عمراً من قبله ، وهو لا يتلو شيئاً من ذلك ولا يعلمهم به فليس الأمر من جهته ، ولكن من جهة الله الذى لو شاء ما تلاه عليهم ، ولا أدراهم به ، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به ، هو من الإعلام بالغيوب الذى لا يعلمها إلا نبى ، وبيّن أن ذلك من الإرسال الدينىّ الذى يحبه الله ويرضاه ، لا من الكونىّ الذى قدره وقضاه ، وهو لا يحبه ولا يرضاه ، كإرسال الشياطين ولهذا كانوا يعرضون عليه أن يصير ملكا عليهم وأن يعطوه حتى يكون من أغناهم ، وأن يزوجوه ما شاء من نسائهم فيقول : « لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه » وهذه الثلاث هى مطلوب النفوس من الدنيا (السلطان والمال والنساء) فأعرض عن قبول الدنيا التى هى غاية أمانى طالبها ، وبين أنه لا يقدر على أن يدع ما أمر به من تبليغ الرسالة .

وقال تعالى : (وإنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أوحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِى علينا غَيْرَهُ وإذاً لاتَّخذُوكَ خليلاً * ولولا أنْ ثَبَّتْناكَ لقدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهمْ شيئاً قليلاً إذًا لأَذَقْناكَ ضِعفَ الحياةِ وضعف المماتِ ثم لا تَجِدُ لكَ علينا نصيراً وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجوكَ منها وإذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قليلاً * سُنَّةَ مَنْ قد أرسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تحويلاً) [الإسراء ٧٣ ، ٧٧] بين سبحانه أنهم طلبوا أن يمنعوه بكل طريق ، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته .

فمع الإرادة الجازمة ، والقدرة التامة ، يجب وجود المقدور ، وإذا تعذر أحدهما امتنع .

فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم ، فيغير ما أوحى إليه ، فعصمه الله ، وثبّته .

ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه ، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه ، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة ، أسوة بمن تقدمه من الرسل ، فإن الله كان

إذا أراد إهلاك أمة ، أخرج نبيها من بينها ، ثم أهلكها ، لا يهلكها وهو بين أظهرها ، كما قال تعالى : (وما كان اللهُ لِيُعَذِّبَهم وأنت فيهم وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرونَ) وهذا بعد قوله (وإذْ قالوا : اللّهمَّ إنْ كان هذا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأمطرْ علينا حِجَارَةً مِنَ السَّماء أوِ ائْتِنا بعذابٍ أليمٍ) قال تعالى : (وما كان اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهمْ وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يَسْتَغْفِرُونَ) فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم « بدر » وغيره .

فقوله : « إن كادوا ليفتنونك » إشارة إلى سعيهم فى إفساد إرادته وقوله : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض » إشارة إلى سعيهم فى تعجيزه .

وقال تعالى : (وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) [العنكبوت ٤٨] بيَّن سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة ، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه ، متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس : أنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ كتاباً ، ولا يخط كتاباً من الكتب ، لا المنزلة ولا غيرها ، لا يقرأ شيئاً مكتوباً ، لا كتاباً منزلا ولا غيره ، ولا يكتب بيمينه كتاباً ولا ينسخ شيئاً من كتب الناس ، لا المنزلة ولا غيره .

ومعلوم أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تلقيناً وحفظاً ، وإما أن يأخذ من كتابه ، وهو لم يكن يقرأ شيئاً من الكتب من حفظه ، ولا يقرأ مكتوباً . والذى يأخذ من كتاب غيره ، إما أن يقرأه ، وإما أن ينسخه ، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ .

قال تعالى : (وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ ربِّ العالَمِينَ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ وَإنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأوَّلِينَ أَوَ لم يكنْ لهم آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ علماءُ بنى إسرائيلَ) [الشعراء ١٩٢ ، ١٩٧] ،

إلى قوله (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل : إني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) [الشعراء ٢١٠ ، ٢٢٧] ، قال تعالى : (وإنه لفي زبر الأولين) وقال : (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ونزول الوحي عليه ، كما قال تعالى : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) . وقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) وقال : (وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر .

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته ، وعرشه وملائكته ، وخلقه السموات والأرض وغير ذلك ، بمثل ما أخبرت به الرسل قبله .

وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وبالعدل والصدق ، والصلاة والزكاة ، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش ، كما أمرت ونهت الرسل قبله .

والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة ، التي اتفقت عليها الرسل ،

التى لابد منها ، وهى الإسلام العام ، الذى لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره .

وأما السور المدنية ، ففيها هذا ، وفيها ما يختص به محمد صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج .

فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا ـ معاشر الأنبياء ـ ديننا واحد » قال الله تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ماوَصَّى به نُوحاً والذى أَوحَيْنا إِليكَ وماوَصَّيْنا به إبراهيمَ وموسَى وعيسى أَنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيهِ) [الشورى ١٣] ، وقال تعالى : (يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالحاً إِنِّى بما تَعْمَلُونَ عليمٌ * وَأَنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأَنا ربُّكُمْ فاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمرَهُمْ بَيْنَهُم زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بما لديهِم فَرِحونَ) [المؤمنون ٥١ ـ ٥٣] ، وقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلَمُونَ * مُنِيبِينَ إليهِ واتقوهُ وأَقيموا الصلاةَ ولا تكونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الذينَ فرَّقوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بما لديهِمْ فَرِحونَ) .

وأما الشرعة والمنهاج ، فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن : (لِكُلٍّ جعلْنا منكُمْ شرعةً ومنهاجاً) وقال : (ولِكُلِّ أُمَّةٍ جعلْنا منْسَكاً ليذكُرُوا اسم الله عَلَى مارزقَهُمْ من بَهِيمَةِ الأنعامِ فَكُلُوا منها وأطْعِموا القَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سخرْناها لَكُمْ لعلَّكُمْ تشكُرُونَ * لنْ ينالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِماؤُها ولَكِنْ ينالُهُ التَّقْوى منكُمْ) إلى قوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جعلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكوهُ) وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة ، فلذلك قال : (ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هوَ مُوَلِّيها) لم يقل : إنا جعلنا لكل وجهة كما قال فى المنسك والشرعة والمنهاج ، وقال تعالى : (وقالوا لولاَ يأْتينا بآيةٍ

من ربه أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مافى الصُّحُفِ الْأُولَى) فإنه إذا أتاهم ببيان ما فى الصحف الأولى ، مع علمهم بأنه لم يباشر أحد من أهل الصحف الأولى ، ولا استفاد منهم علماً ، كان هذا من أعظم الآيات من الله .

وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته، فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله ،ليس ذلك، كما يقوله بعض المتفلسفة ، كابن سينا وأمثاله : «إنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية أو العقل الفعال» ويقولون : إن النفس أو العقل ، هو اللوح المحفوظ وأن من اتصلت نفسه به علم ما علمته الأنبياء .

ويقولون «النبوة مكتسبة ،لأن هذه صفتها» ويقولون : «إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية» ويزعمون أنها اللوح المحفوظ،وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث فى الأرض ، فتكون عالمة بما يحدث فى الأرض، ، لأن العلم بالسبب ، يوجب العلم بالمسبب .

فإن هذا مبنى على مقدمات باطلة ، قد بسط الكلام على بطلانها فى موضع آخر .

منها : إثبات العقل الفعال .

ومنها : دعواهم أنه لا سبب للحوادث إلا حركة الفلك .

ومنها : أن المحرك له هو النفس .

ومنها : إيصال نفوسنا بتلك النفس .

والمقصود ــ هنا ــ أن هذا لو كان حقاً فإنما يفيد علماً بالمستقبل الذى تكون الحركة الحاضرة سبباً له .

أما ما قد مضى قبل ذلك بمئين أو ألوف من السنين ، فليس شىء من حركات الفلك حين مبعث الرسول ، كان سبباً له ، وإنما تكون الحركة الموجودة فى زمانه سبباً للمستقبل لا للماضى ، وحينئذ فلا يكون تحريك النفس للفلك سبباً للعلم بهذه الأمور ، ولا يكون ذلك هو اللوح المحفوظ، بل القرآن

المجيد في لوح محفوظ ، وهو في أم الكتاب ، (في كتابٍ مكنونٍ لا يمسّهُ إلاّ المطهّرون) وأخبر سبحانه أنه : (نزلَ بهِ الروحُ الأمينَ) وقال في آية أخرى : (قلْ نزّلهُ روحُ القدُسِ منْ ربّكَ بالحقّ) وقال في موضع آخر : (قلْ مَنْ كانَ عدُوّاً لجبريلَ فإنهُ نزّلهُ على قلبكَ بإذنِ اللهِ) وقال : (إنّهُ لقولُ رسولٍ كريمٍ * ذي قوّة عندَ ذي العرْشِ مكينٍ * مُطاعٍ ثمّ أمين * وما صاحبُكمْ بمجنونٍ * ولقدْ رآهُ بالأفُقِ المُبينَ * وما هوَ على الغيبِ بضَنينٍ * وما هوَ بقوْلِ شيطانٍ رجيمٍ * فأيْنَ تذهبونَ * إنْ هوَ إلاّ ذِكرٌ للعالمينَ * لمنْ شاءَ منكمْ أنْ يستقيمَ * وما تشاؤونَ إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ ربُّ العالمين) وقال تعالى : (اللهُ يصطفي منَ الملائكةِ رُسُلاً ومنَ النّاس) فذكر أنه قول رسول الله اصطفاه من الملائكة ، نزل به على رسول اصطفاه من البشر ، فقال : (إنهُ لقولُ رسُولٍ كريمٍ * وما هوَ بقوْلِ شاعِرٍ قليلاً ما تؤْمِنُونَ * ولا بقوْلِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرونَ * تنزيلٌ منْ ربِّ العالمينَ * ولو تقوّلَ علينا بعْضَ الأقاويلِ * لأخذْنا منهُ باليمينِ * ثمّ لقطعْنا منهُ الوَتينَ * فما منكمْ منْ أحدٍ عنهُ حاجزِينَ * وإنّهُ لتذكرةٌ للمتقينَ * وإنا لنعْلمُ أنّ منكمْ مُكذّبينَ * وإنّهُ لحسْرَةٌ على الكافرِينَ * وإنّهُ لحقُّ اليقينِ * فسبّحْ باسْمِ ربّكَ العظيم) فنزه كلا من الرسولين عما قد يشتبه به .

نزّه الملك أن يكون شيطاناً ونزّه البشر أن يكون شاعراً أو كاهناً ، وبيّن برهان ذلك وآيته فقال : (وما تنزّلت به الشّياطينُ * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنّهم عن السّمْع لمعزُولُون) فبيّن أنه ما يصلح لهم النزول به ، بل هم منهيون عن ذلك ، وهم ممتنعون عن ذلك ، لا يريدونه ، لمنافاته لمقصودهم ، وأنهم لو أرادوا ذلك ، لعجزوا عن ذلك ، فلم يستطيعوه ، إذ كانوا معزولين عن أن يسمعوه من الملأ الأعلى ، وهم إنما يقدرون على أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لم يسمعوه ، وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريداً له قادراً عليه .

فبيّن بقوله « وما ينبغى لهم » أنهم لا يريدون تنزيله ، وبقوله « وما يستطيعون » أنهم عاجزون عن تنزيله .

وأما كونهم لايريدون ، فلأنه لاينبغى لهم ، « وينبغى » مضارع بغى، يبغى أى طلب وأراد ، فالذى لا ينبغى للفاعل ، هو الذى لايطلبه ولا يريده ، إما لكونه ممتنعاً من ذلك ، أو لكونه ممنوعاً منه .

والشيطان إنما يريد الكذب والفجور ، لايريد الصدق والصلاح .

وما جاء به الرسول ، مناقض لمراد الشيطين غاية المناقضة ، فلم يحدث فى الأرض أمر أعظم مناقضة لمراد الشياطين من إرسال محمد ونزول القرآن عليه .

فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلا نقيضه ، وهم أيضاً ممنوعون من ذلك بحيث لا يصلح لهم ذلك ولايتأتى منهم ، كما أن الساحر لا ينبغى له أن يكون نبياً .

والمعروف بالكذب والفجور لاينبغى له مع ذلك أن يكون رسولا ، ولاأن يكون حاكماً ولاشاهداً ولا مفتياً إذ الكذب والفجور يناقض مقتضى الرسالة والحكم والشهادة والفتيا ، فكذلك مافى طبع الشياطين من إرادة الكذب والفجور، يناقض أن تتنزل بهذا الكلام الذى هو فى غاية الصدق والعدل ، لم يشتمل على كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد

ثم قال « وما يستطيعون » فإنهم عن سمع هذا الكلام لمعزولون بما حرست به السماء من الشهب ، كما قال عن الجن : (وأنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدْناها مُلِئتْ حَرَساً شَدِيداً وشُهُباً وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنها مقاعِد للسَّمْعِ فمَنْ يستمع الآنَ يجدْ لهُ شِهَاباً رَصَداً) وقد ذكرنا تواتر هذا الخبر وأن السماء — حين مبعثه — حرست حرساً لم يعهده الناس قبل ذلك ، ورأى الناس ذلك بأبصارهم ، فكانوا قد عاينوا ما أخبرهم به من الرَّمْيِ بالشهُب التى يرمى بها لطرد الشياطين ، فعزلوا بذلك عن سمع الملأ الأعلى ، وكان ماعاينه الكفار عن

الرمى الشديد العام الذى انتقضت به العادة المعروفة فى رمى الشهب، دليلاعلى سبب خارق للعادة، ولم يحدث - إذ ذاك - فى الأرض أمر لم تجرِ به العادة إلا ادعاء للرسالة، فلم يعرف قبله ولا بعده من نزل عليه الكلام كنزوله عليه.

إذ كان موسى عليه السلام إنما أنزلت عليه التوراة مكتوبة، لم تنزل عليه منجمة مفرقة ملقاة إليه حفظاً، حتى تحتاج السماء إلى حراسها عن استراق سمعها.

والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة.

لم ينزل كتاب مستقبل إلا من التوراة والقرآن كما قال تعالى: (قلْ فأتوا بكتابٍ منْ عندِ اللهِ هوَ أهدى منهما أتبعهُ إنْ كنتم صادقينَ) ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيراً كما فى قوله: (وماقدرُوا اللهَ حقَّ قدرهِ إذْ قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ منْ شَيْء قلْ: من أنزلَ الكتابَ الّذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس) إلى قوله: وهذا كتابٌ أنزلناهُ مُباركٌ مصدِّقُ الّذِى بينَ يدَيْهِ) وقال: (أفمنْ كانَ على بيِّنَةٍ منْ ربِّهِ ويَتلوهُ شاهدٌ منهُ ومنْ قبلهِ كتابُ موسى إمَاماً ورحمةً أولئِكَ يؤمنونَ به ومنْ يكفُرْ به منَ الأحزَابِ فالنَّارُ موعدهُ).

وقال سعيد بن جبير وغيره: الأحزاب هى الملل كلها، قال: وهذا تصديق قول النبى صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» وقرأ هذه الآية: (ومن يكفُرْ به منَ الأحزاب فالنار موعدهُ).

وقالت الجن: (إنَّا سَمِعنا كِتاباً أُنزِلَ منْ بعدِ موسى) الآية.

وقال النجاشى — لما سمع القرآن —: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة».

وقال ورقة بن نوفل للنبى صلى الله عليه وسلم: «يا ابن أخى هذا هو

الناموس الذى كان يأتى موسى » . وأيضاً فـكان معروفاً عندهم إخبار الـكهان عن الشياطين التى تسترق السمع .

فلما رأوا أن السماء قد حرست حرساً شديداً خلاف العادة ، علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع، وعلمت الجن ذلك كما تقدم ، وقد قالت الجن: (إنّا لمسْنا السماء فَوَجدْناها مُلئتْ حَرَساً شَديداً وشُهُباً * وأنّا كنّا نقْعُدُ منها مقاعد للسَّمْعِ فمَنْ يستَمعِ الآنَ يجدْ لهُ شِهَاباً رَصداً * وأنّا لا ندرِى أشرٌّ أُرِيدَ بِمن فى الأرْض أمْ أرادَ بهمْ رَبُّهم رشَداً) ، وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمى بالشهب ، وهذا أمر خارق للعادة ، حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم ، حتى نظروا ، هل الرمْىُ بالـكواكب التى فى الفلك أم الرمى بالشهب ؟ فلما رأوا أنه بالشهب ، علموا أنه لأمر حدث ، وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك ، حتى سمعت القرآن ، فعلمت أنه كان لأجل ذلك كما جاء فى الصحيحين عن ابن عباس قال : « انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالـكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ماحال بينكم وبين خبر السماء إلا لأمر حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الأمر الذى حدث. فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ، ماهذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال: فانطلقوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا :(ياقوْمَنا إنّا سَمِعنا قُرآناً عَجَباً * يَهْدِى إلى الرُّشْد فآمنّا به ولنْ نُشْرِكَ بربِّنا أحداً) فأنزل الله على نبيه: (قل أُوحىَ إلىَّ أنّهُ استمع نفرٌ منَ الجن

الجن) وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان الجن يستمعون الوحى فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ماسمعوا حقاً وما زادوه باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كان أحدهم لا يقعد مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب .

فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ماهذا إلا من أمر قد حدث ، فبث جنوده فإذا هم بالنبى صلى الله عليه وسلم يصلى بين جبلى نخلة فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض .

وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن السدى : زعم أن السماء لم تكن تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين لله ظاهر .

فكانت الشياطين قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون مايحدث فى السماء من أمر .

حتى لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً رجموا ليلة من الليالى، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة (يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم) وإن أنتم لم تروها ، فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم .

وفزعت الشياطين فى تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين قدموا مكة ، فوجدوا نبى الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى

كادت كلا كلهم تصيبه ، ثم أسلموا فأنزل الله عز وجل شأن أمرهم على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا من أعلام النبوة ودلائلها .

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمى خفيفاً لم تمتلىء به السماء كما ملئت حين نزول القرآن قوله تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشياطِينُ * تنزَّلُ عَلَى كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ * يُلقُونَ السَّمعَ وَأكثَرُهُمْ كاذِبُونَ) والأفاك : الكذاب والأثيم : الفاجر كما قال: (لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عندالله صديقاً ، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه ، وهو المناسب لها فى الكذب والإثم .

فأما الصدق البار، فلايحصل به مقصود الشياطين، فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر ، وإنما يطلب الكذب والفجور .

ومحمد صلى الله عليه وسلم مازال قومه يعرفونه: بينهم بالصادق الأمين ، لم تجرب عليه كذبة واحدة .

ولما جاءه الروح بالوحى لم يخبر بخبر واحد كذب ، لا عمداً ولا خطأ .

ومن تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يخبر بالكذب ، فإن الشياطين يلقون إليهم السمع ، ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه ، بل يكذبون فيه كثيراً .

إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم .

فإن الشياطين وإن كان كلهم كاذباً ، فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما يلقيه ، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويسترقه ولو مرة ، ولكن

أكثرهم يكذبون ، والذى يصدق منهم مرة يكذب مرات ، والذى ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم .

وفى صحيح البخارى عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فيسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

فالفرق بين الصادق البار الذى يأتيه الملك الكريم ، والكاذب الأثيم الذى يأتيه الشيطان الرجيم ، فرق مبين يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين .

ولما كان الكاهن الذى يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة ، بين سبحانه أن هذا يكون ـ وإن صدق فى بعض الأخبار ـ كاذباً فاجراً ، والذى يأتيه أيضاً يأتيه بالكذب ، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر ، وهذا مما يبين أن النبى لا يكون إلا باراً معصوماً أن يصر على ذنب .

فصل

وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة : مازالوا معترفين بصدقه صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يجربوا عليه كذباً ، بل ومعترفين بأن مايقوله ليس بشعر ولا كهانة ، وأنه ليس بساحر .

وكانوا فى أول أمره يرسلون إلى البلاد التى فيها علماء أهل الكتاب يسألونهم عنه ، لأن مكة لم يكن بها ذلك ، ففى الصحيحين عن ابن عباس « أن أباسفيان ابن حرب حدثه قال : انطلقت إلى الشام فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبينما أنا بالشام إذ جىء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : وكان دحية الكلبى جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل . فقال هرقل : هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذى

يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان فقلت أنا. فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي، فدعا بترجمانه فقال: قل لهم، إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على كذباً لكذبت عليه. ثم قال لترجمانه: سله كيف نسبه فيكم؟ قال. قلت، هو فينا ذو نسب، قال: فهل كان في آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال؟ قلت: لا » وذكر باقي الحديث.

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرّ بالمدينة ينزل على سعد، فقال لسعد: انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس، انطلقت فَطُفْت، فبينما سعد يطوف، إذا أبوجهل. فقال: من هذا الذي يطوف بالبيت؟ فقال: أنا سعد، فقال أبوجهل: تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ قال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحَكَم، فإنه سيد أهل الوادي، ثم قال سعد: والله لإن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: دَعْنا عنك فإني سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله مايكذب محمد إذا حدّث، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ماقال أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال زعم أن محمداً يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى «بدر» وجاء الصريخ، قالت له امرأته: أما ذكرت ماقال لك أخوك اليثربي؟ قال: وأراد أن لا يخرج، فقال له أبوجهل: إنك من أشراف الوادي، فَسِرْ يوماً أو يومين، فسار معهم فقتله رسول الله.

وفى رواية أنه قال : والله ما يكذب محمد ، وعزم أن لايخرج خوفاً من هذا ، حتى قال له أبوجهل : إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى ، تخلفوا معك . فقال : أما إذا غلبتنى فلأشترين أجود بعير بمكة ، وذكرته امرأته بقول سعد ، فقال : ما أريد أن أكون معهم إلا قريباً .

وكذلك ماذكره أهل المغازى وغيرهم أن أمية بن خلف لما بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنا أقتله ، ثم طعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم نخدشه ، وجعل أصحابه يجرعونه ويقولون : إنما هو خدش وليس بشىء ، فقال : والله لوكان بمضر لقتلهم ، أليس قال : « لأقتلنك » .

وعن مجاهد قال: قال مولاى السايب بن يزيد : كنت فيمن بنى البيت ، وإن قريشاً اختلفوا فى الحجر حين أرادوا أن يضعوه حتى كادوا يقع بينهم قتال بالسيوف ، فقالوا : اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه فى الجاهلية الأمين . فقالوا : يا محمد قد رضينا بك .

وقال ابن إسحاق ـ فى قصة بناء البيت واختلاف قريش فيمن يضع الحجر ، وإنهم مكثوا على ذلك أربع ليال أوخمساً ، ثم اجتمعوا فى المسجد ، فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم ، قال: يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد يقضى بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين قد جاء ، رضينا . هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَلُمَّ ثوباً » فأُتِىَ به ، فأخذ الركن (يعنى الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لِيَأْخُذْ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ،

ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ، ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى الأمين .

وعن عقيل بن أبى طالب قال: جاءت قريش إلى أبى طالب ، فقالوا له : إن ابن أخيك يأتينا فى كعبتنا ونادينا ، ويسمعنا ما يؤذينا ، فإن رأيت أن يكف عنه فافعل .

قال : فقال لى : ياعقيل ، التمس ابن عمك .

قال : فأخرجته من كيس من أكياس شعب أبى طالب ، فأقبل يمشى ، حتى انتهى إلى أبى طالب ، فقال له : يا ابن أخى، والله ماعلمت إن كنت لى مطيعاً، وقد جاء بى قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وناديهم، فتسمعهم ما يؤذيهم ، فإن رأيت أن تكف عنهم ؟

قال فحلق ببصره نحو السماء فقال : والله ما أنا بأقدر على أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار .

فقال أبو طالب : إنه ــ والله ــ ما كذب قط ، فارجعوا راشدين ، رواه البخارى فى تاريخه ، وأبو زرعة فى الدلائل، ورواه ابن إسحاق قريباً من هذا اللفظ وقال : « فأخرجته من حفش ــ ، وهو بيت صغير ــ وقال فيه : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال : « ياعم لو وضعت الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن الصامت قال أبو ذر : خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام ، فخرجت أنا وأخى أنيس وأمنا فنزلنا على خال لنا فأكرمنا وأحسن إلينا ، فحسدنا قومه ، فقالوا : إنك خرجت عن

أهلك خالف إليهم أنيس، فجاء خالنا فنثا علينا الذى قيل له، فقلت له: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ولا جماع لك فيما بعد فقربنا صرمتنا فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا ثوبه يبكى، وانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر أنيس رجلا عن صرمتنا وعن مثلها، فأتيا الكاهن فخير أنيسا فأتى بصرمتنا ومثلها معها قال: وقد صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين. قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهنى ربى أصلى عشاء، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خفا، حتى تعلونى الشمس فقال: أنيس: إن لى حاجة بمكة فاكفنى، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث على، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون، شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء، قال: أنيس لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعراء، فما يلتئم على لسان أحد يقرى بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. قال: قلت، فاكفنى حتى أذهب فأنظر، قال: نعم، وكن على حذر من أهل مكة، فإنهم قد سبقوا له وتجهموا له. قال: فأتيت مكة فضفت رجلا منهم فقلت: أين هذا الذى تدعونه الصابىء؟ فأشار إلى فقال: الصابىء، فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا على» وذكر الحديث وصفة إسلامه رضى الله عنه بلفظ مسلم.

وفى حديث البخارى عن ابن عباس: «أن أبا ذر أرسل أخاه وقال: اعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتنى، فانطلق الآخر حتى قدم مكة وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبى ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتنى فيم أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد» وذكر تمام الحديث.

وعن جابر بن عبدالله قال: قال الملأ وأبو جهل: لقد غلبنا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلمه، فأتانا ببيان من أمره. وقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علما، فما يخفى على إن كان كذلك. فأتاه فلما خرج إليه قال: أنت - يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك الرياسة، فكنت رأسنا ما بقيت. وإن كان بك الباه، زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت. وإن كان بك المال، جمعنا لك ماتستغنى به أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) إلى قوله (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف ورجع إلى أهله فلم يخرج إلى قريش، فاحتبس عنهم عتبة فقال أبو جهل: يامعشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبي إلى محمد وأعجبه طعامه، وماذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فأتاه أبو جهل فقال: ياعتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم أن لا يكلم محمدا أبدا وقال: لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة فأجابنى بشىء، والله، ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر (بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته - إلى قوله - أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب» رواه أبو بكر أحمد بن مردويه، فى كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذبال بن حرملة عنه، ورواه يحيى

ابن معين عن محمد بن فضيل ، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده ، ورواه عبد ابن حميد عن شيخ أبي يعلى بن أبي شيبة .

وفي بعض الطرق : « إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة . وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع » ورواه ابن إسحاق قال : حدثني يزيد بن زياد مولى لبني هاشم عن محمد بن كعب قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليما » وذكر الحديث إلى أن قال : « لما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي ، إني ــ والله ــ قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ، ولا الكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوني ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : أسحرك ــ والله ــ يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم ، ثم ذكر شعر أبي طالب يمدح عتبة فيما قال .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة ، وكان يرقي من هذه الريح ، فسمع سفهاء أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي ــ قال : فلقيت محمداً ، فقلت : إني أرقي من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهلم .

فقال محمد : إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونسترشده ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر .

قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : وعلى قومك ، فقال : وعلى قومى » الحديث .

وعن ابن عباس : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ علىّ فقرأ عليه من القرآن (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) قال : أعد فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا البشر .

وفى لفظ قال ابن عباس : إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : ولم ؟ قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعوض مما قبله . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا تبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدَعْنِي حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره . فنزلت (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه .

وفى رواية أخرى « إن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سِنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد بعضكم قول بعض : فقال : فأنت يا أبا عبد شمس فقل

وأقم لنا رأيا نقوم به . فقال : بل أنتم فقولوا وأنا أسمع. فقالوا : نقول كاهن، فقال : ماهو بكاهن ، لقد رأيت الكهان ، فما هو بزمزمة الكهان . فقالوا: نقول مجنون . فقال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، فقال : ماهو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر ، قال : فما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده. فقالوا : ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجنى ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا : ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وبين أخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه ، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله :(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) إلى قوله (سأصليه سقر) وأنزل في النفر الذين كانوا معه ، الذين جعلوا القرآن عضين ، أي أصنافاً .

وروى ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس، قال : قام النضر بن الحارث فقال: « يامعشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمر، ما ابتليتم بمثله ، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر، لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم ، وقلتم: شاعر ، لا والله ماهو بشاعر ، لقد روينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم : مجنون، ولا والله، ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون،

فما هو بخنقه ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، انظروا فى شأنكم ، فإنه ـ والله ـ لقد نزل بكم أمر عظيم » .

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة .

قال : وحدثنى الزهرى قال : حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان، والأخنس ابن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالليل فى بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر، تفرقوا، فجمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم ، لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر ، تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ، مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة ، فعلوا كذلك ، ثم جمعتهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا؛ فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ثم أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها . فقال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، ثم إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان. قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ ! والله لا نؤمن به ولا نصدقه أبداً .

وكذلك روى عن المغيرة بن شعبة أن أبا جهل قال له مثل ذلك وقال :

إنى لأعلم ما يقول حق ، ولكن بنى قُصَىّ قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم فينا الحجابة فقلنا . نعم فينا السقاية فقلنا : نعم ، وذكر نحوه .

وقد كانوا يرسلونه إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن أمره صلى الله عليه وسلم .

قال : محمد بن إسحاق : حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس قال : « بعث قريش النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط أن أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : اسألوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث ، نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل ، فالرجل متقوِّل فروْا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه . وسلوه عن الروح ماهو ، فإن أخبركم بذلك فإنه نبى فاتبعوه ، وإن هو لم يخبركم ؟ فهو رجل متقوِّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة ، حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها .

فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا . يا محمد : خبرنا ، فسألوه عما أمروهم به .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم ، وجاء جبريل من الله بسورة الكهف ، فيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف ، وقول

الله: (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) قال ابن إسحاق: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح السورة فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ» يعني محمداً أنك رسولي في تحقيق ما سألوه عنه من نبوته «ولم يجعل له عوجاً قيماً» أي أنزله قيماً، أي معتدلا، لا اختلاف فيه وذكر تفسيره السورة إلى قوله: (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) أي وما قدروا من قدري، وفيما صنعت من أمر الخلائق، وما وضعت على العباد من حججي ما هو أعظم من ذلك.

قال: قال مجاهد ليس بأعجب آياتنا من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس: الذي أتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف.

قلت: والأمر على ما ذكره السلف، فإن قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله، فإن مكثهم نياماً لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة على قدرة الله ومشيئته، وأنه يخلق ما يشاء فليس كما يقوله أهل الإلحاد وهي آية على معاد الأبدان كما قال تعالى: (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) وكان الناس قد تنازعوا في زمانهم: هل تعاد الأرواح دون الأبدان، أم الأرواح والأبدان؟ فجعل الله أمرهم آية لمعاد الأبدان.

وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بقصتهم من غير أن يعلمه بشر، آية على نبوته، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة، الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإيمان برسله، ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك.

وقد ذكر الله تعالى سؤالهم له عن الآيات التي كانوا يسألونه عنها، ليعلموا: هل هو نبي صادق أم كاذب؟ فقال تعالى: (ويسئلونك عن ذي القرنين) وقال: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) إلى قوله: (تلكَ مِن

أنباء الغيبِ نوحيه إليكَ وما كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرَهم وهم يمكرون)

إلى قوله : (وكأيِّن من آيةٍ في السموات والأرضِ يمرّون عليها وهم عنها معرضون * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهلِ القرى أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقوا أفلا تعقلون؟ * حتى إذا استيأس الرسلُ وظنّوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرُنا فنُجّيَ مَن نشاء ولا يُردّ بأسُنا عنِ القومِ المجرمين * لقد كان في قصصِهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ كلّ شيء وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون) وقال تعالى لما ذكر قصة أهل الكهف التي سألوه عنها (ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذِكراً)

أي يسئلونك ذاك ، ويسألونك عن هذا .

والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضي الذي لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك ، ليس هو الشيء الذي تزعمه ملاحدة المتفلسفة ، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة ، لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبي كموسى ومحمد ، وليس أحد ممن يدعي المكاشفات ، لا من أولياء الله ، ولا من غير أولياء الله ، يخبر بشيء من ذلك ، ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم ، التي لا يشركهم فيها غيرهم .

وأهل الملل متفقون على ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يعلم إلا بخبر نبي .

فإذا كان محمداً قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء ، وأخبر بما يعلمونه ، مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم ، وقد عرف أن محمداً لم يتعلم هذا من بشر ، كان هذا آية بينة وبرهاناً قاطعاً على نبوته .

ثم العلم بأن محمداً لم يتعلم هذا من بشر ، يحصل بوجوه . أما قومه المباشرون له ، المخبرون بحاله وكانوا يعلمون أنه لم يتعلم هذا من بشر ، فقامت

عليهم الحجة بذلك وأما من لم يعرف حاله إلا بالسماع فيعلم ذلك بطرق .

منها : ـ تواتر أخباره وكيف كان، من حين ولد ، إلى أن مات كلها هي مستفيضة مشهورة متواترة ، يعلمها من له خبرة بذلك ، أعظم مما يعلم به حال موسى وعيسى ، فإن محمداً ظهر أمره ، وانتشرت أخباره ، وتواترت أحواله ، أعظم من جميع بنى آدم ، فما بقى ما دون هذا من أحواله يخفى على الناس ، فكيف مثل هذا ؟ !

ومنها أنه قد أخبر فى القرآن بما لا يوجد عند أهل الكتاب ، مثل قصة هود ، وصالح، وشعيب ، وبعض التفاصيل فى قصة إبراهيم وموسى وعيسى مثل تكليم المسيح فى المهد . ومثل نزول المائدة ، فإن هذا لا يعرفه أهل الكتاب ، ومثل إيمان امرأة فرعون وغير ذلك ، فيمتنع أن يقال : إن هذا تعلمه من أهل الكتاب ، وقومه لم يكونوا يعلمون ذلك ، بل قد رأوا هم وغيرهم آثار المنذرين الذين عاقبهم الله لما كذبوا الرسل ، كقوم عاد وثمود وغيرهم .

فيستدل الناس بالآثار الموجودة على صدق الرسل ، وعقوبة الله لمن يكذبهم .

ويستدل قومه وغيرهم على صدقه فيما أخبر به من هذه الأمور ، التى لم يتعلمها من أهل الكتاب بتصديق أهل الكتاب له فيما وافقهم فيه ، مع علمهم أنه لم يتعلم ذلك منهم ، ويكون هذا مما يدل على أنه لم يتعلم ذلك من أهل الكتاب كما قد يظنه بعضهم ، وذلك من الوجهين كما تقدم .

ومنها : ـ أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له ، وحرصاً على تكذيبه والطعن فيه ، وبحثاً عما به يقدحون فيه .

فلو كان قد تعلم هذه الأخبار من بشر ، لكانوا يعلمون ذلك ويقدحون به فيه ويظهرونه ، ولكان هذا مما يظهر أعظم مما ظهر غيره .

فلما لم يقع ذلك دل على أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ولم يتمكنوا من

القدح به فيه ، مع علمهم بحاله ، ورغبتهم فى القدح فيه . ومع كال الداعى والقدرة ، يجب وجود المقدور .

فلما كان داعيهم تاماً ، ولم يقدحوا ، علم أن ذلك لعجزهم .

وعجزُهم عن القدح مع علمهم بحاله . دليل على أنهم علموا أنه لم يتعلمه من بشر .

ومنها : أن يقال : مثل هذا لو وقع ، لـكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله ويشيع ، بل كان المتبعون له المؤمنون به ، إذ اطّلعوا على ذلك فلابد أن يشيعوه ويعلنوه ، فـكيف المخالفون له المـكذبون له ؟ ! فإن القوم المتفرقين الذين لم يتواطئوا ، كما لا يجتمعون على تعمد الـكذب ، فلا يجتمعون على كتمان مثل ذلك ، بل يجتهد الملوك والرؤساء فى إخفاء ما يبطنونه من أمر ملـكهم الذى بنوه عليه ، ويحلفون أولياءهم على كتمان ذلك ، ويبذلون لهم الرغبة والرهبة فى ذلك ، ثم يظهر ذلك ، كما فعل القرامطة الباطنية من أهل البحرين وبنى عبيد الله بن ميمون القداح ، وكما عرف الناس أن النصيرية لهم خطاب يسرونه إلى أوليائهم وإن لم يعلم أكثر الناس ما ذلك الخطاب الذى يسرونه .

ولا سيما والذين آمنوا بمحمد واتبعوه ـ أولاً ـ من المهاجرين ، كانوا مؤمنين به باطناً وظاهراً ، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال ، وصبروا على أنواع المـكاره والأذى .

فطائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له ، حتى يرجعوا عن دينه .

وطائفة كانوا بمـكة يعذبون هذا يقتل ، وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة فى الحر ، وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر فلا يكفر ، وهذا يمنع رزقه ويترك جائعاً عرياناً .

ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم وأفضلها عندهم مكة أم القرى ، إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها ، وتركوا أموالهم بمكة قال تعالى: (للفقراء المهاجرينَ الذين أُخرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وأموالِهِمْ يبتغونَ فضلاً مِنَ اللهِ ورِضواناً وينصرونَ اللهَ ورسولَهُ أولئكَ هُمُ الصادِقونَ)وقال تعالى: (أُذِنَ للذين يقاتلونَ بأنَّهُمْ ظُلِموا وَإنَّ اللهَ على نصرِهِمْ لَقَديرٌ * الذين أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بغيرِ حقٍّ إلاَّ أنْ يقولوا : ربُّنا اللهُ)وقال تعالى : (فالذين هاجَرُوا وأُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وأوذُوا في سبيلِي وقاتلوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عَنهُمْ سيئاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ ثواباً مِنْ عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثوابِ)وقال: (يُخْرِجونَ الرسولَ وإياكُمْ) وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعاً واختياراً ، قبل أن يؤمر أحد بقتال.

فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة ، لا يقاتل أحداً ، ولم يؤمر بقتال ، بل كان لا يكره أحداً على الدين كما قال تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وكانوا خلقاً كثيراً ، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصاً ، قد جاء بدين لا يوافقه عليه في زمانه أحد ، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ، ويفارقوا دين آبائهم ، ويصبروا على عداوة الناس لهم وأذاهم ، وهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه ، من الأهل ، والمال ، والوطن . وهو - مع ذلك - لم يعط أحداً منهم مالاً ، ولا كان له مال يعطيهم إياه ، ولا ولّى أحداً ولاية ، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها ، ولا أكره أحداً ولا بقرصة في جلده ، فضلا عن سوط أو عصاً ، أو سيف وهو - مع ذلك - يقول عما يخبرهم به من الغيب « الله أخبرني به ، لم يخبرني بذلك بشر » .

فلو كانوا - مع ذلك - يعلمون أنه تعلمه من بشر ، لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعض .

وممتنع في جِبِلَّة بني آدم وفِطَرِهم أن يعلموا أنه كاذب وأنه قد تعلم هذا

من بشر ، وليس فيهم من يخبر بذلك ، مع أنهم كانوا كثيرين ، لا يمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان ، بل ولا داعِيَ لهم ، يدعوهم إلى ذلك .

ويمتنع أن لا يعلموا ذلك ، وهم بطانته المطلعون على أحواله ، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله .

والقرآن كان ينزل شيئاً فشيئاً ، لم ينزل جملة ، بل كانوا يسألونه عن الشيء بعد الشيء من الغيب ، بين الذين آمنوا به وباطنوه واطلعوا على أسراره ، وهو لا يعلم شيئاً من ذلك ، ثم يخبرهم ، وهم مطلعون على أمره ، خبراً بعد خبر ، وسؤالا بعد سؤال ، وهذا كان بمكة ، وليس بها أحد من علماء أهل الكتاب . لا اليهود ولا النصارى ، ثم هاجر إلى المدينة وبها خلق كثير من يهود بني قينقاع وقريظة والنضير ، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها أو أقل أو أكثر ، وهم أيضاً يسألونه عن الغيوب التي لا يعلمها إلا نبي فيخبرهم بها ويتلو عليهم ما سأله عنه المشركون من الغيب ، وما أخبرهم به ، ويتلو عليهم هذا الغيب الذي أوحاه الله إليه ، ويبين أن الله أعلمه ذلك ، لم يعلمه إياه بشر ، فآمن به طائفة من أهل الكتاب وكفرت به طائفة أخرى ، والطائفتان ليس فيهم من يقول : إن هذا تعلمه منا ، أو من إخواننا ، أو نظرائنا ، ولا إنك قرأته في كتبنا ، مع أنه لو كان قد تعلم ذلك منهم ، لكان شيوخه منهم ، وشيوخهم ، إذا علموا أنه كاذب تعلمه منهم ، يمتنع أن يصدقوه باطناً وظاهراً ، بل تصديقهم الكتاب الأول ، وعلمهم بكذب من ادعى نزول كتاب ثان ، وقد تعلم منهم ، يدعوهم إلى أن يبينوا أمره ويظهروا كذبه ، ويقولوا للناس : تعلم منا ونحن أخبرناه بذلك .

لا سيما مع ما فعله باليهود من القتل والحصار والجلاء والسبي وغير ذلك .

وهذا لو وقع ، لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، ينقله الموافق والمخالف .

فلما لم ينقل ذلك أحد ، ولم ينقله أحد مع ما أظهره من الأخبار المستفيضة

المتواترة التي علمها الخاص والعام ، بأن هذا مما أنبأني الله لم يخبرني به بشر ،
كان هذا دليلا قاطعاً بيناً في أن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبي أعلمه
الله بها أو من تعلمها من نبي أعلمها الله بها ، هي مما أنبأه الله به ولم يعلمه ذلك
بشر ، وهذا من الغيب الذي قال الله فيه في السورة التي ذكر فيها استماع الجن
للقرآن وإنذار قومهم به حيث قال : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ
الْجِنِّ فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ
نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) .
إلى قوله : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ
إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ
إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ
وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّى
إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أَدْرِي
أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا
إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ
أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) فقوله :
(فلا يُظْهِرُ على غيبه أحد) يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به ، لا يعلمه أحد
إلا من جهته ، بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم ، فإن هذا قد يتعلمه
بعضهم من بعض قال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ
ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ
أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) .

فهذه أنباء الغيب التي أوحاها إليه هي من الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحداً
إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً يرصدون
من يأتيه من إنسي وجني ، فيدفعونه ، « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

فمما سأله عنه أهل الكتاب فى المدينة مسائل ، وهى غير المسائل التى كان يسأل عنها وهو بمكة ، كما كان مشركو قريش يرسلون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ، فيرسل اليهود إليهم بمسائل يمتحنون بها نبوته ، وذلك مثل ما فى صحيح البخارى عن أنس قال : « جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، والولد ينزع إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة قال : « أخبرنى جبريل آنفاً » قال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة « أما أول أشراط الساعة : فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة : فزيادة كبد الحوت . وأما الولد ، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه » فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله » قال : يارسول الله : إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك .

فجاءت اليهود ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى رجل عبد الله فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وعالمنا وابن عالمنا .

قال : « أرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ » قالوا : أعاذه الله من ذلك .

فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فقالوا : « شرنا وابن شرنا » وتنقصوه . قال : فهذا ما كنت أخافه وأحذره .

وروى مسلم فى صحيحه عن ثوبان قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود . فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته

دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعنى ؟ قال : قلت ألا تقول، يارسول الله؟ فقال : إنما سميته باسمه الذى سماه به أهله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن اسمى الذى سمانى به أهلى محمد.

فقال اليهود : جئت أسألك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينفعك شىء إن حدثتك» قال : أسمع بأذنى فنكت بعود معه . فقال له : سل : فقال اليهودى : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال : « فقراء المهاجرين » . فقال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون ؟ قال : « زيادة كبد نون » . قال : وما غذاؤهم على أثره ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلا » .

قال : صدقت قال : وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان . قال « ينفعك إن حدثتك » . قال : أسمع بأذنى قال : جئت أسألك عن الولد . قال: « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة ذكراً بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثى بإذن الله » فقال اليهودى : صدقت وإنك لنبى ، ثم انصرف .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنه سألنى هذا الذى سألنى عنه وما أعلم شيئاً منه حتى أتانى به الله تعالى » . ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس ، عن عبد الحميد به .

وروى أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود يوماً إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمها إلا نبى . فقال : « سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، إن أنا

حدثتكم بشيء تعرفونه صدقاً لتتابعوني على الإسلام » . قالوا : لك ذاك قال :
« فسلوني عما شئتم » قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا عن الطعام الذي
حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . وأخبرنا عن ماء الرجل
كيف يكون الذكر منه حتى يكون ذكراً وكيف يكون الأنثى حتى يكون
أنثى . وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في التوراة ، ومن وليه من الملائكة ؟
قال : « فعليكم عهد الله وميثاقه ، لئن أنا حدثتكم لتتابعوني » . فأعطوه
ما شاء من عهد وميثاق . قال : « أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ،
هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً طال سقمه فيه ، فنذر
لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام
إليه ، وكان أحب الشراب إليه ألبان الإبل وأحب الطعام إليه لحوم الإبل » .
قالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشهد
عليهم » . قال : فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة
على موسى : هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة
رقيق أصفر ، فأيهما علا كان الولد والشبه له بإذن الله » . قالوا : اللهم نعم .
فقال : « اللهم اشهد » قال : « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وأنزل التوراة
على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه » . قالوا : اللهم
نعم . قال « اللهم اشهد » . قالوا : أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة
فعندها نجامعك أو نفارقك قال « وليي جبريل عليه السلام ، ولم يبعث الله
نبياً قط إلا وهو وليه » قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان غيره لاتبعناك
وصدقناك قال : « فما يمنعكم أن تصدقوا به ؟ » قالوا : إنه عدونا من
الملائكة ، فأنزل الله عز وجل (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ
على قلبِكَ بإذنِ اللهِ مصدِّقاً لِمَا بينَ يديهِ) إلى قوله : (فإنَّ اللهَ عدوٌّ
للكافرينَ) .

ففي هذه الأحاديث أن علماء اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كانوا يسألونه عن مسائل يقولون فيها. لا يعلمها إلا نبي، أي ومن تعلمها من الأنبياء، فإن السائلين كانوا يعلمونها كما جاء أيضاً «لا يعلمها إلا نبي أو رجل أو رجلان» وكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ليتبين: هل يعلمها؟ وإذا كان يعلم مالا يعلمه إلا نبي كان نبياً.

ومعلوم أن مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يتعلم هذه المسائل من أهل الكتاب ومن تعلم منهم. وإلا فمعلوم أن هذه المسائل كان تعلمها بعض الناس، ولكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء.

وهذا يبين أن هؤلاء السائلين له من أهل الكتاب، كانوا يعلمون أن أحداً من البشر لم يعلمه ما عند أهل الكتاب من العلم، إذ لو جوزوا ذلك عليه، لم يحصل مقصودهم من امتحانه هل هو نبي أو لا؟ فإنهم إذا جوزوا أن يكون تعلم مالا يعلمه إلا نبي من أهل الكتاب، كان من جنسهم، فلم يكن علمهم بها وأحاديثهم عنها دليلا على نبوته.

فلابد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلم من أهل الكتاب.

وهذا كان بالمدينة بعد أن أقام بمكة بضع عشر سنة. وانتشر أمره، وكذبه قومه، وحرصوا على إبطال دعوته بكل طريق يقدرون عليه.

فلو كان بمكة أو بالمدينة أحد من أهل الكتاب، يتعلم منه، أو لقى أحداً من أهل الكتاب في طريق فتعلم منه، لكان ذلك يقدح في مقصود هؤلاء السائلين.

فتبين أنه كان معلوماً عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئاً من الغيب من بشر لاسيما ولو كان قد تعلمه من أهل الكتاب وقد كذبهم وحاربهم لأظهروا ذلك، ولشاع في أهل الكتاب، وكان إذا أجابهم قالوا: هذا تعلمته من فلان وفلان منا، أو هذا علمكه بعض أهل ديننا.

وهذا كما كانوا يرسلون إلى قومه من قريش ليسألوه عن مسائل ويقولون : إن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فهو متقوّل ، ويقولون : سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبي .

فهذا من أهل المدينة ، ومن قريش قومه ، يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك من البشر ، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك ، ولم يجز أن يقولوا : لا يعلمها إلا نبي ، فإنهم كانوا جميعاً يعلمون أن من أهل الكتاب من تعلم هذه المسائل ، وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء أو بخلاف ذلك ؟ ويعلمون أن من كان يعلمها من أهل الكتاب ، ومن تعلم منهم ، لا يدل جوابه عنها على نبوته ، كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب ، وكما لو سأل في زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب ، التي لا يعلمها إلا نبي ، فإن ذلك لا يدل على نبوته ، لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء ، فدلّ على أن مرادهم بقولهم : لا يعلمها إلا نبي ، أي لا يعلمها ابتداء بدون تعليم بشر إلا نبي ، ويدل على أن المشركين وأهل الكتاب ، كانوا جميعاً متفقين على أنه لم يتعلم من بشر ، مع انتشار أخباره . ومع اطلاع قومه على أسراره ، ومع ظهور ذلك ، لو وجد ، ومع أنهم لو جوزوا تجويزاً أن يكون قد تعلمها من بشر في الباطن . لم يجز أن يستدل بها على نبوته ، فدل على أنهم كانوا قاطعين بأنه لم يتعلم ذلك من بشر ، لا في الباطن ، ولا في الظاهر ، وهذا طريق بيّن ، يدل أنه لم يتعلم ذلك من بشر ، سوى الطرق المذكورة هنا .

فصـــل

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم رسولا إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ـ كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته : معلومة

لـكل الخلق ، الذين بعث إليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ماليس عند هؤلاء .

وكان يظهر لـكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى: (قُلْ أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أضلُّ ممنْ هو في شِقاقٍ بعيدٍ * سنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أنفسِهِمْ حتى يتبينَ لهم أنَّهُ الحقُّ أوَ لم يكفِ بربِّكَ أنَّهُ على كُلِّ شيء شهيدٌ) أخبر سبحانه أنه سَيُرِى العباد الآيات في أنفسهم ، وفي الآفاق ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد إليه ، إذ هو الذى تقدم ذكره كما قال: (قُلْ أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أضلُّ ممنْ هو في شِقاقٍ بعيدٍ) والضمير في «كان» عائد إلى معلوم .

يقول : أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد .

فإنه على هذا التقدير ، يكون الـكافر في شقاق بعيد ، قد شاقّ الله ورسوله ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق ، حيث كان في شق ، والله ورسوله في شق ، كما قال تعالى: (قولوا آمنا باللهِ وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْهُمْ ونحنُ له مسلمونَ فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنَّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ) بين أن من تولى عن ذلك ، لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذى قلتموه لا يتولى عنه من أهل الـكتاب ، مَنْ قَصْدُه الحق ، وإنما يتولى عنه من قصده المُشاقة والمعاداة ، لهوى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله ، ثم كفر به من كفر ، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله إذ هو في شقاق بعيد .

وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهو ضال .

والشقاق قد يكون مع العناد ، وقد يكون مع الجهل .

فإن الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم ، كان مشاقا .

ولهذا قال عقيب ذلك « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية ، ما يبين أنه حق ، ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات كما قال تعالى (قل وكفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب) وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب : (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) وتكون بأقواله التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن القرآن نفسه ، آية بينة ، ومعجزة قاهرة .

وتكون بأفعاله ، وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون .

والقرآن نفسه هو قول الله ، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول ، وإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان ، وذلك من فعل الله ، إذ كان البشر لا يقدرون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم ، كما قال تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنْسُ وَالجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظَهيراً) ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية ، صدَّرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم عن جميع الثقلين ، إنسهم وجنهم ، أنهم إذا

اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر ، فيفسد عليه ماقصده ؛ وهذا يقدم عليه عاقل ، مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ؛ على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة ، الذي يقرأ به في الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولى والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا كان شاكا في ذلك ، نخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ، فمن يصدقه الناس ، لا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، قصد أن ويخلده هذا التخليد ، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه .

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته ؛ فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام وعلم أنه من القرآن الذى أمر بهلاغه إلى جميع الخلق وهو — وحده — كاف في العلم بأن القرآن معجز .

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعى يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعى العرب وغيرهم على المعارضة، تامة وانتفت المعارضة .علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، وهذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهى آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد، وهى من أعظم الآيات فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه وكل وجه من الوجوه ، فهو دليل إعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى :

(وقالوا لوْلاَ أنزِل عليهِ آيةٌ منْ ربهِ قلْ إنمَا الآياتُ عندَ اللهِ وإنمَا أنا نذيرٌ مبينٌ أوَلمْ يكفهمْ أنَّا أنزلنَا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهمْ إنَّ فى ذلكَ لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فهو كافٍ فى الدعوة والبيان ، وهو كافٍ فى الحجج والبرهان .

فصـــل

فى إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة، وهى أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، ونحو ذلك .

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ «المعجزات» موجوداً فى الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ « الآية » و « البينة » و « البرهان » كما قال تعالى فى قصة موسى (فذانك برْهانانِ منْ ربِّكَ) فى العصا واليد ، وقال الله تعالى فى حق محمد : (يا أيُّها الناسُ قدْ جاءكمْ برهانٌ منْ ربكمْ وأنزلنَا إليكمْ نوراً مُبيناً) وقد قال فى مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان : (وقالوا لن يدخل الجنَّة

إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نصارى تلكَ أمانيُّهمْ قلْ هاتوا برْهانكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ) وقال تعالى : (أمْ مَنْ يبدؤُ الخلقَ ثُمَّ يعيدهُ وَمَن يرزقكمْ مِنَ السماء والأرض أإلهٌ معَ اللهِ ؟ قلْ هَاتوا برهانكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ) وقال : (وَمَنْ يدعُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ لاَ برهانَ لهُ بِهِ فإنّما حِسابُهُ عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يفلحُ الكافرُون) وقال تعالى : (ويومَ يناديهمْ فيقولُ : أيْنَ شُركائِيَ الّذِينَ كنتمْ تزعُمُون * ونزعنا منْ كلِّ أمّةٍ شهيداً فقلنا هَاتوا برهانكُمْ فعلِموا أنّ الحقَّ لِلهِ وضلّ عنهمْ ما كانوا يفتَرُونَ) .

وأما لفظ « الآيات » فكثيراً فى القرآن، كقوله تعالى:(وكذلكَ جعلنا فى كلِّ قريةٍ أكابِرَ مُجرِميهالِيمكروافيهاوما يمكرون إلاَّ بأنفسهمْ وما يشعرون وإذا جاءتْهمْ آيةٌ قالوا لنْ نؤمنَ حتَّى نؤتَى مثلَ ما أوتى رسلُ اللهِ ـ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ) وقوله تعالى : (ولقدْ آتينا موسى تِسْعَ آياتٍ بيناتٍ فاسئلْ بنى إسرائيلَ إذْ جاءَهمْ) وقال تعالى : (وأدْخِلْ يدكَ فى جيْبِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ منْ غيرِ سوءٍ آيةً أخرى) وقول فرعون له : (فأْتِ بآيةٍ إنْ كنتَ منَ الصّادقين) وقال قوم صالح : (فأْتِ بآيةٍ إنْ كنتَ منَ الصّادقينَ * قالَ : هذهِ ناقةٌ لها شربٌ ولكمْ شِربُ يومٍ معلومٍ) وقال : (هذه ناقة الله لكم آية) وقال المسيح : (قدْ جئتكُمْ بآية من ربكمْ أنِّى أخلقُ لكمْ منَ الطينِ كهيئةِ الطيْرِ فأنفخُ فيهِ فيكونُ طيراً بإذنِ اللهِ وَأبْرِىءُ الأكمهَ والأبْرَصَ وَأُحيِي الموْتَى بإذنِ اللهِ وأنبئكمْ بما تأكُونَ وما تدَّخرون فى بيوتكمْ إنَّ فى ذلكَ لآيةً لكمْ إنْ كنتمْ مؤْمنينَ) وقال فى حق محمد : (وما تأْتيهمْ منْ آيةٍ منْ آياتِ ربهمْ إلاَّ كانوا عَنها معرِضينَ * فقدْ كذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهمْ فسَوفَ يأْتيهمْ أنباءُ ما كانوا بِهِ يستهزؤُون) وقال : (أوَ لَمْ يكنْ لهمْ آيةً أنْ يعلمهُ عُلماءُ بَنى إسرائيلَ) وقال : (اقتربتِ السّاعةُ وانشقّ

القمرُ * وإنْ يرَوْا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌّ) وقال: (ومنهمْ منْ يستمعُ إليكَ وجعلنا على قلوبهمْ أكنَّةً أن يفقهوهُ وفى آذانهمْ وَقراً وإنْ يرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤْمنوا بها حتَّى إذا جاؤُكَ يجادلونك يقولُ الَّذينَ كفروا: إنْ هٰذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين) وقال تعالى: (وقالوا لوْلا يأتينا بآيةٍ منْ ربِّهِ قلْ إنما الآياتُ عندَ اللهِ وإنما أنا نذيرٌ مبينٌ * أوَلَمْ يكفِهمْ أنا أنزلْنا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهمْ إنَّ فى ذلكَ لرحمةً وذكرَى لقومٍ يُؤْمنون) وقال: (سنُريهمْ آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسهمْ حتَّى يتبيَّن لهمْ أنَّهُ الحقُّ) وقال تعالى: (قدْ كانَ لكمْ آيةٌ فى فئتينْ التقتا فئةٌ تقاتلُ فى سبيلِ اللهِ وأخرى كافرةٌ يروْنهم مثليهم رأْىَ العينِ واللهُ يؤيِّدُ بنصرِهِ مَنْ يشاءُ إنَّ فى ذلكَ لعبرَةً لأُولى الأبصارِ) وقال تعالى: (وإذا تُتلَى عليهمْ آياتُنا بيِّناتٍ قالَ الَّذين لا يرجُون لقاءنا ائْتِ بقرآن غير هٰذا أو بدِّلْهُ قلْ مايكونُ لِى أنْ أُبدِّلَهُ منْ تلقاء نفسى) وقال تعالى: (قل انْظروا ماذا فى السَّموات وَالأرْض وما تُغنى الآيات والنُّذُرُ عنْ قومٍ لا يؤْمنونَ) وقال لما ذكر قصص الأنبياء فى سورة الشعراء، قال فى آخر كل قصة: (إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كان أكثرهمْ مُؤْمنين وَإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ) وقالَ: (لقدْ كان فى يوسُفَ وإخوتهِ آياتٌ للسَّائلينَ) إلى أن قال فى آخرها: (ذلكَ منْ أنباء الغيْبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهمْ إذْ أجْمعوا أمرهُمْ وهُمْ يمكرُون) إلى قوله: (وكأيِّنْ منْ آيةٍ فى السَّموات والأرْض يمرُّون عليها وهُمْ عنها معرضونَ) وقال تعالى: (وعدكُمُ اللهُ مغانمَ كثيرةً تأخُذُونها فعجَّلَ لكُمْ هذه وكفَّ أيدِىَ النَّاس عنكُمْ ولتكونَ آيةً للمؤْمنينَ) وقال: (وجعلنا ابْنَ مريمَ وأمَّهُ آيةً وَآوَيناهُمَا إلى ربوَةٍ ذاتِ قرَارٍ وَمَعين).

وأما لفظ المُعجز، فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى: (وما هم بمعجزين) وقال: (وما أنتم بمعجزينَ فى الأرض ولا فى السماء)،

ومن لا يثبت فعلا إلا لله ، يقول : المعجز هو الله ، وإنما سمى غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلا إذا فسر المراد به ، وذكر شرائطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء : إنها معجزات ، إذا لم يكن فى اللفظ ما يقتضى اختصاص الأنبياء بذلك .

بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبى ، فإن هذا يجب اختصاصه .

وقد يسمون الكرامات آيات ، لكنها تدل على نبوة من اتبعه الولى ، فإن الدليل مستلزم للدلول ، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول ، فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبى يمتنع أن يكون لغير النبى .

وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبى الذى اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهى آية على صحة طريقهم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة ، كما قد تكلمنا على ذلك فى غير هذا الكتاب ، وبينا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هى أنواع كثيرة ، لكن الآيات نوعان .

منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر ، كمعجزات موسى وعيسى .

ومنها : ما هو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذى هو من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكالعلم والإيمان اللذين فى أتباعه ، فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التى أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التى يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ، ووقع ما أخبر بوقوعه ، كقوله «لا تقوم

الساعة حتى تقاتلوا الترك » وقوله « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » .

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستماية ، وشاهد الناس أعناق الإبل فى ضوء النار ببصرى .

وظهور دينه وملته بالحجة والبرهان ، واليد والسنان ، ومثل المثلات والعقوبات التى تحيق بأعدائه ، وغير ذلك ، وكنعيته للوجود فى كتب الأنبياء قبله ، وغير ذلك .

فصـــــل
فى معجزات القرآن

القرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلا .

أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنه هو الذى أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار ، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

والقرآن نفسه ؛ فيه تحدى الأمم بالمعارضة ، والتحدى هو أن يحدوهم . (أى يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه .

فيقال فيه : حدانى على هذا الأمر (أى بعثنى عليه) ومنه سمى حادى العيس ، لأنه بحداه يبعثها على السير .

وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة ، ولكن أصله الأول ، قال تعالى فى سورة الطور (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن

كانوا صادقين) فهنا قال « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » فى أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : (أَمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مفترياتٍ وادعوا مَنِ استطعتمْ منْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ) ثم تحدّاهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : (وَمَا كانَ هٰذا القُرْآنُ أنْ يفترى مِنْ دُونِ اللهِ ولـكنْ تصْديقَ الَّذِى بينَ يديهِ وتفصيلَ الـكتابِ لاريْبَ فيهِ منْ رَبِّ العالمينَ أمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأْتوا بسورةٍ مثلِهِ وادْعوا مَنِ استطعتمْ منْ دونِ اللهِ إن كنتم صادقينَ) فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، هم وكل من استطاعوا من دون الله ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة ، وهم ومن استطاعوا قال : (فإنْ لَمْ يستجيبوا لـكُمْ فاعلَموا أنما أنزلَ بعلْمِ اللهِ وأنْ لا إلٰهَ إلاّ هو) وهذا أصل دعوته ، وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله .

وقال تعالى : (فإنْ لَمْ يستجيبوا لـكُمْ فاعلَموا أنما أنزلَ بعلْمِ اللهِ) كما قال : (لـكنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلهُ بعلْمِهِ والملائـكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً) أى هو يعلم أنه منزل ، لا يعلم أنه مفترى كما قال :(وما كانَ هٰذا القرآنُ أنْ يُفترى منْ دونِ الله) أى ما كان لأن يفترى ، يقول: ما كان ليفعل هذا ، فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى : ما يمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذى يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لا يقدر على ذلك ، وهذا التحدى كان بمكة ، فإن هذه السورة مكية ، سور يونس ، وهود ، والطور .

ثم أعاد التحدى فى المدينة بعد الهجرة ، فقال فى «البقرة» وهى سورة مدنية (وإنْ كنتمْ فى رَيْبٍ ممّا نزّلْنا عَلَى عبدِنا فأْتوا بسُورةٍ من مثله وَادعوا شُهَداءكُمْ منْ دونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقِينَ) ثم قال : (فإنْ لَمْ تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتقّوا النّارَ التى وقودُها النّاسُ والحجارةُ أعدّتْ للكافرينَ) فذكر أمرين .

أحدهما : قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) يقول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحيق بكم العذاب الذى وعد به المكذبين ، هذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جدالهم بالتى هى أحسن .

والثانى : قوله « ولن تفعلوا » و « لن » لنفى المستقبل ، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان ، لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول فى سورة «سبحان» وهى سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء ، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر ، وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ، ما يبين ذلك بقوله (قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنّ على أن يأتون بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم ، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لا يأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدى والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام . وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث ، وإلى اليوم ، الأمر على ذلك ، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ، ولما بعث إنما تبعه قليل .

وكان الكفار من أحرص النـــاس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن .

تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسئلونهم عن أمور من الغيوب ، حتى

يسألوه عنها ، كما سألوه عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذى القرنين كما تقدم .

وتارة يجتمعون فى مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق .

فتارة يقولون : مجنون ، وتارة ، يقولون : ساحر ، وتارة ، يقولون : كاهن . وتارة يقولون : شاعر . إلى أمثال ذلك من الأقوال ، التى يعلمونها ، هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة ، مرة بعد مرة ، وهى تبطل دعوته ، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها ، لفعلوها ، فإنه — مع وجود هذا الداعى التام المؤكد — إذا كانت القدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول فى سائر أهل الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علماً بيناً لكل أحد بعجز عن جميع أهل الأرض ، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة وبغير حيلة .

وهذا أبلغ من الآيات التى يكرر جنسها كإحياء الموتى ، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره ، وكون القرآن أنه معجزة ، ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف الدواعى عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط .

بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة فى دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التى أمر بها ، ومعانيه التى أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى . وعن الغيب المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: (ولقدْ ضرَبْنا في هٰذا القرآن للنَّاس منْ كلِّ مثلٍ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيْءٍ جدَلا) وقال تعالى: (ولقدْ ضربنا للنَّاس في هٰذا القُرآن منْ كلِّ مثلٍ فأبَى أكثرُ النَّاس إلاَّ كفُوراً) وقال: (ولقدْ ضرَبنا للنَّاس في هٰذا القُرآن منْ كلِّ مثلٍ لعلَّهُمْ يتذكرونَ قُرآناً عَرَبيًا غيرَ ذِي عِوَجٍ لعلهمْ يَتَّقون).

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا يناقض ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها، أو بسلب القدرة الجازمة، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً، مثل قوله تعالى لزكريا: (آيتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاس ثلاث ليال سويًّا) فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة - من أبلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة من يقول: إني آخذ أموال جميع أهل البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى ولي الأمر، وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي فهذا أبلغ من العجائب الخارقة للعادة.

ولو قدر أن واحداً صنف كتابا، يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعراً، يقدر أن يقولوا مثله، وتحداهم كلهم، فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد.

فإذا لم يعارضوه، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة.

والذى جاء بالقرآن، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً، ومن آمن بى، دخل الجنة، ومن لم يؤمن بى دخل النار، وقد أبيح لى قتل رجالهم وسبى ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم - كلهم - طاعتى، ومن لم يطعنى، كان من أشقى الخلق، ومن آياتى هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتى بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتى بمثله.

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين.

فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعى قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدى العظيم، أو سلبهم القدرة التى كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتى أنكم كلكم، لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد، كإحداث غير المعتاد. فهذا من أبلغ الخوارق.

وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارق للعادة، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين، للنفى والإثبات، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة فى نفس الأمر.

فهذا غاية التنزيل، وإلا فالصواب المقطوع به، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه، على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه، لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر فى قوله : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه.

وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه، وظهر

به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله ، مثل قرآن مسيلمة الكذاب ، كقوله « ياضفدع بنت ضفدعين ، نقِّي كم تَنقِّينَ ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين » .

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه . وكان ـ مع ذلك ـ من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، ينال مقصوده ، سواء قيل : إنه صادق أو كاذب ، فإنه من دعى الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار ، هو من عظماء الرجال على أى حال كان . فإقدامه ـ مع هذا القصد ـ في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً ، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، لا في ذلك العصر ، ولا في سائر الأعصار المتأخرة ، لا يكون إلا مع جزمه بذلك ، وتيقنه له ، وإلا ، فمع الشك والظن ، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

وإذا كان جازماً بذلك ، متيقناً له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك .

وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإنا نعلم ذلك ، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقاً للعادة ، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم ، وإلا كان العلم جهلا ، فثبت أنه ـ على كل تقدير ـ يستلزم كونه خارقاً للعادة .

ولو قال مفتر : بل أنا أقول الذى أخبر بهذه الغيوب وأتى هذه العجائب ، كان جاهلا أخرق ، ولا يدرى ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ فى الإعجاز وخرق العادة أن يكون مجنونا ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التى لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ، ولا نظمه نظم شىء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير فى كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر .

ونفس ما أخبر به القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجب مثل ذلك فى كلام بشر ، لا نبى ولا غير نبى .

وكذلك ما أخبر عن الملائكة ، والعرش ، والكرسى ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ما أمر به القرآن ، من الدين ، والشرائع كذلك ، ونفس ما أخبر به من الأمثال ، وبينه من الدلائل هو أيضا كذلك .

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء فى العلوم الإلهية ، والخلقية ، والسياسية ، وجد بينه وبين ما جاء فى الكتب الإلهية ، التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف الأنبياء تفاوتا عظيما ، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت ، أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز فى معناه ، أعظم وأكثر من الإعجاز فى لفظه ، وجميع عقلاء بنى آدم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما فى التوراة والإنجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدح فى المقصود ،

فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتى نبى بنظير آية نبى كما أتى المسيح بإحياء الموتى . وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما فى التوراة والإنجيل مماثلا لمعانى القرآن ، لا فى الحقيقة ، ولا فى الكيفية ولا فى الكمية ؟ ! بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ، ظهر له إعجازه هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذى يظهر له ولأمثاله ، كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدى النبى وإخباره بعجزهم ، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد ، كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك . وفيها ما يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق ، والإقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه فى الدين ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجاتهم إلى الماء ، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً فى كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر ، لأن الحاجة إليه أشد .

فكذلك دلائل الربوبية ، حاجة الخلق إليها فى دينهم أشد الحاجات ، ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج إليه العامة ، مثل تماثل الأجسام واختلافها ، وبقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ،

ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصـــل

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته ، ومن آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم ، ومن آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة إبراهيم ، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يأت نبي من بعد إبراهيم إلا من ذريته ، وجعل له ابنين : إسماعيل وإسحاق ، وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل ، ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيم بشرت به النبوات غيره ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم ، ثم من قريش صفوة بني إبراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قريش ، ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ، ودعا الناس إلى حجه ، ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفا بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ، ولا في أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه ، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولاهم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له

أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم يكن فى بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده ، لا فى مصر من الأمصار ، ولا فى عصر من الأعصار ، من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولا من أتى من العجائب الآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه ، وسعوا فى هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق ، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه ، لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ، ولا جهات يوليهم إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع فى الموسم قبائل العرب ، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ، ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب ، وجفاء الجافى وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبى المنتظر الذى تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن أمره كان قد انتشر وظهر بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة ، وبها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة ، إلا قليلا من الأنصار أسلموا فى الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ،

ثم أذِنَ له فى الجهاد ، ثم أمِرَ به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل . والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب وسلم وأمْنٍ ، وخوف ، وغنًى ، وفقر ، وقِلَّةٍ ، وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو - على ذلك كله - ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرةً ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم - حين قدموا الشام - قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذا آثار علمهم وعملهم فى الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وهو صلى الله عليه وسلم - مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال - مات صلى الله عليه وسلم ولم يخلف درهما ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً له إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقاً (١) من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقى يصرفه فى مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك .

وهو ، فى كل وقت ، يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة

---

(١) صاعا — نسخة .

شيئاً بعد شيء ، حتى أكمل الله دينه الذى بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات ، لم يحرم شيئاً منها كما حرم فى شرع غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره . وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر فى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر ، إلا وقد جاء به على أكمل وجه ؛ وأخبر بأشياء ليست فى هذه الكتب .

فليس فى تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب فى الحسنات ، إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

وإذا نظر اللبيب فى العبادات التى شرعها ، وعبادات غيره من الأمم ، ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك فى الحدود والأحكام وسائر الشرائع .

وأمته أكمل الأمم فى كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أدْيَنُ من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله ، وصبرهم على المكاره فى ذات الله ، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ؛ وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده

كالحواريين، ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم، حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ فى دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يكونوا قبله يقرءون كتاباً، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود، والتوراة، والإنجيل، والزبور إلا من جهته، فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى فى الكتاب الذى جاء به: (قولوا آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ وَالأسباطَ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّق بينَ أحدٍ مِنْهُمْ ونحنُ له مسلمونَ * فإنْ آمَنُوا بمثلِ ما آمَنْتُمْ به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوْا فإنَّما هُمْ فى شِقاقٍ فَسَيَكْفيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ) وقال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليه مِنْ ربِّه والمؤمنونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالوا سَمِعنا وأَطَعْنا غفرانَكَ رَبَّنا وإليكَ المصيرُ * لا يكلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأنا ربَّنا ولا تحمِلْ علينا إصْرًا كما حملْتَهُ عَلَى الذين مِنْ قبلِنا ربَّنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لنا به واعفُ عَنَّا وَاغفِرْ لنا وارحمنا أنْتَ مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرينَ)

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله.

ولكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم، واعتبروا به، وما حدثهم به أهل الكتاب، موافقاً لما عندهم، صدقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه، أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطل، كذبوه، ومن أدخل فى الدين ما ليس منه، من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم، كان ـ عندهم ـ من أهل

الإلحاد والابتداع ، وهذا هو الدين الذى كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون ، وهو الذى عليه أئمة المسلمين الذين لهم فى الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ، ومن خرج عن ذلك كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الظاهرون إلى قيام الساعة ، الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذى هو دين الرسل عموماً ؛ ودين محمد خصوصاً .

ومن خالف هذا الأصل كان - عندهم — ملحداً مذموماً ، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا ديناً ، قام به أكابر علمائهم وعبادهم ، وقاتل عليه ملوكهم ، وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ، ولا دين غيره من الأنبياء .

والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل ، حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل فى البدع ، من قصر فى اتباع الأنبياء ، علماً وعملا .

ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ؛ عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم آخذوه عن نبيهم ، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم فى جميع الفضائل العلمية والعملية .

ومعلوم أن كل كمال فى الفرع المتعلم ، فهو من الأصل المعلم ، وهذا يقتضى أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضرورى بأنه كان صادقاً فى قوله : إنى رسول الله إليكم جميعاً لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول

لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم ، إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً .

وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتعين أنه متصف بغاية الكمال فى العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً فى قوله : « إنى رسول الله » لأن الذى لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً ، والثانى يقتضى أنه كان جاهلاً ضالاً ، وكمال علمه ينافى جهله ، وكمال دينه ينافى تعمد الكذب ، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى : (والنَّجمِ إذا هَوَى * ماضلَّ صاحبكُمْ وماغَوَى * وَما ينطقُ عن الهوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ يوحَى) وقال تعالى عن المَلَكِ الذى جاء به : (إنَّهُ لقَوْلُ رَسُولٍ كَريم * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمِينٍ) [التكوير : ٢٠ ، ١٢] ثم قال عنه (وماصاحبكُمْ بمجنونٍ * وَلقد رآهُ بالأُفُقِ المبينِ * وما هُوَ عَلَى الغَيْبِ بضنينٍ) أى بمتهم ، أو بخيل ، كالذى لا يُعلِّم إلا بجعلٍ أو لمن يكرمه : (وما هوَ بقول شيطانٍ رجيمٍ * فأينَ تذهَبونَ * إنْ هوَ إلاَّ ذكْرٌ للعالمينَ) وقال تعالى : (وَإنَّهُ لَتنْزيل ربِّ العَالمينَ * نَزَلَ به الروحُ الأمينُ * على قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرينَ * بلسانٍ عربىٍّ مُبينٍ) إلى قوله : (هلْ أنبئكُمْ على منْ تنزلُ الشياطينُ تنزلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ يلقون السَّمْعَ وأكثرهم كاذبونَ) بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه ، فإن الشيطان يقصد الشر (وهو الكذب والفجور) لا يقصد الصدق والعدل ، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأ ، فإن الخطأ فى الدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود ـ لما سئل عن مسألة ـ : « أقول فيها برأى فإن يكن صواباً

فمن الله ، وإن لم يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » .

فالرسول بريء من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسول ، فإنه قد يخطيء ويكون خطؤه من الشيطان ، وإن كان خطؤه مغفوراً له ، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به ، كان مخطئاً ، ولا أمر به ، كان فيه فاجراً . علم أن الشيطان لم ينزل عليه ، وإنما ينزل عليه ملك كريم ، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي : (إنه لقول رسول كريم) إلى آخر الآية .

فصل في صفاته .

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة على كماله ، ونقلوا أخلاقه ، من حلمه ، وشجاعته ، وكرمه ، وزهده وغير ذلك . ونحن نذكر بعض ذلك :

ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً ، ليس بالطويل الذاهب ، ولا بالقصير » .

وعنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه » .

وفي البخاري : وسئل البراء : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر .

وفي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر » .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضخم الرأس والقدمين ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان بسيط الكفين ، ضخم اليدين » .

وسئل عن شعره فقال : « كان شعراً رجلا ، ليس بالجعد ولا بالسبط ، بين أذنيه وعاتقه » .

وفي الصحيحين عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : « كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضليع الفم ، أشكل العينين ، منهوس العقبين »
وفسرها ابن سماك بن حرب فقال : واسع الفم : طويل شق العين ، قليل لحم العقب .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير ، وليس بالأبيض الأمهق ، ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ، ولا بالسبط » .

وفى الصحيحين عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، وما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا ولا عنبرة، أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى الدارمى عن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلج الثنيتين ، إذا تكلم رئى النور يخرج من ثناياه » .

وروى عن ابن عمر قال : « ما رأيت أحداً أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعن أنس قال : « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال(١) عندنا ، فعرق ، وجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أم سليم ، ماهذا الذى تصنعين ؟ » قالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا ، وإنه أطيب من الطيب » أخرجاه .

وروى الدارمى عن جابر قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسلك طريقاً فيتبعه أحد ، إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه » .

وفى حديث أم معبد المشهور ، لما مر بها النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ،

---

(١) قوله : فقال ، أى نام وقت الضحوة الكبرى وهو المعروف بالقيلولة .

هو وأبو بكر، ومولاه . ودليلهم ،وجاء زوجها فقال : «صفيه لى يا أم معبد» فقالت : « رجلا ظاهر الوضاءة ، حلو المنطق ، فصل ،لا نزر ولا هذر ، كأن منطقة خرزات نظم يتحدّرن » .

وروى أبو زرعة بإسناده عن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للربيع بنت معوذ بن عفرا : صفى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا بنى لو رأيته رأيت الشمس طالعة .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف وهو يقول : لن تراعوا .

وقال : وجدناه بحراً ، وكان الفرس قبل ذلك بطيئاً ، فعاد لا يجارى .

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : « كنا إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يحاذى به (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) » .

وعن على بن أبى طالب قال : « لما كان يوم « بدر » اتقينا المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس بأساً ، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه » ذكره البيهقى بإسناد صحيح .

وفى الصحيحين عن أنس قال : «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ما قال لى : أف قط، ولا قال لشىء : لم فعلت ، وهلا فعلت كذا»

وفى رواية فى الصحيحين أيضاً قال : « خدمته فى السفر والحضر ، والله ما قال

لى لشيء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا ؟ وكان أحسن الناس خلقاً » .

وفى الصحيحين عن جابر قال : « ماسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ،قال : فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة » .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً » .

وروى البخارى من أنس قال : « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سباباً ولا فحاشاً ولالعاناً ، كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله ترِبت جبينه » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة أنها قالت : « ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرها ، مالم يكن إثما ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ،وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله » .

وعنها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئاً قط ، لا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله » .

وروى مسلم فى صحيحه عنها وقد سئلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » .

وروى أبو داود الطيالسى عن شعبة، حدثنا أبو إسحاق ، حدثنا أبو عبدالله الجدلى قال : سمعت عائشة ، وسألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا سخابا فى الأسواق ، ولا يجزى

بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، أو يغفر » شك أبو داود .

ورواه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين .

وفى الصحيحين عن علقمة قال : سألت عائشة : كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت : «لا كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع » .

وروى مسلم فى صحيحه عن سعد بن هشام ، وقد سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق نبى الله القرآن » .

وفى صحيح الحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال : «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، فقيل : يارسول الله : أليس قد غفر الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جده أن أخاه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « جيرانى على ما أخذوا » فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الناس يزعمون أنك نهيت عن البغى ، ثم تستحل به فقال : لأن كنت أفعل ذلك إنه لعلى وما هو عليهم ، خلوا له جيرانه » .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : « ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك » رواه عن عبد الرحمن بن مهدى : حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عنه ، رواه أبو داود والترمذى .

وروى أبو نعيم وأبو الشيخ وغيرهما عن ابن عباس « إن الله أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة معه جبريل فقال الملك « إن الله خيره بين أن يكون عبداً نبياً وبين أن يكون ملكا نبياً قال : فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا بل أكون عبداً نبياً » ورواه النسائى والبخارى فى تاريخه .

وفى صحيح مسلم عن أنس قال : كان غلام يهودى يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فمرض ، فعاده النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ » فنظر الغلام إلى أبيه فقال له أبوه : أطع أبا القاسم ، فأسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار » .

وعن أبى حازم : أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم رجلا فأرعد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هوّن عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » رواه ابن الجوزى من طرق ، بعضها متصلا عن ابن مسعود وجرير ، قال ابن الجوزى أو روى متصل ، والصواب إرساله كما تقدم .

وفى الصحيح عن أنس بن مالك « أن امرأة كان فى عقلها شىء فقالت : يا رسول الله ، إن لى إليك حاجة . قال يا أم فلان خذى فى أى الطرق شئت ، قومى فيه حتى أقوم معك ، فخلا معها يناجيها حتى قضت حاجتها » رواه مسلم .

وعن أنس قال : « كانت الأمة من إماء أهل المدينة ، لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدور به فى حوائجها حتى تفرغ ثم يرجع » رواه البخارى فى الأدب .

وروى عن ابن أبى أوفى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى مع الأرملة والمسكين ، فيقضى له حاجته » .

وعنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشي مع العبد ، ولا مع الأرملة حتى يفرغ من حاجتهم » رواه الدارمي والحاكم في صحيحه .

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف » .

وروى مسلم في صحيحه من أنس قال : « ما رأيت أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى البخاري عنه قال : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبيان فسلّم عليهم » .

وروى ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعتقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك » .

وعن قدامة بن عبد الله قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك » رواهما أبو الشيخ .

وعن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه ، فقلت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ قال : ياعائشة ومايؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد أتى العذاب قوما ، وتلا قوله تعالى (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا) » أخرجاه في الصحيحين .

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس قال : « كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديدا

حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك . قال : فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعطاء » .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم من مصلاه الذى يقوم فيه حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت ، قام ، وكانوا يتحدثون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم » .

وفى رواية أخرى صحيحة « كان طويل الصمت ، قليل الضحك وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشىء من أمورهم فيضحكون ويتبسم » .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها وسألها الأسود : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع فى أهله ؟ فقالت : « كان يكون فى مهنة أهله (يعنى خدمة أهله) فإذا حضرت الصلاة خرج » .

وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة قال : « سأل رجل عائشة ، هل كان يعمل فى بيته ؟ قالت : « كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته » .

وروى الطيالسى : ثنا شعبة ، ثنا الأغر قال سمعت أنسا يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر تباعا حتى مضى لسبيله » .

وعنها قالت : « كنا ـ آل محمد صلى الله عليه وسلم ـ يمر بنا الهلال والهلال ما نوقد بنار لطعام ، إلا أنه التمر والماء ، إلا أنه حولنا أهل دور من الأنصار فيبعث أهل كل دار بغريزة شاتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشرب من ذلك اللبن » أخرجاه فى الصحيحين .

وفي صحيح البخاري قال أنس : « ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط » .

وفي صحيح البخاري عنه : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خُبِزَ له مرقّق » . فقيل له : على ما كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر » .

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أنه خطب وذكر ما فتح على الناس فقال : « لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوى يومه من الجوع ، ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه » .

وفي صحيح البخاري عن أنس : أنه مشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة ، ولقد رهن درعه عند يهودى فأخذ لأهله شعيراً ، ولقد سمعته يقول : « ما أمسى عند آل محمد صاع بُرٍّ ولاصاع حب » وإنهم يومئذ تسعة أبيات .

وفيه عن عائشة قالت : « كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم حَشْوهُ ليف » .

وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ لما ذكر اعتزال رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ـ قال : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزانته ، فإذا هو مضطجع على حصير ، فأدنى إليه إزاره وجلس ، وإذا الحصير قد أثّر بجنبه ، وقلبت عيني في بيته فلم أجد شيئاً يرد البصر غير قبضة من شعير وقبضة من قرض نحو الصاعين ، وإذا أفق معلقة فابتدرت عيناى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا ابن الخطاب » ؟ فقلت : « يارسول الله ، ومالى لا أبكى وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه ، وهذه خزائنك وهذه الأعاجم » . وفي رواية « كسرى وقيصر في الثمار والأنهار » فقال : « أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم

فى حياتهم الدنيا » وفى رواية « أو ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ »قال : بلى ، قال : «فاحمد الله عزو جل» قال : فقلت :أستغفر الله .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » .

وروى الطيالسى بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : « اضطجع النبى صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده ، فجعلت أمسحه عنه وأقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك منه تنام عليه ؟ فقال : « مالى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » رواه أحمد .

وروى الحاكم فى صحيحه عن ابن عباس أن عمر دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال « حج النبى صلى الله عليه وسلم على رحل رث وقطيفة » ورواه البخارى عن أنس أيضاً فى « كتاب الحج » قال : « حج أنس على رحل رث ولم يكن شحيحاً وحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم حج على رحل وكانت زاملته » .

وفى صحيح الحاكم عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم لبس خشناً ، وأكل خشناً ، ولبس الصوف ، واحتذى المخصوف . قيل للحسن : ما الخشن؟ قال : غليظ الشعير ، ما كان يسيغه إلا بجرعة ماء » .

فصل فى المعاد

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقاً كما تقدم ، وهو آية وبرهان على نبوته ، فإن كل ملزوم ، فإنه دليل على لازمه .

اعلم أن الأمم نوعان : نوع لهم كتاب منزل من عند الله ، كاليهود والنصارى . ونوع لا كتاب لهم ، كالهند ، واليونان ، والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل ، بحسبهم يقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم . وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حيوان ، كما يهدى الحيوان إلى جلب ما ينفعه بالأكل والشرب ، ودفع ما يضره باللباس والسكن ، وقد خلق الله فيه حباً لهذا ، وبغضاً لهذا . قال تعالى : (سَبِّحِ اسم ربكَ الأعْلى * الذى خلقَ فسوّى * والذى قدّرَ فهدى) ، وقال موسى لفرعون : (ربنا الذى أعطى كلّ شىء خلقهُ ثمّ هدَى) وقال الخليل : (الذى خلقنى فهوَ يهدين) وقال فى أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأْ باسمِ ربكَ الذى خلقَ . خلق الإنسانَ منْ علق اقرأْ وربكَ الأكرمُ * الذى علم بالقلم ، علم الإنسانَ مالمْ يعلمْ) ، وقال تعالى : (ألمْ نجعل لهُ عينين ولساناً وشفتين وهديناهُ النجدينِ) .

ثم الأمم متفاضلون فى معرفة الخالق تعالى وفى الإقرار بمعاد بعد الموت ، إما للأرواح فقط ، وإما للأبدان فقط ، وإما لمجموعهما كما هو قول سلف المسلمين وأئمتهم وعامتهم أهل السنة والجماعة ، ومتفاضلون فيما يحمدونه ويستحسنونه من الأفعال والصفات ، وما يذمونه ويستقبحونه من ذلك .

لكن عامة بنى آدم على أن العدل خير من الظلم ، والصدق خير من الكذب ، والعلم خير من الجهل ، فإن المحسن إلى الناس خير من الذى لا يحسن إليهم .

وأما المعاد فهو إما للأرواح أو للأبدان ، وإن الناس بعد الموت سعداء أو أشقياء ، فيقرّ به كثير من الأمم غير أهل الكتاب ، وإن كان على وجه قاصر ، كحكماء الهند واليونان والمجوس وغيرهم ، وذلك أن أهل الأرض فى المعاد على أربعة أقوال :

أحدها: وهو مذهب سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين المشهورين وغيرهم من أهل السنة والحديث من الفقهاء والصوفية والنظار وهو إثبات معاد الروح والبدن جميعاً ، وأن الإنسان إذا مات كانت روحه منعمة أو معذبة ، ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى ، ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيامتين . القيامة الصغرى بالموت ، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم ، كما ذكر الله القيامتين في سورة الواقعة حيث قال في أولها : (إذا وقعتِ الواقعة ليسَ لوقعتها كاذبة * خافضةٌ رافعةٌ * إذا رجتِ الأرضُ رجا * وبستِ الجبالُ بساً * فكانتْ هباء منبثاً * وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحابُ الميمنةِ ماأصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة ماأصحاب المشئمة * والسّابقون السّابقون أولئكَ المقربون * في جناتِ النعيمِ) ثم ذكر سبحانه حال الأصناف الثلاثة في القيامة الكبرى ، وقال في آخر السورة :(فلولا إذا بلغتِ الحلقومَ * وأنتم حينئذٍ تنظرونَ * ونحنُ أقربُ إليهِ منكمْ ولكنْ لاتبصرون * فلولا إنْ كنتم غيرَ مَدينينَ * ترجعُونها إنْ كنتم صادقينَ فأمَّا إنْ كان من المقرَّبين فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيمٍ . وأمَّا إنْ كان منْ أصحابِ اليمينِ * فسلامٌ لكَ منْ أصحابِ اليمين وأمَّا إنْ كان منَ المكذبين الضالِّين فنزلٌ من حميمٍ وتصليةُ جحيمٍ * إنَّ هذا لهو حقُّ اليقينِ * فسبح باسم ربِّكَ العظيمِ) وكذلك قال في سورة القيامة : (لاأقسمُ بيومِ القيامةِ ولاأقسمُ بالنّفسِ اللّوّامةِ أيحسبُ الإنسانُ أنْ لنْ نجمعَ عظامهُ بلىْ قادرينَ على أنْ نُسوِّيَ بنانهُ بلْ يريدُ الإنسانُ ليفجرَ أمامهُ يسألُ أيانَ يومُ القيامةِ فإذا برقَ البصرُ وخسفَ القمرُ وجمعَ الشمسُ والقمرُ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ كلاَّ لاوَزَرَ * إلى ربِّكَ يومئذٍ المستقرُّ يُنبَّؤُ الإنسانُ يومئذٍ بماقدَّم وأخرَ) فذكر القيامة الكبرى ، ثم قال في آخر السورة : (كلا إذا بلغتِ التراقيَ وقيلَ منْ راقٍ وظنَّ أنهُ الفراقُ والتفّتِ الساقُ بالساق *

إلى ربِّكَ يومئذٍ المساقُ) وبسط هذا له موضع آخر ، فإن ذكر ماتناله الروح عند فراق البدن من النعيم والعذاب كثير فى النصوص النبوية .

وأما وصف القيامة الكبرى فى الكتاب والسنة ، فكثير جداً ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وقد بعث بين يدى الساعة ، فلذلك وصف القيامة بما لم يصفها به غيره ، كما ذكر المسيح فى صفته فقال : « إنه يخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للرب » .

والقول الثانى : قول من يثبت معاد الأبدان فقط ، كما يقول ذلك كثير من المتكلمين الجهمية ، والمعتزلة المبتدعين من هذه الأمة .

وبعض المصنفين يحكى هذا القول عن جمهور متكلمى المسلمين ، أو جمهور المسلمين ،وذلك غلط ،فإنه لم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ، ولا هو من قول جمهور نظارهم ، بل هو قول طائفة من متكلميهم المبتدعة ، الذين ذمهم السلف والأئمة .

والقول الثالث : المعاد للنفس الناطقة بالموت فقط ، وأن الأبدان لا تعاد .

وهذا لم يقله أحد من أهل الملل ، لا المسلمين ، ولا اليهود ، ولا النصارى .

بل هؤلاء كلهم متفقون على إعادة الأبدان ، وعلى القيامة الكبرى .

ولكن من تفلسف من هؤلاء فوافق سلفه من الصابئة والفلاسفة المشركين على أن المعاد للروح وحده ، فإنه يزعم أن الأنبياء خاطبوا الجمهور بمعاد الأبدان ، وإن لم يكن له حقيقة ، وخاطبوهم بإثبات الصفات لله وليس لها حقيقة ، وأن الأنبياء لم يظهروا الحقائق للخلق ، وأنه لا يستفاد من أخبارهم معرفة شىء من صفات الله ، ولا معرفة شىء من أمر المعاد .

وحقيقة قولهم أن الأنبياء كذبوا للمصلحة ، هؤلاء ملاحدة كفار عند المتبعين للأنبياء ، من المسلمين ، واليهود ، والنصارى .

وإن كان هؤلاء كثيرين موجودين فيمن يتظاهر بأنه من أهل الملل

لظهور أديانهم ، وهو فى الباطن على هذا الرأى .

وهؤلاء القائلون بمعاد الأرواح فقط ، منهم من يقول بأن الأرواح تتناسخ، إما فى أبدان الآدميين ، أو أبدان الحيوان مطلقاً ، أو فى جميع الأجسام النامية .

ومنهم من يقول بالتناسخ فى الأنفس الشقية فقط ، وكثير من محققيهم ينكر التناسخ .

والقول الرابع : ـ إنكار المعادين جميعاً ، كما هو قول أهل الكفر من العرب ، واليونان ، والهند ، والترك وغيرهم ، والمتفلسفة أتباع « أرسطو » كالفارابى وأتباعه ، لهم فى معاد الأرواح ثلاثة أقوال : ـ

١ ، ٢ : ـ قيل بالمعاد للأنفس العالمة والجاهلة .

٣ : ـ وقيل بإنكار الاثنين ، والفارابى نفسه قد قال الأقوال الثلاثة .

وبسط الكلام على هذه الأمور له موضع آخر ، إذ المقصود هنا أن كل ما عند أهل الكتاب ، بل وسائر أهل الأرض من علم نافع وعمل صالح ، فهو عند المسلمين .

وعند المسلمين ماليس عند غيرهم فى جميع المطالب التى تنال بها السعادة والنجاة . وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق ، وتنهى عن الظلم والفواحش ، ولهم علوم إلهية ، وعبادات بحسبهم ، ويعظمون أهل العلم والدين منهم .

والهند والفرس واليونان فى ذلك أكمل من كفار الترك ، والبربر ونحوهم ، مع أن هؤلاء فيهم أيضاً قسط من ذلك بحسبهم .

ومعلوم عند الاعتبار أن الأمم الذين لهم كتاب ، كاليهود والنصارى ، أكمل من الأمم الذين لا كتاب لهم ، فى الفضائل العلمية والعملية ، فإن مالم يأخذه الناس عن الأنبياء يعلم بالعقل والاعتبار ، وبالمنام والإلهام ، وأخبار الجن ونحو ذلك من طرق العلم .

وكل طريق صحيح من الطرق العقلية والإلهامية وغيرها، يشارك أهل الكتاب فيه مَنْ لا كتاب له، ويمتاز أهل الكتاب بعلوم وأعمال أخذوها عن الأنبياء، ليس في قوة من ليس بنبي أن يعلمها، وهذا ظاهر في الأخلاق والسياسات الملكية والمدنية فإن جنس أهل الكتاب ولو كان منسوخاً مبدلا، هم أحسن حالاً ممن لا كتاب له.

أما في العبادات والإيمان بالله واليوم الآخر، فرجحانهم فيه ظاهر.

وأما علوم وأعمال يكون ضررها راجحاً، كالسحر والطلسمات وما يتوسل به من الشرك إلى استخدام الشياطين ونحو ذلك، فهذا وإن كان غير أهل الكتاب أَقْوَمُ به، فإنما ذاك لاستغناء أهل الكتاب بما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة.

ولهذا لما ذكر الله تعالى في قصة سليمان براءته عن ذلك، وكانت الشياطين كتبت كُتُبَ كفر وسحر، ودفنتها تحت كرسيّ سليمان، فلما مات أظهروا ذلك، وقالوا: إنما كان يسخر الجن بهذه الأسماء والعزائم، فصدقهم فريقان.

فريق قدحوا في سليمان بل كفروه، من أهل الكتاب، وقالوا: من فعل ذلك فهو كافر.

وفريق قالوا: نحن نقتدى بسليمان ونفعل كما كان يفعل، وهم أهل العزائم والطلاسم التي يستخدمون بها الجن، ويقولون: إن سليمان كان يستخدمهم بها حتى يقولوا: إن هذه الأسماء كانت مكتوبة على تاجه، وهذا صورة خاتمه، وهذا كلام «آصف بن برخيا» إلى أمثال ذلك مما يضيفونه إليه، وهو كذب على سليمان.

وقد ذكر ذلك علماء المسلمين في تفسير قوله تعالى: (ولمّا جاءهمْ رسولٌ منْ عندِ اللهِ مصدّقٌ لِمَا معهمْ نبذَ فريقٌ منَ الذينَ أوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراء ظهورهمْ كأنهمْ لا يعلمونَ واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمان

وَما كفرَ سُليمانُ ولـكنَّ الشياطينَ كفرُوا يعلِّمونَ الناسَ السحرَ وماأُنزلَ على الملـكين ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يعلِّمانِ منْ أحدٍ حتى يقولاَ إنما نحنُ فتنة فلاتـكفر فيتعلَّمونَ منهما مايفرِّقون به بينَ المرء وزوجِهِ وماهم بضارِّين بهِ منْ أحدٍ إلا بإذنِ اللهِ ويتعلَّمون ما يضرهمْ ولا ينفعهمْ ولقدْ علِموا لمنِ اشتراهُ مالهُ فى الآخرة منْ خلاقٍ ولبئسَ ماشَرَوْا بهِ أنفسهمْ لوْ كانوا يعلَمون. ولوأنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خيرلو كانوا يعلمون) فذم سبحانه من عدَل عن اتباع كتاب الله ورسله ، واتبع ماتتلوه الشياطين على عهد سليمان ، وبين ـ سبحانه ـ أن سليمان لم يكفر ، ولـكن الشياطين كفروا وأنهم يعلِّمون الناس السحر ، وماأنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت ، وأن الملـكين ما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تـكفر .

وأخبر ـ سبحانه ـ أنهم لا يضرون به أحداً إلا بإذن الله ، وأنهم يتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ثم قال : (ولقدْ علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرةِ من خَلاقٍ) أى نصيب ، أى هؤلاء يعلمون أن صاحبه لا نصيب له فى الآخرة ، وإنما يطلبون أنهم يقضون به أغراضهم الدنيوية لما لهم فى ذلك من الهوى ، وذلك ضار لهم لا نافع ، كما قال فى المشرك : (يَدْعو لمنْ ضرُّه أقربُ منْ نفعهِ) ثم قال تعالى : (ولوْ أنهمْ آمنوا واتقوا لمثوبةٌ منْ عندِ اللهِ خيرٌ لو كانوا يعلمونَ) فبين سبحانه ، أنه بالإيمان والتقوى ، يحصل من ثواب الله ما هو خير لهم من هذا ، فإنهم إنما يطلبونه لما يرجون به من الخير لهم ، وهذا خير لهم ، وهذا كقوله : (إذا نوديَ للصلاةِ منْ يومِ الجمعةِ فاسعوا إلى ذكرِ اللهِ وذروا البيع ذلـكمْ خيرٌ لـكمْ) فإن ما تطلبه النفوس فيه لها لذة ، فجعل خيراً بذلك الاعتبار ، لـكن إذا كان الألم زائداً على اللذة ، كان شره أعظم من خيره .

والشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتـكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ،

فهى تأمر بما ترجح مصلحته ، وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد ، وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة ، كتناول المحرمات من الخمر وغيره.

ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا .

فالأحسن ، إما واجب ، وإما مستحب ، قال تعالى : (فخذها بقوّةٍ وأْمرْ قومَكَ يأخذوا بأحسنها) وقال . (واتبعوا أحسنَ ما أُنزِلَ إليكُمْ من ربكُمْ) فأمر باتباع الأحسن والأخذ به .

وقال تعالى : (فبشرْ عبادى الذينَ يستمعون القولَ فيتبعون أحسنهُ أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ) فاقتضى أن غيرهم لم يهده ، وهذا يقتضى وجوب الأخذ بالأحسن ، وهو مشكل ، وقد تكلم الناس فيه ، ونظيره قوله تعالى: (وقلْ لعبادى يقولوا التى هى أحسنُ إنَّ الشيطانَ ينزغُ بينهمْ) وقوله تعالى: (ادفعْ بالتى هيَ أحسنُ السيئة) مع قوله تعالى فى موضع آخر : (ويدرءون بالحسنةِ السيئةَ) وقال تعالى : (وجادلهمْ بالتى هيَ أحسنُ) وقال : (ولا تجادِلوا أهْلَ الكتاب إلا بالتى هِيَ أحسنُ) وقال : (ولا تقربوا مال اليتيمِ إلاَّ بالتى هيَ أحسنُ) فى موضعين .

وقد يقال هذا نظير قوله تعالى: (فاسعوا إلى ذكر اللهِ وذروا البيع ذلكمْ خيرٌ لكمْ) وقوله تعالى : (اللهَ خيرٌ أمَّا يشركونَ) وقوله تعالى : (تاللهِ إن كنَّا لفى ضلالٍ مبينٍ . إذ نسويكم بربِّ العالمينَ) وقوله : (واللهُ خيرٌ وأبقى) وقوله : (والآخرةُ خيرٌ وأبقى) وقوله : (فردوهُ إلى اللهِ والرسُول إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخر ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً) وقوله : (أىُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً) وقوله تعالى : (ومنْ أحسنُ ديناً ممنْ أسلمَ وجههُ للهِ وهوَ محسنٌ واتبعَ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً) وقوله تعالى : (اعدلوا هو أقربُ للتقوَى) وقوله : (ولوْ أنهمْ فعلوا ما يوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لهمْ وأشدَّ تثبيتاً) ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه

أن المأمور به خير وأحسن من المنهى عنه ، وإن كان الأول واجباً ، والثانى محرماً .

وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مصلحة مرجوحة ، فيكون باعتبار ذلك فى هذا خير وحسن . وفى هذا شر وسيء ، لكن لما كان هذا خيراً وأحسن كان واجباً .

فقوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور ، وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب ، فإن كليهما أحسن على المحرم والمكروه .

لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب ، كما أمر بالإحسان فى قوله تعالى : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) والإحسان منه واجب ، ومنه مستحب .

فصـــــــل

فى وجوب العدل ومقصود العبادات وصفاتها

، إذا كان جنس أهل الكتاب أكمل فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة، ممن لا كتاب له ، فمعلوم أن أمته أكمل من طائفتى أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأعدل ، وقد جمع لهم محاسن ما فى التوراة وما فى الإنجيل .

فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها .

فأما العلوم ، فهم أحذق فى جميع العلوم من جميع الأمم حتى العلوم التى ليست بنبوية ولا أخروية ، كعلم الطب مثلا ، والحساب ، ونحو ذلك ، هم أحذق فيها من الأمتين ، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين بل أحسن علماً وبيانا لها من الأوائل الذين كانت هى غاية علمهم .

وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ بنفاق وإلحاد ولا قدر له عندهم ، لكن يحصل له بما يعلمه من المسلمين من العقل والبيان ما أعانه على الحذق فى تلك العلوم ، فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة وبيانا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين .

وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية وما أخبرت به الأنبياء من الغيب ، كالعرش ، والملائكة ، والجن ، والجنة ، والنار ، وتفاصيل المعاد ، فكل من نظر فى كلام المسلمين فيها ، وكلام علماء اليهود والنصارى ، وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتم .

ومعلوم أن أعلم أهل الكتاب والملل بذلك أتم من علم غيرهم .

وأما العبادة والزهد ، والأخلاق ، والسياسة الملكية والمدنية ، فالكلام فيها مبنى على أصل ، وهو معرفة المقصود بها ، وما يحصل المقصود .

فنقول : للناس فى مقصود العبادات مذاهب ، منهم من يقول : المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها ، ليستعد بذلك للعلم ، وليست هى مقصودة فى نفسها ، ويجعلونها من قسم الأخلاق ، وهذا قول متفلسفة اليونان ، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين ، كالفارابى وابن سينا وغيرهما ، ومن سلك طريقتهم من متكلم ، ومتصوف ، ومتفقه .

كما يوجد مثل ذلك فى كتب أبى حامد ، والسهروردى المقتول ، وابن رشد الحفيد ، وابن عربى ، وابن سبعين .

لكن أبو حامد يختلف كلامه ، تارة يوافقهم ، وتارة يخالفهم .

وهذا القدر : فعله ابن سينا وأمثاله ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء وبين فلسفة المشائين ـ أرسطو وأمثاله ـ ولهذا تكلموا فى الآيات وخوارق العادات ، وجعلوا لها ثلاثة أسباب ١ ـ القوى الفلكية ٢ ـ والقوى النفسانية ٣ ـ والطبيعية ، إذ كانت هذه هى المؤثرات فى هذا العالم عندهم .

وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات ، وما للسحرة من العجائب ؛ هو من قوى النفس .

لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير ، وهذا قصده الشر .

وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء ؛ كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع ، فإنه مبنى على إنكار الملائكة وإنكار الجن ، وعلى أن الله لا يعلم الجزئيات ، ولا يخلق بمشيئته وقدرته ، ولا يقدر على تغيير العالم .

ثم إن هؤلاء لا يقرون من المعجزات إلا بما جرى على هذا الأصل ، وأمكن أن يقال فيه هذا ، مثل نزول المطر ، وتسخير السباع ، وإمراض الغير وقتله ، ونحو ذلك .

فأما قلب العصا حية ، وإحياء الموتى ، وإخراج الناقة من الهضبة ، وانشقاق القمر وأمثال ذلك ، فلا يقرون به .

وقد علم بطرق متعددة ما يكون من الخوارق بسبب أفعال الجن ، وبسبب أفعال الملائكة .

وأحوال الجن معلومة عند عامة الأمم ، مسلمهم وكافرهم ، لا يجحد ذلك إلا من هو من أجهل الناس ، وكذلك من فسرها بقوى النفس ، وهذا غير إخبار الله عنهم فيما أنزله من الكتب .

وأما الملائكة فأمرهم أجل ، وهم رسل الله فى تدبير العالم كما قال تعالى : (فالمدبرات أمراً) وقال : (فالمقسمات أمراً) وقد ذكر الله تعالى فى كتبه من أخبارهم وأصنافهم ما يطول وصفه ، وآثارهم موجودة فى العالم ، يعرف ذلك بالاعتبار ، كما قد بسط فى موضعه . إذ المقصود هنا ذكر مذاهب الناس فى العبادات .

وهؤلاء غاية ما عندهم فى العبادات ، والأخلاق ، والحكمة العلمية ، أنهم

رأوا النفس ، فيها شهوة وغضب ، من حيث القوة العملية ، ولها نظر من جهة القوة العلمية .

فقالوا : كمال الشهوة فى العفة ، وكمال الغضب فى الحلم والشجاعة ، وكمال القوة النظرية فى العلم . والتوسط فى جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو العدل .

وما ذكروه من العمل متعلق بالأدب لم يثبتوا خاصية النفس الذى هو محبة الله وتوحيده ، بل ولا عرفوا كمال ذلك ، كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مشتمل على كثير من الباطل ، كما قد بسط الكلام عليهم فى موضع آخر .

ومحبة الله وتوحيده ، هو الغاية التى فيها صلاح للنفس ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له .

فلا صلاح للنفس ، ولا كمال لها إلا فى ذلك ، وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى موضع آخر ولهذا كان هو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل ، وهو جماع دعوة المرسلين ، قال الله تعالى : (ولقدْ بعثنا فى كلِّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوتَ) ، وقال (وما أرسلنا من قبلكَ منْ رسولٍ إلاَّ نوحِي إليهِ أنَّهُ لا إله إلا أنا فاعبدونِ) وقال : (ومنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يقبلَ منهُ) وقال تعالى : (واسئلْ منْ أرسلنا منْ قبلكَ منْ رسُلنا أجعلنا منْ دون الرحمن آلهةً يعبدونَ) وقال تعالى : (يا أيها الرسُلُ كلوا منَ الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملونَ عليمٌ وأنَّ هذه أمتــكمْ أمّةً واحدةً وأنا ربكمْ فاتقون . فتقطَّعوا أمرهمْ بينهمْ زُبُراً كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحونَ) وقال لما ذكر قصص الأنبياء : (إنَّ هذه أمتــكمْ أمَّةً واحدةً وأنا ربكمْ فاعبدونِ . وتقطَّعوا أمرهمْ بينهمْ كلٌّ إلينا راجعونَ) وقال تعالى : (شرعَ لــكمْ منَ الدينِ ما وَصَّى بهِ نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصينا بهِ إبراهيمَ وَموسى وَعيسى أنْ أقيموا الدِّينَ وَلا تتفرقوا فيه) وقال تعالى : (فأقمْ وجهكَ للدِّينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التى فطرَ الناس عليها

لا تبديلَ لخلق اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ * منيبينَ إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ ولا تكونوا من المشركينَ. من الذينَ فرّقوا دينهمْ وكانوا شيعاً كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون) وقد قال تعالى: (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون)، فالغاية الحميدة التى بها يحصل كمال بنى آدم وسعادتهم ونجاتهم، عبادة الله وحده، وهى حقيقة قول القائل «لا إله إلا الله» وبهذا بعث الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب، فلا تصلح جميع النفوس وتزكو وتكمل إلا بهذا، كما قال تعالى: (وَوَيلٌ للمشركينَ الذينَ لا يؤتون الزكاة) أى لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان.

وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى: (إنَّ اللهَ لا يغفرُ أن يشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلك لمَنْ يشاء) وهذا فى موضعين من كتابه، وهذا أول الكلمات العشر التى أنزلها الله على موسى حيث قال: «أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذى أخرجتك من أرض مصر من العبيد، لا يكون لك إله غيرى، لا تتخذ صوراً ولا تمثالا، ما فى السموات من فوق، ومن فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، إنى أنا ربك العزيز».

وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو عظم وصية فى الناموس.

فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون، كموسى، والمسيح، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وضد هذا هو الشرك الذى لا يغفره الله تعالى، قال تعالى: (ومن الناس مَنْ يتخذ من دون اللهِ أنداداً يحبونهمْ كحب الله والذينَ آمنوا أشدُّ حباً للهِ) وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع، وبين أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال، إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذى لا أحب إليها منه، ولهذا كثر فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده،

ولفظ « العبادة » يتضمن كمال الذل بكمال الحب .

فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب ، ولابد أن يكون ذليلا له كمال الذل .

فمن أحب شيئاً ولم يذل له لم يعبده ، ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده .

وكمال الذل والحب لا يصلح إلا لله وحده ، فهو الإله المستحق للعبادة ، التي لا يستحقها إلا هو ، وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام ، والتوكل والعبادة .

فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها الذي هو محبوبها ومنتهى مرادها وبغيتها ، ومن حيث هو ربها وخالقها .

فمن أقر بأن الله رب كل شيء وخالقه ، ولم يعبد الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ، وأخشى عنده من كل ما سواه ، وأعظم عنده من كل ما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه ، بل من سوّى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ، ويخشاه مثل ما يخشى الله ، ويرجوه مثل ما يرجو الله ، ويدعوه مثل ما يدعوه ، فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله . ولو كان مع ذلك عفيفاً في طعامه ونكاحه ، وكان حليماً شجاعاً .

فما ذكره المتفلسفة من الحكمة العملية ، ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس وتنجو من العذاب كما أن ما ذكروه من الحكمة النظرية ، ليس فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فليس عندهم من العلم ما تهتدي به النفوس ، ولا من الأخلاق ما هو دين حق ، ولهذا لم يكونوا داخلين في أهل السعادة في الآخرة المذكورين في قوله تعالى (إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئين منْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهمْ أجرهم عندَ ربهم ولا خوفٌ عليهمْ ولاهمْ يحزنونَ) ،

وهذه الفضائل الأربع التي ذكرتها المتفلسفة ، لا بد منها في كمال النفس وصلاحها وتزكيتها .

والمتفلسفة لم يحدوا ما يحتاج إليه بحد يبين مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة .

ولكن الأنبياء بينوا ذلك ، وقد قال سبحانه : (قُلْ إنما حرَّمَ ربيَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطنَ والإثمَ والبغيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله مالَمْ ينزلْ بهِ سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فهذه الأنواع الأربعة هي التي حرمها تحريماً مطلقاً ، لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا في حال من الأحوال .

بخلاف الدم والميتة ولحم الخنزير وغير ذلك ، فإنه يحرم في حال ويباح في حال . وأما الأربعة فهي محرمة مطلقا .

فالفواحش متعلقة بالشهوة . والبغي بغير الحق يتعلق بالغضب ، والشرك بالله فساد أصل العدل فإن الشرك ظلم عظيم ، والقول على الله بلا علم ، فساد العلم . فقد حرم سبحانه هذه الأربعة ، وهي فساد الشهوة ، والغضب ، وفساد العدل والعلم .

وقوله (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) يتضمن تحريم أصل الظلم في حق الله ، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حق الله تعالى ، وهو عبادته وحده لاشريك له فإن النفس لها قوتان : العلمية . والعملية . وعمل الإنسان عمل اختياري . والعمل الاختياري إنما يكون بإرادة العبد .

وكل إنسان له إرادة وعمل بإرادته فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » .

والإرادة لابد لها من مراد ، وكل مراد فإما أن يراد لنفسه . وإما أن يراد لغيره . والمراد لغيره لابد أن ينتهي إلى المراد لنفسه .

فالقوة العملية تستلزم أن يكون للانسان مراد . وذلك المراد نفسه ، هو المحبوب لنفسه ، وهو الإله الذى يستحق أن يكون محبوباً لذاته ، وهذا هو العلة الغائية ، الذى هو علة فاعلية للعلة الفاعلية ، ولهذا قيل : العامة تقول « قيمة كل امرىء ما يحسن » والعارفون يقولون « قيمة كل امرىء ما يطلب » .

وفى بعض الكتب المتقدمة « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم . وإنما أنظر إلى همته » .

وهؤلاء المتفلسفة لم يذكروا هذا فى كمال النفس، إنما جعلوا كلامها العملى فى تعديل الشهوة والغضب بالفقه والحلم؛ وهذا غايته ترك الإسراف فى الشهوة والغضب ، والشهوة : هى جلب ما ينفع البدن ويبقى النوع ، والغضب دفع ما يضر البدن .

ولم يتعرضوا للمراد الروح الذى يحبه ، كدأبه . مع أنهم إنما تكلموا فيما يعود إلى البدن ، وجعلوا ذلك إصلاحاً للبدن الذى هو آلة النفس ، وجعلوا كمال النفس فى مجرد العلم .

وقد بسطنا غلطهم فى هذا الأصل من وجوه فى غير هذا الموضوع ، وبينا أن النفس لها كمال فى العلم والإرادة ، كما أن لها كمالا فى العلم ، وأن العلم المجرد ليس كمالا لها ولا صلاحاً ، ولو كان كمالا ، لم يكن ما عندهم من العلم هو كمال النفس ، وبينا غلط الجهمية الذين قالوا « الإيمان هو مجرد العلم » وأن الصواب قول السلف والأئمة « إن الإيمان قول وعمل » أصله قول القلب وعمل القلب المتضمن عمل القلب وإرادته .

وإذا كان لابد للنفس من مراد محبوب لذاته لاتصلح إلا به ولا تكمل إلا به ، وذلك هو إلهها ، فليس لها إله يكون به صلاحها إلا الله . ولهذا قال الله تعالى (لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدتا) وليس ذلك للانسان فقط بل

والملائكة والجن ، فإنهم كلهم أحياء عقلاء ناطقون ؛ لهم علم وعمل اختياري ، ولا صلاح لهم إلا بمرادهم المحبوب لذاته ، وهو معبودهم ، ولا يجوز أن يكون معبوداً محبوباً لنفسه إلا الله فلو كان في السموات والأرض إله إلا الله لفسدتا .

فلهذا كان دين جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له .

وهؤلاء المتفلسفة لا يعرفون ذلك ، فليس عندهم من صلاح النفس وكمالها في العلم والعمل ما تنجو به من الشقاء ، فضلا عما تسعد به .

ومما يبين ذلك أن « أرسطو » معلمهم الأول هو وأتباعه إنما أثبتوا العلة الأولى بالحركة الفلكية ، فقالوا « الحركة الدورية حركة اختيارية نفسانية فقوامه بحركته الاختيارية ، وفساده بعدمها ، وقوام حركته بما يتحرك لأجله ، فإن الفاعل بالاختيار إنما قوامه بعلته الغائية التي يتحرك لأجلها ، وغايته التي يتحرك لأجلها ، هو العلة الأولى فإنه يتحرك للتشبه بها .

فجعلوا قوام العالم كله بالعلة الأولى من حيث هو متشبه به ، لأن المتحرك باختياره لابد له من مراد .

ومعلوم أن الحركة الإرادية تطلب مراداً محبوباً لنفسه ، وتستلزم ذلك أعظم من استلزامها تشبهاً به ، فإن كل متحرك بالإرادة لابد له من مراد محبوب لنفسه ، فإن الإرادة لابد لها من مراد ، والمراد يكون إما مراداً لنفسه ، وإما مراداً لغيره ، والمراد لغيره إنما يراد لذلك الغير فلابد أن يكون ذلك الغير مراداً لنفسه أو ينتهى إلى مراد لنفسه ، وإلا لزم التسلسل في العلل الغائية وذلك باطل كبطلان التسلسل في العلل الفاعلية بصريح العقل واتفاق العقلاء . وبسط هذا له موضع آخر .

وإذا كان الفاعل بالاختيار يستلزم مراداً لنفسه محبوباً ، فلابد أن يكون لما يتحرك في السموات بإرادته سواء كان هؤلاء ، الملائكة ، أو ما يسمونه

هم نفساً ، من محبوب مراد لذاته ، يكون هو الإله المعبود المراد بتلك الحركات .

وكذلك نفس الإنسان ، حركتها بالإرادة من لوازم ذاتها ، فلا بد لها من محبوب مراد لذاته وهو الإله ، وهذا المحبوب المراد لذاته هو الله تعالى » ويمتنع أن يكون غيره كما قد بسط هذا فى موضع آخر ، وبين أنه كما يمتنع أن يكون موجوداً بغيره ، بل هو واجب الوجود بنفسه ، فيمتنع أن يكون مراداً لغيره بل مراد لنفسه .

وكما يمتنع أن يكون للعالم ربّان قادران ، يمتنع أن يكون للعالم إلهان معبودان ، فإن كون أحدهما قادراً ، يناقض كون الآخر قادراً لامتناع اجتماع القادرين على مقدور واحد ، وامتناع كون أحدهما قادراً على الفعل حين يكون الآخر قادراً عليه ، وامتناع ارتفاع قدرة أحدهما بقدرة الآخر مع التكافى[(١)] .

كذلك يمتنع أن يكون إلهان معبودان محبوبان لذاتهما ، لأن كونه أحدهما هو المعبود لذاته ، يناقضه أن يكون غيره معبوداً لذاته ، فإن ذلك يستلزم أن يكون بعض المحبة والعمل لهذا ، وبعض ذلك لهذا ، وذلك يناقض كون الحب والعمل كله لهذا فإن الشركة نقص فى الحب ، ولا تكون حركة المتحرك بإرادته له ، فلا يكون أحدهما معبوداً معمولا له إلا إذا لم يكن الآخر كذلك ، فإن العمل لهذا يناقض أن يكون له شريك ، فضلا عن أنه يكون لغيره .

وكل من أحب شيئين فإنما يحبهما لثالث غيرهما ، وإلا فيمتنع أن يكون كل منهما محبوباً لذاته ، إذ المحبوب لذاته هو الذى تريده النفس وتطلبه وتطمئن إليه ، بحيث لا يبقى لها مراد غيره ، ولهذا يناقض أن يكون له شريك .

والقول الثانى : — فى مقصود العبادات قول من يقول : إن الله عرض

---

(١) قوله : التكافى . هكذا فى الأصل . ولعل الصواب : التكافؤ . (أى التماثل) .

الناس بالتكليف بالعبادات ليثيبهم على ذلك بعد الموت فإن الإنعام بالثواب لا يحسن بدون التكليف لما فيه من الإجلال والتعظيم ، الذى لا يستحقه إلا مكلف ، كما يقول ذلك القدرية ، كالمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة وأهل الكتاب من المسلمين وغيرهم .

وهؤلاء قد يجعلون الواجبات الشرعية لطفا فى الواجبات العقلية ، وقد يقولون إن الغاية المقصود التى بها يحصل الثواب هو العمل ، والعلم ذريعة إليه ، حتى يقولوا(١) مثل ذلك فى معرفة الله تعالى . يقولون : إنما وجبت لأنها فى أداء الواجبات العقلية العملية .

والقول الثالث : ـ قول من يقول : بل الله أمر بذلك لا بحكمة مطلوبة . ولا بسبب بل لمحض المشيئة . وهذا قول الجبرية المقابلين للقدرية · كالجهم والأشعرى . وخلق كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم .

والقول الرابع : ـ قول سلف الأمة وأئمتها . وهو أن نفس معرفة الله تعالى ومحبته مقصودة لذاتها . وأن الله سبحانه محبوب مستحق للعبادة لذاته . لا إله إلا هو. ولا يجوز أن يكون غيره محبوبا لذاته . وأنه سبحانه يحب عباده الذين يحبونه ويرضى عنهم ويفرح بتوبة التائب . ويبغض الكافرين ويمقتهم ويغضب عليهم ويلعنهم ويذمهم ، وأن فى ذلك ، من الحكم البالغة ، وكذلك من الأسباب ما يطول وصفه فى هذا الخطاب ، كما قد بسط فى موضعه ، إذ المقصود — هنا التنبيه على المسلمين أكمل من غيرهم فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة .

---

(١) قوله حتى يقولوا . هكذا فى الأصل والصواب : حتى يقولون . لأن « حتى » هنا ليست ناصبة بل هى تفريعية بمعنى الفاء .

وإذا عرفت مذاهب الناس فى مقاصد العبادات ، فهم أيضاً مختلفون فى صفاتها .

فمن الناس من يظن أن كل ما كان أشق على النفس وأشد إماتة لشهوتها فهو أفضل .

وهذا مذهب كثير من المشركين والهند وغيرهم ، وكثير من أهل الكتاب اليهود ، والنصارى ، وكثير من مبتدعة المسلمين .

والقول الثانى ـ قول من يقول : إن أفضلها ما كان أدعى إلى تحصيل الواجبات العقلية .

والثالث ـ قول من يقول : فضل بعضها على بعض لا علة له ، بل يرجع إلى محض المشيئة .

والرابع ـ وهو الصواب ـ أن أفضلها ما كان لله أطوع وللعبد أنفع .

فما كان صاحبه أكثر انتفاعاً به وكان صاحبه أطوع لله من غيره ، فهو أفضل كما جاء فى الحديث « خير العمل أنفعه » .

وعلى كل قول ، فعبادات المسلمين أكمل من عبادات غيرهم .

أما على الأول « فأولئك يقولون : كلما كانت الأعمال أشق على النفس فهى أفضل » .

ثم هؤلاء قد يفضلون الجوع والسهر والصمت والخلوة ونحو ذلك ، كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين فى الهند وغيرهم من النصارى ، ومبتدعة هذه الأمة ولكن يقال لهم : الجهاد أعظم مشقة من هذا كله ، فإنه بذل النفس وتعريضها للموت ، ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها ، وفيه جهاد النفس فى الباطن ، وجهاد العدو فى الظاهر ، وتلك العبادات توجد من الضعفاء .

ومعلوم أن المسلمين أعظم جهاداً من اليهود والنصارى .

فإن اليهود خالفوا موسى فى الجهاد وعصوه ، والنصارى لا يجاهدون على دين

وأما على قول من يجعل العبادات الشرعية لطفاً فى الواجبات العقلية ، فلا ريب أن عبادات المسلمين - كصلاتهم وصيامهم وحجهم - أدعى إلى العدل الذى هو جماع الواجبات العقلية ، من عبادات غيرهم التى ابتدعوها ، فإنها متضمنة للظلم المنافى للعدل .

وأما على قول نفاة التعليل ورد ذلك إلى مشيئة الله فيكون الأمر فى ذلك راجعاً إلى محض مشيئة الله وتعبد للخلق .

وحينئذ ، فمن تكون عباداته تابعة لأمر الله الذى جاءت به الرسل يكون متعبداً بما أمر الله به .

بخلاف من تكون عباداته قد ابتدعها أكابرهم من غير أن يأتيهم بها رسول من عند الله .

وأما على القول الرابع ، فأيما علم أن الله أمر به يتضمن طاعة الله . وهذا إنما يكون فى عبادات أمر الله بها ، وهى عبادات المسلمين دون من ابتدع كثيراً من عباداتهم أكابرهم .

وأما انتفاع العباد بها ، فهذا يعرف بثمراتها ونتائجها وفوائدها ، ومن ذلك آثارها فى صلاح القلوب .

فليتدبر الإنسان عقول المسلمين وأخلاقهم وعدلهم ، يظهر له الفرق بينهم وبين غيرهم .

ثم صفات عباداتهم فيها من الكمال والاعتدال ، كالطهارة ، والاصطفاف والركوع ، والسجود ، واستقبال بيت إبراهيم الذى هو إمام الخلائق ، والإمساك فيها عن الكلام ، وما فيها من الخشوع ، وتلاوة القرآن واستماعه الذى يظهر الفرق بينه وبين غيره من الكتب لكل متدبر منصف ، إلى أمثال ذلك من الأمور التى يظهر بها فضل عبادات المسلمين على عبادات غيرهم .

وأما حكم المسلمين فى الحدود والحقوق ، فلا يخفى على عاقل فضله .

حتى إن النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضى بينهم بشرع المسلمين ، إذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به بين الناس .

وليس فى الإنجيل حكم عام ، بل عامته ، الأمر بالزهد ومكارم الأخلاق ، وهو مما يأمر به المسلمون أيضاً .

وقد ذكرنا فى كون المسلمين معتدلين متوسطين بين اليهود والنصارى ، فى التوحيد ، والنبوات ، والحرام ، والحلال وغير ذلك ، مما يبين أنهم أكمل من الأمتين ، مع أن دلائل هذا كثيرة جداً ، وإنما المقصود التنبيه على ذلك ، وحينئذ ففضل الأمة ، يستلزم فضل متبوعها .

فصـــــل

ومما يبين أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن من دعا إلى مثل ما دعا إليه لا يخلو من ثلاثة أقسام :ـ

إما أن يكون نبياً صادقاً مرسلا من الله ، كما أخبر عن نفسه بمنزلة نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله فى قوله : (إنّا أوْحيْنا إليكَ كما أوْحيْنا إلى نوحٍ والنَّبيِّينَ منْ بعدِهِ وَأوْحيْنا إلى إبراهيمَ وَإسماعيلَ وَ إسحاقَ وَيعقوبَ والأسْباط وَعيسى وَأيوبَ وَيونسَ وَهارونَ وَسُليمانَ وَآتينا دَاودَ زَبوراً * وَرسُلاً قدْ قَصَصْناهمْ عليكَ منْ قبلُ وَرُسُلاً لمْ نقْصُصْهمْ عليكَ وكلّمَ اللهُ موسى تـكليماً * رُسُلا مبشرينَ ومنذرينَ لئلاّ يكونَ للنّاسِ عَلَى اللهِ حُجّةٌ بعدَ الرسُلِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً لـكن اللهُ يشهدُ بمَا أنزلَ إليكَ أنزلهُ بعلمهِ والملائـكةُ يشهدون وكفى بالله شهيداً) .

وإما أن يكون ملـكا عادلا وضع ناموساً سياسياً ، وقانوناً عدلياً ، ينتفع به الخلق ، ويحملهم به على السيرة العادلة ليبلغ عامه ، كما كان للأمم من يضع لهم

النواميس ، مثل واضعي النواميس من اليونان ، والهند ، والفرس وغيرهم .

وإن كان واضع الناموس مختصاً بقوة قدسية ينال بها العلم بسهولة وله قوة نفسية « يتصرف فيها تصرفات خارجة عن العادة » ويكون له قوة تخييلية « تمثل له في نفسه أشكالا نورانية » وأصواتاً يسمعها في داخل نفسه ، فإن هذه الخواص الثلاثة ، هي التي يقول « ابن سينا » وأمثاله من المتفلسفة : إنها خواص النبي ، ومن قامت به كان نبياً . والنبوة مكتسبة عندهم .

ولكن لما كانت هذه موجودة لكثير من الخلق ، ولم يصل بها إلى إلى قريب من درجة الصديقين ، أتباع الأنبياء ، كالخلفاء الراشدين ، وحواريي عيسى ، وأصحاب موسى ، جعلناها من هذا القسم ، إذ صاحب هذا ، قد يكون فيه عدل وسياسة ، بحسب ما معه من العلم والعدل ، فهذا القسم الثاني .

وإما أن يكون رجلا كاذباً ، فاجراً أفاكا أثيما يتعمد الكذب والظلم أو يتكلم بلا علم ، فيخطيء خطأ من يتكلم بلا علم .

ومن يظن الكذب صدقاً ، والباطل حقاً ، والضلال هدى ، والغي رشداً ، والظلم عدلا ، والفساد صلاحاً وكل من دعا الخلق إلى متابعته وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب ، بأن يصدقوه فيما أخبر ، ويطيعوه فيما أوجبه وأمر به باطناً وظاهراً ، من غير أن يخبر أحداً على اتباعه وتصديقه وطاعته ، ولا يسوغ له مخالفته بوجه من الوجوه ، لا في الباطن ولا في الظاهر . لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة .

وذلك لأنه ، إما أن يكون قصده الإثم والعدوان ، أو قصده البر والعدل .

فإن كان قصده الأول ، فهو ظالم فاجر ، ومثل هذا لا يكون إلا كاذباً عمداً أو خطأ .

وإن كان قصده البر والعدل ، فلا يخلو ـ مع ذلك ـ إما ، أن يكون عالماً بكل ما يخبر به من الغيوب ، جازما بصدق نفسه جزما لا يحتمل النقيض ، عالماً

بأن ما يأمر به هو عدل ، لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه ، وإما أن لا يكون جازما بذلك .

فإن كان جازماً بذلك ، كان هذا هو النبي المعصوم ، الذى لا يخبر إلا بحق وصدق ، ولا يأمر إلا بعدل (وتَمَّتْ كلماتُ رَبِّكَ صِدقًا وَعَدلاً لا مُبَدِّلَ لـكلماتِهِ وَهوَ السَّميعُ العليمُ) .

بخلاف القسم الذى يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه ، فإن هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تـكون المصلحة والعدل فى خلافها ، ويخبر بأشياء باجتهاده يجوز أن تـكون المصلحة والعدل فى خلافها ، ويخبر بأشياء باجتهاده ، يجوز أن يكون الأمر بخلاف ذلك ، ولا بد أن يغلط فى بعض ما يخبر به من العلميات وما يأمر به من العمليات، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ، ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر ، إلا أن يكون نبياً ، فإن الإيمان واجب بكل ما يأتى به النبى .

قال تعالى : (قولوا آمنَّا باللهِ وَما أُنزِلَ إلينا وَما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وَإسماعيلَ وَإسحاقَ ويعقوبَ والأسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وَعيسى وَما أُوتى النَّبيُّونَ منْ ربهمْ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ منهُمْ ونحنُ لهُ مسلمونَ) وقال تعالى : (ليسَ البِرَّ أنْ تولوا وَجُوهكمْ قبلَ المشْرِق والمغرِب ولـكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخرِ والملائـكةِ والـكتابِ والنَّبيِّينَ) الآية .

وإذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمداً ذكر أنه رسول كإبراهيم وموسى وعيسى .

بل أخبر أنه سيد ولد آدم، وأن آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة ، وأنه لما أسرى به وعرج إلى ربه، علا على الأنبياء كلهم على إبراهيم، وموسى وهرون ، وعيسى ، ويحيى وغيرهم ، وأخبر أنه لا نبى بعده ، وأن أمته هم الآخرون فى الخلق ، السابقون يوم القيامة ، وأن الـكتاب الذى أنزل إليه ، أحسن الحديث، وأنه مهيمن على ما بين يديه من الـكتب ، مع تصديقه لذلك .

وحينئذ فإذا كان عالماً بصدق نفسه ، فهو نبي رسول ، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب ، فهو من أظلم الناس وأجرمهم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى على اللهِ كذِباً أوْ قال أُوحِيَ إليَّ ولَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ) .

وإن كان يظن صدق نفسه وليس كذلك، فهو مخطىء غالط ملبوس عليه.

وإذا كان كذلك ، فلابد أن يخطىء فيما يخبر به من الغيوب ، ويظلم فيما يأمر به من العدل ، ولا يتصور استمراره على هذا ، بل لابد أن يتبين له ولغيره أنه صادق أو كاذب .

فإن من ظن صدق نفسه في مثل هذه الدعوى وليس بصادق ، يكون من أجهل الناس وأظلمهم وأبعدهم عن التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب والخير والشر ، فإن هذا بمنزلة من اشتبه عليه النبي الصادق بالنبي الكاذب ، وهذا من أجهل الناس .

وإذا اشتبه عليه حال غيره . فكيف بمن اشتبه عليه حال نفسه ولم يعلم هو ما يقوله ، أصدق أم كذب ؟

ومن كان جاهلا مع هذه الدعوى العظيمة التي لم يدع بشر مثلها ، ومع كثرة ما يخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، ويأمر به وينهى عنه ، من الأمور الكلية ، والسنن العامة ، والشرائع والنواميس ، فلابد أن يكون فيها من الضلال والغي ما يبين لأكثر الخلق .

فإذا كان إخباره من الماضي والمستقبل ، يصدق بعضه بعضاً ، والذي يأمر به هو الطريق الأقوم ، والكتاب الذي جاء به ، كتاب متشابه مثاني ، يشبه بعضه بعضاً في الصدق ، قال تعالى: (أفَلاَ يتدبَّرُونَ القرآنَ ولو كان مِنْ عندِ غيْرِ اللهِ لوجدُوا فيهِ اخْتلافاً كثيراً) فإنه لو كان من عند غير الله ، لوجب أن يكون فيه تناقض ، لامتناع قدرة البشر على أن تخبر بهذه الأخبار ومافيها من الغيوب ، ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض . ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل ، وأنه ما جرت عليه كذبة قط وعلم أنه كان جازماً بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها ، وأنه ـ هو وحده ـ قام يدعو الناس إلى ما جاء به، ومن عادة طالب الملك والرياسة ـ ولو كان عادلا ـ أن يستعين بمن يعينه ، كأقاربه وأصدقائه ونحوهم ، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يرغبها به ، كالمال والرياسة ، ويرهب من خالفه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم دعا الناس وحده وهو بمكة ، فآمن به المهاجرون ثم آمن به الأنصار بالمدينة ، ثم آمن به أهل البحرين ، ولم يعط أحداً منهم درهماً ولا كان معه ما يخيفهم به ، لا سيف ، ولا غيره . بل أقام بمكة بضع عشرة سنة ، وهو والمؤمنون به ، مستضعفون ، لم يكن له مال يبذله لهم ، ولا سيف يخيفهم به .

وكان أعظم من آمن به ، أبو بكر الصديق ، مع كمال عقله وخلقه ودينه في قومه، ومحبتهم له وعلو قدره فيهم ، أنفق ماله كله في سبيل الله ، حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تركت لأهلك ؟ » قال : « تركت لهم الله ورسوله » ولم يعطه النبي صلى الله عليه وسلم درهماً واحداً يخصه به ، ثم تولى الأمر بعده ، وترك ما كان معه للمسلمين ، واكتفى كل يوم بدرهمين له ولعياله ، ومات وهو فقير من فقراء المسلمين .

وتولى بعده عمر بن الخطاب ، وفتح أعظم ممالك العالم ، مملكة فارس والروم ، فقهر الروم على بلاد الشام والجزيرة ومصر .

وأميره الكبير «أبو عبيدة» أزهد الخلق في ولايته الأموال، وأعبدهم للخالق، وأرحمهم للمخلوق، وأبعدهم عن هوى النفس، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « إن لكل أمة أميناً ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»

وأميره على فارس «سعد بن أبي وقاص » الذى كان مستجاب الدعوة ،

وكان من أزهد الخلق، وكان آخر من بقى من أهل الشورى والناس يتنازعون في الولاية وهو معتزل في قصره بالعقيق ، لا يزاحم أحداً .

فقال له ابن عمر : « تركت الناس يتنازعون في الملك وجلست ههنا ؟ » .
فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب العبد التقى النقى الخفى » .

فصـــل

ومن آيات محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته في القرآن، قصة الفيل .
قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

وقد تواترت قصة أصحاب الفيل ، وأن أهل الحبشة ، النصارى ، ساروا بجيش عظيم ، معهم فيل ليهدموا الكعبة ، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن ، فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم .

فأرسل الله عليهم طيراً أهلكهم عامتهم ، وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النصارى خير من دينهم .

فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ ، بل كانت لأجل البيت ، أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأى ذلك كان ، فهو من دلائل نبوته .

فإنه إذا قيل : إنما كانت آية للبيت وحفظاً له ، وذبًّا عنه لأنه بيت الله الذى بناه إبراهيم الخليل . فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا

البيت ويصلى إليه ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذى فرض حجه والصلاة إليه .

فإذا كان هذا البيت عند الله خير من الكنائس التى للنصارى ، حتى إن الله أهلك الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت . علم أن أهل هذا البيت خير من دين النصارى ، والمشركون ليسوا خيراً من النصارى .

فتعين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير من النصارى ، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق ، وإلا فمن كانوا متبعين لنبى كاذب ، فليسوا خيراً من النصارى بل هم من شرار الخلق ، كأتباع مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى وغيرهما ، وقال فى القرآن (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ● ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل) والأبابيل جماعات متفرقة فوج بعد فوج ترميهم بحجارة من سجيل ، أى من طين مستحجرة ، وهى كلمة معربة أصلها بالفارسية (سنك) و (كل) بالفارسية هى الطين ، ويقولون فى الجمع كيلان (أى أطيان) لأن الألف والنون فى الفارسية للجمع ، فيقولون : مسلمان وفقيهان وعالمان . أى مسلمون وعلماء وفقهاء .

ولما عربتها العرب صارت عربية ينطقون بها ، ويعرفون معناها ، والقرآن نزل بلغتهم العربية والمعرب عربى « فجعلهم كعصف مأكول » كالتبن الذى أكل وقوله : « ألم تر » استفهام فى معنى التقرير ، وهذا يقتضى أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه ، وقد قررهم على ذلك لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق .

فصـــــل

ومن آياته الظاهرة التى فى القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، بخلاف ما كانت العادة جارية به ، قال تعالى : (قل أوحى

إلىّ أنّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجنِّ فقالوا : إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً) إلى قوله : (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ منها مقاعدَ للسَّمْعِ فمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لهُ شِهَاباً رَصَداً * وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) وقال تعالى : (وما تَنَزَّلَتْ به الشَّياطِينُ وما ينبغي لهم وما يستطيعونَ إنهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس وهم يقرءونه ، ولم ينكره أحد ، ولا ارتاب به مؤمن ، ولا احتج به عليه كافر ، فدل على أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن من أن السماء ملئت حرساً شديدا وشهباً ، وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع .

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم فإن امتلاء السماء بالشهب ، أمر يراه الناس كلهم ، فلو لم يكن كذلك ، لكان الناس يكذبون بهذا ، مؤمنهم وكافرهم ، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤا ، يمتنع اتفاقهم على الكذب ، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب ، وعلى كتمان ما يعلمونه ، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب .

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة ، أدركوا مبعثه ، وشاهدوا أحوال السماء ، فلو لم يكن هذا كان موجودا — مع أن عامتهم كانوا مكذبين له ، ولما آمنوا كانوا طوائف متباينين — يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت ، فلما لم ينكر ذلك أحد ، بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر القرآن من الرمى العظيم بالشهب الذى لم يعهد مثله ، حتى صاروا يشكون : هل ذلك فى الكواكب التى فى الفلك أو فى غيرها ؟ وقالوا : إن كان فى كواكب الأفلاك فهو خراب العالم ، فلما رأوه فيما دونها ، علموا أنه لأمر حدث . ففى الصحيحين من حديث ابن عباس قال : « انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة

من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء . وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين السماء ، أرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا : ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهي بنخل عامدين إلى سوق عكاظ . وكان الرسول يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا له وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً) وفي لفظ البخاري بنخلة قريباً من مكة ، وهو الصواب .

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال ، والصواب أنه كان يرمى بها كما هو الآن أحياناً كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس ورواه أيضاً أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول حين رأيناها يرمى بها ، مات ملك وولد مولود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك ، ولكن الله إذا قضى في خلقه أمراً يسمعه أهل العرش فيسبحون ، فيسبح من تحتهم بتسبيحهم ، فيسبح من تحت ذلك ، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض : لم سبحتم ؟ فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيسألون فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا ، الأمر الذي كان ، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيتحدثون به ، فتسترقه

الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف ، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم ، فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : قلت يارسول الله ، إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقاً قال : «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة » .

وروى البخارى فى صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل فى العنان ، وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ».

وفى صحيح البخارى أيضاً عن أبى هريرة قال : إن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على الصفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : « الحق وهو العلى الكبير » فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا ، بعضهم فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : « كذا وكذا » الكلمة التى سمعت من السماء ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء .

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى ، وقال فى آخره : « ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم ، فانقطعت الكهانة ، فلا كهانة » .

ورواه معمر عن الزهرى وقال : فقلت للزهرى : أو كان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم .

قلت : يقول الله : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) الآية .

قال : غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى الطبرى عن داود ، ثنا عاصم بن على ثنا على بن عاصم عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن عباس قال : « كان للجن مقاعد فى السماء يستمعون الوحى ، وكان الوحى إذا أوحى ، سمعت الملائكة كهيئة الحديدة يرمى بها على الصفوان ، فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحى ، خروا لجباههم فإذا نزل عليهم أصحاب الوحى قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قال : فينادون قال ربكم : « الحق وهو العلى الكبير » .

قال : فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا : يكون فى الأرض كذا وكذا موتاً ، وكذا وكذا حياة ، وكذا وكذا جدوبة ، وكذا وكذا خصباً ، وما يريد أن يصنع ، وما يريد أن يبتدى تبارك وتعالى . فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس بما يكون فى الأرض .

فبينا هم كذلك، إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم فزجرت الشياطين عن السماء ، ورموهم بالكواكب ، فمنعوا ، فجعل لا يصعد أحد إلا احترق ، وفزع أهل الأرض لما رأوا فى الكواكب، ولم يكن قبل ذلك فقالوا : أهلك من فى السماء .

وكان أهل الطائف أول من فزع ، فينطلق الرجل إلى إبله فينحر كل يوم بعيراً لآلهتهم ، فينطلق صاحب الغنم فيذبح كل يوم شاة ، فينطلق صاحب البقر ، فيذبح كل يوم بقرة .

فقال لهم رجل : ويلكم لا تهلكوا أموالكم ، فإن معالمكم من الكواكب التى تهتدون بها لم يسقط منها شىء ، فأقلعوا وقد أسرعوا فى أموالهم .

وكان إبليس قال : حدث فى الأرض حدث ، فأتى من كل مكان فى

الأرض بتربة ، فجعل لا يؤتى بتربة أرض إلا شمها ، فلما أتى بتربة تهامة قال : ههنا حدث الحدث فصرف الله إليه نفراً من الجن وهو يقرأ القرآن فقالوا : (إنا سمعنا قرآناً عجباً) حتى ختم الآية ، فولوا منذرين .

ورواه أبو زرعة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عطاء بنحوه ، ورواه البيهقى عن حماد بن سلمة عن عطاء أيضاً .

فقد تبين أنه لما كان فى زمن المبعث ، ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وقبل ذلك لم يكن الحرس شديداً ، بل كانت السماء مملوءة حرساً وشهباً كما هى ترمى بها أحياناً وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع ، أى يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره ، مختفياً بسماعه ، مسترقاً له ، فكانت الشياطين تسترق (أى تستمع) ما تقوله الملائكة .

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم : صار أحدهم إذا استمع : وجد الشهاب قد أرصد له ، فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك .

فصـــل

وقد ذكرنا بعض آياته التى فى القرآن ، لأن من أهل الكتاب من يقول لا نصدق إلا بما فى القرآن كما فى التوراة والإنجيل ما فيهما من آيات موسى والمسيح ، إذ كان نقل القرآن عنه متواتراً لا يستريب فيه أحد ، فنبهنا على بعض ما فى القرآن ، مع أن آياته التى ليست فى القرآن كثيرة جداً . وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون فى القرآن ، بل كما تواتر عنه من شريعته ما ليس فى القرآن وهو من الحكمة التى أنزلها الله عليه كذلك ، تواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس فى القرآن ، وهو من آياته وبراهينه ، وقد قال تعالى فى غير موضع : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) فالحكمة منزلة عليه ، وهى منقولة فى غير القرآن .

وقد تواتر عنه كون الصلاة خمساً ، والفجر ركعتين ، والمغرب ثلاثا ، والباقي أربعاً أربعا ، والرباعية في السفر ركعتان ، وتواتر عنه سجود السهو.

وكذلك تواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المأثورة في أصناف آياته ، وبراهينه كثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها ، وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة ، مفصلة ، كأنما رآها بعينه ، لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به ، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي .

أما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء ، فيكذبون كثيراً كما يصدقون أحياناً ، ويخبرون بجمل غير مفصلة .

وأما أهل الولاية والصلاح ، فأعظمهم كشفاً ، يخبر من ذلك بأمور قليلة ، لا تبلغ عشر معشار ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره ، وعلى أنواع من القدرة والتصرف الخارق للعادة والآيات . إما من باب العلم والخبرة والمكاشفة . وإما من باب القدرة والتأثير والتصرف .

وفي القرآن من الأخبار بالمستقبلات ، شيء كثير كقوله تعالى : (آلم * غُلِبت الرومُ * في أدْنَى الأرضِ وهم من بعد غَلَبِهِمْ سيَغلِبون * في بِضْعِ سنينَ * لِلهِ الأمرُ من قبلُ ومِن بعدُ) فغلبت الروم فارس في بضع سنين ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضى ، وكقوله : (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الذين مِن قبلِهم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لهمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بعدِ خَوْفِهم أمناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شيئاً) وكان كما أخبر .

وروى الدارمي عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا ترون : أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل ؟ فنزلت (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ، إلى آخر الآية ، وكان كذلك ، استخلف الله المؤمنين فى الأرض، ومكن لهم دينهم فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقال تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) ، وكان كما أخبر ووعد ، وقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وكان كما أخبر ، وقال تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى قوله : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فأخبر أنهم لن يفعلوا ، وكان كما أخبر .

وأخبر أنه قال للمسيح : (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وكان كما أخبر .

وأنزل فى مكة : (أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكان كما أخبر ، هزم الجمع وولوا الدبر .

وقال : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً) فكان كما أخبر .

وقال : (ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) وكان كما أخبر .

وقال : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً) إلى قوله : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وكان كما أخبر .

وقال : (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل

منَ الناسِ وباءوا بِغَضَبٍ منَ اللهِ وضرِبَتْ عليهِمْ المَسْكَنَةُ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتلون الأنبياء بغيرِ حقٍّ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ) .

وقال : (ولَوْ قاتَلَكُمُ الذين كفروا لَوَلَّوُا الأدبارَ) ، وقال : (قاتلوهمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُمْ) وكان كذلك ، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون ، وما زال الإسلام فى عز وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب .

وقال تعالى خطاباً لليهود : (قُلْ إنْ كانت لَكُمُ الدَّارَ الآخرةُ عند اللهِ خالصةً مِنْ دونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين * ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم واللهُ عليمٌ بالظالمينَ * ولَتَجِدَنَّهُمْ أحْرَصَ الناسِ عَلَى حياةٍ وَمِنَ الذين أشْرَكُوا يَوَدُّ أحدُهُمْ لو يُعَمَّرُ ألْفَ سَنَةٍ وماهوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذاب)وقال : (قلْ يا أيُّها الذين هادُوا إنْ زعمتُمْ أنكمْ أوْلياءُللهِ من دونِ الناس فتَمَنَّوُا الموتَ إنْ كنتم صادقين * ولاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهِمْ واللهُ عليمٌ بالظالمينَ) فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، وكان كما أخبر ، فلا يتمنى اليهود الموت أبداً . وهذا دليل من وجهين ، من جهة إخباره بأنه لايكون أبداً ، ومن جهة صرف الله لدواعى اليهود عن تمنى الموت ، مع أن ذلك مقدورلهم وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة ، وهم ـ مع حرصهم على تكذيبه ـ لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمنى الموت .

وقال فى سورة المدثر : (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً) إلى قوله : (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَما أدْرَاكَ ماسَقَرُ * لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ) .

وقال عن أبى لهب عمه : (تَبَّتْ يَدَا أبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ) ، فكان كما أخبر به ، مات الوليد كافرا ومات أبو لهب كافراً .

وقال فى سورة « الفتح » : (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) وقال : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) وقال : (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً) ، وهذا كله وقع كما أخبر ، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة ، ودخلوا المسجد الحرام آمنين ، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم والفرس ، يقاتلونهم أو يسلمون ، فلابد من القتال أو الإسلام ليس هناك هدنة بلا قتال ، ولا إسلام كما كان يكون قبل نزول آية الجزية .

وقال تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) فدخل الناس فى دين الله أفواجاً بعد الفتح ، فما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى بلاد العرب ، موضع لم يدخله الإسلام .

وقال تعالى عن المنافقين : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) وكذلك كان ، فروى أهل التفسير والمغازى والسير ، أن هذه الآية نزلت فى المنافقين ، كعبد الله بن أبى ، وعبيد الله بن نبتل ، ورفاعة بن تابوت ونحوهم ، كانوا يقولون لبنى النضير — وهم اليهود حلفاؤهم : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » الآية . فأخبر الله عنهم أنهم لن يفعلوا ذلك ، وكذلك كان .

وضرب الله لهم مثلا بالشيطان : (إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ

قال إنِّى بَرِىءٌ مِنكَ إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالمِينَ) ، كذلك المنافقون وبنو النضير .

فصـــــل

وآياته صلى الله عليه وسلم قد استوعبت جميع الآيات الفعلية والخبرية ، فإخباره عن الغيب الماضى والحاضر والمستقبل بأمور باهرة ، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله ، فضلا عن غير النبيين ، ففى القرآن من إخباره عن الغيوب شىء كثير كما تقدم بعض ذلك ، وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه ، فكان كما أخبر .

ففى الصحيحين عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون منه الشىء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم رآه عرفه .

وفى صحيح مسلم عن أبى زيد عمرو بن أحطب قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى بنا ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى بنا ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس ، قال : وأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأحفظنا أعلمنا .

وفى صحيح البخارى عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء رجل فشكى إليه الفاقة ، ثم أتى آخر فشكى إليه قطع السبيل ، فقال يا عدى « هل رأيت الحيرة » فقلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : « فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حين تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، قال : قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طيئ الذين سعروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ؛ قلت : كسرى بن هرمز ؟

قال: كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن له : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول: بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم » قال عدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج الرجل ملء كفه » .

قلت : وهذا الذى أخبر به من خروج الرجل ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله ، ظهر كما أخبر ، فى زمن عمر بن عبد العزيز .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن نافع بن عتبة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف ، فوافقوه عند أكمة ، فإنهم لقيام ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد . قال: فقلت لنفسى : آتيهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه ، قال : ثم قلت لعله يجيء معهم ، فأتيتهم فقمت بينه وبينهم، قال فحفظت منه أربع كلمات أعدهن فى يدى، قال: « تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم تغزون فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »

وروى البخارى عن عوف بن مالك قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى «غزوة تبوك» وهو فى قبة أدم. فقال : أعدوا أشياء بين يدى الساعة موتى وفتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم، ثم استفاضة المال ، ثم يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم

هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية كل غاية اثنا عشر ألفاً.

قلت ففتح بيت المقدس بعد موته فى خلافة عمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام (طاعون عمواس) فى خلافة عمر أيضاً، ومات فيه معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح وخلق كثير، وكان ذلك أول طاعون وقع فى الاسلام، فكان مما أخبر به حيث أخذهم طاعون كعقاص الغنم، ثم استفاض المال فى خلافة عثمان بن عفان، حتى كان أحدهم يعطى مائة دينار فيسخطها، حتى كانت الفرس تشترى بوزنها، ثم وقعت الفتنة العامة التى لم يبق من العرب بيت إلا دخلته لما قتل عثمان، واتسعت الفتنة بين المسلمين يوم الجمل وصفين.

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا. قال فجلس محمراً وجهه ثم قال: «والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويؤخذ فيحفر له الحفيرة فيوضع المنشار على رأسه، فيشق باثنين، ما يصرفه عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تعجلون»

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنف كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلون قوماً نعالهم الشعر.

قلت: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر صلى الله عليه وسلم وأمر هذه الطوائف معروف، فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروف مشهور، وحديثهم فى أكثر من عشرة آلاف نسخة، كبار وصغار من كتب المسلمين، قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق، الذين

هذه صفتهم ، التي لو كلف من رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضىء لها أعناق الإبل ببصرى » .

وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستمائة ، ورآها الناس ، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى ، وكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد وأسماء ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار بن ياسر : « تقتله الفئة الباغية » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هلك كسرى ، ثم لا يكون كسرى بعده ، وقيصر ليهلكن ، ثم لا يكون قيصر بعده ، ولتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لتفتحن عصابة من المسلمين ، أو قال المؤمنين ، كنز آل كسرى الذى فى الأبيض » . والأبيض قصر كان لكسرى ، وفتح هذا الكنز سعد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

وفى صحيح البخارى عن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الحسن ابن ابنته ، وهو يخطب على المنبر : « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

قلت فوقع هذا كما أخبر به بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنة وهو سنة أربعين من الهجرة ، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين ، صف عسكر على ، وصف عسكر معاوية .

وفى الصحيحين عن ابن عباس ، أن رجلا أتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، إنى رأيت الليلة فى المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم ، فمنهم المستكثر والمستقل ، ثم إذا سبب واصل من الأرض إلى السماء ، فأراك أخذت به فعلوت ، ثم أخذ به رجل بعدك فعلا ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ، ثم وصل له فعلا .

قال أبو بكر : يا رسول الله بأبى أنت وأمى : لتدعنى فلأعبره فقال : عبر.

قال أبو بكر : أما الظلة فظلة الاسلام ـ وأما الذى تنطف من السمن والعسل فهو القرآن ، حلاوته ولينه . وأما ما يتكفف ، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض ، فالحق الذى أنت عليه فأخذت به فيعليك الله ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو ، ثم يأخذ به رجل فيعلو ، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ، ثم يوصل له فيعلو به ، فأخبرنى رسول الله : أصبت أم أخطأت ؟ فقال : « أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً ».

قال : فوالله يارسول الله لتخبرنى بالذى أخطأ ؟ قال: لا تقسم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ، ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم استحالت غربا فأخذ ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » .

وفى رواية « فاستحالت الدلو غربا فى يد عمر » .

قال الشافعى : « رؤيا الأنبياء وحى » .

وقوله : «فى نزعه ضعف » قصر مدته ، وعجله موته ، وشغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والمزيد الذى بلغه عمر فى طول مدته .

وفى الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن امرأة سألت

رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : يارسول الله ، أرأيت إن جئت فلم أجدك ؟ قال : أى كأنها تعنى الموت.

قال : « فإن لم تجديني فائتى أبا بكر » .

وروى أبو داود الطيالسي عن أبي ثعلبة الخشني ، وعن أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكائناً خلافة ورحمة ، وكائناً ملكا عضوضاً ، وكائناً عتوة وجبرية وفساداً في الأمة ، يستحلون الفروج والخمور والحرير ، وينصرون على ذلك ، ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل » .

وروى أبو داود الطيالسي عن سمرة بن جندب أن رجلا قال : يارسول الله ، إني رأيت كأن دلواً دلي من السماء ، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء علىّ فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منه شيء .

وفي السنن عن سفينة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ، ثم تصير ملكا » . فكان هذا العام تمام الثلاثين سنة من موته ، ودخل في ذلك خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى .

قلت : وتمامها ستة أشهر ، التي استخلف فيها سيدنا الحسن السبط رضوان الله عليه وعلى سائر أصحاب رسول الله ، وأهل بيته الطاهرين .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « زويت لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي مازوى لى منها » .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها

مازوى لى منها وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكهم بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال لى : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً » .

وهذا أخبر به فى أول الأمر وأصحابه فى غاية القلة قبل فتح مكة ، وكان أخبر ، فإن ملك أمته انتشر فى الشرق والغرب ، ولم ينتشر فى الجنوب والشمال ، كانتشاره فى الشرق والغرب . إذ كانت أمته أعدل الأمم ، فانتشرت دعوته فى الاقاليم التى هى وسط المعمور من الأرض ، كالثالث ، والرابع ، والخامس ، وقد تقدم قوله : « إذا هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده » ، وذاك كسرى بن هرمز آخر الأكاسرة المملكين ، ثم ولى بعد ولاة مستضعفون ، فكان آخرهم « يزدجرد » وإليه الإشارة باللفظ الآخر : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وهذا أخبر به وملك كسرى وقيصر أعز ملك فى الأرض ، وصدق الله خبره فى خلافة عمر وعثمان ، فهلك كسرى وهو آخر الأكاسرة فى خلافة عثمان ، بأرض فارس ، ولم يبق بعده كسرى ، ولم يبق للمجوس والفرس ملك ، وهلك قيصر الذى بأرض الشام وغيرها ، ولم يبق بعده من هو ملك على الشام ، ولا مصر ، ولا الجزيرة من النصارى ، وهو الذى يدعى قيصر .

قال الشافعى : كانت قريش تنتاب الشام انتيابا كثيراً ، وكان كثير من معايشها منه ، وتأتى العراق فيقال : لما دخلت فى الإسلام ذكرت للنبى صلى الله

عليه وسلم خوفها من انقطاع معايشها بالتجارة من الشام والعراق ، إذا فارقت الـكفر ودخلت فى الإسلام ، وخلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمر بعده .

وقال : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » فلم يكن بأرض الشام قيصر ، فأجابهم على ما قالوا ، وكان كما قال ، قطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس وقيصر عن الشام .

وقال فى كسرى : « مزق الله ملـكه » فلم يبق للأكاسرة ملك ، وقال فى قيصر : « ثبت ملـكه » فثبت ملـكه ببلاد الروم وتنحى عن الشام . وكل هذا يصدق بعضه بعضاً .

وفى الصحيحين عن سفيان بن زهير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تفتح اليمن ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . ثم تفتح الشام ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، ثم تفتح العراق فيأتى قوم متحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » . وفى رواية فيخرج من المدينة .

فأخبر صلى الله عليه وسلم بفتح اليمن والشام والعراق قبل أن يكون ، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوام يتحملون بأهليهم ومن أطاعهم إلى هذه الأمصار ، ويطلبون الشرف وسعة الرزق ، قال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستفتح مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً » .

وفى رواية : « فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً ، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة فاخرج منها » .

فمر أبو ذر بعد فتح مصر بمدة، با بنَيْ شرحبيل بن حسنة وهما يتنازعان في موضع لبنة ، فخرج منها .

وفي صحيح البخاري عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب عنه «الآن نغزوهم ولا يغزونا » وكذلك كان.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا فتحت عليكم فارس والروم أيُّ قوم أنتم » .

قال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو غير ذلك ؟ تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون ، ثم تتباغضون، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتحملون بعضهم على رقاب بعض » .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، أنه لما أنزل الله : (هوَ الّذي بعثَ في الأُمّيّينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ ويزكّيهم وَيُعلّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وَإنْ كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ * وآخرينَ منهمْ لمّا يلحقوا بهم وهو العزيزُ الحكيم) .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الآخرين فقال : « لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس » . وفي لفظ «لو كان الإيمان » وفي لفظ «العلم» وكان كما أخبر ، فإنه حصل في التابعين وتابعيهم وهلمّ جرّا، من أبناء فارس ، مثل الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، ومجاهد بن جبير ، وأضعاف هؤلاء ، مَنْ نالوا ذلك .

ولما نزل قوله تعالى : (فسوفَ يأتِ اللهُ بقومٍ يحبّهُمْ ويحبّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ) ، سئل عنهم فقال : (هم قوم هذا) وأشار إلى أبي موسى الأشعري، وقال :(إني لا أجد نفَسَ الرحمن من قِبَلِ اليمن) .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرقّ قلوباً وألينُ أفئدة ، الإيمان يمانىّ ، والحكمة يمانية » .

فلما ارتد من ارتد عن الإسلام أتى الله بهؤلاء الذين يحبهم ويحبونه ، فقاتل الصديق بهم أهل الردة ، وغلب بهم أبو بكر وعمر ، كسرى وقيصر .

وقال لعثمان بن عفان : « إن الله مقمصك قميصاً ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط من حوائط المدينة وهو متكىء يركز بعود فى الماء والطين إذا استفتح رجل فقال : « افتح وبشره بالجنة » فإذا هو أبو بكر ، ففتحت له وبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : « افتح له وبشره بالجنة » فذهبت فإذا هو عمر ، ففتحت له وبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : « افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » فذهبت فإذا هو عثمان ، ففتحت له وبشرته بالجنة ، وقلت له الذى قال ، فقال : اللهم صبراً ، والله المستعان .

وفى الصحيحين حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتن التى تموج موج البحر ، وقال لعمر « إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، يوشك ذلك الباب أن يكسر » . فسأله مسروق من الباب فقال : عمر .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ فَلْيَعُذْ به » رواه أبو بكرة .

وقال فيه : « فإذا وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه » .

قال : فقال رجل ، يا رسول الله ، أرأيت إن لم يكن له إبل ولا غنم

ولا أرض؟ قال: « يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة ، اللهم هل بلغت ؟ » .

فقال رجل : يارسول الله ، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين ، أو أحد الفئتين ، فضربنى رجل بسيفه ، أو يجىء سهم فيقتلنى ؟ قال: « يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار » .

وفى صحيح أبى حاتم قال النبى صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب ، من شر قد اقترب ، أو فتنة عمياء صماء بكماء ، القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، ويل ، الساعة فيها من الله يوم القيامة » .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « إنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم ، كمواقع القطر » .

وفى الصحيحين من غير وجه أنه لما قال له ذو الخويصرة : يامحمد ، اعدل فإنك لم تعدل ، فقال: « ويحك قد خبت وخسرت إن لم أعدل » .

فقال بعض أصحابه : دعنى أضرب عنق المنافق .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه يخرج من ضئضىء هذا أقوام، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن، لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليد ، على عضده مثل البضعة من اللحم ، تدور عليها شعرات » .

وفى رواية فى الصحيحين: « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع وعشرين سنة فى أواخر خلافة على لما افترق المسلمون ، وكانت الفتنة بين عسكر على وعسكر معاوية ، وقتلهم على ابن

أبى طالب وأصحابه ، وهم أدنى الطائفتين إلى الحق ، والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر ، وهى الطائفة الباغية .

وكان علىّ قد أخبرهم بهذا الحديث وبعلامتهم ، وطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه ، حتى قام علىّ بنفسه ، ففتش عليه ، فوجده مقتولا ، فسجد شكراً لله .

وفى الصحيح عنه أنه قال : « ستكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة » .

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة ؛ فكانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر ، ويؤخرون العصر إلى اصفرار الشمس .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » فلقوا بعده من استأثر عليهم ولم يعطهم حقهم .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « ستكون بعدى أمراء ، يطلبون منكم حقهم ويمنعونكم حقكم » . قالوا : فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم واسئلوا الله حقكم » .

وفى الصحيحين عنه أنه سارّ فاطمة فقال لها وهو فى مرضه الذى توفى فيه « إنى أقبض فى مرضى هذا » ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به » .

وفى رواية « وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين » .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسرعكن لحاقاً أطولكن يداً » قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا ، فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق .

وفى صحيح البخارى وغيره عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم » .

وفى صحيح البخارى ، عن أم حرام أيضاً ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا » .

قالت : يارسول الله ، أنا فيهم ؟ قال : « أنت فيهم » قالت : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » .

فقلت : يارسول الله « أنا فيهم ؟ » قال : لا .

وغزاها المسلمون فى خلافة معاوية ، وكان يزيد أميرهم ، وكان فى العسكر ، أبو أيوب الأنصارى الذى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته لما قدم المدينة مهاجرا ، ومات ودفن تحت سورها ، وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فَيُسْقَوْن (١) .

ثم غزاها المسلمون مرة ثانية ، وفى خلافة عبد الملك ، غزاها ابنه مسلمة ، وحصروها مدة سنين وبنوا فيها مسجداً .

وفى الصحيحين عن أنس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته ، وجعلت تفلى رأسه ، فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت : مم تضحك ؟ قال : « عرض على ناس من أمتى يركبون ثبج هذا البحر ، ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة » فقالت أم حرام : أدع الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها ، ثم وضع رأسه فنام ، ثم

---

(١) قوله : (وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون) . كلام نرى أنه من الأهدى والأجدى ، إبعاده من طريق الموحدين ، حتى لا يدخل عليهم الشبهات والضلالات .

ونحن مع احترامنا لشيخ الإسلام ولآرائه ، ولعقيدته ، لا نوافقه على صحة هذا الذى رواه ، إذ أنه لا يتفق ومذهب شيخ الاسلام نفسه فى تخليص التوحيد مما علق به من خرافات وأضاليل . وفى إخفاء قبر دانيال النبى عظة وعبرة ،

على أن الإسناد الذى اعتمده شيخنا شيخ الإسلام ـ رضى الله عنه ! ـ فى عرض هذه الرواية ، لاينسجم مع طريقته فى التمحيص والتدقيق والتحقيق ، إذ أنه صدر « الرواية » بقوله : « ذكروا » ؛ فمن هم هؤلاء الذين ذكروا ؟ هل هم ثقات عدول ، أو غير ذلك .

من أجل هذا كله ، فنحن لا نقبل هذه الرواية ، وإنما نردها بقوة .

استيقظ وهو يضحك ، فقالت : مم تضحك ؟ فقال : « عرض على ناس من أمتى » كما قال فى الأولى ، فقالت : يارسول الله أدع الله يجعلنى منهم ، قال: « أنت من الأولين » .

قال أنس : فركبت البحر زمان معاوية بن أبى سفيان ، فصرعت عن دابتها لما خرجت من البحر فماتت ، وهذا كان فى خلافة عثمان ، ومعاوية نائبه .

وكان المسلمون فى خلافة عمر لم يغزوا فى البحر ، وأول ماغزوا البحر فى خلافة عثمان ، وفتحوا جزيرة قبرص ، وجاءوا بسبيها إلى دمشق .

وكان أبو الدرداء حيا بدمشق ، فجعل يبكى ، فقيل له : مايبكيك ياأبا الدرداء ، هذا يوم قد أعز الله فيه الإسلام ؟ فقال : إنما أبكى أنى رأيت هذه الأمة كانت قاهرة ظاهرة ، فأضاعت أمر الله ، فأصارها الله إلى ماترون ، ما أهون العباد على الله إذا ضيعوا أمره ؟

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سألت ربى ثلاثا ، فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألته أن لايسلط على أمتى عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » .

وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم ، فانتشرت الأمة فى مشارق الأرض ومغاربها وكان كما أخبر به ، فإن هذه الأمة - ولله الحمد والمنة - لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف ، لم يصبها ما أصاب من قبلها من بنى إسرائيل وغيرهم ، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء ، بل إن غلبت طائفة فى قطر من الأرض ، كان فى القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة ، ولم يسلط على مجموعها عدوا من غيرهم ، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صنفان من أهل النار، لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لايدخلن الجنة، ولايجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة طويلة، وظهر النسوة بعد ذلك بسنين كثيرة، وعلى رءوسهن عمائم كأسنمة الجمال البخاتى، يسمون العمائم سنام الجمل[١].

وفى حديث مسلم عن أسماء بنت أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيكون فى ثقيف كذاب ومبير».

وظهر الكذاب من ثقيف، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى، الذى أظهر التشيع والانتصار للحسين، وقتل عبيد الله بن زياد وغيره من قتلة الحسين، ثم أظهر أنه يوحى إليه، وأنه ينزل عليه حتى قيل لابن عمر وابن عباس عنه، قيل لأحدهما: إنه يوحى إليه، وللآخر أنه ينزل عليه.

فقال أحدهما: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وقال الآخر: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

وأما المبير، فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفى، وكان مبيراً سفاكاً للدماء بغير حق، انتصارا لملك عبد الملك بن مروان، الذى استنابه.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما «أيكم يبسط ثوبه، فيأخذ من حديثى فيجمعه إلى صدره فإنه لن

(١) وصف ابن تيمية، مارآه فى عصره، ولو عاش معنا الآن لرأى ماعناه النبي صلى الله عليه وسلم. فى نسائنا الكاسيات العاريات.

ينسى شيئاً سمعه » . فبسطت بردة على حتى فرغ من حديثه ، ثم جمعتها إلى صدرى ، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً سمعته منه .

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: « لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة ، كلهم من قريش » .

وفى لفظ « إلى اثنى عشر أميراً » .

وفى رواية لأبى داود الطيالسى « كلهم يجتمع عليهم الأمة » .

وفى رواية فقالوا: ثم يكون ماذا ؟ قال : « ثم يكون الهرج » .

قال أبو بكر البيهقى : وفى الرواية الأولى بيان العدد ، وفى الثانية بيان المراد بالعدد ، وقد بين وقوع الهرج ، وهو القتل بعدهم .

وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك ثم وقع الهرج والفتنة العظمى ، وإنما يزيدون على العدد المذكور إذا تركت الصفة المذكورة فيه أو أوعد معهم من كان بعد الهرج.

وفى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل لك من أنماط ؟ » قلت : يارسول الله ، وأنى يكون لى أنماط؟ فأنا أقول اليوم لامرأتى : نحى عنك أنماطك ، فتقول : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنها ستكون لكم أنماط ؟ » .

وفى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « بينا أنا نائم رأيت أنه وضع فى يدى سواران من ذهب ، فقطعتهما فكرهتهما ، فأذن لى فى نفختهما ، فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى » .

قال عبد الله : أحدهما العنسى الذى قتل فيروز الديلمى باليمن ، والآخر مسيلمة .

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال — وهو مستقبل المشرق — « ها إن الفتنة هاهنا ، ها إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان » .

وفى بعض طرق البخارى قام خطيباً فأشار بيده نحو مسكن عائشة فقال: وذكر الحديث .

فالمشرق عن مدينته فيه البحرين ، ومنها يخرج مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة ، وهو أول حادث حدث بعده ، واتبعه خلائق ، وقاتله خليفته الصديق .

وروى أبو حاتم فى صحيحه ، عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بين يدى الساعة كذابين ، منهم صاحب اليمامة ، ومنهم صاحب صنعا العنسى . ومنهم صاحب حمير . ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة ، وصاحب اليمامة هو مسيلمة قال : وقال أصحابى : قال : « هم قريب من ثلاثين كذاباً » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون ، دجالون كذابون ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يفيض المال ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج » : قالوا وما الهرج يارسول الله؟ قال : « القتل القتل » .

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وأردفنى خلفه ثم قال: « ياأبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد حتى لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك ، كيف تصنع؟ » فقال: الله ورسوله أعلم قال: « تعفف » قال: « يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد حتى يكون البيت بالوصيف ، كيف تصنع ؟ » قال: الله ورسوله أعلم ، قال: « اصبر » « يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت

من الدماء كيف تصنع ؟» قال الله ورسوله أعلم، قال: « اقعد فى بيتك وأغلق عليك بابك » فقال: أرأيت إن لم أترك ؟ قال: « فائت من أنت منه فكن فيهم» قال: فإن أخذ سلاحى ؟ قال: « إذا تشاركهم فيه ، ولـكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، يبوء بإثمك وإثمه»

وفيه عن ابن مسعود قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى قبة من أدم ، فيها أربعون رجلا ، فقال: « إنكم فاتحون ومنصورون ، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

وأما الفتوح التى فتحت عليهم ، والنصرة التى نصروا ، فقد أخبر به فى أوائل مبعثه كما تقدم ذكره ، ووقع ما أخبر به .

وروى أبو حاتم فى صحيحه عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فأتته قريش ، وأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده ، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبوجهل فقعد فيه ، فشكوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى طالب ، فقالوا : إن ابن أخيك يقع فى آلهتنا .

قال: ماشأن قومك يشكونك يا ابن أخى ؟

قال: « ياعم إنما أردتهم على كلمة واحدة ؛ تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » فقال: وماهى ؟ « قال لا إله إلا الله » .

فقاموا فقالوا: « أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً وَاحِدا » قال: ونزلت (ص والقرآن ذِى الذِّكر - إلى قوله - إنّ هٰذا لشىء عُجاب) .

وفى صحيح ابن حبان عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم قال: لما أقبلت عائشة مرت ببعض مياه بنى عامر ، طرقتهم ليلا ، فسمعت نباح الكلاب ، فقالت: أى ماء هذا ؟ قالوا : ماء الحوأب ، قالت : ما أظننى إلا

راجعة ، قالوا مهلا يرحمك الله تقدمين ، فيراك المسلمون ، فيصلح الله بك .
قالت : ما أظنني إلا راجعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كيف بإحداكن ينبح عليها كلاب الحوأب ؟

وفيه أيضاً عن علي بن أبي طالب قال : قال لي عبد الله بن سلام وقد وضعت رجلي في الغرز وأنا أريد العراق : لاتأت العراق ، فإنك إن تأتهم أصابك ذنب السيف .

قال علي: وأيم الله لقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو الأسود: فقلت في نفسي ، ما رأيت كاليوم رجلا محارباً يحدث الناس بمثل هذا .

وهذا وأمثاله مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك .

وأما ما أخبر به ، مما لم يقع الآن فكثير .

وقد أخبر بأشياء من المغيبات ، ووقعت في زمانه ، ووجد كما أخبر ، كما في الصحيحين عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه » فكان كذلك .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فقال لرجل ممن يدعي الاسلام: « هذا من أهل النار » فلما حضرنا القتال ، قاتل الرجل قتالا شديدا ، فأصابته جراحة ، فقيل : يارسول الله ، الرجل الذي قلت له آنفاً : إنه من أهل النار ، فإنه قاتل اليوم قتالا شديداً ، فأصابته جراحة وقد مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « إلى النار » فكاد بعض المسلمين أن يرتاب .

فبينما هم على ذلك إذ قيل : فإنه لم يمت ، ولكن به جرحاً شديداً .
فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبي صلى الله

عليه وسلم بذلك فقال: « الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله » ثم أمر بلالا فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . ورواه سهل بن سعد .

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا مرثد الغنوي ، والزبير بن العوام ، والمقداد وكلنا فارس فقال: « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة ظعينة ، معها كتاب من حاطب إلى المشركين » فأدركناها تسير على بعير لها حيث ، فقلنا لها : أين الكتاب ؟ فقالت : ما معي كتاب ، قال : فأنخنا بها ، فالتمسنا الكتاب في رحلها ، فلم نر كتاباً ، قال : قلنا: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . قال: فلما رأت أني أهويت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء ، أخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم » .

فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟ » قال : لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من كان معك من المهاجرين لهم قربات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت ـ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ـ أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه قد صدقكم » فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال: « قد شهد بدراً وما يدريك ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ؟.

فكان في هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد غزوهم فأعلمه الله بذلك » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات.

وفى رواية عن جابر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشى .

وفى لفظ من رواية أبى هريرة قال: قد مات اليوم عبدالله الصالح أصحمة فأمّوا وصلى عليه . وفى رواية عمران بن حصين قال: إن أخاً لكم قد مات ، فصلوا عليه . يعنى النجاشى .

وروى موسى بن عقبة عن ابن شهاب قصة الصحيفة ، ورواها عروة بن الزبير ، ومحمد بن إسحاق بمعناه قال : ثم إن المشركين اشتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كأشد ما كانوا حتى بلغ بالمسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء وأجمعت قريش مكرها ، على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية .

فلما رأى أبو طالب عمل القوم ، جمع بنى عبد المطلب ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله ، فاجتمعوا على ذلك . مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية . ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمعوا على ذلك ، واجتمع المشركون من قريش ،أجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق ، لايقبلوا من بنى هاشم أبداً صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل .

فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد،وقطعوا عنهم الأسواق ، فلم يتركوا طعاماً يقدم مكة ،ولا بيعاً إلا بادرهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زاد ابن إسحاق فى روايته قال:حتى كان تسمع أصوات صبيانهم يتضاغون

من وراء الشّعب من الجوع ، وغدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم ، واشتد البلاء عليهم ، وعظمت الفتنة ، وزلزلوا زلزالا شديدا .

قال : قال موسى بن عقبة فى تمام حديثه : وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله فإذا نوم الناس أمر أحد بنيه ، أو إخوته ، أو بنى عمه ، فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين ، تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن بنى قصى ، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء بنى هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم ليلتهم على نقض ماتعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه .

وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التى فيها المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم الأرَضَة ، فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق . ويقال كانت معلقة فى سقف البيت ، فلم تترك إسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك أوظلم أوقطيعة رحم(١) .

---

(١) هكذا فى الأصل المطبوع وهو مخالف ، لما رواه المدول ، من رواة سيرته صلى الله عليه وسلم . إذ أن الثابت – تاريخياً – أن (الأرضة) لحست الصحيفة كلها ، ولم تترك إلا قولهم : (باسمك اللهم) .

وإليك ما كتبه الإمام ابن القيم ، وما كتبه المؤرخ الكبير « ابن هشام » .

قال ابن القيم – فى زاد المعاد ، الجزء الثانى ص ١٣٣ – مطبعة السنة ، [ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم ، إلا ذكر الله عز وجل . . . إلخ القصة] .

وقال ابن هشام فى كتابه « السيرة النبوية » – القسم الأول ص ٣٧٧ – م الحلبى ، ط ثانية :

[وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأبى طالب : « ياعم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان . . الخ . القصة]

وأطلع الله رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب .

فقال أبو طالب : « لا والثواقب ما كذبنى » فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد ، وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم عامدين بجماعتهم ، أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ، فأتوهم ليعطوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم ، لم نذكرها لكم فائتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها ، فلعله أن يكون بينكم وبيننا صلح .

وإنما قال ذلك ، خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها .

فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن الرسول مدفوع إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطراً ، لهلكة قومكم وعشيرتكم وفساد دينكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً فيه نَصَفٌ فإن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى ، أن الله عز وجل برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحا كل اسم له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا ، وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى ، كما قال ، فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذى قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه .

قالوا : قد رضينا بالذى تقول ، ففتحوا الصحيفة ، فوجدوا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب . قالوا : والله إن كان هذا سحراً من صاحبكم ، فارتكسوا وعادوا شر ما كانوا

عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وعلى رهطه ، والقيام بما تعاهدوا عليه .

فقال أولئك النفر من بنى عبد المطلب : إن أولى بالسحر والكذب غيرنا كيف ترون ، فإنا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الخبث والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر ، لم تفسد صحيفتكم ، وهى فى أيديكم ، طمس الله ما كان فيها من اسم[1] ، وما كان فيها من بغى تركه . أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بنى عبد مناف ، وبنى قصى ورجال من قريش ولدتهم نساء من بنى هاشم . منهم أبو البخترى ، والمطعم بن عدى ، وزهير ابن أبى أمية بن المغيرة ، وزمعة بن الأسود ، وهشام بن عمرو ، وكانت الصحيفة عنده ، وهو من بنى عامر بن لؤى فى رجال من أشرافهم ووجوههم : نحن براء مما فى هذه الصحيفة .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل .

وأنشأ أبو طالب يقول فى ذلك الشعر فى شأن صحيفتهم ، ويمتدح النفر الذين تبرءوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد ، ويمتدح النجاشى .

قال موسى بن عقبة : فلما أفسد الله صحيفة مكرهم ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه فعاشوا وخالطوا الناس .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : انطلق سعد بن معاذ معتمراً ، فنزل على أمية بن خلف أبى صفوان ، وكان أمية بن خلف إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة ، نزل على سعد بن معاذ . فقال سعد لأمية : « انظر لى ساعة خلوة ، لعلى أن أطوف بالبيت » قال : انتظر . حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت .

---

(١) يراجع ـ ما حققناه فى ص ١٥٤ .

قال : فخرج به قريباً من نصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من الذى معك ؟ قال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : « ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد آويتم الصباه ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً » .

فقال له سعد ـ وقد رفع صوته عليه ـ : « لئن منعتنى من هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة » .

قال فقال له أمية : لا ترفع صوتك على أبى الحكم سيد أهل الوادى .

فقال سعد : « دعنا منك يا أمية ، فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه قاتلك . قال : بمكة ؟ قال : لا أدرى ، ففزع لذلك أمية ، فزعاً شديداً وقال : « والله ما يكذبك محمد » فلما رجع أمية إلى أهله قال : « يا أم صفوان ألم ترى إلى ما قال لى سعد ؟ » قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلى ، فقلت له : بمكة ؟ فقال : لا أدرى . فقالت : والله ما يكذب محمد ، فقال أمية : والله لا أخرج من مكة .

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس فقال : أدركوا غيركم ، قال : فكره أمية أن يخرج ، فأتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ـ وأنت سيد أهل الوادى ـ تخلفوا معك ، فلم يزل أبو جهل حتى قال : إذ غلبتنى فوالله لأشترين أجود بعير بمكة .

قال أمية : يا أم صفوان جهزينى ، فقالت له : يا أبا صفوان أو قد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى ؟ قال : لا وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً .

قال : فلما خرج أمية جعل لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره ، فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر .

وعن كعب بن مالك قال : كان أُبَىُّ بن خلف أخو بنى جمح ، قد حلف وهو بمكة ، ليقتلن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت رسول الله صلى الله

عليه وسلم حلفته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أنا أقتله إن شاء الله عز وجل » .

فأقبل أبي مقنعاً في الحديد وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فجعل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله ، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . فقتل مصعب بن عمير .

وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بحربته ، فوقع أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم .

فأتاه أصحابه فاحتملوه ، وهو يخور خوار الثور . فقالوا له : ما أجزعك! إنما هو خدش . فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتل أبياً ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار ـ ورواه موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب ، وذكره الواقدي بإسناده ، وهذا لفظه . وهو مما ذكره عروة بن الزبير في مغازيه ، وابن إسحاق وغيرهما . .

ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أن عمير بن وهب الجمحي لما رجع فَلُّ(١) المشركين إلى مكة وقد قتل الله من قتل منهم . أقبل عمير حتى جلس إلى صفوان ابن أمية في الحجر . فقال صفوان : قبح الله العيش بعد قتلى بدر . قال : أجل والله ما في العيش خير بعدهم ولولا دينٌ عليَّ لا أجد له قضاء ، وعيال لا أدع لهم شيئاً ، لرحلت إلى محمد فقتلته . إن ملأت عيني منه ، فإن لي عنده علة أعتل بها ، أقول قدمت على ابني أفدي هذا الأسير . .

ففرح صفوان بقوله وقال له : عَلَيَّ دينك ، وعيالك أسوة عيالي في النفقة فحمله صفوان وجهزه ، وأمر بسيف عمير فصقل وسُمّ .

---

(١) واحد الفلول ، وهو الجيش المنهزم ـ راجع القاموس .

فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل بباب المسجد ، وعقل راحلته ، وأخذ السيف فعمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنظر إليه عمر بن الخطاب وهو فى نفر من الأنصار يتحدثون .

فقال عمر : عندكم الكلب هذا عدو الله الذى حرش بيننا يوم بدر ، وَحَزَرَنَا للقوم ، ثم قام عمر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر الحديث . إلى أن قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أقدمك ؟ قال أسيرى عندكم ففادونا فى أسرائنا ، فإنكم العشيرة والأهل .

قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » قال عمير : قبحها الله من سيوف ، فهل أغنت عنا شيئاً ؟ إنما نسيته فى عنقى حين نزلت .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصدقنى ما أقدمك ؟ » قال : ما قدمت إلا فى أسيرى . قال : « فماذا شرطت لصفوان بن أمية فى الحجر؟» ففزع عمير وقال : ماذا شرطت ؟ قال : « تحملت له بقتلى على أن يعول بيتك ويقضى دينك والله حائل بينك وبين ذلك » .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، وأن لا إله إلا الله ، كنا نكذبك بالوحى وبما يأتيك من السماء ، وهذا الحديث كان بينى وبين صفوان فى الحجر ، لم يطلع عليه أحد غيرى وغيره ، فأخبرك الله به وذكر بقية الحديث .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواماً من بنى سليم إلى بنى عامر فى سبعين . فلما قدموا قال لهم خالى : أتقدمكم فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا كنتم منى قريباً فتقدم ، فأمنوه .

فبينما هو يحدثهم عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ أومأوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال : فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل وآخر معه ، فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم أنهم

قد لقوا ربهم فرضى الله عنهم وأرضاهم فكنا نقرأ : « أن بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ بعد ، فدعا عليهم أربعين صباحا على رعل وذكوان وعصية ، وبنى لحيان الذين عصوا الله ورسوله .

وكان فى هؤلاء عامر بن فهيرة قال عنه عامر بن الطفيل : لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إليه بين السماء والأرض .

وفى الصحيحين من حديث أبى حميد الساعدى قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اخرصوها» فخرصناها ، وخرصها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق . قال : «احصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله تعالى » فانطلقنا حتى قدمنا « تبوك » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طى »

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان الذى أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو ، وهو كعب بن عمرو ، أحد بنى سلمة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أسرته يا أبا اليسر »؟

فقال : لقد أعانى عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل هيئته كذا وكذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أعانك عليه ملك كريم » :

وقال للعباس : « يا عباس إفد نفسك ، وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن فهر » .

قال : « فإنى قد كنت مسلماً قبل ذلك وإنما استكرهونى » .

قال : « الله أعلم بشأنك ، إن يك ما تدعى حقاً فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك » وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية ذهباً .

فقال : « يارسول الله ، احسبها لى من فداى . قال : « لا ذلك شىء أعطانا الله منك » . قال : فإنه ليس لى مال : « فأين المال الذى وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معك أحد غيركما ؟ فقلت : إن أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا ، ولقثم كذا ، ولعبد الله كذا ؟ » .

قال : فو الذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيرى وغيرها ، وإنى أعلم إنك لرسول الله .

وفى صحيح البخارى عن نافع عن ابن عمر قال : أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة « مؤتة » زيد بن حارثة ، فإن قتل زيد « فجعفر » وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة .

قال ابن عمر : كنت معهم ، ففتشته ـ يعنى ابن رواحة ـ فوجدنا فيما أقبل من جسده بضعاً وسبعين ، ما بين طعنة ورمية .

وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر ، فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فأصيب ، وإن عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذرفان ، ثم أخذها خالد ابن الوليد سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم » .

فصـــل

آياته صلى الله عليه وسلم المعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع . الأول منها : ما هو فى العالم العلوى ، كانشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث ، وكمعراجه إلى السماء .

فقد ذكر الله انشقاق القمر ، وبين أن الله فعله ، وأخبر به لحكمتين عظيمتين : إحداهما : ـ كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية ، فأراهم نشقاق القمر .

والثانية ـ أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات ، ولهذا قال تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ وانْشَقَّ القمرُ * وَإِنْ يروْا آيةً يُعرِضوا وَيَقولوا سِحْرٌ مستمِرٌّ * وكذَّبوا واتَّبعوا أهْواءهم وكلُّ أمْرٍ مستقرٌّ * وَلقدْ جاءهم مِنَ الأنْباء مافيهِ مُزدَجَرٌ * حِكمةٌ بالغةٌ فماتغْنِي النُّذُرُ * فتولَّ عَنهم يومَ يَدْعُ الدّاعِ إلى شيء نُكُرٍ * خُشَّعاً أبصارُهم يَخرُجونَ مِنَ الأجْداثِ كأنّهم جرَادٌ منتشِرٌ)

فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر ، وجعل الآية فى انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب ، لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم ، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك إذهو الجسم المستنير الذى يظهر الانشقاق فيه ، لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه ، وأنه ـ نفسه ـ إذا قبل الانشقاق فقبوله محله أولى بذلك ، قد عاينه الناس وشاهدوه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار ، مثل صلاة الجمعة والعيدين ، ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها ، والاعتبار بما فيها ، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة .

وفى صحيح مسلم : أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى : ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيها بـ « ق » والقرآن المجيد ، و « واقتربت الساعة وانشق القمر » .

ومعلوم بالضرورة فى مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك ، فضلا عن أعدائه الكفار والمنافقين .

ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له واتباعهم إياه . فلو لم يكن انشق ، لما كان يخبر به ويقرأه على جميع الناس ، ويستدل به ، ويجعله آية له .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : إن أهل مكة سألوا نبى الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين .

وعنه قال : إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين .

زاد الترمذى : فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر — إلى قوله — سحر مستمر » يقول : ذاهب .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اشهدوا » .

وعن ابن مسعود أيضاً قال : رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم شقة على جبل أبى قبيس ، وشقة على السويداء ، فقال كفار قريش — أهل مكة — هذا سحر ، سحركم به ابن أبى كبشة ، أنظروا السفار فإن كانوا رأوا مثل ما رأيتم ، فقد صدق ، وإن لم يكونوا رأوا مثل ما رأيتم ، فهو سحر .

قال فسئل السفار ، وقدموا من كل وجه ، فقالوا : « رأينا » رواه البخارى ومسلم .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم عن ابن عمر فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انشق القمر فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد » .

وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر ونحن بمكة ، حتى صار فرقتين على هذا الجبل ، فقال : وعلى هذا الجبل .

فقال الناس : سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال رجل : إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم ، رواه الترمذى .

وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السموات ، وهذا مما تواترت به الأحاديث ، وأخبر به القرآن ، أخبر بمسراه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس ، وفى موضع آخر بصعوده إلى السموات فقال تعالى : (سبحانَ الذى أسرَى بعبْدِه ليْلاً مِنَ المسجدِ الحرَامِ إلى المسْجدِ الأقصى الذى بَارَكنا حولَهُ لنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا إنهُ هُوالسميعُ البصيرُ) فأخبر - هنا - بمسراه ليلا بين المسجدين ، وأخبر أنه فعل ذلك ، ليريه من آياته .

ومعلوم أن الأرض قد رأى الناس ما فيها من الآيات ، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس ، كما قال فى السورة الأخرى : (أفتمارُونَهُ عَلَى ما يرَى * ولقدْ رآهُ نزْلةً أخرى * عندَ سِدْرةِ المنْتَهَى * عندها جنَّةُ المأْوَى * إذْ يغشَى السِّدرةَ ما يَغْشَى * ما زَاغَ البصرُ وما طغَى * لقدْ رأى مِنْ آياتِ ربِّهِ الكبْرَى) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وَمَا جعلنَا الرُّؤيا التى أريناكَ إلاَّ فتنةً للنَّاس) قال : هى رؤيا عين أريها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به .

كان فى إخباره بالمسرى ليريه من آياته ، بيان أنه رأى من آياته مالم يره الناس ، وقد بين ذلك فى السورة الأخرى ، وأنه رأى جبريل عند السدرة المنتهى (عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى) وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى .

وذكر فى تلك السورة المسرى ، لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانا .

فإنه لما أخبرهم به ، فكذبه من كذبه ، وتعجبوا من ذلك ، سألوه عن نعته وصفاته ، فنعته لهم ، لم يخرم من النعت شيئا ، وأخبر خبر عيرهم التى كانت

فى الطريق ، فظهر لهم صدقه وكان صدقه فى هـذا ، آية على صدقه فيما غاب عنهم ، وكان قطع المسافة البعيدة فى الزمان اليسير لأجل مارآه من الآيات التى تختص برؤيتها الأنبياء .

وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولى أو تسخيراً لجن كما فى قصة بلقيس حيث : (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ تقومَ مِنْ مقَامِكَ وَإِنى عليهِ لقَوِيٌّ أمينٌ * قَالَ الذى عِندهُ علمٌ مِنَ الكتابِ : أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ) فإن قطع الجسم الثقيل للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك ، كما كانت الريح : (تجْرِى بأمْرِهِ رُخاء حيثُ أصابَ * والشياطينَ كلَّ بنَّاء وَغوّاص * وآخَرِينَ مقرَّنِينَ فى الأصْفادِ) وهذا تسخير ملكى .

وقطع محمد صلى الله عليه وسلم كان لما أراه الله من الآيات التى ميزه بها على سائر النبيين ، وكان ذلك فتنة (أى محنة وابتلاء) للناس ، ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه .

وأحاديث المعراج وصعوده إلى مافوق السموات ، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ ، ورؤيته لما رآه من الآيات ، والجنة والنار ، والملائكة والأنبياء فى السموات ، والبيت المعمور ، وسدرة المنتهى وغير ذلك معروف متواتر فى الأحاديث ، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله . يظهر به تحقيق قوله تعالى : (تلكَ الرسُلُ فضَّلْنا بعضَهُم على بعضٍ مِنهم مَنْ كلَّم اللهُ وَرَفعَ بعضَهم درجَاتٍ وَآتينا عيسى ابْنَ مريَمَ البيِّنَاتِ وأيَّدْناهُ بروحِ القُدُس) .

فالدرجات التى رفعها محمد ليلة المعراج وسيرفعها فى الآخرة كالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى ليس لغيره مثلها .

ففى الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة وأبى ذر

ومن رواية ابن عباس ، وأبى حبة الأنصارى وغيرهم .

فروى أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى بصره . قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، قال: فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء . قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة » ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل . فقيل من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل من أنت؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة ، عيسى ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرحبا بى ، ودعوا لى بالخير .

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أوقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى شطرا من الحسن ، قال : فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أوقد بعث إليه : قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا. فإذا أنا بإدريس صلى الله عليه وسلم فرحب بى ودعا لى بخير : قال الله عز وجل : (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل :

من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل : أوقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون عليه السلام . فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل : من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أوقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسند ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال : فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة .

فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال : مافرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك . فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .

قال : فرجعت إلى ربي فقلت رب خفف عن أمتي ، فحط عني خمساً .

فرجعت إلى موسى عليه السلام ، فقلت : حط عني خمساً . قال : فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

قال: فلم أزل أرجع بين يدى ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال لى : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها : كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها ، لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته . قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه.

وفى رواية قال : فأتيت فانطلق بى إلى زمزم فشرح عن صدرى ثم غسل بماء زمزم ، ثم أنزلت طست من ذهب ، مملوءة حكمة وإيمانا ، فحشى بهما صدرى .

وفى رواية « فشق من النحر إلى مراقى البطن » وقال عن البيت المعمور . فقلت : ماهذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يقدسون الله ، ويسبحونه ؛ لا يعودون إليه .

وفى حديث أبى ذر « فنزل جبريل فشرح صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا ، فأفرغها فى صدرى ، ثم أطبقه ثم أخذ بيدى ، فعرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئنا إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا ، افتح ، قال من هذا ؟ قال جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علونا السماء ، فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، قال فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى : قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ، قال : قلت ياجبريل من هذا ؟ قال آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل

اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار .

قال الزهرى : وأخبرنى ابن حزم عن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام .

وفى صحيح مسلم، عن عبدالله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها قال : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال : فراش من ذهب، قال: فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ١ — أعطى الصلوات الخمس ٢ - وأعطى خواتيم سورة البقرة ، ٣ - وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات وعنه فى قوله عز وجل : (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته وله ستمائة جناح .

وفى الصحيحين ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما كذبتنى قريش ، قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر . وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كربة ، ما كربت مثلها قط » قال: « فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به » .

قلت : وصعود الآدمى ببدنه إلى السماء قد ثبت فى أمر المسيح ، عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ فإنه صعد إلى السماء ، وسوف ينزل إلى الأرض.

وهذا مما يوافق النصارى عليه المسلمين ، فإنهم يقولون : إن المسيح صعد إلى السماء ببدنه وروحه ، كما يقوله المسلمون ، ويقولون : إنه سوف ينزل

إلى الأرض أيضاً ، كما يقوله المسلمين ، وكما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة .

لكن كثيراً من النصارى يقولون : إنه صعد بعد أن صلب ، وأنه قام من القبر .

وكثيراً من اليهود يقولون : إنه صلب ، ولم يقم من قبره .

وأما المسلمون ، وكثير من النصارى ، يقولون : إنه لم يصلب ، ولكن صعد إلى السماء بلا صلب .

والمسلمون ومن وافقهم من النصارى، يقولون : إنه ينزل إلى الأرض قبل القيامة ، وإن نزوله من أشراط الساعة ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

وكثيراً من النصارى يقولون : إن نزوله هو يوم القيامة ، وإنه هو الله الذي يحاسب الخلق .

وكذلك إدريس صعد إلى السماء ببدنه ، وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه .

ومن أنكر صعود بدن إلى السماء ، من المتفلسفة ، فعمدته شيئان :

أحدهما : ــ أن الجسم الثقيل لا يصعد ، وهذا في غاية الضعف ، فإن صعود الأجسام الثقيلة إلى الهواء مما تواترت به الأخبار في أمور متعددة ، مثل عرش بلقيس الذي حمل من اليمن إلى الشام في لحظة ، لما قال سليمان : (يا أيُّها المَلأُ أيُّكمْ يأتيني بعَرشِهَا قَبلَ أنْ يأتوني مُسلِمِينَ * قالَ عِفْرِيتٌ منَ الجِنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ تقومَ منْ مَقامِكَ وَإني عَليهِ لقَوِيٌّ أمِينٌ * قال الذي عندهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ : أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ فلما رآهُ مستقراً عِندهُ قال: هٰذا منْ فضلِ ربِّي ليَبلوني أأشكُرُ أمْ أكفرُ؟ ومنْ شكرَ فإنما يشكرُ لنفسِهِ ومنْ كفَرَ فإنَّ ربِّي غَنِيٌّ كريمٌ * قال نَكِّرُوا لهَا عرشَهَا ننظُرْ أتَهتَدِي أم تكونُ مِنَ الذينَ لايهتَدُونَ) ومثل حمل الريح لسليمان عليه

السلام وعسكره ، لما كان يحمل البساط فى الهواء ، وهو جالس عليه بأصحابه .

ومثل حمل قرى قوم « لوط » ثم إلقائها فى الهواء . ومثل المسرى إلى بيت المقدس الذى ظهر صدق الرسول بخبره

ورجال كثيرون فى زماننا وغير زماننا يحملون من مكان إلى مكان فى الهواء ، وهذا مما تواتر عندنا ، وعند من يعرف ذلك .

وأيضاً فمعلوم أن النار والهواء الخفيف تحركه حركة قسرية ، فيهبط ، والتراب والماء الثقيلان ، يحركان حركة قسرية ، فيصعد ، وهذا مما جرت به العادة .

والشبهة الثانية : ـ ظن بعض المتفلسفة ، كأرسطو وشيعته ، أن الأفلاك لا تقبل الانشقاق ، وحجتهم على ذلك فى غاية الضعف ، فإنهم قالوا : لو كانت تقبل الانشقاق ، لكان المحدد للأفلاك المحرك لها ، يتحرك حركة مستقيمة ، والحركة المستقيمة تحتاج إلى خلاء خارج العالم ، ولا خلاء هناك .

وهذه الحجة فاسدة من وجوه :

منها : أنها تدل على ذلك فى الفلك الأعلى ، لا فيما دونه ، كفلك القمر وغيره ، وهذا مما أجابهم به الرازى وغيره .

ومنها : أن وجـود الأجسام خارج الفلك ، كوجود الفلك فى حيزه .

فقول القائل : إن ذلك يحتاج إلى خلاء ، كقوله : إن وجود الفلك فى حيزه يحتاج إلى خلاء ، وقوله بنفى الخلاء على حيزه .

فإن كان الخلاء عدماً محضا ، فهو منتف فى الجانبين وإن قيل : إنه أمر وجودى ، ولزم أن يحتاج إليه فى الموضعين ، وحينئذ فيبطل القول بنفيه .

وبهذا يظهر جوابهم عن إنكارهم انشقاق القمر ، فإن عمدتهم فيه ، أن الفلك لا يقبل الانشقاق ، وقد عرف فساد ذلك عقلا وسمعا ، وتواترت عن الأنبياء أنهم أخبروا بانشقاق السموات .

وإيضاح الرد على هؤلاء ، أن ما يثبتونه من أن الحركة لابد لها من جهة

ومحدد يحدد الجهات ، إنما يدل على الافتقار إلى جنس المحدد ، لا يدل على الاحتياج إلى محدد معين .

فإذا قدر أنه خلق وراء المحدد محدداً آخر وخرق الأول ، حصل به المقصود .

وهكذا عامة أدلتهم إنما تدل على شيء مطلق ، ولكن يعينونه بلا حجة ، فيغلطون فى التعيين ، كدليلهم على دوام الفاعلية أو الحركة أو زمانها ، فإن ذلك لا يدل على الحركة الفلكية ، وأن الزمان هو مقدار الحركة ، بل إذا كان الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام كما أخبرت به الرسل ، لم تكن تلك الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض هى مقدار حركة الشمس التى هى مما خلق فى تلك الأيام .

بل قد أخبر الله تعالى أنه كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأخبر أنه خلق السموات من دخان ، وهو بخار الماء .

فإذا كان قبل هذه الحركات المشهودة ، حركات أخر لأجسام غير هذه الأجسام المشهودة ، لم يكن هذا مناقضاً لما دل عليه العقل .

وكذلك ما يذكرونه من قِدَمِ العالم .

فليس مع القوم دليل واحد عقلىّ صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل ، ولكن قد تناقض بعض ما يظنه بعض أهل الكلام من دين الرسل ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والنوع الثانى : ــ آيات الجوّ ، كاستسقائه صلى الله عليه وسلم واستصحائه ، وطاعة السحاب فى حصوله ، وذهابه بدعائه صلى الله عليه وسلم ، ونزول المطر بدعائه .

ففى الصحيحين عن أنس بن مالك : أن رجلا دخل المسجد فى يوم جمعة ، من باب كان نحو دار القضاء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب ،

فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ، ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السُّبُل ، فادع الله يُغِثْنَا قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » ، اللهم أغثنا .

قال أنس : ولا والله ، ما نرى فى السماء من سحاب ولا من قزعة ، وإن السماء لمثل الزجاجة ، وما بيننا وبين سلع من دار ، فو الذى نفسى بيده ، ماوضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته .

وفى رواية أخرى : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء ، انتشرت ، ثم أمطرت ، قال : فلا والله ما رأيت الشمس سبتاً .

قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب ، فاستقبله قائماً فقال : يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله أن يمسكها عنا .

قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ، ومنابت الشجر » .

قال : فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت حتى رأيت المدينة فى مثل الجوبة ، وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلا أخبر بجود » .

ومن هذا الباب نصر الله له بالريح التى قال الله فيها : (يا أَيُّها الذينَ آمنوا اذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ جاءَتْكُمْ جُنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجُنوداً لمْ تروْها وكان اللهُ بما تعملونَ بَصِيراً) .

قال مجاهد : يعنى ريح الصبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق ، حتى كفأت قدورها على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم . وجنوداً لم تروها (يعنى الملائكة) .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

وفى المغازى والسير والتفسير قصة الأحزاب ، وكيف أرسلت عليه الريح الملائكة وانهزموا بغير قتال معروف .

والنوع الثالث : ـ تصرفه فى الحيوان ـ الإنس والجن والبهائم .

فروى عن عبدالله بن جعفر قال : أردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأسرَّ إلىّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس .

قال : وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش[1] نخل ، فدخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حَنّ وذَرَفَتْ عيناه ، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وذِفْرَاه فسكن ، ثم قال : « لمن هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار فقال : هو لى يارسول الله. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ألا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتذيبه » روى مسلم بعضه ، وبعضه على شرطه ، ورواه أبو داود وغيره .

وروى الإمام أحمد ، والدارمى وغيرهما ، عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بنى النجار ، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شدّ عليه ، فذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير ، فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه .

قال : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «هاتوا خطامه» فخطمه ودفعه إلى صاحبه » . قال : ثم التفت إلى الناس فقال : « إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله ، إلا عاصى الجن والإنس » .

---

(١) قوله : أو حائش : هكذا فى الأصل . ولعل الأصح : حائط . بدل حائش .

وروى الطبراني عن جابر قال: خرجنا فى غزوة ذات الرقاع ، حتى إذا كنا بحرة واقم، عرضت امرأة بدوية بابن لها ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، هـذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان . قال: « فأدنيه منى » فأدنته منه . فقال « افتحى فمه » ففتحته ، فبصق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اخسأ عدو الله وأنا رسول الله » قالهـا ثلاث مرات ، ثم قال « شأنك بابنك ، ليس عليه بأس ، فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه » .

وذكر قصة الشجرتين ، إلى أن قال : ثم خرجنا ، فنزلنا منزلا صحراء ديمومة ، ليس فيها شجرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجابر « ياجابر انطلق فانظر لى مكاناً ، يعنى الوضوء ، فخرجت أنطلق فلم أجد إلا شجرتين مفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاه » .

فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ، والله مارأيت شيئاً يسترك إلا شجرتين مفرقتين . ولو أنهما اجتمعتا سترتاك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اجتمعا » .

قال: فخرجت فقلت لهما ، فاجتمعتا حتى كأنهما فى أصل واحد .

ثم رجعت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضى حاجته ، ثم رجع فقال : ائتهما فقل لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكما : ارجعا كما كنتما كل واحدة إلى مكانها .

فرجعت فقلت لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لـكما « ارجعا كما كنتما » فرجعتا .

ثم خرجنا فنزلنا فى واد من أودية بنى محارب ، فعرض له رجل من بنى محارب يقال له « غورث بن الحارث » والنبي صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه ،

فقال : يامحمد أعطنى سيفك هذا ، فسله فناوله إياه ونظر إليه ساعة ، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد من يمنعك منى ؟ فارتعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « ياغورث من يمنعك منى ؟ » قال : لا أحد .

قال : ثم أقبلنا راجعين ، فجاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعُشِّ طير يحمله ، وفيه فراخ وأبواه يتبعانه ويقعان على يد الرجل ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على من كان معه ، فقال « أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما ؟ » .

زاد في رواية « فربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفراخه » .

ثم أقبلنا راجعين ، حتى إذا كنا بحرة واقم ، عرضت لنا المرأة التي جاءت بابنها برطب ولبن شاة ، فأهدته له فقال « ما فعل ابنك ، هل أصابه شيء كما يصيبه ؟ » قالت : لا ، والذى بعثك بالحق ، ما أصابه شيء مما كان يصيبه ، وقبل هديتها .

ثم أقبلنا حتى إذا كنا بمهبط من الحـرة ، أقبل جمل يرقل ، فقال : « أتدرون ماقال هذا الجمل ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هـذا جمل جاءنى يستعدى على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، حتى إذا أجربه وأعجفه ، وكبر سنه أراد نحره ، اذهب معه ياجابر إلى صاحبه فائت به » فقلت : ما أعرف صاحبه يارسول الله . قال « إنه سيدلك عليه » .

قال : فخرج بين يدَيَّ معنقا ، حتى وقف بي في مجلس بني خطمة ، فقلت : أين رب هذا الجمل ؟ قالوا : فلان .

فجئته فقلت : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج معى حتى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إن جملك

هذا يستعدى عليك ، يزعم أنك حرثت عليه زماناً حتى أجربته وأعجفته ، وكبرسنه ، ثم أردت نحره » .

فقال : والذى بعثك بالحق ، إن ذلك لكذلك .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبيعنيه » قال : نعم، يارسول الله فابتاعه منه ، ثم سيبه فى الشجر حتى نصب سناما ، فكان إذا اعتل على بعض المهاجرين والأنصار من نواضحهم شىء أعطاه إياه ، فمكث بذلك زماناً .

وهذا الحديث له شواهد ، أخرج أهل الصحيح منه قصة الشجرتين ، وقصة الذى شهر السيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصة الطير . رواه أبوداود الطيالسى ، وقصة الصبى ، ذكرها غير واحد .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن يعلى بن مرة الثقفى قال : ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بينما نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يسنى عليه ، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه بالأرض ، فوقف عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أين صاحب هذه البعير ؟ » فجاءه فقال « بعنيه » . فقال : بل أهبه لك يارسول الله . فقال « لا ، بل بعنيه » ، فقال : بل نهبه لك ، وهو لأهل بيت ، مالهم معيشة غيره .

فقال : أما إذ ذكرت هذا من أمره ، فإنه يشتكى إلى كثرة العمل وقلة العلف ، فأحسنوا إليه » . وفى رواية « أنهم أرادوا نحره » .

ثم سرنا من منزلنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل لهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكما أن تجتمعا » .

فانطلقت فقلت لهما ذلك ، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها فنزلت كل واحدة إلى صاحبتها ، فالتقتا جميعاً ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته من ورائهما ، ثم لما فرغ عادت كل واحدة منهما مكانها بأمره .

وأتته امرأة بصبي لها به لمم فقالت يارسول الله ، إن ابني هذا ، به لمم منذ سبع سنين ، يأخذه في كل يوم مرتين . فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في فيه ، وقال « أخرج عدو الله ، أنا رسول الله » فبرىء .

فلما رجعنا ، جاءت أم الغلام بكبشين وشيء من أقط ، قالت : والذي بعثك بالحق مارأينا منه ريباً بعدك . فأخذ أحد الكبشين والأقط ، ورد الكبش الآخر .

وروى هذه القصة ، أبو يعلى الموصلي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، ورواه الحاكم في صحيحه قال فيه : سافرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت منه عجباً ، وذكر الحديث .

وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمرأة لما أخرج الشيطان من ابنها : « إذا رجعنا فأعلمينا ماصنع » رواه الدارمي أيضاً .

وروى الدارمي عن ابن عباس أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله إن ابني به جنون ، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا ، فيخبث علينا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا ، فثع ثعة خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي .

وروى أبوداود الطيالسي عن ابن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فدخل رجل غيضه فأخرج منها بيض حمرة ، فجاءت الحمرة ترف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال : « أيكم فجع هذه » فقال رجل من القوم : أنا أخذت بيضتها ، فقال : « رده رحمة لها » .

وروى الحاكم في صحيحه عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ركبنا البحر في سفينة ، فانكسرت السفينة ، فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني في أجمة فيها أسد ، فلم يرعني إلا به . فقلت : « يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم » فطأطأ رأسه وغمز بمنكبه شقي ، فمازال يغمزني ويهديني

الطريق حتى وضعنى على الطريق ، فلما وضعنى على الطريق همهم فظننت أنه يودعنى .

وروى الإمام أحمد فى مسنده ، وأبو يعلى الموصلى عن عائشة قالت : « كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحش ، إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد ولعب وأقبل وأدبر ، فإذا أحس برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل ربض ، فلم يترمرم كراهية أن يؤذيه » ولفظه للامام أحمد ، ورواه أبو نعيم .

وروى عنها أحمد أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من المهاجرين والأنصار . فجاء بعير فسجد له فقال : « اعبدوا ربكم وأكرموا أخاكم ، ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أمرها أن تنتقل من جبل أصفر إلى جبل أسود ، ومن جبل أسود إلى جبل أبيض ، كان ينبغى لها أن تفعله » رواه الإمام أحمد عن عفان ، وابن ماجه ، ببعضه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان قال : ثنا حماد بن سلمة ثنا أبى ثنا على بن يزيد ثنا سعيد عن عائشة .

وقصة هذا الجمل رواها جماعة من الصحابة .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبه الراعى فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه فقال : « ألا تتقى الله ، تنزع منى رزقاً ساقه الله إلى ؟ فقال : ياعجباً ذئب مقع على ذنبه يكلمنى كلام الإنس ؟

فقال الذئب : « ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد صلى الله عليه وسلم بيثرب ، يخبر الناس بأنباء ماقد سبق » .

قال : فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنودى : الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للأعرابى : « أخبرهم » فأخبرهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق والذى نفس محمد بيده ، لاتقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبره فخذه ما أحدث أهله بعده » .

وروى الترمذى آخره وصححه ، قال البيهقى : إسناده صحيح وله شاهد من وجه آخر .

ورواه أحمد عن أبى هريرة قال: وكان الراعى يهوديًا فأسلم .

وقال فيه : أعجب من هذا رجل فى النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى، وبما هو كائن بعدكم .

وفى الصحيحين عن أنس قال : كان بالمدينة فزع فاستعار النبى صلى الله عليه وسلم فرسًا لأبى طلحة وكان يقطف. فلما رجع قال إن وجدنا فرسكم هذا بحرا وكان بعد ذلك لايجارى .

وفى الصحيحين ، عن سلمة بن الأكوع ، وسهل بن سعد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر : أنه أرسل إلى على وهو أرمد العين فقال: « لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فبصق فى عينيه فبرىء ، كأن لم يكن به وجع قط ، وأعطاه الراية فقال علىّ: يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال: « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أبيه قتادة بن النعمان : أنه أصيبت عينه فى الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فسالت على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لا» ودعاه وغمز حدقته

براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت ، فكانت أحسن عينيه وأحدها .

وفى رواية « فرفع حدقته حتى وضعها موضعها ، ثم غمزها براحته وقال : « اللهم اكسها جمالا ، فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت » رواه عنه أهل المغازى .

وأنشد ولده بحضرة عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، وأقره من حضر ولم ينكره :

أنا ابنُ الذى سالَتْ على الخدِّ عَيْنُهُ وَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطفى أحْسنَ الردِّ
فَعَادَتْ كمَا كانَتْ لِأحسنِ حَالِهَا فيا حسنَ ما عيْنٍ ويا حسنَ ماردٍّ

فلو أنه كان معروفاً عند التابعين لم يقروه ، وهم إنما تلقوا هذا عن الصحابة .

وفى صحيح البخارى عن البراء بن عازب قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار ، وأمر عليهم عبدالله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وكان فى حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أدخل .

قال : فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب ، فدخلت فكمنت .

فلما دخل الناس أغلق الباب ثم أغلق الأغاليق على ودخل .

قال فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان فى علالى له ، فلما ذهبت عنه أهل السمرة ، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علىّ من داخل ، قلت : إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلى

حتى أقتله فانتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت .

قلت : أبا رافع . قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنت شيئاً وصاح .

فخرجت من البيت ، فمكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : ماهذا الصوت يا أبا رافع ؟

فقال : لأمك الويل ، إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف .

قال فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت صبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعلمت أنى قد قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً فباباً ، حتى انتهيت إلى درجة ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامتى ، ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت : لا أبرح حتى أعلم ، أقتلته أم لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ينعى أبا رافع فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجا النجا قتل الله أبا رافع .

قال فانتهينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وحدثناه فقال : «أبسط رجلك» ، فبسطها فمسحها فكأنما لم يشكها قط .

وفى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال : رأيت فى ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربة ، فقلت : يا أبا مسلم ، ما هذه الضربة ؟ قال : هذه ضربة أصابتنى يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة .

وفى الترمذى وغيره عن عثمان بن حنيف : أن رجلا ضريراً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله تعالى أن يعافينى . قال : « إن شئت صبرت فهو خير لك ، وإن شئت دعوت الله » قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ

فيحسن الوضوء ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء .

اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك نبىّ الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه ، اللهم فشفعه فى .

وفى رواية قال : « يا رسول الله ليس لى قائد وقد شقّ على » وذكر الحديث .

فقال عثمان : « والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضرّ قط » . قال الترمذى : حديث صحيح .

النوع الثالث آثاره فى الأشجار والخشب :

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : كان المسجد مسقوفا على جذوع النخل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع المنبر وكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت .

وفى رواية « فصاحت النخلة صياح الصبى » .

وفى الصحيحين عن جابر : أن امرأة من الأنصار قالت : يارسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ، فإن لى غلاماً نجارا ؟ قال : « إن شئت » قال : فعملت له المنبر .

فلما كان يوم الجمعة ، قعد النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر الذى صنع له ، فصاحت النخلة التى كان يخطب عليها ، حتى كادت أن تنشق ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبى الذى يسكت حتى استقرت .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا وادياً أفيح ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته ، فاتبعته بأداوة من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ير شيئاً يستتر به فإذا شجرتان بشاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها ، فقال : « انقادى على بإذن الله » فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : « انقادى على بإذن الله » فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما فلأم بينهما حتى جمع بينهما ، فقال « التئما على بإذن الله تعالى » فالتأمتا عليه فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربى ، فتباعدت فجلست أحدث نفسى ، فحانت منى لفتة ، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق . وذكر الحديث .

وعن ابن عباس قال : جاء رجل من بنى عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك ، فإنى من أطب الناس قال « ألا أريك آية ؟ » : قال بلى فنظر إلى نخلة فقال : « ادع ذلك العذق » فجاءه ينقر حتى قام بين يديه . فقال له « ارجع » فرجع .

فقال العامرى يا آل بنى عامر ، « ما رأيت أسحر منه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، ورواه الدارمى أيضاً قال : فجاءت النخلة تنقر بين يديه ثم قال لها : « ارجعى » فعادت إلى مكانها .

وفى رواية الترمذى : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بم أعرف أنك نبى ؟ قال « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة ، أتشهد أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم ، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ارجع » فعاد فأسلم الأعرابى .

وروى الدارمى عن عبدالله بن عمر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فأقبل أعرابى ، فلما دنا منه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلى . قال : « هل لك فى خير ؟ » قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » قال : ومن يشهد على ما تقول ؟

قال « هذه السلمة » فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بشاطىء الوادى فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا ، فشهدت ثلاثا أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابى إلى قومه فقال : إن اتبعونى أتيتك بهم وإلا رجعت فكنت معك .

وفى الصحيحين عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى يقول : سألت مسروقا من آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال: حدثنى أبوك (يعنى عبد الله بن مسعود) أنه قال آذنته بهم شجرة .

وفى الترمذى عن على قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : «السلام عليك يا رسول الله » رواه الحاكم فى صحيحه .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، فقال له : « مالك ؟ » فقال « فعل هؤلاء وفعلوا » .

قال : فقال له جبريل : « أتحب أن أريك آية ؟ » قال: « نعم » . فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال: أدع تلك الشجرة » فدعاها ، فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه فقال « مرها فلترجع إلى مكانها » . فقال لها : « ارجعى » فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « حسبى » ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده .

فصل

والنوع الرابع :ـ الماء والطعام والثمار الذى كان يكثر ببركته فوق العادة وهذا باب واسع نذكر منه ما تيسر .

أما الماء ، ففى الصحيحين عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بماء فأتى بقدح رحراح ، فجعل القوم يتوضئون قال : فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين .

وفى رواية عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى بعض مخارجه ومعه أناس من أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ما يتوضئون به ، فانطلق رجل من القوم ، فجاء بقدح فيه ماء يسير ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال : «قوموا فتوضئوا » وكانوا سبعين أو نحوه .

وفيهما عن أنس أيضاً : أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالزوراء . (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد ثمة) دعا بقدح فيه ماء ، فوضع فيه كفه فجعل ينبع بين أصابعه ، فتوضأ جميع أصحابه قال : قلت : كم كانوا يا أبا حمزة ؟ قال : كانوا زهاء الثلاثمائة ، وفى رواية « بماء لا يغمر أصابعه» .

وفى الصحيحين عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم .

وفى الصحيحين عن جابر قال : قد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حضرت صلاة العصر ، وليس معنا ماء غير فضلة ، فجعل فى إناء فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأدخل يده فيه ، وفرج أصابعه ثم قال : « حى على الوضوء والبركة من الله » فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ، فتوضأ الناس وشربوا فجعلت لا آلو ما جعلت فى بطنى منه ، فعلمت أنه بركة .

قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وأربعمائة .

وفى صحيح البخارى عن جابر أيضاً قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبى صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ ، فجهش الناس نحوه قال : « مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ما نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .

وفى البخارى عن البراء بن عازب قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ، ثم تمضمض ، ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، أو أكثر من ذلك .

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبا الركية ، فإما دعا ، وإما بصق فيها . قال : فجاشت فسقينا واستقينا .

وعن ابن عباس قال : دعا النبى صلى الله عليه وسلم بلالا ، فطلب بلال الماء ، ثم جاء فقال : لا والله ما وجدت الماء ، فقال صلى الله عليه وسلم « فهل من شن ماء ؟ » فأتاه بشن فبسط كفيه فيه فانبعثت من يده عين . قال : فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ .

وعن جابر عن عبد الله قال غزونا أو سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن يومئذ بضع عشرة ومائتين فحضرت الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فى القوم من طهور ؟ فجاء رجل يسعى بإداوة فيها شىء من ماء ، ليس فى القوم ماء غيره ، فصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قدح ، ثم توضأ

فأحسن الوضوء ، ثم انصرف وترك القدح، فركب الناس ذلك القدح وقالوا : تمسحوا تمسحوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على رسلكم » حين سمعهم يقولون ذلك ، فوضع رسول الله صلى عليه وسلم كفه فى الماء والقدح وقال : « بسم الله » ثم قال : « أسبغوا الطهور » . فوالذى ابتلانى ببصرى لقد رأيت العيون الماء تخرج من بين أصابعه ، فلم يرفعها حتى توضؤا أجمعون » رواها الدارمى فى مسنده .

وفى صحيح البخارى عن عبدالله بن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء : « فقال اطلبوا فضلة من ماء ، فجاؤا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ثم قال : « حى على الطهر المبارك والبركة من الله » فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

وروى مسلم فى صحيحه عن معاذ بن جبل ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك ، فكان يجمع الصلاة ، فصلى الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعاً ، حتى إذا كان يوم أخر الصلاة ، ثم خرج، فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً ، ثم قال : « إنكم ستأتون غداً - إن شاء الله - عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى » : فجئناها ، وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشىء من ماء ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل مسستما من مائها شيئاً ؟ » قالا : نعم ، فسبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهما ماشاء الله أن يقول ، قال : ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع شىء ، قال : وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء منهمر ، أو قال : غزير ، فاستقى الناس ثم قال : « يوشك - يا معاذ إن طالت بك حياة - أن ترى ماء هاهنا ، قد ملأ جنانا » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الذى رواه عبادة بن الوليد وقد تقدم أوله فى قصة الشجرتين وانقيادهما ثم افتراقهما ووضع الغصن على القبرين، وقال فى آخره : فأتينا العسكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا جابر ناد بوضوء» فقال : ألا وضوء ألا وضوء . قال : قلت يا رسول الله : ما وجدت فى الركب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء فى أشجاب له ، فقال لى : انطلق إلى فلان الأنصارى ، فانظر هل فى أشجابه من شىء ؟ قال : فانطلقت إليه ، فنظرت فيها ، فلم أجد إلا قطرة فى عزلا شجب ، لو أنى أفرغه لشربه يابسه .

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله لم أجد فيها إلا قطرة فى عزلا شجب ، لو أنى أفرغه لشربه يابسه .

قال اذهب فائتنى به ، فأتيته به ، فأخذه بيده ، فجعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو ، ويغمزه بيده ، ثم أعطانيه ، ثم قال : يا جابر ، ناد بجفنة الركب ، فقلت يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل ، فوضعتها بين يديه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى الجفنة هكذا ، فبسطها ، وفرق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة فقال : خذ يا جابر فصب على وقل : بسم الله » فصببت عليه وقلت : بسم الله . فرأيت الماء يفور من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت . فقال : « يا جابر نادمن كانت له حاجة بماء » قال : فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ، قال : فقلت : هل بقى أحد له حاجة ؟. فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهى ملأى .

وفى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له ، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان وجه الصبح عرسنا ، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس ، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر الصديق ، وكنا لا نوقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، لأنا لا ندرى

ما يحدث له في نومه ، ثم استيقظ عمر ، فجعل يكبر ، حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال : ارتحلوا ، فسار بنا حتى ابيضت الشمس . نزل ، فصلى بنا الغداة ،فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا ، فلما انصرف قال له رسول الله صلى الله عليه سلم « ما منعك أن تصلي معنا ؟ » قال أصابتني جنابة ولا ماء . قال له : « عليك بالصعيد فإنه يكفيك » فتيمم بالصعيد فصلى ، ثم عجلني في ركب بين يديه يطلب الماء ، وقد عطشنا عطشاً شديداً .

فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين ، فقلنا لها : أين الماء ؟ فقالت : إيهاه إيهاه ، لا ماء لكم . فقلت : كم بين أهلك وبين الماء ؟ قالت : مسيرة يوم وليلة ، قلنا : انطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت: وما رسول الله ؟ فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها ، فاستقبلنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها فأخبرته مثل الذى أخبرتنا ، وأخبرته أنها مويمة لها صبيان أيتام .

فأمر براويتها فأنيخت ، فمج في العزلاوين العلياوين ، ثم بعث براويتها فشربنا، ونحن أربعون رجلا عطاشا حتى روينا، وملأنا كل راوية، وملأنا كل قربة معنا وإداوة ، وغسلنا صاحبنا ، غير أنا لم نسق بعيراً وهي تكاد تتضرج من الماء يعني المزادتين، ثم قال : « هاتوا ما عندكم » فجمعنا لها من كسر وتمر، وصر لها صرة، وقال لها ، اذهبي فأطعمي عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك شيئاً .

فلما أتت أهلها قالت : لقد رأيت أسحر البشر ، أو إنه النبي كما زعم ، كان من أمره زيت وزيت ، فهدى الله عز وجل ذلك القوم بتلك المرأة ، فأسلمت وأسلموا .

وفي الصحيحين عن أبي قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال « إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم ، وتأتون الماء غداً إن شاء الله » فانطلق الناس لايلوى أحد على أحد ، وذكر حديث النوم فى الوادى فقال: ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء، فتوضأ منها وضوءاً ، دون وضوء وبقى فيها شىء من ماء ، ثم قال لأبى قتادة : « احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ » ، ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم .

فقال أبو بكر وعمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدكم لم يكن ليخلفكم .

وقال الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم ، فإن تطيعوا أبا بكر وعمر ترشدوا .

قال: فانتهينا إلى الناس حتى امتد النهار وحمى كل شىء ، وهم يقولون : يارسول الله هلكنا عطشاً فقال: « لاهلاك عليكم » ثم قال «اطلقوا لى غمرى» قال : ودعا بالميضأة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فلم يعد أن رأى الناس مافى الميضأة تكابوا عليها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحسنوا الملاء، كلكم سيروى »

قال : ففعلوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب ، وأسقيهم حتى مابقى غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : « اشرب » فقلت : لا أشرب حتى تشرب يارسول الله قال : « إن ساقى القوم آخرهم شرباً » فشربت وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فأتى الناس الماء جامين رواء .

قال عبدالله بن رباح : إنى لأحدث بهذا الحديث فى مسجد الجامع إذقال لى عمران بن حصين : أنظر كيف تحدث ، فأنا أحد الركب تلك الليلة فقلت : أنت أعلم . فقال: ممن أنت ؟ قلت من الأنصار . قال: أنتم أعلم بحديثكم .

قال عمران : لقد شهدت تلك الليلة ، وماشعرت أحداً حفظه كما حفظته .

وفى مسند الإمام أحمد ورواه أبو يعلى الموصلى عن البراء بن عازب قال:
« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتينا على ركى زمه ، قال: فنزل ستة ، أنا سابعهم ، أو سبعة أنا ثامنهم . قال: فأدليت إلى دلو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على شفتى الركى ، فجعلنا فيها نصفها أو قريب ثلثيها فرفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فكدت بإنائى آخذ سقيًا أجعله فى حلقى فما وجدت . قال: فغمس رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فيها فقال ماشاء الله أن يقول ، فأعيدت إلينا الدلو ومافيها ، قال: فقد رأيت آخرنا أخرج مخافة الغرق ، قال: وساخت» .

وفى الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذى وأبو داود ، وابن ماجه طرف منه ، عن زيادة بن الحارث الصداى ، قال فى آخره : ثم قلنا: يانبى الله ، إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا وكل من حوالينا عدو ، فادع الله فى بئرنا أن يسعنا ماؤها ، فنجتمع ولا نتفرق .

فدعا بسبع حصيات فعركهن فى يده ، ودعا فيهن ثم قال « اذهبوا بهذه الحصيات ، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة ، واذكروا اسم الله عزوجل »

قال الصداى : ففعلنا ما قال لنا ، فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وليس فى العسكر ماء ، فأتاه رجل فقال: يارسول الله ليس فى العسكر ماء . قال: « هل عندك شىء ؟ » قال: نعم . قال: « فائتنى به » قال: فأتاه بإناء فيه شىء من ماء قليل، قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه على فم الإناء وفتح أصابعه . قال فانفجرت من بين أصابعه عيون ، وأمر بلالا فقال: « نادى فى الناس : الوضوء المبارك» .

فصـــل

وأما تكثير الطعام ، ففي الصحيحين عن جابر قال : لما حفر الخندق رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا ، فانكفأت إلى امرأتي فقلت لها : « هل عندك شيء ؟ فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً ، فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن » قال : فذبحت وطحنت ، ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقالت : « لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه » .

قال : فجئت فساورته فقلت : « يارسول الله ، إنا ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير عندنا ، فتعال أنت ونفر معك » .

فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا أهل الخندق ، إن جابرا قد صنع سوراً فحيلاً بكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء » .

فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس ، حتى جئت امرأتي فقالت : « بك وبك » قال : « قد فعلت الذي قلت لي » .

فأخرجت له عجيناً ، فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك ثم قال : « ادعي لي خابزة فلتخبز معك ، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها » وهم ألف .

فأقسم بالله ، لأكلوا حتى تركوه ، وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو » .

وفي رواية ، قال جابر : إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « هذه كدية عرضت » فقال : « أنا نازل » . فقال وبطنه معصوب بحجر[1] ، ولبثنا ثلاثاً لا يذوق ذواقاً .

---

(١) الصواب : أنه كان يربط الحجز لا الحجر ، والحجز هو (الحزام) .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول ، فضرب فعاد كثيباً أهيل .

فقلت : يا رسول الله ، ائذن لى إلى البيت ، فقلت لامرأتى : إنى رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ما فى ذلك صبر .

قالت : عندى شعير وعناق، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة . ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج فقلت : طعيم لى، فقم أنت يارسول الله ورجل ورجلان . قال: « كم هو » فذكرت له . فقال : « كثير طيب » . قال: « قل لها ، لاتنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى » ، قال : « قوموا » فقام المهاجرون والأنصار .

فلما دخل على امرأته قال : ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم .

قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم . فقال « ادخلوا ولا تضاغطوا » .

فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ننزع ، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية . قال « كُلْ هذا وأهد فإن الناس أصابتهم مجاعة » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال أبو طلحة لأم سليم : قد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ فقالت : نعم . فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخذت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت ثوبى وردتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فذهبت به ، فوجدته جالساً فى المسجد والناس معه فقمت عليهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه « قوموا » .

قال: فانطلق وانطلقت معهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم .

قال: فانطلق أبو طلحة : حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هلمى يا أم سليم ما عندك » فأتت بذلك الخبز ففت ، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته ، ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول ، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم . فأكلوا حتى شبعوا ، ثم قال: « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال: « ائذن لعشرة» فأذن لهم ، حتى أكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون رجلا أو ثمانون ، وفى طريق البخارى ثمانون . وقال فى رواية : ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة وأم سليم وأنس وفضل فضلة ، فأهديناها لجيراننا .

وفى صحيح مسلم عن سلمة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر ، فأمرنا أن نجمع ما فى أزوادنا ، يعنى من التمر — فبسط نطعاً نثرنا عليه أزوادنا قال : فطيت فتطاولت فنظرت فحزرته كربضة شاة ، ونحن أربع عشرة مائة قال : فأكلنا ثم تطاولت فنظرته فحزرته كربضة شاة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة وأبى سعيد وسلمة بن الأكوع ، واللفظ لمسلم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير ، قال : فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر بعض حمائلهم ، قال : فقال عمر : يارسول الله ، لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها ، قال ففعل ، فجاء ذو البر ببره ، وذو التمر بتمره ، وذو النوى بنواه .

قيل : وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال: يمصونه ويشربون عليه الماء .
قال : فدعا عليها حتى ملأ القوم أزوادهم .

قال : فقال عند ذلك « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة » .

قال : لما كان يوم « غزوة تبوك » أصاب الناس مجـــاعة ، فقالوا : يارسول الله ، لو أذنت لنـا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افعلوا .

قال : فجاء عمر فقال : يارسول الله ، إن فعلت قلّ الظهر ، وفى رواية : مابقاؤهم بعد إبلهم ، ولـكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع لهم البركة ، لعل الله أن يجعل البركة فى ذلك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم . قال : فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، وجعل الآخر يجىء بكف تمر ، وجعل الآخر يجىء بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير .

قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ، ثم قال : « خذوا فى أوعيتكم » قال فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه .
قال : فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة (الحديث) .

وروى البخارى من حديث سلمة بن الأكوع بنحوه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فأصابنا جهد حتى هممنـا أن ننحر بعض ظهرنا ، فأمرنا نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فجمعنا مزاودنا ، فبسطنا له نطعاً ، فاجتمع زاد القوم على النطع ، قال : فتطاولت لأحزره كم هو ؟ فحزرته كربضة العنز ، ونحن أربع عشر مائة . قال : فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ، ثم حشينـا جرو بنا . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « فهل من وضوء ؟ » قال : فجـاء

رجل بأداوة فيها نطفة ، فأفرغها فى قدح ، فتوضأنا كلنا بدعفقة دعفقة ، أربع عشرة مائة ، ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا : هل من طهور ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرغ الوضوء » .

وفى صحيح مسلم عن جابر : أن أم مالك كانت تهدى للنبى صلى الله عليه وسلم فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شىء . فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : « عصرتيها » ؟ فقالت : نعم . قال : « لو تركتيها مازال قائماً » .

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر أيضاً ، قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير ، فمازال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب فدخل بأهله ، قال : فصنعت أم سليم حيساً فجعلته فى تور من حجارة ، فقالت : يا أنس ، اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل : بعثت بهذا أمى إليك وهى تقرئك السلام ، وتقول : إن هذا لك منا قليل يارسول الله .

قال : فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمى تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل . فقال : « ضعه » ثم قال : اذهب فادع فلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت » وسمى رجالا . قال فدعوت من سمى ومن لقيت . قال الجعد - وهو الراوى عن أنس : عدد كم كانوا : قال : كانوا زهاء ثلاثمائة ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس هات التور » قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليتحلق

عشر عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه» . قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم . فقال : « يا أنس ارفع » فرفعت فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون ، وذكروا نزول آية الحجاب .

وروى البخارى عن أنس أيضا : أن أم سليم عمدت إلى مد من شعير جشته وجعلت منه خطيفة ، وعصرت عكة عندها ، ثم بعثتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وهو أصحابه ، فدعوته . قال : « ومن معى ؟ » فجئت فقلت : إنه يقول « ومن معى ؟ » فخرج إليه أبو طلحة فقال يارسول الله : إنما هو شىء صنعته أم سليم ، فدخل فجىء به وقال : « أدخل عشرة» حتى عد أربعين ، ثم أكل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فجعلت أنظر ، هل نقص منها شىء ؟ .

عن سمرة بن جندب قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نتداول قصعة من غدوة من الليل ، يقوم عشرة ، ويقعد عشرة ، فقلنا : ما كانت تمد ؟ قال . فمن أى شىء تعجب ؟ ما كانت تمد إلا من ههنا ، وأشار بيده إلى السماء . رواه النسائى والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الدرامى والحاكم فى صحيحه .

وفى البخارى عن أبى هريرة : أنه كان يقول : والله الذى لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ماسألته إلا ليستتبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، فتبسم حين رآنى ، وعرف ما فى وجهى وما فى نفسى ، ثم قال :«يا أباهر» . قلت: لبيك يارسول الله. قال :«الحق» ومضى ، فاتبعته فدخل ،فاستأذن، فأذن لى ، فدخلت ، فوجد لبنا فى قدح

فقال : « من أين هذا اللبن؟ » قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: « يا أبا هر »
قلت : لبيك يارسول الله قال « الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى ». قال: وأهل
الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال ، إذا أتته صدقة بعث بها
إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم
فيها ، فساءنى ذلك فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة : كنت أحق أن أصيب
من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما
عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدٌّ فأتيتهم
فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت فقال :
« يا أبا هر » قلت : لبيك يارسول الله . قال: « خذ فاعطهم » فأخذت القدح
فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح، حتى انتهت إلى
النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده
فنظر إلى فتبسم فقال : « يا أبا هر » قلت : لبيك يارسول الله ، قال « بقيت أنا
وأنت » قلت: صدقت يارسول الله . قال « اقعد فاشرب » فقعدت فشربت ،
فما زال يقول « اشرب » حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا
قال « فأرنى » فأعطيت القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .

وفى الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال: كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هل مع
أحد منكم طعام؟ » فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن . ثم جاء رجل
مشعان الرأس ، ثائر الرأس طويل ، بغنم يسوقها فقال النبى صلى الله عليه وسلم
« أبيعا أم عطية » أو قال : « هبة » ؟ قال : بل بيع . فاشترى منه شاة فصنعت
وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بسواد البطن أن يشوى، وأيم الله ما فى الثلاثين
ومائة إلا من قد حز له النبى صلى الله عليه وسلم حزة من سواد بطنها ، إن كان

شاهداً أعطاه ، وإن كان غائباً أخبأ له ، فجعل منها قصعة فأكلوا أجمعون ، وشبعوا ، ففضلت القصعتان فحملناه على البعير » أو كما قال .

فصـــل

وأما تكثير الثمار ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد وترك ديناً ، وترك ست بنات ، فلما حضر جداد النخل قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : قد علمت أن والدى قد استشهد يوم أحد ، وترك ديناً كثيراً وإني أحب أن يراك الغرماء : قال : « اذهب فبيدر كل تمر على ناحية » ففعلت ، ثم دعوته . فلما نظروا إليه ، كأنهم اغروا بي تلك الساعة ، فلما رأى مايصنعون ، أطاف حول أعظمها بيدرا ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ثم قال « ادع لى أصحابك » فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدى أمانته ، وأنا أرضى أن يؤدى الله عن والدى أمانته ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة ، فسلم الله البيادر كلها ، حتى إني لأنظر إلى البيدر الذى كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، كأنها لم تنقص تمرة واحدة .

وفي رواية : أن أباه ترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود ، فاستنظره جابر ، فأبى أن ينظره ، فكلم جابر النبي صلى الله عليه وسلم ليشفع له إليه ، فجاءه وكلم اليهودى ليأخذ تمر نخله بالذى له فأبى ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، فمشى فيها ، ثم قال لجابر : « جده فأوف له » فجده له بعد ما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين وسقا ، وفضل له سبع عشرة وسقا ، فجاء جابر ليخبره بالذى كان فوجده يصلى العصر ، فلما انصرف أخبره بالفضل . فقال : « أخبر بذلك ابن الخطاب » فذهب جابر إلى عمر فأخبره فقال عمر : لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركن فيها .

وروى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما ، حديث مزود أبي هريرة ، قال ،

أحمد: ثنا يونس ثنا حماد بن زيد عن المهاجر ، عن أبي العالية ، عن أبي هريرة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بتمرات وقلت : ادع الله لي فيهن بالبركة، قال: فصفهن بين يديه قال : ثم دعا فقال لي : « اجعلهن في مزودك ، وأدخل يدك ولا تنثره » قال : فحملت منه كذا وكذا وسقا في سبيل الله، ونأكل ونطعم، وكان لا يفارق حقوي فلما قتل عثمان انقطع من حقوي فسقط » رواه الترمذي عن عمران ابن موسى القزاز ، عن حماد ، بنحوه ، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه الحافظ عبد الغني وغير من طريق أخرى ، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فأصابهم عوز من الطعام فقال : « يا أبا هريرة عندك شيء ؟ » قال : قلت : لا ، إلا شيء من التمر في مزودي ، قال : « جيء به » فجئت بالمزود وقال : « هات نطعا » فجئت بالنطع فبسط ، فأدخل يده فقبض على التمر فإذا هو إحدى وعشرون تمرة، قال : ثم قال : « بسم الله » فجعل يضع كل تمرة ويسمى ، حتى أتى على التمر فقال به هكذا فجمعه فقال: « ادع فلانا وأصحابه » فأكلوا وشبعوا وخرجوا ثم قال « ادع فلانا وأصحابه » فأكلوا وشبعوا وخرجوا ، قال : وفضل تمر فقال لي: « اقعد » فقعدت فأكل وأكلت ، قال : وفضل تمر فأخذه فأدخله في المزود ، فقال : « يا أبا هريرة إذا أردت شيئا فأدخل يدك فخذ ولا تكفأ فيكفأ عليك . قال : فما كنت أريد تمرا إلا دخلت يدي ، فأخذت منه خمسين وسقا في سبيل الله عز وجل ، وكان معلقا خلف ظهري فوقع زمان عثمان ، فذهب .

ورواه من طريق يزيد بن أبي منصور عن أبيه عن أبي هريرة قال : أصبت بثلاث بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت صويحبه وخويدمه ، وبقتل عثمان ، والمزود ، وما المزود !! كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصاب الناس مخمصة ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل من شيء يا أبا هريرة ؟ » فقلت : نعم ، شيء من تمر في مزود . قال : « فائتني به »

فأتيته به ، فأخذ يده ، فأخرج قبضة فبسطها ، ثم قال : « ادع لى عشرة » فأكلوا حتى شبعوا ، فما زال يصنع كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا ، ثم قال : « خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض ، ولا تكفه » .

قال أبو هريرة : قبضت على أكثر مما جئت به ، ثم قال أبو هريرة : ألا أحدثكم عما أكلت منه ؟ أكلت حياة[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطعمت ، وحياة[١] أبى بكر وأطعمت ، وحياة[١] عمر ، وأطعمت ، وحياة[١] عثمان وأطعمت ، فلما قتل عثمان انتهب بيتى وذهب المزود .

وروى الإمام أحمد فى مسنده : ثنا يعلى بن عبيد ، ثنا إسماعيل عن قيس ، عن دكين بن سعيد المدنى قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين وأربعمائة ، نسأله الطعام فقال لعمر : « اذهب فأعطهم » ، فقال : يا رسول الله ما بقى إلا آصع من تمر ما أرى تقيضنى ، قال : « اذهب فأعطهم » ، قال : سمعاً وطاعة ، قال : فأخرج عمر المفتاح من حجزته ففتح الباب ، فإذا شبه الفصيل الرابض من تمر فقال : خذوا ، فأخذ كل منا ما أحب ، ثم التفت وكنت من آخر القوم ، وكأنا لم نرزأ تمرة .

ورواه أبو داود عن عبد الرحيم بن مطرق عن عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم ، عن دكين ، قال أبو عبد الله المقدسى : وإسناده على شرط الصحيح .

فصـــل

وأما النوع الخامس ، تأثيره فى الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له .

ففى صحيح البخارى عن أنس قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم الجبل فقال : « اسكن » وضربه برجله « فليس عليك إلا نبى وصديق وشهيدان » .

(١) أى : مدة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن» .

وفى الترمذى عن على قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يارسول الله » ورواه الحاكم فى صحيحه وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع فقال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا ، فلما واجهنا العدو تقدمته فأعلو ثنية ، فاستقبلنى رجل من العدو ، فرميته بسهم فتوارى عنى ، فما دريت ماصنع ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فولّى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجعت منهزما ، وعلىّ بردتان ، متزراً بإحداها ، مرتديا بالأخرى ، فاستطلق إزارىّ فجمعتهما جميعاً ، ومررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزماً وهو على بغلته الشهباء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لقد رأى ابن الأكوع فزعا » فلما غشوا النبى صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من الأرض واستقبل بها وجوههم فقال : « شاهت الوجوه » فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولّوا مدبرين ، فهزمهم الله .

وفى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى، فلما التقى المسلمون والكفار، وولى المسلمون مدبرين، طفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَلَ الكفار قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة

أن لاتسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى عباس ، ناد أصحاب السمرة » فوالله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ، ياالبيك ياالبيك . قال : فاقتتلوا والكفار ، والدعوة فى الأنصار يقولون : يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بنى الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا حين حمى الوطيس » ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى وجوه الكفار ثم قال: « انهزموا ورب الكعبة » قال فذهبت أنظر . فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ماهو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلا ، وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله ، وقد قال الله تعالى عن يوم بدر (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

وروى ابن إسحاق عن جماعة ، منهم عروة ، والزهرى ، وعاصم بن عمرو وغيرهم قالوا : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، هو وأبو بكر ، ما معهما غيرهما ، وقد تدانى القوم بعضهم من بعض ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ، ما وعده من نصره ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد » ، وأبو بكر يقول : بعض مناشدتك ربك يارسول الله فإن الله سينجز لك ما وعدك من نصره ، وخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة ثم هب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله عزوجل هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (يقول الغبار) » ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعبأ أصحابه وهيأهم وقال : « لا يعجلن منكم بقتال حتى يؤذنه فإذا أكثبكم القوم - يقول قربوا منكم - فانضحوهم عنكم بالنبل » ثم تزاحم الناس ، فلما تدانى بعضهم من بعض ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من حصباء ، ثم استقبل بها قريشاً فنفخ بها وجوههم وقال :

« شاهت الوجوه » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احملوا عليهم يا معشر المسلمين » فحمل المسلمون وهزم الله قريشاً ، وقتل من قتل من أشرافهم، وأسر من أسر منهم .

وفي حديث ابن أبي طلحة الوالبي ، عن ابن عباس قال له جبريل ، « خذ قبضة من تراب » فأخذ قبضة من تراب ، ورمى بها وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين

فصل

النوع السادس من آياته ، تأييد الله له بملائكته ، قال الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، الآية وقال تعالى : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ، وقال تعالى في الخندق : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) ، وقال تعالى في حنين : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) وقال تعالى في الهجرة : (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وقال تعالى في بدر : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) .

وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة ،

ثم مد يديه وجعل يهتف بربه : «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هـذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض» ، فما زال يهتف بربه ماداً يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداءه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه عن منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، فقال : « يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك » فأنزل الله عز وجل : (إذ تستغيثونَ ربَّكُم فاستجابَ لَكُم أنّي مُمدّكُمْ بألفٍ منَ الملائكةِ مُرْدِفِينَ) فأمده الله بالملائكة .

قال أبو زميل : فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة سوط فوقه ، وسوط الفارس يقول : « أقدم حيزوم » فنظر إلى المشركين أمامه ، فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه ، وشق وجهه ، كضربة بالسوط ، فاخضر ذلك أجمع .

فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين، وذكر الحديث

وذكر البخاري في هذا الحديث : فخرج – يعني النبي صلى الله عليه وسلم – وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

وقال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسد مالك بن ربيعة – بعد ما أصيب بصره – يقول : لو كنت معكم ببدر الآن ، ومعي بصري ، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أتمارى ، فلما نزلت الملائكة رآها إبليس ، وأوحى الله إليهم: (أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) ، إن الملائكة تأتي الرجل في صورة الرجل تعرفه وتقول له : أبشروا ، فإنهم ليسوا بشيء ، والله معكم، كروا عليهم .

فلما رأى إبليس الملائكة ، نكص على عقبيه وقال : (إني بريء منكم

إنى أرى ما لا ترون)، وهو فى صورة سراقة .

وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم فإنه على موعد مع محمد وأصحابه ، ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً » .

وفى الصحيحين ، عن سعد بن أبى وقاص قال: رأيت يوم « أحد » عن يمين النبى صلى الله عليه وسلم وعن يساره ، رجلين عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ـ ؟ يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : أصيب سعد يوم الخندق ، رماه رجل من قريش بن العرقة ، رماه فى الأكحل ، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة فى المسجد يعوده من قريب .

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ، ووضع السلاح ، فاغتسل فأتاه جبريل عليه السلام ، وهو ينفض عن رأسه من الغبار ، فقال : « وضعت السلاح ، فوالله ما وضعناه ، أخرج إليهم » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين » فأشار إلى بنى قريظة ، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد ، قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل للقاتلة ، وأن تسبى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم .

وفى بعض طرق البخارى : فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار .

وروى البخارى عن أنس قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل صلوات الله عليه ، حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة .

وفى المغازى من طريق: أن الصحابة رأوا جبريل فى صورة « دحية الكلبى »

وأنه معتم بعمامة أرخى طرفها بين كتفيه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بعثه الله إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ، ويلقى الرعب فى قلوبهم .

وروى البخارى عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر « هذا جبريل ، آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب » .

وفى الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى إليك ربك لتأمرنى بأمرك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » .

النوع السابع : فى كفاية الله له أعداءه ، وعصمته له من الناس ، وهذه فيه آية لنبوته من وجوه :

منها : ــ أن ذلك تصديق لقوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأعرض عن المشركينَ * إنَّا كفيناكَ المستهزئينَ * الذينَ يجعلُونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فسوفَ يعلمون) ، فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين .

وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى

وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْهُمْ ونحنُ له مسلمونَ فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنَّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ) .

فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء المشاقين له من أهل الكتاب ، وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله : (يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ منْ ربِّكَ وإنْ لَمْ تفعلْ فما بلَّغْتَ رسالتَهُ واللهُ يعصمُكَ منَ النَّاس) فهذا خبر عام ، بأن الله يعصمه من جميع الناس .

فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة ، قد وقع كما أخبر ، وفي هذا عدة آيات .

منها : أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة .

ومنها : أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبهم ، وأنه كان وحده جاء هو بمعاداتهم ، وسب آبائهم ، وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، والطعن في دينهم وهذا من الأمور الخارقة للعادة .

والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش ، وعظماء العرب ، وكان أهل مكة أعز الناس وأشرفهم ، يعظمهم جميع الأمم .

أما العرب فكانوا يدينون لهم ، وأما غيرهم من الأمم ، فكانوا يعظمونهم به ، لاسيما من حين ماجرى لأهل الفيل ماجرى ، كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل ، لما ظهر فيهم من الآيات ماظهر .

وهؤلاء بنو إسماعيل ابن خليل الله ، وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله ، وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده ، من إنعام الله عليه النعمة التي ينعم الله بها على غيرهم .

فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت ، ولأنهم أشراف بني إسماعيل . فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ،

واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفى محمداً من بنى هاشم .

وكان قد عاداه أشراف هؤلاء ، كما عادى المسيح أشراف بنى إسرائيل.

وبدّل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وكفى الله رسوله المسيح من عاداه منهم ، ولم ينفعهم نسبهم ولا فضل مدينتهم .

وكذلك كفى الله محمداً من عاداه ، وانتقم منهم ، ولم ينفعهم انتسابهم ، ولا فضل مدينتهم .

فإن الله إنما يثيب بالإيمان والتقوى ، لا بالبلد والنسب ، فقال تعالى : (وكذَّب بهِ قومُكَ وهوَ الحقُّ قلْ لست عليكمْ بوكيلٍ * لكلِّ نبإٍ مستقرٌّ وسوفَ تعلمونَ) ، وقال : (وكأيِّن منْ قريةٍ هيَ أشدُّ قوةً منْ قريتكَ التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) ، وقال : (وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنّةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كل مكانٍ فكفرتْ بأنعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوفِ بما كانوا يصنعون ﴿ ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذَّبوه فأخذهم العذابُ وهم ظالمون) ، وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله من المستهزئين ، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة ، فى الدنيا ، فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم ، الذى أكرم الله نبيه به .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : « هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ » قيل نعم . قال : « واللات والعزى ، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته » ، فما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه . فقيل له : مالك ؟ قال : « إن بينى وبينه لخندقاً من نار ، وهؤلاء أجنحة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً »

وأنزل الله تعالى : (أرأيت الذى ينهى * عبداً إذا صلّى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذّب وتولّى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدعُ ناديه * سندع الزبانية * كلا لاتُطعه واسجد واقترب) ، [العلق ٩ - ١٩] .

وفى الصحيحين من حديث البراء بن عازب ، حديث هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر من مكة إلى المدينة قال فيه سراقة بن مالك بن جعشم ، ونحن فى جدد من الأرض فقلت : يارسول الله أتينا ، قال : « لاتحزن إن الله معنا » ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتطمت فرسه إلى بطنها فقال : « إنى قد علمت أنكما دعوتما على فادعوا لى ، والله لكما أن أرد عنكما الطلب ، فدعا الله فنجا ، فرجع لايلقى أحداً إلا قال : قد كفيتم ماههنا فلا يلقى أحد إلا رده » .

وفى لفظ « فساخ فرسه فى الأرض إلى بطنه ، ووثب عنه فقال : يا محمد ، قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن يخلصنى مما أنا فيه ، ولك على لأعمين على من ورائى » .

وفى الصحيحين عن ابن شهاب ، من رواية سراقة نفسه قال : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره .

فبينما أنا جالس فى مجلس قومى بنى مدلج ، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : ياسراقة ، إنى رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت : ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً ، ثم لبثت ساعة ، ثم قمت فدخلت بيتى ، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت

فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم وعثرت فى فرسى ، فخررت عنها ، فقمت عنها ، وأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام ؛ فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ، فيخرج الذى أكره ، فركبت وعصيت الأزلام ، تقربت بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام . فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر تمام الحديث .

وفى الصحيحين عن جابر قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاة قبل نجد ، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القائلة فى واد كثير العضاه ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رجلا أتانى ، وأنا نائم ، فأخذ السيف ، فاستيقظت وهو قائم على رأسى ، والسيف صلتا فى يده . فقال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، فشام السيف ، فهاهو ذا جالس » ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملك قومه ، فانصرف حين عفا عنه ، فقال : لا أكون فى قوم هم حرب لك .

وفى صحيح الحاكم عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال : كان فلان يجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا تكلم النبى صلى الله عليه وسلم اختلج بوجهه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات »

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كان نصرانى فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فعاد نصرانياً ، فكان يقول : ما يدرى محمد إلا ما كتبت له .

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعله آية » فأماته الله ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه فحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا : مثل الأول ، فحفروا له وأعمقوا ، فلفظته الثالثة ، فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذا .

وروى الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق قال : حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، قد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وفرق جماعاتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

فبينما هم فى ذلك ، إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما أن مر بهم ، غمزوه ببعض ما يقول . قال : فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال : « تسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح » فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ، ليرفأه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : « انصرف انصرف يا أبا القاسم إنصرف راشداً ، فوالله ما كنت

جهولا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان من الغد ، اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم فى ذلك . طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا الذى أقول ذلك » قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بجمع ردائه ، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى ، : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه .

وذكر البخارى بعد حديث عروة عن عبد الله بن عمرو قال : وقال عبدة عن هشام عن أبيه ، قيل لعمرو بن العاص .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : (إنا كفيناك المستهزئين) قال : المستهزئون « الوليد بن المغيرة » و « الأسود بن عبد يغوث الزهرى » و « الأسود بن عبد المطلب » أبو زمعة من بنى أسد بن عبد العزى و « الحارث بن عيطل السهمى » و « العاص بن وائل » فأومى جبريل إلى أكحل الوليد بن المغيرة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما صنعت ؟ قال : كفيته ، وأومى إلى الأسود بن عبد المطلب إلى عينيه ، فقال : ماصنعت؟ فقال كفيته ، وأومى إلى رأس الأسود بن عبد يغوث فقال : ماصنعت ؟ قال : كفيته ، وأومى إلى الحارث السهمى إلى بطنه ، فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته ، وأومى إلى إخمص العاص بن وائل ، فقال : ما صنعت؟ قال: كفيته .

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبله فأصاب أكحله فقطعها ، وأما الأسود بن عبد المطلب ، فعمى فمنهم من يقول : عمى هكذا ، ومنهم من يقول : نزل تحت سمرة فجعل يقول : يا بنى ألا تدفعون عنى ؟ ويقولون : ما نرى

شيئاً فجعل يقول : هلكت ها هو ذا أطعن فى عينى بالشوك فجعلوا يقولون : ما نرى شيئاً فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه . وأما الأسود . فخرج فى رأسه قروح فمات منها . وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات . وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف على حمار، فربض به فى شبرقة يعنى شوكة ؛ فدخلت فى إخمص قدمه فمات وقيل : دخلت فى رأسه شبرقة فمات ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ثنا يونس بن حبيب ، ثنا أبو داود ، ثنا أبو عوانة ، ثنا أبو بشر ، عن سعيد وروى بإسناده عن الربيع ابن أنس ، قال : أراد صاحب اليمن أن يأوى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتاه الوليد فزعم أن محمداً ساحر ، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمداً تعلم أساطير الأولين ، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن وآخر أنه شاعر ، وآخر زعم أنه مجنون ، فأهلكهم الله كل منهم أصابه عذاب سوى عذاب صاحبه ، وذكر تفصيل عذابهم .

وروى مثله عن عكرمة . وقال محمد بن إسحاق ثنا يزيد بن رومان عن عكرمة وغيره من العلماء ، أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبه فمر به الأسود بن عبد المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى ، فمات منها . ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعبه كان أصابه لما مر برجل يريش نبله فخدش رجله وليس بشىء فانتقض فمات ، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى إخمص قدمه فذكر مثل ما تقدم من رواية ابن عباس ورواه أبو زرعة من طرق كثيرة عن جماعة من التابعين . ومن المشهور عند أصحاب السير وغيرهم دعوته على عتيبة بن أبى لهب ، وكان أبو لهب لما عادى النبى صلى الله عليه وسلم أمر ابنيه أن يطلقا ابنتى النبى صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم قبل الدخول ، وقال عتيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تجيئنى ولا أجيئك ، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج فى نفر من قريش ، حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا فأطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ ، قتلنى وهو بمكة وأنا بالشام فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه ، وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم قاموا وجعلوا عتيبة فى وسطهم فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة فقدغه .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم ساجد لا يرفع رأسه حتى انطلق إنسان إلى فاطمة فجاءت وهى جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط » ، وذكر السابع لم أحفظه فوالذى بعث محمداً بالحق ، لقد رأيت الذى سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب ، قليب بدر .

وعنه قال استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، القبلة ودعى على ستة نفر

فذكره ، وفى رواية غير أن أمية بن خلف ، كان رجلا ضخماً فقطعت أوصاله ، فلم يلق فى البئر ، وقال : غيرتهم الشمس ، وكان يوما حارا .

ويدخل فى هذا الباب ما لم يزل الناس يروونه ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه ويذمه ويذم دينه بأنواع من العقوبات ، وفى ذلك من القصص الكثيرة ، ما يضيق هذا الموضع عن بسطه، وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة ، التى تبين كلاءة الله لعرضه وقيامه بنصره ، وتعظيمه لقدره ، ورفعه لذكره ، وما من طائفة من الناس إلا وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولى الألباب ، ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام ، إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ، ويطول الحصار إلى أن يسب العدو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريباً كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقاً لقوله تعالى : (إن شانئك هو الأبتر) .

ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق ، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقى لهم ملكهم .

النوع الثامن : فى إجابة دعوته ، وإجابة الدعاء منه ما تكون إجابته معتادة لكثير من عباد الله كالإغناء والعافية ونحو ذلك .

ومنه ما يكون للمدعو به من خوارق العادات كتكثير الطعام والشراب كثرة خارجة عن العادة ، وإطعام النخل فى العام مرتين ، مع أن العادة فى مثله مرة ، ورد بصر الذى عمى ، ونحو ذلك مما يأتى وما تقدم من أدعيته .

ومعلوم أن من عوده الله إجابة دعائه ، لا يكون إلا مع صلاحه ودينه ، ومن ادعى النبوة لا يكون إلا من أبر الناس إن كان صادقا ، أو من أفجرهم إن كان كاذباً ، وإذا عوده الله إجابة دعائه لم يكن فاجراً بل براً ، وإذا لم

يكن مع دعوى النبوة إلا براً تعين أن يكون نبياً صادقاً ، فإن هذا يمتنع أن يتعمد الكذب ، ويمتنع أن يكون ضالا يظن أنه نبي ، وأن الذى يأتيه ملك ، ويكون ضالا فى ذلك ، والذى يأتيه الشيطان ، فإن هذا حال من هو جاهل بحال نفسه ، وحال من يأتيه ، ومثل هذا لا يكون أضل منه ، ولا أجهل منه ، لأن الله تعالى جعل بين الملائكة والشياطين ، وبين الأنبياء الصادقين ، وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفرق ما لا يحصيه غيره ، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار ، ولأن ما يأتى به الأنبياء من الأخبار والأوامر مضادة من كل وجه لما يأتى به الشيطان ، ومن استقرأ أحوال الرسل وأتباعهم وحال الكهان والسحرة ، تبين له ما يحقق ذلك .

والشيطان الذى يقول لمن ليس بنبى إنك نبى صادق ، والله أرسلنى إليك ، يكون من أعظم الناس كذباً ، والكذب يستلزم الفجور ، فلا بد أن يأمره بما ليس صدقا بل كذبا ، كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جهلة العباد ، وممن يزين له أنه نبى أو أنه المهدى أو خاتم الأولياء ، فكل هؤلاء لا بد أن تأمره الشياطين بإثم ، ولا بد أن يكذب فى بعض ما تخبره به ، تحقيقاً لقوله تعالى : (قل هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كلِّ أفاكٍ أثيم) .

وحينئذ : فمثل هذا لا يكون مع دعوى النبوة من الأبرار الذين عوّدهم الله إجابة دعائهم إجابة خارجة عن العادات ، بل لا يكون مع دعوى النبوة إلا من الأفاكين الفجار ، وإذا كان صادقاً فى دعوى النبوة عالماً بأنه صادق ثبت أنه نبى .

والأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ فيما يبلغونه عن الله باتفاق الناس ، وحينئذ : فكل ما يبلغه عن الله فهو حق ، وهو المطلوب ، ومن كان يأتيه صادق وكاذب ، مثل ابن صياد ومثل كثير من العباد الذين لهم إلهام من الملك ، ووسواس من الشيطان ، فمثل هذا أخبره الشيطان بأنه نبى ، ويقول : أنا أرسلنى الله

فلابد أن يتبين كذبه، ولو ببعض الوجوه، مثل : أن يخبره بكذب فإن مثل هذا الشيطان الذى قال له إنه نبى لابد أن يكذب فيما يخبره ، ومثل إخبار الصادق له بأن هذا كاذب، فإذا أتاه الشيطان بالكذب لابد أن يخبره الصادق الذى يأتيه بما يخالف ذلك ، بخلاف الإخبار بأمور جزئية إذ إخباره بأنه نبى صادق مع أنه ليس كذلك ، يهلكه هلاكا عظيما ، ويفسد على الصادق جميع ما يأتيه به ، لأن ذلك يستلزم أن يصدق ذلك الكاذب ، فى كل ما يخبره به ، إذ قد اعتقد أنه نبى ، وحينئذ فلا يكون عنده كاذبا ، ولا يعرف أنه كاذب فلا يكون مثل ابن صياد ونحوه، ممن يعرف أنه يأتيه صادقا و كاذب ، بل أضل من هؤلاء من يظن أن كل ما يأتيه فهو صادق ، ولهذا كل من كان يأتيه إخبار ملكى صادق ، وأخبار شيطانى كاذب ، فلابد أن يعرف أنه يأتيه كاذب، لأنه تبين له الكذب فيما يخبره به الشيطان الكاذب ، كما هو الواقع ، ولهذا يوجد الكهان يعرفون كذب من يخبرهم كثيراً ، وكذلك العباد الذين لهم خطابات ومكاشفات ، بعضها شيطانى ، وبعضها ملكى ، يتبين له الكذب فيما يأتيهم به الشيطان ، كما هو الواقع فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطانى إلا ولابد أن يخبره بكذب يظهر له أنه كذب ، وحينئذ : فإذا صدق هذا الكاذب فى إخباره النبوة كان مصدقا للكاذب ، ولأن الصادق الذى يأتيه مخبراً له بالصدق ، ناصحاً له ، لابد أن يبين له ذلك فلا يصر على اعتقاده أن من يأتيه صادق ، وهو فى نفس الأمر كاذب ، ولا يعلم أنه كاذب ، إلا من هو أفاك أثيم ، والله تعالى يقول : (هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم) .

فينزلها على الأفاك الأثيم ، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين ، فقد يكون على من ليس بأفاك أثيم ، فإن من لم يكن مدعياً للنبوة ، فيمتنع أن يقره الصادق الذى يأتيه على ذلك ، بل لابد أن يبين له هذا إن جوز ذلك .

فإن الناس تنازعوا : هل يجوز أن يلقى الشيطان على لسان النبي ما ينسخه الله ويمحوه أو لا يجوز ذلك ؟ وعلى كل حال يمتنع أن يقرأ على خطأ .

والمقصود هنا ذكر بعض أدعية النبي صلى الله عليه وسلم التي شوهد إجابتها، وقد تقدم ذكر بعض أدعيته ، مثل دعائه على الملأ من قريش ، فقتلوا «يوم بدر» وألقوا في القليب. ومثل : دعائه على عتيبة بن أبي لهب ومثل دعائه على الذي كذب عليه بأن يجعله آية . ومثل دعائه لما قل الزاد وجمعوه على نطع فكثره الله ببركة دعوته حتى كفى الجيش العظيم في «غزوة تبوك» ومثل دعائه في «غزوة الخندق» فكفى الطعام ، وهو صاع من شعير لألف نفر ، وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر «الحديبية» فكثر ماؤها ، حتى كفى الركب ، وهم ألف وخمسمائة وركابهم .

وقد تقدم دعاؤه الذي ذهب بصره فأبصر ، ودعاؤه في الاستسقاء فما رد يديه إلا والسماء قد أمطرت، ودعاؤه في الاستصحا[1] وإشارته إلى السحاب فقطع من ساعته ، ودعوته على «سراقة بن جعشم» لما تبعهم في الهجرة ، فغاصت فرسه في الأرض ، ودعاؤه «يوم بدر ويوم حنين» وقال الله له يوم بدر : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) وأمثال ذلك .

وفي الصحيحين عن جابر قال لما نزل (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، (أو من تحت أرجلكم) قال : أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) . قال : هاتان أهون أو أيسر .

وفي الصحيحين : عنه صلى الله عليه وسلم قال : «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني

---

(١) الاستصحا : طلب الصحو . ومعنى ذلك انكشاف الغيم ، وإقلاع السماء عن المطر ، وكان ذلك بعد الاستسقاء ، لما عاد الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وشكا إليه كثرة المطر وما فعله بهم من أفاعيل .

اثنتين ، ومعنى واحدة . سألته أن لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليها عدواً من غيرهم فيجتاحهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها فلن يزال الهرج(١) إلى يوم القيامة » . وفى صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال جعل عمى يرجز ويقول :

تالله لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

ونحن من فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا

* وأنزلنْ سكينةً علينا *

فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « من هذا » قالوا ، عامر ، قال: «غفر لك ربك » . قال : وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان يخصه إلا استشهد قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل يانبي الله لولا متعتنا بعامر ؟ . قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم « مرحب » يخط بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبرُ أنى مرحبُ * شاكى السلاح بطلٌ مجرّبُ

* إذا الحروبُ أقبلت تلهب *

قال وبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر * شاكى السلاح بطلٌ مغامرُ

قال : فاختلفا ضربتين فوقع سيف « مرحب » فى ترس عامر ، وذهب عامر يسل سيفه ، فرجع سيفه على نفسه ، فقطع أكحله ، وكانت فيها نفسه ، قال سلمة ، فخرجت فى نفر من أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه . قال : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت : يارسول الله بطل عمل عامر . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

(١) الهرج : القتل .

« من قال ذلك ؟ » قلت : ناس من أصحابك . قال : « كذب من قال ذلك ، بل له أجره مرتين » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قالت أم سليم : يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له. فقال: « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته » وروى البخارى قال دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على أم سليم فأتته بتمر وسمن . فقال: أعيدوا سمنكم فى سقائه ، وتمركم فى وعائه[1] ، ثم قام إلى ناحية البيت فصلى غير مكتوبة ، فدعى لأم سليم وأهل بيتها . فقالت أم سليم . يا رسول الله إن لى خويصة فقال: « ماهى ؟ » قالت خادمك أنس ، قال فما ترك آخرة ولا دنيا إلا دعى به « اللهم ارزقه مالا وولداً وبارك فيه » .

فإنى لمن أكثر الأنصار مالا ، وحدثنى ابنتى أمينة أنه دفن لصلبى إلى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة ، وفى رواية « لمسلم » دعا إلى بثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين وأنا أرجو الثالثة فى الآخرة .

وفى الترمذى وحسنه عن أبى خلدة قال : قلت لأبى العالية سمع أنس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : خدمه عشر سنين ودعى له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان له بستان يحمل فى السنة الفاكهة مرتين ، كان فيها ريحان يجىء منه ريح المسك .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة ، فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقلت يا رسول الله إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام وتأبى على فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهد أم

---

(١) فى رواية : (فإنا صائمون) . وهذا هو الذى دعا النبى إلى رفض (طعام أم سليم) .

أبى هريرة » . فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمى خشف قدمى، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب فقالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأتيته وأنا أبكى من الفرح، فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وقال خيراً، فقلت يا رسول الله: أدع الله أن يحببنى وأمى إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللهم حبب عبدك هذا يعنى أبا هريرة وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهما المؤمنين » فما خلق الله مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى.

وفى الصحيحين عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن ابن عوف أثر صفرة فقال: « ماهذا ؟ » قال يا رسول الله إنى تزوجت امرأة. قال: « كم سقت إليها ؟ » قال: وزن نواة من ذهب. قال: فبارك الله لك أولم[1] ولو بشاة. وفى الصحيحين: أنه لما قدم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه سعد بن الربيع أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، دلنى على السوق فما انقلب إلا بسمن وأقط، ثم تابع الغد، وذكر الحديث، فظهرت بركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ من مال عبد الرحمن، ما قاله الزهرى أنه تصدق بأربعمائة ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس، فى سبيل الله وخمسمائة بعير فى سبيل الله. قال وكان عامة ماله التجارة، وقال محمد بن سيرين: اقتسم نساء عبد الرحمن بن عوف ثمنهن فكان ثلاثمائة وعشرين ألفاً.

وقال الزهرى: أوصى عبد الرحمن، لمن شهد بدرا فوجدوا مائة لكل رجل منهم أربعمائة دينار.

---

(١) أولم: يعنى: اصنع وليمة.

وقال عبدالله بن جعفر حدثتنى أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن باع أرضاً بأربعين ألف دينار، فقسمها فى فقراء بنى زهرة ، وفى المهاجرين وأمهات المؤمنين . وقال محمد بن عمرو بن أبى سلمة أن عبد الرحمن أوصى لأمهات المؤمنين بحديقة قومت بأربعمائة ألف ، وفى الترمذى وصححه ورواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » وكان عمر ابن الخطاب أحبهما إلى الله ؛ فأسلم عمر ، وروى أن الدعوة كانت فى يوم الأربعاء فأسلم يوم الخميس ، وأعز الله به الإسلام ، قال عبد الله بن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . رواه البخارى ، وظهر من عز الإسلام فى إمارته شرقاً وغرباً ، وفتح الشام والعراق ومصر ، وكسر عساكر كسرى وقيصر ، ما تحقق به إجابة الدعوة .

وفى الصحيحين أن ابن عباس وضع للنبى صلى الله عليه وسلم لما أتى الخلاء وضوءاً فقال لما خرج : « من وضع هذا ؟ » فقيل: ابن عباس فقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » وفى رواية قال : ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : « اللهم علمه الكتاب » وفى رواية « الحكمة » وظهرت إجابة دعوته حتى كان يسمى « البحر » .

وقال فيه ابن مسعود لوأدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد، وكان عمر يقدمه ويدخله مع أكابر الصحابة ، وعلم ابن عباس مشهور فى الأمة .

وفى الصحيحين عن جابر قال : كنت أسير على جمل قد أعيا وأردت أن أسيبه قال : فلحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه، ودعا له ، فسار سيرا لم يسر مثله ، وفى رواية فقال لى : « ما لبعيرك ؟ » فقلت عليل . قال : فتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حيزه ، فدعى له فمازال يسير بين يدى الإبل قدامها فقال : برىء بعيرك قلت: بخير قد أصابته بركتك. قال فبعنيه . وذكر الحديث.

وفى الترمذى وغيره ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » وفى لفظ : « اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته » فكان سعد لا يرمى إلا يصيب ، ولا يدعو إلا أجيب .

وروى الحاكم فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه قال : مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى ، وإن كان متأخراً فارفعنى ، وإن كان بلاء فصبرنى ، فقال : « اللهم اشفه ، اللهم عافه » ثم قال « قم » فقمت فما عاد إلىّ ذلك الوجع بعدُ .

وفى الصحيحين عن أم خالد قالت : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة ، فقال : « من ترون نكسوه هذه الخميصة؟ » فسكت القوم فقال : « ائتونى بأم خالد » فأتى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسنيها فقال « ابلى واخلقى » مرتين فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إلىّ ويقول : « يا أم خالد هذا سنا » . والسنا بلسان الحبشة « الحسن » ، فبقيت حتى دكت . وعن أبى زيد عمرو بن أخطب الأنصارى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدن منى » فمسح بيده على رأسى ولحيتى ، ثم قال : « اللهم جمّله وأدم جماله » . قال الراوى عنه : فبلغ بضعاً وثمانين سنة وما فى لحيته بياض إلا نزر يسير ، ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات . رواه الإمام أحمد وقال البيهقى : إسناده صحيح ورواه الترمذى وقال : مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجهى ودعا لى . قال عروة : إنه عاش مائة وعشرين سنة ، وليس فى رأسه إلا شعرات بيض ، وقال حديث حسن .

وقال البخارى فى تاريخه : ثنا يعقوب بن إسحاق بن حنظلة بن حنيفة بن حزيم قال : قال حزيم : يارسول الله ، إنى رجل ذو سن وهذا أصغر بنى فسمت عليه ، قال : « تعال ياغلام » فأخذ بيدى ومسح برأسى وقال : « بارك الله فيك ـ أو بورك فيك » فرأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم فيمسح بيده ويقول :

بسم الله ، فيذهب الورم. وفى رواية : والشاة والبعير، ويذكر عن أبى سفيان ، واسمه مدلوك أنه ذهب به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم فدعا له النبى صلى الله عليه وسلم ، ومسح رأسه بيده ودعا له بالبركة ، فكان مقدم رأسه موضع يد النبى صلى الله عليه وسلم أسود وسائره أبيض ، ذكره أيضاً البخارى فى تاريخه.

وروى أحمد فى مسنده بإسناده عن أبى العلى قال: كنت عند قتادة بن ملحان فى مرضه الذى مات فيه فمر رجل فى مؤخر الدار ، فرأيته فى وجه قتادة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح وجهه قال: وكنت قبل ما رأيته إلا ورأيته كأن على وجهه الدهان .

وفى صحيح البخارى أن عبد الله بن هشام كان يخرج إلى السوق فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان له أشركنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعى لك بالبركة ، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها إلى المنزل ،

وفى مسند الإمام أحمد عن عروة بن أبى قال عرض للنبى صلى الله عليه وسلم جلب فأعطانى ديناراً وقال: أى عروة ائت الجلب فاشتر شاة فأتيت الجلب فساومت صاحبه فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت بهما أسوقهما فلقيني رجل فساومنى فأبيعه شاة بدينار، فجئت بالدينار وجئت بالشاة فقلت يارسول الله هذا ديناركم وهذه شاتكم ، قال « وصنعت كيف ؟ » فحدثته الحديث فقال: «اللهم بارك فى صفقة يمينه » . فلقد رأيتنى أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفاً قبل أن أصل إلى أهلى. رواه الإمام أحمد ، وفى لفظ آخر قال الراوى عنه : فكان لو اشترى التراب لربح فيه . رواه البخارى عن أهل الدار عنه .

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع أن رجلا أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله ، فقال له : « كل بيمينك » . قال لا أستطيع. قال: « لا استطعت، ما منعه إلا الكبر » قال: فما رفعها إلى فيه .

وروى مالك فى موطئه عن زيد بن أسلم عن جابر عن عبد الله السلمى قال:

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى أنمار ، قال جابر : فبينما أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : هلم يارسول الله إلى الظل ، فقال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جابر : فقمت إلى غرارة لنا فالتمست فيها فوجدت فيها جرو قثاء فكسرته ثم قربته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « من أين لكم هذا ؟ » قلنا : خرجنا به من المدينة ، قال : وعندنا صاحب لنا نجهزه يذهب يرعى ظهرنا : فجهزته ، ثم أدبر ، يذهب إلى الظهر وعليه ثوبان له قد خلقا[1] فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أماله ثوبان غير هذين؟ » فقلت : بلى يارسول الله ، ثوبان فى العيبة كسوته إياهما . قال : « أدعه فيلبسهما » ثم ولى يذهب فدعوته فلبسهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماله ضرب الله عنقه أليس هذا خير له ؟ » فسمعه الرجل فقال يارسول الله فى سبيل الله . فقال : « فى سبيل الله » فقتل الرجل فى سبيل الله ، ورواه أبو زرعة عن سعيد بن سليمان عن الليث عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء عن جابر .

فصـــــل

فى الطرق التى يبين بها أن هذه الأخبار تفيد العلم .

وهذه الأخبار : منها ما هو فى القرآن ، ومنها ، ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبع الماء من أصابعه ، وتكثير الطعام ، وحنين الجذع ، ونحو ذلك فإن كلا من ذلك تواترت به الأخبار ، واستفاضت ونقلته الأمة جيلا بعد جيل ، وخلفاً عن سلف ، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها ، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيراً من القرآن ، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيراً من آيات القرآن ؟ وأكثر ممن

---

(١) يقال ثوب خلق ، إذا كان قديما ممزقا .

سمع ونقل أنه كان يسجد فى الصلاة سجدتى السهو ، وممن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها. بل مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها.

وأما هذه الآيات فنقلها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة ، وذلك أن آيات الرسول كان كثيراً منها يكون بمشهد من الخلق عظيم فيشاهدون تلك الآيات ، كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبع الماء من بين أصابعه ، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها، ولم يتركوا فيها قطرة ، فكثر حتى روى العسكر ، وكما شاهد العسكر فى «غزوة ذات الرقاع» الماء اليسير لما صبه جابر فى الجفنة وامتلأت ، وملأ منها جميع العسكر ، وكما شاهد الجيش فى رجوعهم من «غزوة خيبر» المزادتين مع المرأة، وقد ملئوا كل وعاء معهم، وشربوا وهى ملأى كما هى ، وكما شاهد أهل خيبر وهم ألف وخمسمائة الطعام الذى كان كربضة الشاة فأشبع الجيش كلهم ، وكما شاهد الجيش العظيم وهم نحو ثلاثين ألفاً فى تبوك ، العين لما كانت قليلة الماء فكثر ماؤها ، حتى كفاهم ، وشاهدوا الطعام الذى جمعوه على نطع ، فأخذوا منه حتى كفاهم. وكما شاهد أهل الخندق، وهم أكثر من ألف كثرة الطعام فى بيت جابر ، بعد أن كان صاعاً من شعير ، وعناقاً ، فأكلوا كلهم بعد الجوع ، حتى شبعوا وفضلت فضلة .

وكما شاهد الثمانون نفساً كثرة الطعام كما أكلوا فى بيت طلحة. وكما شاهد الثلاثمائة كثر الماء لما توضئوا من قدح والماء ينبع من بين أصابعه حتى كفاهم الوضوء، وكذلك وليمة زينب كانت ثلاثمائة فأكلوا من طعام فى تور من حجارة وهو باق ، فظن أنس أنه أزيد مما كان وكانوا يتداولون قصعة من غدوة إلى الليل ، يقوم عشرة ويقعد عشرة ، كما فى حديث سمرة بن جندب ، وأهل الصفة لما شربوا كلهم من اللبن القليل وكفاهم، وفضل ، وكانوا ينقلون ذلك بينهم وهو مشهور ، ينقله بعض من شاهده إلى من غاب عنه ، وكان

استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمة ، أعظم من تواتر سجود السهو في الصلاة ، فإن هذا إنما كان مرات قليلة ، ولم يحضره إلا المصلون خلفه لتلك الصلاة ، وكذلك نقلهم لنصب الزكاة وفرائضها فإن هذا إنما سمعه منه طائفة قليلة ، ونقلوه .

وكذلك حكمه بالشفعة فيما لا يقسم ، وقضاؤه بأن دية الخطأ على العاقلة، وقضاؤه بأن الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ونهيه عن نكاح الشغار ، وتحريمه لطلاق الحائض ، وطلاق الموطوءة قبل أن يتبين حملها ، وأن المعتقة تحت عبد يثبت لها الخيار ، وتوريث الجدة السدس ، ونهيه أن تنكح المرأة على عمتها وخالتها ، وقوله فيما سقت السماء العشر ، وما سقى بالدوالي والنواضح نصف العشر ، وأمثال ذلك .

وإنما سمعها طائفة من الأمة هم أقل بكثير ممن شاهد آياته ، ثم إن الأمة متفقة على نقل ذلك ، وهذه الأحكام متواترة عنه معلومة بالاضطرار من دينه .

فإذا كان مثل هذه لأمور تواتر في الأمة ، واتفقت على نقله ، فكيف بما كان أشهر وأظهر ، عند من عاينه ، وكان علم الذين رأوه به ، أظهر من علمهم بهذه الأحكام وقد نقلوا ذلك إلى من غاب عنهم ، فإنه قطعاً يجب أن يكون تواتر هذه الآيات في الأمة أعظم وأظهر ، ولهذا لا يكاد يوجد مسلم إلا وقد عرف كثيراً من هذه الآيات ، وسمعها ونقلها ، إلى غيره ، بخلاف كثير من الأحكام المتواترة عنه، المتفق على نقلها عند العلماء ، فإن كثيراً من الناس لا يعرفها ، ولا سمعتها ، وإذا قال القائل : هذه مما تتوافر الهمم والدواعي على نقلها ، فلو كانت موجودة لتوافرت الهمم والدواعي على نقلها ، ولو كان كذلك لتواترت . قلنا : وكذلك هي ولله الحمد، توفرت الهمم والدواعي على نقلها ، أكثر مما توفرت الهمم والدواعي على نقل أكثر آيات الأنبياء قبله ، وأكثر مما توفرت الهمم والدواعي على نقل الأخبار العجيبة من سير الملوك والخلفاء ، فإن من تدبر نقل هذه الآيات وجد شهرتها في

كل زمان ، وظهور الأخبار بها أعظم من شهرة ما ينقل آيات الأنبياء ، وسير الملوك والدول التي جرت العادة بتوفر الهمم والدواعي على نقلها . فإن مثل هذا يجب في كونه متواترا أن يتواتر عند كل أحد ، من الناس ، فإن أكثر ما تواتر عند كل أمة من أحوال متقدميها ، قد لا يسمعه كثير من الأمم ، من غيرهم فضلا عن تواتره عندهم ، حتى إن كثيرا من الأمم الذين لا يعرفون الأنبياء قد لا يكونون سمعوا بأسماء الأنبياء ، ولا بأخبارهم فضلا عن تواترها عندهم ، وأكثر أتباع الأنبياء لم يتواتر عندهم من أخبار الملوك وسيرهم ، ما تواتر عند غيرهم ، حتى إن أكثر المسلمين ، لم يسمعوا بأسماء خلفاء بني أمية وبني العباس ، وأسماء وزرائهم ونوابهم : وقوادهم ، وبالحروب التي جرت بينهم ولا يعرفون الوقائع العظيمة من الحروب التي كانت بين المسلمين وأعدائهم ، مثل يوم أجنادين ، ويوم مرج الصفر ، ويوم فحل ، ويوم اليرموك ، ومثل يوم الحرة ، ويوم مرج راهط ، وفتنة ابن المهلب ، وفتنة ابن الأشعث ، والقرا مع الحجاج ، وحرب مصعب بن الزبير مع المختار بن أبي عبيد ، وفتنة المنصور مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين بالمدينة ، ومع أخيه محمد بن إبراهيم بالبصرة ، ومثل جسر أبي عبيدة ، ويوم القادسية ؛ بل وحربهم مع أهل الردة مع أتباع طليحة الأسدي ، ووفد براحة ومثل حديقة الموت ، مع أتباع مسيلمة الكذاب ، ولا يعرفون أن المسلمين فتحوا قبرص ، ولا حاصروا القسطنطينية ، مرتين ، مرة في زمن معاوية ومرة في زمن بني مروان ، وكذلك الفتن التي كانت بين المسلمين لا بل أكثر العامة لم يسمعوا بأبي مسلم صاحب الدعوة ، وبعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، وما جرى لهما من الحروب مع عساكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولم يسمعوا أيضا بدخول عبد الرحمن بن هشام إلى الأندلس وما جرى له فيها ، ولا بالفتنة التي بين ابني الرشيد ، الأمين والمأمون .

مع أن هذه الأمور هي متواترة عند أهل العلم بالسير ، وأخبار الناس

والتواريخ وظهور هذه الآية التي هي دلالة النبوة وأعلامها ، مشهور بين الأمة عامتها وخاصتها ،في كل زمان أعظم من ظهور هذه الأخبار المتواترة،فهي أحق أن تجعل متواترة من هذه ،وقلة هذه الآيات من خاصة أهل العلم،وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسير ، وكتب الأصول والفقه التي توجد فيها هذه الأخبار أصح نقلا باتفاق أهل العقل والعلم من كتب التواريخ المرسلة، فإن تلك كثير من أخبارها منقطع الإسناد ، فيها من الأكاذيب مالا يحصيه إلا الله، وإن كان أصل القصة قد يكون متواتراً ، وهذه الآيات المشهورة في الأمة كثير من أجناسها متواتر عند العامة ، وكثير من آحادها متواتر عند خاصة أهل العلم، بل الفقهاء والمتكلمون أو أكثرهم لا يعرفون عدد مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قاتل فيها أعداءه ، وهي وقائع مشهورة، كل منها متواتر تواتراً ظاهراً عند أهل العلم مثل يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، وغزوة بني المصطلق ، وغزوة خيبر وفتح مكة ، ويوم حنين ، وحصار الطائف .

فكثير من أهل العلم فضلا عن العامة ، وإن كانوا سمعوا بهذه الأسماء أو بعضها ، فلا يعرفون أيها كانت قبل الآخر،ولا يعرفون بأي بقعة كانت تلك الغزاة بل ولا يعرفون من كان العدو فيها، ولا كيف كانت ، بل أكثر العامة لا يميزون بين بدر وحنين ، بل يقول قائلهم يوم بدر وحنين،ويظنون أن ذلك يوم واحد ، وأنها غزاة واحدة ، ولا يعرفون أنها غزاتان ، بينهما نحو ست سنين ، كانت بدر في السنة الثانية من الهجرة ، وكانت حنين في السنة الثامنة بعد فتح مكة،وأن بدراً مكان بين مكة والمدينة ، شامي مكة ، ويماني المدينة ، وحنين واد قريب من الطائف ، شرقي مكة ، وإنما قرن بينهما في الإسم ،لأن الله أنزل فيها الملائكة وأيد بها نبيه والمؤمنين ، حتى غلبوا عدوهم . مع قوة العدو في بدر ،ومع هزيمة أكثر المسلمين أولا بحنين، وامتن الله بذلك في كتابه في قوله : (ولقد نصرَكُمُ الله ببدرٍ وأنتُمْ أذِلّةٌ فاتّقوا الله لعلّكُم تشكرونَ)

وفى قوله : (ويومَ حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرضُ بما رحبت ثم وليتم مدبرينَ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنينَ وأنزل جنوداً لم تروها) حتى بعض أكابر أئمة الفقهاء المشهورين قال له صاحبه لما أنكر عليه طلب علم السير . تسكت وإلا سألتك قدام الناس أيها كانت قبل ، بدر أو أحد ، فإنى أعلم أنك لا تعلم ذلك ، مع أنه من المتواتر الذى لا يستريب فيه من له أدنى معرفة بالأخبار ، أن أحداً كانت بعد بدر ، وفى بدر انتصر المسلمون على الكفار ، ويوم أحد استظهر الكفار ، بل وكثير من علماء المسلمين الأكابر ، لا يعلمون ما هو متواتر عند أهل الكتاب ، بل وعند غيرهم من علماء المسلمين ، مثل خراب بيت المقدس مرتين ، ومجىء بخت نصر إلى بيت المقدس أولا ، والله سبحانه ذكر فى القرآن المرتين فقال . (وَقضينا إلى بنى إسرائيلَ فى الكتابِ لتفسدُنّ فى الأرض مرتين ولتعلُنّ علواً كبيراً * فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً أولى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خلال الدِّيار وكان وعدا مفعولا * ثم رَدَدْنا لكم الكرّةَ عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم أكثر نفيرا * إن أحسنتُم أحسنتُم لأنفُسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعدُ الآخرةِ ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجدَ كما دخلوه أول مرةٍ وليتبّروا ما علوا تتبيرا) وكانت الأولى بعد سليمان ، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح لما قتلوا يحيى بن زكريا . الذى يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمدان .

وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن بخت نصر هو الذى قدم الشام لما قتل يحيى بن زكريا ، وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب ، وعند من له خبرة من علماء المسلمين ؛ باطل ، والمتواتر أن بخت نصر هو الذى قدم فى المرة الأولى وكذلك كون شعيب النبى كان حمو موسى عليه السلام ، كما تقوله طائفة من الجهال ، والمتواتر عند أهل الكتاب ، وعند علماء المسلمين من الصحابة والتابعين

وغيرهم، خلاف ذلك وعند النصارى من أخبارهم أخبار علمائهم وملوكهم المتواترة مالا يعرفه المسلمون واليهود، وعند المسلمين من أخبار علمائهم وملوكهم المتواترة مالا يعرفه أكثر الأمم، بل عند كل طائفة من المسلمين، من أخبار شيوخهم وأمرائهم وبلادهم المتواترة، مالم يسمع به غيرهم، وليس هذا بمنزلة من ادعى خبراً لم يكن يعرف فى الذين شاهدوا تلك القضية، كما لو ادعى مدع أن النبى صلى الله عليه وسلم حج بعد الهجرة أكثر من حجة، وأنه كان يصوم شهر رمضان بمكة، أو أنه كان بمكة أذان، أو أنه كان فى عساكره وعساكر خلفائه دبادب وبوقات، أو أنه كان يؤذن للعيدين، أو أنه كان يخطب للعيدين قبل الصلاة، أو أنه كان يصلى بالمدينة أكثر من عيد[1]، أو أنه كان يصلى فى السفر أربعا، أو أنه صلى بمنى صلاة عيد النحر، أو أنه نص على على بن أبى طالب رضى الله عنه، أو غيره بالخلافة نصاً ظاهراً مشهورا، أو أنه عزل أبا بكر عن الإمارة، فى الحجة وولى عليا، أو أنه صلى بهم فى مرض موته غير أبى بكر، ونحو ذلك من الأخبار التى يعرف أنها كذب وباطل، لتواتر نقيضها، ولأنها لو كانت صحيحة لكانت مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله واشتهاره، ومع أنه لم يكن له ذكر فى الزمن المتقدم.

وكذلك ما ينقله كثير من أهل الجهل مثل ما يجعلونه من معجزات الرسول أو غيره، ولا يوجد منقولا عند أهل العلم بأحواله، بل يكذبون ناقله، مثل قول كثير من العامة أن الغمام كان يظله دائماً، فهذا لا يوجد فى شىء من كتب المسلمين المعروفة عند علمائهم، ولا نقله عالم من علمائهم، بل هو كذب عندهم، وإن كان كثير من الناس ينقله، وإنما نقل أن الغمامة أظلته لما كان صغيرا، فقدم مع عمه إلى الشام تاجراً ورآه بحيرا الراهب، ومع هذا فهذا لا يجزم بصحته، وكذلك

---

(١) يعنى: أن النبى لم يصل العيد فى مسجده بالمدينة، إلا مرة واحدة - بسبب المطر - بخلاف سائر الأعياد. فقد كان يصليها بالجبانة خارج المدينة.

ما ينقله بعضهم من أنه كان إذا وطىء أثر قدمه فى الحجر وفى الرمل لم يكن يؤثر فهذا لم ينقله أهل العلم بأحواله ، ولا واحد منهم بل هو كذب عليه .

وكذلك ما ينقله طائفة من الناس ، من كثرة القتل بحروبه ، والمغازى الكثيرة التى يذكرها مثلها صاحب الكتاب الذى سماه ، بتنقلات الأنوار ، ويقال له البكرى ، فهذا لما كان أكثرها لا يوجد فى كتب المسلمين المعروفة ، ولا نقلها علماؤهم ، بل تواتر ما يخالفها ، كانت كذبا ظاهرا عند أهل العلم بأحواله ، وإن كان كثير من الناس الجهال بأحواله ، قد يصدق بها .

ومثل ما ينقله طائفة من الناس ، أنه كان فى غزاة خيبر ، نصب على بن أبى طالب يده ليمر الجيش عليها وأن البغلة مرت عليها ، فقال لها : قطع الله نسلك فانقطع نسلها ، فهذا ليس فى شىء من كتب أهل العلم بأحواله ، ولا نقل ذلك واحد منهم ، وإنما ينقل ذلك من هو معروف بالكذب ، أو جاهل ، ولهذا كان هذا من الكذب الذى يقطع بكذبه علماء المسلمين ، ويعلمون أنه تواتر نقيضه ، وأنه لم يكن فى غزوة خيبر بغلة واحدة ، ولم يكن بمكة ولا بالمدينة بغلة إلا بغلته التى أهداها له المقوقس النصرانى ، ملك مصر والإسكندرية ، وإنما أهداها له بعد فتح خيبر ، لما كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى الإسلام وهو إنما أرسل إلى ملوك الطوائف ، بعد الحديبية وخيبر ، لما رجع من خيبر ، ويعلمون أن البغلة لم تزل مقطوعة النسل ، لم يكن لها نسل قط .

وكذلك ما ينقله بعض الكذابين ، من أن طائفة من أهل البيت سبوا ، وأركبوا جمالا فنبت لها سنامان ، وأنها البخاتى ، فهذا مما اتفق أهل المعرفة بالأخبار عنه . على أنه كذب ، ولم يسب المسلمون قط فى وقت من الأوقات أحداً من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، لا فى خلافة بنى أمية ، ولا فى خلافة بنى العباس ، والجمال البخاتى مازالت هكذا ، لم يتجدد لها السنام فى الإسلام

كما قال صلى الله عليه وسلم ، لما ذكر مايحدث النساء بعده ، قال: على رءوسهن كأسنمة البخت .

وكذلك ما نقله طائفة من أهل العلم ، من أن الشمس ردت لما فاتت عليا صلاة العصر ، لكون النبي نام في حجره صلى الله عليه وسلم ، وجعل بعضهم هذا من المعجزات ، وليس هذا الحديث في شيء من كتب المسلمين الذين يعتمدون على ما فيها من المنقولات ، لا الصحاح ولا المسانيد ، ولا التفسير ولا المغازى ، ولا السير ولا غير ذلك ، بل بيّن أهل العلم بالحديث أن هذا كذب ، وليس له إسناد واحد صحيح متصل ، بل غايته أن يروى عمن لا يعرف صدقه ولم يروه إلا هو مع توفر الهمم والدواعي على نقله ، فعلموا أنه كذب وهذا باب واسع يبين أن علماء المسلمين يميزون في المنقولات بين الصدق والكذب ، فيردون الكذب وإن كان فيه من فضائل نبيهم وأعلامه ، وفضائل أصحابه وأمته ما هو عظيم ، ويقبلون الصدق وإن كان فيه شبهة وإشكال ، وقد يحتج به المنازعون لهم وكان عبد الرحمن بن مهدى يقول أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم ، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم ، ومن ذلك مغازى حمزة الشائعة بين كثير من جهال الناس ، لا يوجد في شيء من كتب العلم ، بل قد تواتر عند أهل العلم أن حمزة لم يشهد غزوة إلا غزوة بدر ، ثم غزوة أحد وقتل يوم أحد شهيداً ، قتله وحشى بن حرب وهذا متواتر عند أهل العلم ، وما كان من هذه الآيات والمعجزات في الصحاح ، بل وكثير مما لم يخرجه البخارى ومسلم ، فهذه عامتها مما يقطع أهل العلم بالحديث بصحتها ، ويثبتون ذلك ، وهذا عندهم مستفيض متواتر ، وإن كان بعض ذلك قد لا يتواتر ويستفيض عند غيرهم ، فإن الأخبار قد تتواتر وتستفيض عند قوم دون قوم ، بحسب عنايتهم بها وطلبهم لها ، وعلمهم بمن أخبر بها ، وصفاتهم ومقاديرهم وما دل من الدلائل على صدقهم وأهل العلم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وسيرته ، وأسباب نزول القرآن ومعانيه وغير ذلك ، لهم بهذا من العلم ، وعندهم به من اليقين ، ما لا يوجد مثله

لغيرهم ، كما أن أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وداود وغيرهم ، عند كل طائفة من أقوال متبوعهم ونصوصه وأخباره ما يقطعون به ، وإن كان غيرهم لا يعرف ذلك .

والأطباء عندهم من كلام أبقراط ، وجالينوس ، ومحمد بن زكريا ، وأمثالهم ما يقطعون به ، وغيرهم لا يعلم ذلك .

وأهل الهيئة عندهم من كلام بطليموس ، والرصد الممتحن المأموني ، وثابت بن قرة ، وأبي الحسين الصوفي ، مايعلمونه وغيرهم لا يعلم ذلك ، بحيث يجزم هؤلاء وهؤلاء بكثير من مذاهب أهل الطب والحساب وتجارب الأطباء وأرصاد أهل الحساب وغيرهم لا يعلم ذلك .

وعند أهل الكتاب كاليهود من أخبار هلال وسماى وغيرهما من شيوخهم مالا يعلمه غيرهم ، وعند النصارى من أخبار الحواريين ، ومن أخبار قسطنطين ، والمجتمع الأول بنيقيه والمجتمع الثاني والثالث والرابع والخامس ، وغير ذلك من مجامعهم ، وأخبارهم ، ما يقطع به علماؤهم وإن كان غيرهم لا يعلمون ذلك .

وأهل العلم ، بأيام الإسلام يعلمون من سيرة أبي بكر وعمر وعثمان ومغازيهم كوقعة أجنادين ، ومرج الصفر وغيرهما في خلافة أبي بكر ، وكوقعة اليرموك ، وجسر أبي عبيدة وهزيمة الفرس ، وفتح مصر ، وغير ذلك مما كان في زمن عمر بن الخطاب ، ما يقطعون به وإن كان غيرهم لا يعرفون ذلك .

وكذلك ما كان بعد هؤلاء من سير الملوك ، وحوادث الوجود ، بل أهل العلم بالرجال ، يعلمون من حال آحاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، كعبد الله ابن عمر وابن عباس ، وأبي سعيد ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن مسعود وأنس مالك وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسعيد بن المسيب والحسن البصري ، وعلقمة والأسود ، وغير هؤلاء مما لا يعلمه غيرهم .

وأهل العلم بالنحو ، يعلمون من حال سيبويه ، والأخفش ، والمبرد ، والزجاج ، والفراء ، والكسائي ، ما لا يعلمه غيرهم .

والقراء يعلمون من قراءة أبي عمرو وابن كثير ، وحمزة والكسائي ، وابن عامر ، ويعقوب بن إسحاق ، والأعمش ، وخلف بن هشام ، وأبي جعفر ، مالا يعلمه غيرهم .

فإذا كان آحاد أهل العلم من أهل الفقه أو الطب أو الحساب أو النحو أو القراءات ، بل وآحاد الملوك يعلم الخاصة من أمورهم ، مالا يعلمه غيرهم ، ويقطعون بذلك ، فكيف بمن هو عند أتباعه أعلا قدراً من كل عالم ، وأرفع منزلة من كل ملك ، وهم أرغب الخلق في معرفة أحواله ، وأعظم تحريا للصدق فيها ، وأرد للكذب منها ، حتى قد صنفوا الكتب الكثيرة في أخبار جميع من روى شيئاً من أخبـاره ، وذكروا فيها أحوال نقلة حديثه ، وما يتصل بذلك من جرح وتعديل ، ودققوا في ذلك وبالغوا مبالغة لا يوجد مثلهـا لأحد من الأمم ، ولا لأحد من هذه الأمة إلا لأهل الحديث ، فهذا يعطى أنهم أعلم بحال نبيهم من كل أحد بحال متبوعه وأنهم أعلم بصدق الناقل وكذبه من كل أحد ، بصدق من نقل عن متبوعهم وكذبه .

فإذا كان أولئك فيما ينقلونه من متبوعهم متفقين عليه جازمين بتصديقه ، لا يكون إلا صدقاً ، فهؤلاء مع جزمهم بالصدق واتفاقهم على التصديق ، أولى إذ لا يكون ماجزموا بصدقه إلا صدقا .

وعامة أخبار الصحيحين ، مما اتفق علماء الحديث على التصديق بهـا ، وجزموا بذلك وإنما تنازعوا في أحاديث قليلة منهـا ، وعامة ماذكرناه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم التي في الصحاح ، هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم ، التي يجزمون بصدقها ، ليست من موارد نزاعهم ، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء ، ويعلم خبرة أهله من كان خبيراً بهم ، فهذه طريقان في تصديق هذه الآثار .

التواتر العام . والتواتر الخاص .

الطريق الثالث : التواتر المعنوى وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف، فإن الناس قد يسمعون أخباراً متفرقة ، بحكايات يشترك مجموعها فى أمر واحد ، كما سمعوا أخباراً متفرقة تتضمن شجاعة عنترة وخالد بن الوليد ، وأمثالهما ، وتتضمن سخاء حاتم ومعن بن زائدة وأمثالهما ، وتتضمن حلم الأحنف بن قيس ومعاوية بن أبى سفيان وأمثالهما ، وتتضمن شعر امرىء القيس والنابغة ولبيد وأمثالهم من المتقدمين وشعر الفرزدق وجرير وعمر بن أبى ربيعة وأمثالهم ، من المولدين، وشعر أبى نواس والمتنبى وأبى تمام وأمثالهم من المحدثين، بل وسمعوا أقوالا وفتاوى متفرقة ، تتضمن فقه مالك والثورى والليث بن سعد وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من العلماء وأخبار متفرقة تتضمن العدل وحسن السيرة ، من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما ، من ولاة الأمر، وسمعوا أخباراً متفرقة تتضمن الزهد، عن مثل الحسن البصرى والفضيل بن عياض وعامر بن عبد الله ومالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من الزهاد ، وسمعوا أخباراً متفرقة تتضمن معرفة أبقراط وجالينوس ونحوهما بالطب ، فيحصل بمجموع الأخبار علم ضرورى بأن الشخص موصوف بذلك النعت وإن كان كل من الأخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم ، وإن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولة بالتواتر .

ومن هذا الباب العلم القطعى بالإيمان والموت ونحو ذلك ، مما يحصل به استفاضة توجب العلم القطعى كعلم الناس بأن خديجة وعائشة ونحوهما من أمهات المؤمنين ، وأن فاطمة وزينب من بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وأن أبا بكر وعثمان وعلى تولوا الخلافة بعده ، وأن أبا بكر وعمر دفنا فى حجرته .

وإذا عرف هذا فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هى أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء ، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة هؤلاء ،

وهي كلها تتضمن أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يعرف نظيره عن أحد من الناس وعلم المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه عن آيات موسى وعيسى وغيرهما ، فإن نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل فضلا عن غيرهما من أخبار الأنبياء ، فإن التوراة لم تكن جميعها محفوظة لعموم بني إسرائيل ، كما يحفظ القرآن عامة المسلمين ، وبعد خراب بيت المقدس قل من يحفظها جداً ، حتى تنازع الناس في تواتر نقلها .

وكذلك الإنجيل نقلته أقل بكثير من نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قال النصارى هؤلاء كانوا صالحين وكان لهم آيات أيضاً ، كما يذكرونه من آيات الحواريين ، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوهم صالحون ، ولهم من الآيات أعظم مما للحواريين ، وغيرهم من الأمم ، وفيهم من كان يحمل العسكر على الماء ، من كان يشرب السموم القاتلة ، ومن يحيي الله الموتى بدعوته ، ومن يكثر الطعام والشراب ، وكتب كرامات الأولياء فيها من ذلك أعظم مما عند أهل الكتاب وهم ينقلون أخبار الأنبياء والصالحين ، من كتب عندهم : مثل كتاب أخبار الحواريين ، وكتاب سفر الملوك ، ونحو ذلك ، وما يذكرون من حجة في صحة نقلها إلا وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه والتابعين أظهر وأقوى .

الطريق الرابع : أن يقال هذه الآيات التي ذكرنا بعضها ، كانت تكون بحضر من الخلق الكثير ، كتكثير الطعام يوم الخندق ، فإن كان أهل الخندق ، رجالهم ونساؤهم ألوفا .

وكذلك نبع الماء من بين أصابعه ، وفيضان البئر بالماء يوم الحديبية ، وكانوا يومئذ ألفاً وخمسمائة ، وكلهم صالحون ، من أهل الجنة ، لا يعرف فيهم من تعمد كذبة واحدة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك تكثير الماء والطعام في غزوة خيبر ، كانوا ألفاً وخمسمائة ،

وفي تبوك كانوا ألوفاً مؤلفة ، وكان بعض من حضر هذه المشاهدة ينقل هذه الآيات قدام آخرين ممن حضرها ، وينقلها لأقوام ، فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك ، ويصدق بعضهم بعضاً ويحكي هذا مثل ماحكى هذا ، من غير تواطىء وتشاعر ، وأدنى أحواله أن يقره ولا ينكر عليه روايتها ، ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التي جبل الله عليها عباده ، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة من اعتياد الصدق وتحريه ، واعتقادهم أن ذلك واجب ، ومن شدة توقيهم الكذب على نبيهم ، وتعظيمهم ذلك إذ قد تواتر عنه عندهم أنه قال: من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يقرون من يعلمون أنه كذب عليه ، ومن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له ، وكذب عليه ، فقد علموا أنه كذب عليه ، فلما اتفقوا على الإقرار على ذلك وعلى تناقله بينهم من غير إنكار أحد منهم لذلك. علم قطعاً أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك ، كما هم متفقون على نقل القرآن والشريعة المتواترة ، وإن كان جمهورهم ليس منتصباً لتلقين القرآن ، بل هذا يلقنه وهذا يسمعه من هذا الملقن ، ولا ينكر بعضهم على بعض القراءة ، وهذا يعلم هذا الصلاة ، أن الظهر في الحضر أربع ركعات ، والمغرب ثلاثاً والفجر ركعتان ، وهذا يقرهذا . فلما كان بعضهم يقر بعضاً على نقل ذلك علم اتفاقهم على نقل ذلك ، وهذا غاية التواتر .

فكذلك ما نقلوه من شرائعه ومن آياته وبراهينه ، يبين ذلك أن ما أنكره بعضهم رده على الآخر ولم يوافقه عليه ، وإن كانوا متأخرين عن زمن الصحابة ، فكيف بالمتقدمين ، كتنازعهم : هل كان يجهر بالبسملة أو لا يجهر بها ؟ وهل كان يداوم على القنوت في الفجر أو كان يقنت أحياناً للنوازل أو قنت مرة ثم تركه ؟ ، فهذا من أهون الأمور وأيسرها ، إذ كلهم متفقون على صحة صلاة من قنت ، وعلى صحة صلاة من لم يقنت ، ومن جهر ومن خافت ، ولكن

لما تنازعوا فيما فعله الرسول تنازعوا فى الحكم فعلم بذلك أن ما كان مشهوراً فى الأمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكره أحد من علمائها كانت الأمة متفقة على نقله ، كنقلهم للقرآن وللشرائع الظاهرة المشهورة ، وإن نقل ذلك أعظم من نقل سائر أخبار الأنبياء والعلماء والملوك والزهاد .

وكذلك حجة فإنهم كلهم متفقون على ما تواتر عنه من أنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة ، وهى التى تسمى حجة الوداع ، وإنما عاش بعدها نحواً من ثلاثة أشهر ، وأنه لما حج أمر أصحابه كلهم إلا من ساق الهدى منهم إذا طاف بالبيت وبين الصفا والمروة ، أن يحل من عمرته وأنه لم يعتمر هو ولا أحد من أصحابه الذين حجوا معه بعد الحج إلا عائشة وحدها ، وإنه هو نفسه لم يحل من حجه ولا أحد ممن ساق الهدى معه ، وإنما اشتبه على بعضهم بعض ألفاظه ، أو بعض الأمور التى تخفى على أكثر الناس ، وكان الصحابة ينقلون تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرادهم بالتمتع أنه قرن بين العمرة والحج ، فظن بعض الناس أنهم أرادوا أنه أخر الإحرام بالحج إلى أن قضى العمرة ، وروى بعض الصحابة أنه أفرد الحج فظن بعض الناس أنه حج واعتمر بعد الحج ، وهذا لم يقله أحد من العلماء : بل اتفقوا على أنه لم يعتمر بعد الحج ، وروى بعض الصحابة أنه قرن ، فظن بعض الناس أنه طاف طوافين وسعى سعيين ، وهذا لم ينقله أحد عنه وكان من أسباب غلط كثير من الناس ، أنهم كانوا يستعملون تلك الألفاظ فى معان غير ما استعملته فيها الصحابة ، فغلط بعض الناس على بعض الصحابة ، وأما ما فعله فى الحج مشهوراً فهو متواتر لم يختلف فيه النقل ، ولا علماء النقل ومن تدبر هذه الطريق أفادته علماً يقينياً قطعياً بصحة هذه الآيات عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الطرق المتقدمة ، فإنا قد ذكرنا أن ما كان الناس أحوج إلى معرفة يسر الله دلائله للناس ، أعظم من تيسيره غيره ، وحاجة الخلق إلى تصديق الرسول أشد من حاجتهم إلى جميع الأشياء ، إذ بذلك تحصل سعادتهم

فى الآخرة ونجاتهم من العذاب وبه يحصل صلاح العباد فى المعاش والمعاد .

الطريق الخامس: أن نقول ما من صنف من أصناف العلماء إلا وقد تواتر عندهم من الآيات ما فيه كفاية ، فكتب التفسير مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، وكتب الحديث مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، وكتب السير والمغازى والتواريخ مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، وكتب الفقه مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، وإن لم يكن هـذا مقصوداً منها ، وإنما المقصود من الأحكام ، لكنهم فى ضمن ما يروونه من الأحكام يروون فيها من الآيات ما هو متواتر عندهم ، وكتب الأصول والكلام مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقينى ، فكيف بما ينقله كل طائفـة من هذه الطوائف ، وهـذه الطريق وغيرها مثل طريق الإقرار والتصديق وطريق التواتر المعنوى ، وطريق تصديق أهل الحديث والعلم بها وغير ذلك ، يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة ، وهذا أقل ما يكون ، ويستدل بها على تواتر جنس جنس كتواتر تكثير الطعام ، وتواتر تكثير الطهور والشراب ، وعلى تواتر نوع نوع منها كتواتر نبع الماء من بين أصابعه ، وتواتر إشباع الخلق العظيم من الطعام القليل ، وتواتر شخص شخص منها كتواتر حنين الجذع إليه وأمثال ذلك ، وكلما أمعن الإنسان فى ذلك النظر ، واعتبر ذلك بأمثاله ، واعتبر وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ، ازداد بذلك علماً ويقيناً ، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع ما يطلب من العلم بالأخبار المتواترة ، فليس فى الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه ، أظهر من ذلك وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين ، وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم ، أظهر من العلم به وأبين ، ونقله أكمل وأتم ، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود الآن ، كالعلم بالبلاد البعيدة ، كعلم أهل

الشام بالعراق وخراسان ، والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق وخراسان والهند، وعلم أهل خراسان بالشام والعراق ومصر، وعلم أهل الهند بالعراق والشام ، وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض ، إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وماهم عليه من الدين وما ينقلونه عن نبيهم من آياته وشرائعه ، أظهر من علمه بهذا كله .

وهذا مما يبين أنه ليس فى الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقاً لقوله تعالى : (هو الذى أرسلَ رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهرهُ على الدين كله وكفى بالله شهيداً) .

وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه ، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل على محمد من آياته ، التى هى الأدلة ، وشرائعه التى هى المدلول ، المقصود بالأدلة ، فهذا قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً على كل دين ، والحمد لله رب العالمين .

كما أنه مامن دليل عقلى يستدل به على مدلول ، إلا والأدلة على آيات الرب أكثر وأكثر والحمد لله رب العالمين .

الطريق السادس : أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة فى ذكر آياته وبراهينه المنقولة فى الأخبار ، وجردوا لذلك كتباً مثل كتاب دلائل النبوة ، للفقيه الحافظ أبى بكر البيهقى ، وقبله دلائل النبوة : للشيخ الحافظ أبى نعيم الأصبهانى ، وقبله دلائل النبوة : لأبى الشيخ الأصبهانى ولأبى القاسم الطبرانى ، وقبلهما دلائل النبوة للامام الحافظ أبى زرعة الرازى ، وللشيخ المصنف أبى بكر عبد الله بن أبى الدنيا ، وللامام : أبى إسحاق الحربى ، والمصنف : الحافظ أبى جعفر الفريابى ، وما صنفه الشيخ العالم : أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه

المسمى بالوفا فى فضائل المصطفى، وما صنفه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى دلائل النبوة ، وهؤلاء وغيرهم يذكرون مايذكرون بالأسانيد المعروفة ، والطرق المتعددة الكثيرة المتواترة ، وهؤلاء منهم من يميز فيما يذكره من الأحاديث بين ما فى صحيحى البخارى ومسلم ، وما فى غيرهما وإن كان صحيحاً أيضاً ، كالبيهقى وابن الجوزى والمقدسى .

ومنهم من يذكر ذلك جميعه بأسانيده ، وقد يتكلم على الأسانيد والطرق ويذكر تعددها من غير احتياج منه إلى أن يذكر مارواه البخارى ومسلم ، كأبى زرعة شيخ مسلم ، وأبى الشيخ وأبى نعيم وغيرهم .

وآخرون يذكرون مايذكرونه معزواً مسنداً إلى من رواه وإن لم يذكروا إسناده كما يفعله القاضى عياض السبتى فى كتابه المسمى بالشفا بتعريف حقوق المصطفى .

ومنهم من يقرر ذلك بشهرة ذلك ، وطرق أخرى يبين صحته كما يفعله كثير من النظار ، كالقاضى عبد الجبار والجاحظ والماوردى القاضى ، وسليم الرازى الفقيه ، وأضعاف هؤلاء . وهذه الكتب فيها من الأحاديث المتضمنة لآيات نبوته ، وبراهين رسالته ، أضعاف أضعاف الأحاديث المأثورة فيما هو متواتر عنه .

مثل حجة الوداع وعمرة الحديبية ، وصد المشركين له ، ومصالحته إياهم ، وحله هو وأصحابه بالحديبية ، ورجوعهم ذلك العام ، وفتح خيبر عقب ذلك ، وعمرة القضية ، وعمرة الجعرانة ، ومثل حصاره لأهل الطائف قبل ذلك ، وفتح مكة قبل ذلك ، ومثل غزوة النصارى عام تبوك ، وإرساله جيشاً لغزوهم بمؤتة من مشارق الشام ، قريباً من الحصن المسمى بالكرك ، ومثل غزو اليهود بخيبر وغزو اليهود قبل ذلك لمن كان عند المدينة مثل بنى قينقاع ، والنضير وقريظة ، ومثل : إرساله أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ، ونبذه العهود ، ومناداته أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومثل هجرته مع أبى بكر

وغلامه عامر بن فهيرة ورجل ثالث كان دليلا لهم، ومثل ما تواتر عنه أنه كان يصلى بالمسلمين يومى العيدين الفطر والنحر، بالمصلى خارج المدينة لم يكن يصلى العيد فى مسجده الآمرة، نقل أنه صلى فى المسجد لأجل المطر، ولم يكن على عهده يصلى أحد بالمدينة صلاة العيد إلا خلفه، لم يكن يصلى صلاتى عيد على عهده أبى بكر وعمر وعثمان وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب لما كثر الناس وضعف أقوام عن الخروج إلى الصحراء استخلف من يصلى بهم فى المسجد، وكما تواتر عنه أنه كان يصلى الجمعة بأذان وإقامة، لا يؤذن لها إلا إذا قعد على المنبر، وكذلك كان الأمر على عهد أبى بكر وعمر، فلما كان فى أثناء خلافة عثمان كثر الناس فأمر بالنداء الثالث، على دار قريبة من المسجد من جهة المشرق يقال لها الزوراء، وكما تواتر أن مسجده بناه باللبن، وسقفه بجذوع النخل وكانت حجر أزواجه قبلى المسجد، وشرقيه، فلما كثر الناس زاد فيه عمر، ثم زاد فيه عثمان، وبناه بالقصة والحجارة، ثم فى إمارة الوليد أمر نائبه عمر ابن عبد العزيز أن يشترى الحجر، ويزيدها فى المسجد فدخلت حجرة عائشة التى دفن فيها هو وأبو بكر وعمر فى المسجد، من حينئذ، وإنما كانت فى حياته خارجة عن مسجده إلى سنة إحدى وتسعين، وقال فى مرض موته: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »، يحذر ما فعلوه. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

وكما تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، وكما تواتر عنه أنه كان يضحى فى عيد الأضحى، بل تواتر عند أهل العلم بأحواله تروكه المشهورة[(١)]، كما تواترت أفعاله المشهورة، فتواتر أنه لم يكن يؤذن للعيدين ولا للكسوف ولا للاستسقاء، وأنه صلى فى الكسوف ركعتين فى كل ركعة صلاة طويلة، وتواتر أنه كان يطوف بالبيت سبعاً، ويصلى ركعتين بعد الطواف

---

(١) يعنى السنن التركية .

وكان يسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ولم يكن يصلى بعد السعى بالصفا والمروة ركعتين ، وتواتر أنه كان يواصل وينهى أصحابه عن الوصال ، ويقول: «إنى لست كهيئتكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» ، وأنه لم يفرض صوماً إلا صوم شهر رمضان ، ولم يفرض الحج على المستطيع إلا مرة فى العمر ، وأنه فرض الصلوات الخمس على كل بالغ عاقل ، إلا الحائض والنفساء ،وأنه منع الحائض والنفساء من الصوم والصلاة ، وكان الحيض يؤمرون بقضاء الصوم ، ولا يؤمرون بقضاء الصلاة ، وأنه أمر بالاغتسال من الجنابة للصلاة ، وأمر بالوضوء عند الصلاة لمن بال أو تغوط ، أو خرج منه ريح أو مذى ، وأنه رخص فى الاستجمار بثلاثة أحجار ، ونهى عن الاستجمار باليمين، ونهى عن الاستجمار بالعظم والبعر، وقال إنها زاد إخوانكم من الجن، وأنه لم يكن يجمع المسلمين ، لا على سماع كف ، ولا دف، ولا رقص ، ولا صعق ، لا هو ولا أصحابه ، عند سماع القرآن ، بل كانوا توجل قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، وتدمع عيونهم ، وإنه لم يكن على عهده وعهد خلفائه ، أبى بكر ، وعمر ، وعثمان وعلىّ . تعاد امرأة مطلقة إلى زوجها بنكاح ، يقصد به التحليل ظاهراً ، بل لعن المحلل والمحلل له ، لأن ذلك ربما فعل سراً ، وأنه أمر بعيادة المريض ، وتشييع الجنازة ، وإفشاء السلام ، وإجابة الدعوة ، وأنه كان يصلى على الميت ، وكان يكبر عليه أربع تكبيرات ، وقد كان أحياناً يكبر سبعاً ، أو خمساً ، وأمر بتغسيل الميت ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه ، وأنه حرم كل مسكر ، وحرم بيع الدرهم بالدرهمين ، والدينار بالدينارين ، والصاع بالصاعين ، من : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب . وأنه أمر بصدقة الفطر ، صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير . لما كان أهل المدينة يقتاتون التمر والشعير ، وأنه أباح الدواء . وقال : تداووا عباد الله ، فإنه لم ينزل داء ، إلا نزل له دواء إلا السام . والسام : الموت ، وأنه كان يتداوى بالحجامة وغيرها .

وكذلك ما تواتر عنه من أحاديث ، سوى ما فى القرآن فى صفة الجنة والنار ، وذكر العرش، والملائكة ، والجن ، وإرساله إلى الثقلين ، وما ذكره من أسماء الله ، وصفاته ، وما أخبر به من فتنة الإنسان فى قبره ، ومن عذاب القبر ونعيمه ، ومن دخول من يدخل النار من أهل الكبائر من أمته ، وخروجهم من النار بشفاعته وشفاعة غيره ، ومن ذكر حوضه وما أخبر به من رؤية الله يوم القيامة ، ومحاسبة الله للعباد وغير ذلك .

وما تواتر عنه من أنه كان يرسل رسلا إلى الملوك يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وبما جاء به ، كما أرسل إلى ملوك اليمن ، وإلى ملوك الشام ، ومصر ، والعراق ، وإلى ملوك المشركين واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، بعد ما حارب اليهود مرة بعد مرة .

وما تواتر عنه من كان إذا سافر من المدينة استخلف خليفة ، وأنه كان يستكتب كتاباً يكتبون له ، وأنه كان يركب الخيل ، والإبل ، والبغال ، والحمير وأنه رجم الزانى المحصن ، مرة بعد مرة ، وقطع يد السارق ، وجلد شارب الخمر ؛ وأنه كان يصلى فى السفر الرباعية ركعتين ركعتين .

وأنه جمع بين الصلاتين : الظهر والعصر بعرفة، وفى مزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، وأنه كان يصلى بمنى ركعتين ركعتين ، وأنه أمر المسلمين كلهم فى حجة الوداع أن يحلوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة إلا من ساق الهدى، فإنه أمره أن يبقى على إحرامه ، وأنه هو لم يحل من إحرامه ، ولا اعتمر بعد الحج لا هو ولا أحد ممن حج معه إلا عائشة ، لكونها كانت حائضاً . وأن شهر رمضان فرض فى السنة الثانية من الهجرة ، فصام تسع رمضانات .

وأنه كان له أربع بنات وثلاثة بنين ، وكان يكنى بأكبر أولاده القاسم فيدعى أبا القاسم ، وأنه تزوج بنتى أبى بكر وعمر ، وأنه زوج عثمان بابنتيه ، وزوج علياً بنتاً ، وأنه آمن به من أعمامه حمزة والعباس ، ولم يؤمن به أبو لهب

ولا أبو طالب ، مع أن أبا طالب كان يحوطه ويذب عنه .

وأنه استخلف أبا بكر ليصلى بالناس لما مرض وثقل عن الصلاة لم يصل أحد بإذنه مع حضوره غير أبى بكر فى مرض موته ولما ذهب ليصلح بين بنى عمرو بن عوف ، وأنه كان من خواص أصحابه، العشرة أبو بكر، وعمر وعثمان، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغير هؤلاء ، كعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة، وأبى طلحة ، وأبى أيوب ، وأسيد بن حضير ، وأضعاف هؤلاء .

وأنه بايعه تحت الشجرة ألف وأربعمائة ، أو خمسمائة ، وهم الذين أنزل الله فيهم : (لقد رضِيَ الله عن المؤمنين إذْ يُبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السَّكِينة عليهم) .

وأنه لما قدم المدينة بنى مسجداً كان فى شماليه صفة يأوى إليها الغرباء ، وأن المهاجرين والأنصار كلهم أسلموا طوعاً بلا رغبة، ولا رهبة، وأن المهاجرين آذاهم الكفار إيذاء عظيماً حتى هاجر منهم طائفة إلى الحبشة عند النجاشى ، وأن النجاشى آمن به ، وأنه لما مات أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بموته يوم مات ، وأنه صلى عليه بأصحابه فى المصلى كما يصلى على الميت الحاضر .

وأنه كان يخطب يوم الجمعة قبل الصلاة ، ويخطب فى العيد بعد الصلاة ، وكان يؤذن للجمعة وللصلوات الخمس ولا يؤذن للعيدين ، ولا لغير الصلوات الخمس ، وأن بلالا كان يؤذن له بالمدينة هو وابن أم مكتوم الأعمى ؛ وكان سعد القرظ يؤذن لأهل قباء ، وأقام أبا محذورة يؤذن لأهل مكة .

وكما تواتر عنه وعن خلفائه، أنهم لم يكونوا بمنى يصلون صلاة عيد، بل يرمون جمرة العقبة وينحرون ، كما أمر أهل الأمصار أن يصلوا ، ثم ينحروا إلى أمثال هذه الأمور مما هى متواترة عند كل من كان عالماً بأحواله .

ومنها ما هو المتواتر عند جميع الأمة . ومنها ماهو متواتر عند جمهورها، وليس منها شيء إلا وتواترت آياته وبراهينه التي تذكر في القرآن أعظم من تواتر هذه الأمور والكتب المصنفة في آياته وبراهينه الخارجة عن القرآن فيها من الأحاديث أضعاف أضعاف مايوجد من الأحاديث في مثل هذه الأمور، بل كل صنف من أصناف آياته من الأحاديث أضعاف مايوجد في مثل ذلك ، كتواتر إخباره بالغيوب المستقبلة ، وتواتر تكثيره للطعام مرات متعددة ، وتواتر تكثيره للطهور والشراب مرات متعددة ، إما بنبع الماء بين أصابعه، وإما بفيضان الينبوع الذي يضع فيه بعض آثاره ، وإما بفيضان الماء من الوعاء الذي يبارك فيه والماء باق بحاله لم ينقص .

فالأحاديث المتواترة في مثل هذه الأنواع أكثر من الأحاديث المتواترة في مثل تلك الأمور ، التي هي متواترة.

ولهذا كان شهرة هذه في الأمة ، وفي أهل العلم بأحواله ، أعظم من شهرة كثيرة من تلك الأمور .

والمقصود هنا أن تواتر أنواع آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من أمور كثيرة ، وهي متواترة عند الأمة ، أو عند علمائها وعلماء أهل الحديث، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة بالقرآن ، فإن تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع ، حتى بينوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على عشرات ألوف من الآيات ، وهذان غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به .

وهذه الأجناس الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها ، وغير صفات أمته ، وغير ما بذل من المعرفة بسيرته وأخلاقه ، وصفاته ، وأحواله ، وهذا كله غير نصر الله وإكرامه لمن آمن به . وعقوبته ، وانتقامه ممن كفر به ، كما فعل بالأنبياء المتقدمين ، فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن بشراً الإحاطة به إذا كان الإيمان به واجباً على كل أحد .

فيبين الله لكل قوم ، بل لكل شخص من الآيات والبراهين مالا يبين لقوم آخرين ، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول ، ولكل قوم ، ولكل إنسان من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق مالا يعرف أعيانها قوم آخرون ، قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) والضمير في ذلك عائد إلى القرآن عند المفسرين والسلف وعامة العلماء ، كما يدل على ذلك القرآن بقوله : (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

وقد قيل : إن الضمير عائد إلى الله ، والصواب : الأول كما قال : (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) وهذا هو القرآن . ثم قال بعد ذلك : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

ثم قال : (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) .

فأخبر أنه سيرى الناس في أنفسهم ، وفي الآفاق من الآيات العيانية المشهودة والمعقولة ما يتبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق ، فيتطابق العقل والسمع ، ويتفق العيان والقرآن ، وتصدق المعاينة للخبر .

وإذا كان القرآن حقاً لزم كون الرسول الذي جاء به صادقاً ، وأن الله أنزله وأنه يجب التصديق لما أخبر والطاعة لما أوجب وأمر ، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيده ، وأسماءه ، وصفاته وإثبات النبوات وإثبات المعاد ، وهذه هي أصول العلم والإيمان التي علقت بها السعادة والنجاة .

فصل

وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول ، وقبل مولده ، وبعد مماته ، لا تختص بحياته فضلا عن أن تختص بحال دعوى النبوة ، أو حال التحدي ، كما ظنه بعض أهل الكلام ، بل لابد من آيات في حياته تدل على صدقه

تقوم بها الحجة، وتظهر بها المحجة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» .

وقد قال تعالى فى سورة إبراهيم : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)، إلى قوله :(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله)، إلى قوله : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم: أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) الآية .

فأخبر أن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أتتهم رسلهم بالبينات ، فعلم أنهم جاءوا بالبينات .

وقال : (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) .

وقال تعالى : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً وعاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيرا، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا) .

فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسلهم إليهم وأهلكهم . فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة .

وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) .

فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم ، لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء ، وأنه أرسلهم بالبينات .

والزبر : جمع زبور ، وهى الكتب ، فإن منهم من أنزل عليه كتاب ، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذى قبله .

وقال تعالى : (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) .

أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير ، كما قال : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، وهذا من عطف الخاص على العام ، لاختصاصه بوصف يختص به كقوله : (وملائكته وجبريل وميكال) ، فإن الزبر من البينات والكتاب المنير من الزبر ، وهو كقوله : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) . فإن الهدى من العلم ، والكتاب المنير من الهدى .

وبين أنه أخذ الذين كفروا بربهم ، وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين .

ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال : (فقد كذب الذين من قبلهم) ، وهذه السورة مكية .

ثم أنزل فى آل عمران وهى مدنية فى سياق الآيات التى فيها تسلية الرسول والمؤمنين به ، وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم أحد وغيره فقال : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل

لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أى يخوفكم أولياءه كما قاله جمهور العلماء .

ثم قال : (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً) . وسياق الكلام فى بيان أن الكفار لا يضرون الله ولا عباده المؤمنين ، بل ضررهم على أنفسهم وأن ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء ، إلى أن قال : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ، الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل إن جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) [سورة آل عمران ١٨١ - ١٨٣]

بين سبحانه أن هذا القول منهم مع أنه كذب فلم يقولوه إلا دفعاً للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك ، إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات والقربان الذى تأكله النار ، ومع هذا قتلوهم ، والكلام فى مثل هذا الجنس الذى يوالى بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك .

ولهذا يخاطبهم بصيغة الخطاب كقوله : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) إلى قوله : (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) .

فالخطاب لجنس بنى إسرائيل وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا .

ثم قال : (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) .

فحذف هنا الفاعل و بنى الفعل للمفعول، إذ المقصود هنا : تسلية الرسول وتعزيته لاذكر عقوبة المكذبين فلهذا كانت هذه أخص من تلك .

فصـــل

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم ، فهـذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم ، كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر ، وإهلاك قوم صالح بالصيحة ، وإهلاك قوم شعيب بالظلة ، وإهلاك قوم لوط بقلب مداينهم ورجمهم بالحجـارة ، وكإهلاك قوم فرعون بالغرق .

وقد ذكر الله هذه القصص فى القرآن فى غير موضع ، وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم ، كما ذكره فى سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال: (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) .

ثم ذكر قصة إبراهيم وقال فى آخرها : (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) .

وكذلك ذكر مثل ذلك فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ، ومن لسـان الصدق بالثناء والدعاء لهم ، ولمن آمن بهم كما قال تعالى فى قصـة نوح : (وتركنا عليـه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) .

وكذلك فى قصة إبراهيم :(وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم) أى تركنا هذا القول الذى يقوله المتأخرون وكذلك فى قصة موسى وهرون : (سلام على موسى وهرون ، وسلام على إلياسين) ، وكذلك فى قصة إبراهيم قال تعالى :(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) ..

وقال فى قصة فرعون : (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) .

ولهذا قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : (فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

فأخبر أن العاقبة للمتقين ، ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة ، ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة ، كما قال عن أهل النار : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) .

كما ذكر الله الطريقين فى قوله : (ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) .

ثم قال : (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) .

ثم قال : (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

وقال تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

وقال تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم

رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون).

وقال تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فـكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب) .

وقال تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله قد خلت فى عباده وخسر هنالك الـكافرون) .

وقال لما قص قصص نوح، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط، وشعيب، وموسى فى سورة هود : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد، وما ظلمناهم ولـكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

ولما ذكر قصة لوط فى سورة الصافات قال : (وإنـكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون؟) ، وفى سورة الحجر : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لبسبيل مقيم ، إن ذلك لآية للمؤمنين) .

ثم قال : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) ، والإمام المبين : هو الطريق المستبين الواضح .

بين سبحانه : أن هذه وهذه كلاهما بسبيل الناس، يرونها بأبصارهم فيعلمون

بذلك ما فعل الله بمن كذب رسله وعصاهم ، ودلالة نصر الله للمؤمنين ، وانتقامه من الكافرين ، على صدق الأنبياء من جنس دلالة الآيات والمعجزات على صدقهم . فكون هذا فعل لأجل هذا ، أو كون ذاك سبب هذا هو مما يعلم بالاضطرار عند تصور الأمر على ما هو عليه ، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية ، وانشقاق القمر عند سؤال مشركي مكة آية ، وأمثال ذلك .

والسؤال المشهور يورد في هذا الموضع على قول من ينفي التعليل في أعمال الله ، أو يجوز على الله كل فعل ؟ حيث قيل لهم على أصلكم لا يفعل الله شيئاً لأجل شيء ، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة ، لأجل تصديق الرسول ، ولم عاقب هؤلاء لتكذيبهم له ؟ ولم أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به إذا كان لا يفعل شيئاً لشيء عندكم ، وقالوا لهم أيضاً : إذا جوزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب ، ويقال لهم أيضاً : أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة أو خبر الأنبياء ، فقبل العلم بصدق النبي لا يعلم شيء بخبره ، والعادة إنما تكون فيما تكرر ، كطلوع الشمس ، ونزول المطر ونحو ذلك ، والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتاداً .

فيقال في جوابه : هذا السؤال إن كان متوجهاً فإنما يقدح في قول هؤلاء الذين يقولون لا يفعل شيئاً لأجل شيء ، ويجوزون عليه فعل كل شيء ممكن لا ينزهونه عن فعل من الأفعال ، وليس عندهم قبيح وظلم إلا ما كان ممتنعاً ، مثل جعل الشيء موجوداً معدوماً ، وجعل الجسم في مكانين ، ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة في إبطال مذهبهم ، وقالوا قولهم يقدح في العلوم الضرورية ، ويسد باب العلم بصدق الرسل ، قالوا إذا جوزتم أن يفعل كل شيء فجوزوا أن تكون الجبال انقلبت ياقوتاً والبحار لبناً ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه ، وجوزوا أن يخلق المعجزات على يد الكذابين ، وليس المقصود هنا الجواب عن هؤلاء ببيان فساد قولهم ، ولكن المقصود : أن السؤال إن كان

متنوجها ، فإنما يقدح في قول هؤلاء ، لا يقدح فيما علم بالاضطرار من دلالات الآيات المذكورة على حال هؤلاء وهؤلاء ، وأن الله سبحانه وتعالى نجى موسى ونصره لصدقه ، ونبوته ، وإيمانه ، وأهلك فرعون لتكذيبه .

وكذلك نصر محمداً ومن اتبعه على كذبة من قومه ، ونصر نوحاً على من كفر به ، ونصر المسيح على من كذبه ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين ، كما قال تعالى : (إنا لننصرُ رُسلنا والذين آمنوا في الحياةَ الدُّنيا ويوم يقوم الأشهادُ) وقال : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون) ، كما لا يقدح فيما علم بالاضطرار من أن الله ينزل المطر في إبانه لسقى المزارع ، وأنه يسوق النيل لسقى أرض مصر ، وأنه جعل أعضاء الإنسان بما فيها من المنافع ، كالبطش باليدين ، والمشى بالرجلين ، والنظر بالعينين والسمع بالأذنين ، والنطق باللسان ، وجعل ماء العين ملحاً لكونها شحمة ، والملوحة تمنعها أن تذوب ، وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج في الدماغ ، وماء الفم عذباً ليطيب الطعام والشراب ، وجعل ماء البحر مالحاً لبقاء الأنام ، فإنه لو كان عذباً فيموت فيه من الحيوان العظيم ، فيفسد الريح فيموت الآدميون والبهائم بهذه الريح ، إلى ما لا يحصى من حكمة الله المشهودة في خلقه .

ونفاة التعليل يقولون نحن نعلم أن هذا مقارن لهذا بحكم العادة التي أجراها الله وإن لم يخلق شيئاً لشيء ، وكذلك من نفى الأسباب مع نفى التعليل أيضاً يقولون نحن نعلم أنه يخلق هذا عند هذا لا به ، فاقتران المعجز بالتصديق من هذا الباب عندهم لكن يبقى عليهم ، أن هذا لا يعلم إلا بالعادة ولا عادة فلا جرم رجعوا إلى فطرتهم من أن هذا أمر معلوم بالاضطرار وإن كان مناقضاً لأصلهم الفاسد ، وضربوا له مثلا بالملك الذي أظهر ما يناقض عادته لتصديق رسوله .

لكن يقال لهم : الملك يفعل فعلاً لمقصود ، فأمكن أن يقال : إنه قام

لم يصدق رسوله ، وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئاً لشيء ، فلم يبق المثل مطابقاً ، ولهذا صاروا مضطربين بين هذا الموضع تارة يقولون : المعجز دل على الصدق، لئلا يفضي إلى تعجيز الرب ، فإنه لا دليل على الصدق إلا خلق المعجز ، فلو لم يكن دليلا لزم أن يكون الرب غير قادر على تصديق الرسول الصادق وهذه طريقة الأشعري في أكثر كتبه ، وأحد قوليه ، وسلكها القاضي أبو بكر أحياناً وأبو إسحاق الاسفرائيني ، وأبو بكر بن فورك ، وأبو محمد ابن اللبان ، وأبو علي بن شاذان ، والقاضي أبو يعلى وغيرهم .

والثاني قالوا : نحن نعلم بالاضطرار أنه فعل هذا لأجل التصديق كالمثل المضروب ، وهذا هو القول الآخر وهي طريقة أبي الحسن الأشعري في أماليه، وهي طريقة أبي المعالي وأتباعه كالرازي وغيره ، وتنازعوا هل يمكن خلق ذلك على يد كذاب ؟ .

فقيل : لا يمكن ، لأنه لو أمكن لجاز وقوعه ، وقيل : بل هو مقدور ، لكن نعلم أنه لا يفعله ، كما نعلم أنه لا يفعل كثيراً من الخوارق المقدورات ، كقلب الجبل ياقوتاً ، والبحر زئبقاً .

قالوا : فنحن نجوز أشياء ونعلم بالضرورة أنه لا يفعلها ، فلا يلزم من كونها مقدورة ممكنة أن لا يعلم انتفاء وقوعها ، بل قد علم عدم وقوعها بالاضطرار، وإن كنا نقول : إنها ممكنة مقدورة .

وظهور المعجزات على يد الكذاب في دعوى النبوة من هذا الباب عندنا. وقالوا : المعجز علم على صدق الأنبياء فيمتنع أن يكون الدليل غير مستلزم المدلول عليه ، وهذا القول حق، لكن منازعوهم يقولون : هو يستلزم نقيض ما نفوه من كون الله يخلق شيئاً لشيء ويخلق شيئاً بشيء ، وما قالوا من كونه يجوز عليه فعل كل شيء ، وكان ما ذكروه من الحق دليلا على أن الخلق يعلمون

ما يعلمونه من حكمة الرب ومراده بما يخلقه لأمر آخر ، وأنه سبحانه منزه عن أن يفعل شيئاً ، لا يجوز منه فعل كل شيء .

وهم يقولون هنا : قد يكون الشيء ممكناً جائزاً مع العلم بأنه غير واقع ، كانقلاب الجبال ياقوتاً ، والبحر زئبقاً ، وموت أهل البلد كلهم في لحظة ، ومصير الأطفال علماء حكماء في لحظة واحدة .

وعلى هذا الجواب : يعتمدون كثيرا كما يذكره القاضي أبو بكر، والقاضي أبو يعلى ، وأبو المعالي والرازي وغيرهم ، ثم إنهم يقولون في المثل : إنه علوم ضرورية ، كالعلم بوجوب الواجبات ، وامتناع الممتنعات ، وجواز الجائزات ، فالممتنعات : كانقلاب دجلة دماً ، وأمثال ذلك من الأمور العادية ، فيجعلون العادات واجبة تارة وممتنعة أخرى ، مع أنه لا سبب يوجب لا هذا ولا هذا .

ويقولون : نعلم أن هذا جائز ممكن لا يتوقف على سبب ولا له مانع كالآخر ، ثم نعلم أن هذا واقع ، وهذا غير وقع لمجرد العادة ، مع أن خرق العادة ليس له عنده ضابط ، بل كل ما يخرق من العادات معجزات الأنبياء ، فيجوز أن يكون عندهم للولي وللساحر .

والفرق بينهما عندهم : التحدي أو عدم المعارضة ، وكذلك المتفلسفة الملاحدة الذين يقولون : أسباب الآيات القوى الفلكية ، والقوى النفسانية والطبيعية ، وهذه كلها مشتركة عندهم بين الأنبياء والسحرة ، لكن النبي يقصد الخير ، والعدل ، والساحر يقصد الشر ، والظلم .

وكذلك أولئك الذين وافقوا جهماً على أصله في القدر ، لا فرق عندهم بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة ، لكن الولي مطيع لله ، والساحر غير مطيع لله .

هذا عمدة هؤلاء النفاة للحكمة والأسباب في أفعال الله تعالى .

وجمهور الناس يخالفونهم ويقولون : هذا القول فاسد ، بل نفس تصوره

كاف فى العلم بفساده ، فإنه إذا تماثل هذا وهذا من كل وجه ، فمن أين يعلم وجود هذا أو وجوبه ، وعدم هذا أو امتناعه ·

وإذا قيل : مستندى العادة . قيل له : منازعوك يقولون : هـذا باطل من وجهين :

أحدها : أنك أنت تجوز انتقاض العادة ، وليس لانتقاضها عندك سبب تختص به ، ولا حكمة انتقضت لأجلها ، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء والأولياء والسحرة وغير ذلك ، ولهذا قلتم ليس بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحرة فرق إلا مجرد اقتران دعوى النبوة ، والتحدى بالمعارضة مع عدم المعارضة ، مع أن التحدى بالمعارضة قد يقع من المشرك ، بل ومن الساحر فلم يثبتوا فرقاً يعود إلى جنس الخوارق المفعولة ، ولا إلى قصد الفاعل والخالق ولا قدرته ولا حكمته .

والثانى : أن العادة لابد لها من أسباب وموانع يعلم بها اطرادها تارة، وانتقاضها أخرى ، وبهذا يظهر الجواب عما قالوه : من أن انقلاب الجبل ذهباً، والبحر زئبقاً ، والأناسى قروداً ، ونحو ذلك ممكن معلوم الجواز ، مع العلم بأنه لم يقع ، فإنهم يقال لهم : الناس لايسلمون لـكم أن هذا ممكن إلا مع لوازمه وانتفاء أضداده ، وحينئذ فيقال : لم قلتم إن هذا لايستلزم أسباباً تـكون قبله ، وموانع ترتفع كسائر مايحدثه الله من الأمور الخارقة للعادة. فإنه لايحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ، ودفع موانع .

مثال ذلك : غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب ، بل أنزل الله ماء السماء ، وأنبع ماء الأرض، كما قال تعالى : (كَذَّبت قبلهم قومُ نوح فكَذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر فدعا ربه أنِّى مغلوبٌ فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى المـاء على أمرٍ قد قُدِرَ * وحملناه على ذاتِ ألواح ودُسُر) .

وكذلك عاد لما أهلكهم ، أرسل عليهم الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، كما قال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟) .

وكذلك ثمود قال لهم صالح : (ياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) وكل ما وجد فى العالم من خوارق العادات : آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شىء ، إلا بأسباب تقدمته ، فآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها ، إما عند أمر الله له بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة ، وإما عند مطالبة فرعون له بالآية ، وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم .

وكذلك سائر آياته ، حتى إغراق فرعون ، كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا ؛ وكذلك تفجير الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم فى برية لا ماء عندهم .

وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم ، مثل تكثير الماء ، كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع ، أى تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع .

وكذلك البئر ، كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها ، وإما بصبه الماء الذى بصق فيها .

وكذلك المسيح ، كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله إلى أمثال ذلك .

فأما جبل ينقلب ياقوتا بلا أسباب تقدمت ذلك ، فهذا لا كان ولا يكون.

وكذلك نهر يطرد يصبح لبنا بلا أسباب تقتضى ذلك يخلقها الله ، فهذا لا كان ولا يكون ، ومن قال إن الشيء ممكن ، فهذا يعنى به شيئان : يعنى به الامكان الذهنى ، والإمكان الخارجى .

فالإمكان الذهنى : هو عدم العلم بالإمتناع ، وهذا ليس فيه إلا عدم العلم بالامتناع ، وعدم العلم بالامتناع غير العلم بالإمكان ، فكل من لم يعلم امتناع شيء ، كان عنده ممكناً بهذا الإعتبار ، لكن هذا ليس بعلم بإمكانه ، ومن استدل على إمكان الشيء بأنه لو قدر لم يلزم منه محال من غير بيان انتفاء لزوم كل محال ، كما يفعله طائفة من أهل الكلام ، كالآمدى ونحوه لم يكن فيما ذكره إلا مجرد الدعوى .

وأما الثانى : وهو العلم بإمكان الشيء فى الخارج ، فهذا يعلم بأن يعلم وجوده أو وجود نظيره ، أو وجود ماهو أقرب إلى الامتناع منه ، فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكناً كان حمله التسعين رطلا أولى بالإمكان ، وبهذه الطريقة يبين الله فى القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه ، كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه ، كما أخبر أن قوم موسى قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون ﴾ .

وكما أخبر عن المقتول الذى ضربوه بالبقرة فأحياه الله ، كما قال : (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)

وكما أخبر عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم .

وكما أخبر عن الذى : (مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال: أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير) .

وأخبر سبحانه بنظير ذلك فى قصة إبراهيم حيث قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى : قال: أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصُرْهُن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعُهُن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم) .

واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك ، وهو النشأة الأولى ، قال : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقال : (إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة ، لنبين لكم ونقرّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشُدكم ومنكم من يتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) .

فاستدل سبحانه على إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان وبخلق النبات، وذكر ذلك فى القرآن فى غير موضع ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود : أن قول القائل هذا ممكن ، لا يحتاج إلى دليل لا يكفى فى العالم بإمكانه عدم العلم بامتناعه ، والله سبحانه على كل شىء قدير .

والممتنع ليس بشىء باتفاق العقلاء ، وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه

ويمتنع أضداده وإلا فيمتنع وجود الملزوم بدون اللازم ، ويمتنع اجتماع الضدين وليس للعباد اطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده .

فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضدادها وانتفائها جهل . والله وسبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم ، وهو يشق السموات ، ويسير الجبال وينسفها بسا ، فيجعلها هباء منبثا ، إلى أمثال ذلك مما أخبر الله به كما يخلق سائر ما يخلقه بما يسره من الأسباب ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث ، وحين المبعث فى حياتهم وبعد موتهم ، فقبل : مثل أخبار من تقدم من الأنبياء ، ومثل الإرهاصات الدالة عليه .

وأما حين المبعث فظاهر ، وأما فى حياته فمثل نصره ، وإنجائه وإهلاك أعدائه ، وأما بعد موته ، فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهادُ) وقال تعالى : (ولقد سبقتْ كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنّهم لهم المنصورون * وإن جُندنا لهم الغالبون) وقال للمسيح : (إنى متوفّيك ورافعك إلىّ ومطهّرك من الذين كفروا ، وجاعلُ الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريُّون . نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم ، جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه وحين مبعثه ، وفى حياته وبعد موته ، وإلى قيام الساعة ، فإن ذكره إلى الساعة وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود فى الكتب المتقدمة ، كما قد بسط فى موضعه ، وقد تقدم بعض ذلك .

والخليل دعا به فقال فى دعائه لذريته : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم

يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) .

ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة ، وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة ، قد ذكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها .

ومثل ما شوهد من أحواله في صغره، وأما انتصار الله له ولأتباعه وإعلاء ذكره ، ونشر لسان الصدق له ، وإهلاك أعدائه ، وإذلال من يحاده ويشاقه، وإظهار دينه على كل دين باليد ، واللسان ، والدليل ، والبرهان ، فهذا مما يطول وصف تفصيله ، وقال تعالى : (قد كانت لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

وقال تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون وإن كانوا يبتلون في أول الأمر ، فالعاقبة لهم ، كما قال تعالى لما قص قصة نوح : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

وفي الحديث المتفق على صحته لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته ، وكان المشركون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به فقال : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قالوا : الحرب بيننا وبينه سجال ، يدال علينا المرة ، وندال عليه الأخرى .

فقال : كذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة .

فإنه كان يوم بدر ، نصر الله المؤمنين ، ثم يوم أحد ابتلى المؤمنين ، ثم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله الإسلام .

فإن قيل : ففى الأنبياء من قد قتل ، كما أخبر الله أن بنى إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطاناً ، ويسلطه على المتدينين ، كما سلط بخت نصر على بنى إسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحياناً على المسلمين .

قيل : أما من قتل الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيداً . قال تعالى : (وكأيّن من نبى قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبّ الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) .

ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيداً فى القتال ، كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه ، قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) ولهذا قال تعالى : (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) .

أى : إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والجنة ، ثم الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينتصر ، ويظهر ، فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة ، من قتل منهم كان شهيداً ، ومن عاش منصوراً سعيداً ، وهذا غاية ما يكون من النصر ، إذا كان الموت لابد منه ، فالموت على الوجه الذى تحصل بها سعادة الدنيا والآخرة ، أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته ، فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم ، وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا، كالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فهم اختاروا هذا الموت ، إما أنهم قصدوا الشهادة ، وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة في الآخرة وفي الدنيا بانتصار طائفتهم ، وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء ، بخلاف من أهلك من الكفار، فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكاً لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا ، بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم المقبوحين وقيل فيهم :(كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) .

وقد أخبر سبحانه أن كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أي ألوف كثيرة ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك ، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو، وأن الله أتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

فإذا كان هذا قتل المؤمنين ، فما الظن بقتل الأنبياء ، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو أعظم الفلاح .

وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين ، كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم ، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبي - إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وظهرهم على المخالفين له ، فإذا ضيعوا عهوده ظهر عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً ، وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر .

وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة ، فهذا الاستقراء

والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي ، وأنه سبحانه يريد
إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفهم ، وأن يجعل لهم السعادة ، ولمن
خالفهم الشقاء ، وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ، ومن خالفه
كان شقياً ، ومن هذا : ظهور بخت نصر على بني إسرائيل ، فإنه من دلائل
نبوة موسى إذا كان ظهور بخت نصر ، إنما كان لما غيروا عهود موسى ، وتركوا
اتباعه ، فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين
مؤيدين ، كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما . قال تعالى : (وقضينا إلى
بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً . فإذا
جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان
وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين
وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا
جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة
وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) .

فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة ، وظهور عدوهم عليهم تارة
من دلائل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم وآياته ، وكذلك ظهور أمة محمد
صلى الله عليه وسلم على عدوهم تارة ، وظهور عدوهم تارة ، هو من دلائل
رسالة محمد وأعلام نبوته وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم في حياته
وبعد موته كما جرى لهم من يوشع وغيره ، من دلائل نبوة موسى .

وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته
مع خلفائه ، من أعلام نبوته ودلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون
على أهل الكتاب أحياناً ، فإن أولئك لا يقول مطاعهم إني نبي ، ولا يقاتلون
أتباع الأنبياء على دين ، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد
يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم ،

وأيضاً فلا عاقبة لهم ، بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعاً ، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت ، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم ، وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض .

وبين أن ظهور محمد وأمته على أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان ، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته ليس هو كظهور بختنصر على بنى إسرائيل وظهور الكفار على المسلمين ، وهذه الآية مما أخبر بها موسى .

وبين أن الكذاب المدعى للنبوة لا يتم أمره ، وإنما يتم أمر الصادق ، فإن من أهل الكتاب من يقول : محمد وأمته سطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذى نحن عليه ، كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك .

وهذا قياس فاسد ، فإن بختنصر لم يدع نبوة ، ولا قاتل على دين ولا طلب من بنى إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسى إلى شريعته ، فلم يكن فى ظهوره إتمام لما ادعاه من النبوة ، ودعا إليه من الدين ، بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق ، إذا ظهروا على القوافل بخلاف من ادعى نبوة ودينا دعا إليه ، ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة ، وتوعد مخالفيه بشقاوة الدنيا والآخرة ، ثم نصره الله وأظهره ، وأتم دينه ، وأعلا كلمته ، وجعل له العاقبة وأذل مخالفيه .

فإن هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة ، فإنه دليل عليها وذاك من جنس خرق العادات التى لم تقترن بدعوى النبوة ، فإنه ليس دليلا عليها ، وقد يغرق فى البحر أمم كثيرة ، فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى بخلاف غرق فرعون وقومه ، فإنه كان آية بينة لموسى ، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره ، وذلك بأن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على كذبه من غير أن يبين كذبه ، ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال

الكذاب ، لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق ، كان معها ما يدل على كذبه من وجوه .

منها : دعواه الإلهية وهو أعور ، والله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء ، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث في الأحاديث الصحيحة ، فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائماً ، فهذا لم يقع قط ، فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة ، فهذا هو الواقع على ذلك أيضاً بالحكمة فحكمته ، تناقض أن يفعل ذلك إذ الحكيم لا يفعل هذا ، وقد قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين .

والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله ، فإذا نقص الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) .

فأخبر أن الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين ، ولا يوجد لسنة الله تبديل ، لا تبدل بغيرها ، ولا تتحول ، فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم ؟ .

وكذلك قال المنافقين وهم الكفار في الباطن دون الظاهر ومن فيه شعبة نفاق (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

والسنة هى العادة ، فهذه عادة الله المعلومة ، فإذا نصر من ادعى النبوة واتباعه على من خالفه ، إما ظاهراً وإما باطناً نصراً مستقراً ، فإن ذلك دليل على أنه نبي صادق إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين ، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات وهذه منها .

ومن ادعى النبوة وهو كاذب ، فهو من أكفر الكفار ، وأظلم الظالمين ، قال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) وقال تعالى : (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) وقال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه) وقال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

ومن كان كذلك ، كان الله يمقته ، ويبغضه ، ويعاقبه ، ولا يدوم أمره ، بل هو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة قال : « إن الله يملى للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

وقال أيضاً فى الصحيح عن أبى موسى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة وتميلها أخرى ، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » .

فالكاذب الفاجر وإن عظمت دولته ، فلابد من زوالها بالكلية وبقاء ذمه ، ولسان السوء له فى العالم وهو يظهر سريعاً ويزول سريعاً ، كدولة الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى ونحوهم .

وأما الأنبياء ، فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء ، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً ، كالزرع ، قال تعالى : (محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه - أى فراخه - فآزره - أى قواه - فاستغلظ فاستوى على سوقه - أى قوائمه - يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما).

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس، فاعتبار هذه الأمور وسنة الله فى أوليائه وأنبيائه الصادقين، وفى أعداء الله والمتنبئين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين، وبين دلائل النبى الصادق ودلائل المتنبىء الكذاب.

وقد ذكر ابتلاء النبى والمؤمنين، ثم كون العاقبة لهم فى غير موضع، كقوله تعالى: (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين).

وقال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ان نصر الله قريب).

وقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا جاءهم نصرنا فَنُجِّىَ من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون).

فصــل

ومما ينبغى أن يعرف، أن الدلالة نوعان :

نوع : يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه .

ونوع : يحض مع ذلك على الرغبة فيه ، أو الرهبة منه .

فالأول : من جنس الخبر المجرد .

والثانى : من جنس الحث، والطلب ، والإرادة والأمر بالشيء،والنهى عنه وذلك كمن أعلم أن فى المكان الفلانى جمادات أو حيوانات أو نبات ليس له فيها غرض ، لا حب ، ولا بغض ، فليس هو بمنزلة من علم أن فى المكان الفلانى صديقه ، وولده ، ومحبوبه ، وماله ، وأهله ، وأهل دينه ، وفى المكان الفلانى عدوه ، ومبغضه ، ومن يقطع عليه الطريق ، ويقتله ، ويأخذ ماله .

فكذلك دلائل النبوة ، هى كلها تدل على صدق النبى ، ثم يعلم ما يخبر به النبى من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، لأنه أخبر عن الله بذلك وهو صادق فيما يخبر به ، فهذا طريق صحيح عام .

وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة ، والسعادة، والنصرة ، وحسن العاقبة ، وما جعله لهم من لسان الصدق ، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك ، والعذاب ، وسوء العاقبة ، واتباعهم اللعنة فى الدنيا مع عذاب الآخرة ، فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة فى اتباعهم ، والرهبة من مخالفتهم ، ففيه العلم بصدقهم، والموعظة للخلق ،والوعظ هو أمر ونهى بترغيب وترهيب ، قال تعالى : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) أى : ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، وما يؤمرون به : وقال (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين) أى ينهاكم الله أن تعودوا لمثله ، وهذا الطريق أكمل وأبلغ فى

حصول المقصود ، فإنها تفيد العلم بصدقهم ، والرغبة فى اتباعهم ، والرهبة من خلافهم ، وتفيد ثبوت صحة الدين الذى دعوا إليه ، وسعادة أهله ، وفساد الدين المخالف لدينهم وشقاوة أهله .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المجامع الكبار، كصلاة العيد « بقاف » و « اقتربت الساعة » لما فيهما من بيان ذلك، وسورة قاف، كان يقرأ بها فى الجمعة، فإنها جامعة لإثبات النبوات والمعاد ، مع ما فيها من التوحيد، وأصول الشرائع ، وبيان حال متبعى الأنبياء ومخالفيهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فيها : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) .

فصـــل

ومما ينبغى أن يعلم : أن الله إذا أرسل نبياً وأتى بآية دالة على صدقه، قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة ، فمن طالبهم بآية ثانية ، لم تجب إجابته إلى ذلك بل وقد لا ينبغى ذلك، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة ، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة ، فإن طلب المتعنتين لا أمد له . ومعلوم أنه من قامت عليه حجة بينة فى مسألة علم أو حق من حقوق العباد التى يتخاصمون فيها لو قال : أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة ، كان ظالماً متعدياً ، ولم تجب إجابته إلى ذلك ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك ، بل إذا قامت البينة بحق المدعى حكم له بذلك ولو قال المطلوب أريد بينة ثانية وثالثة ورابعة ، لم يجب إلى ذلك .

فحق الله الذى أوجبه على عباده من توحيده والإيمان به وبرسله أولى إذ أقام بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله ، أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة ثم قد يكون فى تتابع الآيات حكمة فيتابع تعالى بين الآيات ، كما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة ، لعموم دعوته وشمولها ، فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد، وأظهر وأيسر لمعرفة الحق، فقد

يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر ، وقد يبلغ هذا مالم يبلغ هذا، وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة ، ويقسى قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية ، لينتشر ذلك ويظهر ، ويبلغ ذلك قوما آخرين ، فيكون ذلك سببا لإيمانهم ، كما فعل بآيات موسى وآيات محمد ، كما ذكر في التوراة أنه يقسى قلب فرعون ، لتظهر عجائبه وآياته ، وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يعارضوه ، ويعاندوه ، ويسعوا في معارضته ، والقدح في آياته ، فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه ، بخلاف مالو اتبع ابتداء بدون ذلك ، فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته ، وكذلك أيضاً يكون في ذلك من يقينه ، وصبره ، وجهاده ، ويقين من آمن به ، وصبرهم ، وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة .

وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال ، كما ذكره الله في كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاؤا بها فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة ، وتارة لا يجيبهم لما في ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم ؛ الذين يقولون : إنه يفعل للحكمة ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة ، ويقول : اقترن بالمراد المصلحة والمفسدة وعادة وسنة من الله ، وإن لم يفعل هذا لهذا .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها ، والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر ، كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما لما في ذلك من الحكمة العظيمة ، كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما وقد تبين أنه لا يظهرها لانتفاء

الحكمة فيها ، أو لوجود المفسدة ، قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) .

وقال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) .

بين سبحانه أنه ما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها ، الذى استحقوا بها الهلاك ، فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى مذكور فى عامة كتب التفسير والحديث ، وغيرها من كتب المسلمين، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى عنهم الجبال حتى يزرعوا ، قال : فقيل له : إن شئت تستأنى بهم نجتبى منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم ، قال : لا بل أستأنى بهم ، فأنزل الله هذه الآية : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) رواه أحمد والنسائى من حديث جرير عن الأعمش.

وروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، أنبأنا سفيان عن سلمة ابن كهيل ، عن عمران بن حكيم عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : « ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، ونؤمن لك قال : وتفعلون؟ قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرئك السلام ، ويقول : إن

شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة » .

وروى ابن أبى حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال : سمعت الحسن يعنى البصرى فى قوله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون)، قال : رحمة لكم أيتها الأمة أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم .

وفى الإنجيل : « أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء ، فقال لهم المسيح : الأمة الفاجرة تطلب آية ولا تعطى إلا مثل آية يونان ـ يعنى ذا النون ـ » وقد كانت الآيات يأتى بها صلى الله عليه وسلم آية بعد آية ، فلا يؤمنون بها .

قال تعالى :(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين* فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون *ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين * وقالوا ولو أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون *ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ولبسنا عليهم ما يلبسون *ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

أخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم ،وما تأتيهم من آيات إلا أعرضوا عنها وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول ، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التى هى تكذيب الرسول ، فإن الله يقول : (وما كان ربك

مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) .

وأخبر بشدة عن قوة كفرهم بأنه لو أنزل عليهم كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين .

وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكا لجعله على صور الرجل، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة فى صورهم ، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك .

وقال تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) .

وهذه الآيات التى اقترحوها لو أجيبوا بها ولم يؤمنوا بها أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم .

وأيضاً فهى مما لا يصلح الإتيان بها ، فإن قولهم حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً يقتضى تفجير الينبوع بأرض مكة فيصير واديا ذا زرع، والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذى زرع ، لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا ، فيكون حجهم للدنيا لا لله ، وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، كان فى هذا من التوسع فى الدنيا ما يقتضى نقص درجته وانخفاض منزلته .

وكذلك إذا كان له بيت من زخرف ، والزخرف الذهب ، وأما إسقاط

السماء كسفاً ، فهذا لا يكون إلا يوم القيامة ، وهو لم يخبرهم أن هذا يكون إلا يوم القيامة .

فقولهم : كما زعمت كذب عليه إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسد .

وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلا ، فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة .

قال تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)

وأما إنزال الكتاب فقد قال تعالى : (يسألك أهلُ الكتاب أن تنزّلَ عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجلَ من بعد ما جاءتهم البيناتُ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه تقيناً * بل رفعه الله إليه وكان اللهّ عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً) [سورة النساء : ١٥٣ - ١٦١] .

بين سبحانه أن المشركين سألوه إنزال كتاب، وأهل الكتاب سألوه ذلك.

وبين سبحانه أن الطائفتين لا يؤمنون إذا جاءهم ذلك ، وإنما سألوه تعنتاً

فقال عن المشركين : (لو أنزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وهو رؤية الله جهرة ، فقال : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) ، وأنهم عبدوا العجل لما قال : (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك) ، وأن الله آتى موسى سلطاناً مبينا ، ورفع الطور فوقهم وقال لهم لا تعدوا فى السبت وأخذ منهم ميثاقاً غليظا كما قال : (وآتينا موسى سلطانا مبينا ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وإنهم مع هذا نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق إلى أمثال ذلك ، وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات أحلت لهم ، فكان فى هذا من الاعتبار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة المكذبة بك الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التى اقترحوها لم يك فى مجيئها منفعة لهم ، بل فيها ما يوجب استحقاقهم عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها وبك ، وتغليظ الأمر عليهم ، فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة .

وقد عرض الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبوه فقال : « بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا » .

كما فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال « لقد لقيت قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب

فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك وماردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم على وقال : إن الله قد سمع قول قومك وماردوا عليك ، وقد بعثنى إليك لتأمرنى بماشئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ؟ فقال : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا » . أخرجاه .

ولهذا طلب من المسيح المائدة ، كانت من الآيات الموجبة لمن كفر بها عذابا لم يعذبه أحداً من العالمين .

قال تعالى : (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) .

وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذابا عاجلا يهلك الله به جميع المكذبين ، كما أهلك قوم نوح ، وكما أهلك عادا وثمود ، وأهل مدين ، وقوم لوط ، وكما أهلك قوم فرعون ، وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى ليبقى ذكرها وخبرها فى الأرض ، إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال ، بل قال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر الناس) بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون من الكفر والمعاصى يعذب بعضهم بعضا ، إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر .

ولهذا لم تزل فى الأرض أمة بنى إسرائيل باقية .

قال تعالى : لمـا ذكر بنى إسرائيل : (وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ، وقد قال تعالى : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) .

فكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمداً أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال ، كما أهلكت الأمم قبلهم ، بل عذب بعضهم بدون ذلك من أنواع العذاب ، كما عذب طوائف ممن كذبه بأنواع من العذاب ، كالمستهزئين الذين قال الله فيهم : (إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) فعذب كل واحد بعذاب معروف .

وكالذى دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال فيه : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » فكان يحترس بقومه فجاءه الأسد فتخطى الحلقة حتى أخذه من وسطها فقتله ، وأمثال ذلك مما هو موجود إلى زماننا هذا .

وقال تعالى للكفار : (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) .

فأخبر أنه يعذب الكفار تارة بعذاب من عنده ، وتارة بأيدى عباده المؤمنين بالجهاد ، وإقامة الحدود ، وتارة بعذاب غير ذلك ، فكان يعذبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم ، كما جرى لقريش وغيرهم ، فإنهم لما كذبوه ، لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادوا وانقطعت المنفعة به عنهم ، ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب ولو بالهزيمة والأسر ، وقتل بعضهم ، كما عذبوا يوم بدر ، فإن فى هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم ، والنفوس إذا كانت قادرة على كمال أغراضها ، فلا تكاد تنصرف عنها بخلاف ما إذا عجزت عن كمال

أغراضها ، فإن ذلك مما يدعوها إلى التوبة ، كما يقال : من العصمة أن لاتقدر فكان ماوقع بهم تعجيزاً وزاجرا وداعياً إلى التوبة .

ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك ولم يقتل منهم إلا القليل ، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم فى هذه الأمة كفرعون فى تلك الأمة .

كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن أبى جهل : « هذا فرعون هذه الأمة » .

وقد ذكر الله لموسى فى التوراة أنى أقسى قلب فرعون فلا يؤمن بك لأظهر آياتى وعجائبى .

بين أن فى ذلك من الحكمة انتشار آياته الدالة على صدق أنبيائه فى الأرض ، إذ كان موسى قد أخبر بتكليم الله له وبكتابة التوراة له ، فأظهر الله من الآيات مايبقى ذكرها فى الأرض ، وكان فى ضمن ذلك من تقسيته قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه وقومه أجمعين ، وفرعون كان جاحداً للصانع ، منكراً لربوبيته لايقر به ، فلذلك أتى من الآيات بما يناسب حاله .

وأما بنو إسرائيل مع المسيح ، فكانوا مقرين بالكتاب الأول ، فلم يحتاجوا إلى مثل ما احتاج إليه موسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن محتاجا إلى تقرير جنس النبوة ، إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثَبَّتَ ذلك ، وقومه كانوا مقرين بالصانع ، وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نبوته .

ومع هذا ، فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم .

ومع هذا ، فلم يأت بآيات الاستئصال التى يستحق مكذبها العذاب العام العاجل ، كما استحقه قوم فرعون ، وهود ، وصالح ، وشعيب وغيرهم .

فلهذا يبين الله فى القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لاتنفعهم ، إذ كانوا لايؤمنون بها ، ولكن تضرهم ، إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ ؛ ومع وجود المانع وعدم المقتضى لايصلح الفعل على قول الجمهور

القائلين بالحكمة ، ومن لم يعلل فلا يطلب سبباً ولا حكمة ، أو يطلب سبباً بلا حكمة ، بل يرد الأمر إلى محض المشيئة .

قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) . وهو يعلم أن قلوب هؤلاء ، كقلوب أولئك الأولين ، فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك ، كقوم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط وغيرهم

قال تعالى : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

وقال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) .

وقال تعالى عن أهل الكتاب : (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) .

وقال تعالى : (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) .

ذكر هذا فى سورة اقتربت التى ذكر فيها انشقاق القمر ، وإعراضهم عن الآيات ، وقولهم : هذا سحر مستمر ، وتكذيبهم واتباع أهوائهم ، فقال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر) .

ثم قال : (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أى من أنباء الغيوب وما أخبر به ما فيه ، مزدجر : أى ما يزجرهم عن الكفر . إذ كان فى تلك الإنباءات بيان صدق الرسول ، والإنذار لمن كذبه بالعذاب كما عذب المتقدمون .

ولهذا يقول عقيب القصة : (فكيف كان عذابى ونذر) أى كيف كان عذابى لمن كذب رسلى ، وكيف كان إنذارى بذلك قبل مجيئهم يبين صدق قوله الذى أخبرت به الرسل وعقوبته لمن كذبهم .

ثم ذكر قصة المكذبين ، كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، إلى قوله : (ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) فإن قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسى وجميع آيات الأنبياء قبله ، وكذبوا بالآيات الدالة على وجود الرب وقدرته ومشيئته ، إذ كانوا جاحدين للخالق ، منكرين له فكذبوا بآياته كلها .

ثم قال : أكفاركم أيتها الأمة التى أرسل فيها محمد خير من أولئكم الذين كذبوا نوحا ، وهودا وصالحا ، ولوطا ، وموسى ، أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ ذلك أن كونكم لاتعذبون مثل ماعذبوا إذا كذبتم ، إما أن يكون لكونكم خيراً منهم ، فلا تستحقون مثل ما استحقوا ، أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم فتكون لكم البراءة فى الزبر ، فتعلمون ذلك بخبره بأن مايفعله الله تارة يعلم بخبره ، وتارة يعلم بسنته وحكمته وعدله .

فإما أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه ، أو من هذا الوجه ، هذا إن نظر إلى فعل الله الذى لا طاقة للبشر به ، وإن نظر إلى قوة الرسول وأتباعه فيقولون : نحن جميع منتصر ، فإنهم أكثر ، ومنتصرون أقوى من محمد وأتباعه .

كما قال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً) أى أموالا ومنظرا . فقال تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أخبر بهزيمتهم وهو بمكة فى قلة من الأتباع وضعف منهم ، ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وقبل أن يقاتلهم .

وكان كما أخبر ، فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم وولوا الأدبار ، وتلك سنة الله فى المؤمنين والكافرين .

قال تعالى : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا فكمل إيمانهم نصرهم الله، كما قال تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وقال: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم).

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لا يهلكهم هلاك الاستئصال، كما أهلك المكذبين، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبة لعذاب الاستئصال، كما أهلك الأمم قبلهم كما قال: (أكفاركم خير من أولئكم) كان أن لا يأتي بما يوجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحجة، ويوضح المحجة أكمل في الحكمة والرحمة إذ كان ما يأتي به من الآيات حصل به كمال الخير، والمنفعة، والهدى، والبيان، والحجة على من كفر، وما امتنع منه دفع به من عذاب الاستئصال والهلاك والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتى يتوبوا. ويؤمنوا، ويهتدوا، فكان في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة، والمنن السابغة، ما لم يكن في رسالة رسول قبله صلوات الله عليهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين، كما قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

فصل

جماع الكلام في النبوة متصل بالكلام في جنس الخبر، فإن قول القائل: إني رسول الله إليكم خبر من الأخبار، وكذلك وصول كلامه وأفعاله وآياته إلينا هو بالأخبار.

والخبر تارة يكون مطابقاً لمخبره، كالصدق المعلوم أنه صدق، وتارة لا يكون مطابقاً لمخبره، كالكذب المعلوم أنه كذب، وغير المطابق مع التعمد كذب، ومع اعتقاد أنه صدق لم يكن معذوراً، كالمفتي بلا اجتهاد يسوغ،

والمحدث بلا علم يسمى كاذباً أيضاً ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « كذب أبو السنابل ابن بعكك » ، وقوله لمن قال : بطل عمل عامر بن الأكوع لما قتل نفسه خطأ : « كذب من قال ذلك إنه لجاهد مجاهد » .

وقد تكون المطابقة فى عناية المتكلم ، وقد يكون فى إفهام المخاطب إذا كان اللفظ مطابقاً لما عناه المتكلم ، ولم يطابق أفهام المخاطب ، فهذا أيضاً قد يسمى كذباً وقد لا يسمى ، ومنه المعاريض لكن يباح للحاجة ، وإن كان الخبر لم يحصل به المقصود ، بل يكون مأموراً بالسكوت عنه إلا مع البينة ، فقد يسمى كاذباً ، كقوله تعالى : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) .

والمقصود هنا : أن الخبر قد يعلم أنه صدق ، وقد يعلم أنه كذب ، وقد لا يعلم واحد منهما ، والعلم بأنه صدق له معنيان :

أحدهما : أن يعلم أنه مطابق لمخبره من جهة الخبر ، كمن أخبرنا بأمور نعلم أنها حق بدون خبره .

والثانى : أن يعلم أن المخبر به صادق فيه ، وقد يجتمع الأمران بأن يعلم ثبوت ما أخبر به ، ويعلم أنه صادق فيه ، وقول محمد : إنى رسول الله ، هو من هذا الباب ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكذلك كونه كذباً قد يراد به أنه على خلاف مخبره ، وإن كان لم يتعمد الكذب ، وقد يعنى به أن صاحبه يتعمد الكذب .

ولهذا كانت الأحاديث المعلوم بطلانها على نوعين :

تارة يعلم أن صاحبها تعمد الكذب .

وتارة يكون قد غلط ، والصحابة لم يعرف فيهم من يتعمد الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم.

وكذلك جمهور التابعين لم يعرف فيهم من كان يتعمد الكذب ، ولكن طائفة قليلة من الشيعة عرف أنه كان فيها من يتعمد الكذب ، بخلاف غيرهم من أهل الأهواء ، كالخوارج ، فإنه لم يكن فيهم من يعرف بالكذب ، بل يقال : هم من أصدق الناس حديثاً ، والرجل الفاسق المعروف أنه يكذب لا بد أن يصدق فى بعض أخباره ، فلا يكون فى الناس من لا يخبر إلا بكذب .

ولهذا قال تعالى : (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) ، وفى القراءة الأخرى : (فتثبتوا) فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر ، ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره ، لأنه قد يصدق أحياناً .

ولما أمر سبحانه بالتبين والتثبت فى خبر الفاسق دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره ، إذا كان فاسقاً ، فقد يكذب ، ولا يجوز أيضاً تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد كذب وإن كان فاسقاً ، لأن الفاسق قد يصدق ، وهذا كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا) .

فأمرهم بالتبين والتثبت فى الجهاد ، وأن لا يقولوا للمجهول حاله ، لست مؤمناً يبتغون عرض الحياة الدنيا ، فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمناً خبراً بلا دليل ، بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله ، وإن كان ذلك فى دار الحرب إذا ألقى السلام ، وفى القراءة الأخرى : السلم ، فقد يكون مؤمناً يكتم إيمانه ، كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم ، فإذا ألقى إليكم السلام ، فذكر أنه مسالم لكم لا محارب ، فتبينوا وتثبتوا ، لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره ، هل هو صادق أو كاذب ؟

وهذا خبر يتضمن دعوى له ، فإن المدعى مخبر ، والمنكر مخبر ، والمقر مخبر ، وكما نهاهم عن تكذيب المدعى بلا علم ، نهاهم عن تصديق المنكر المتهم

الذى يرمى البرىء بلاحجة ، وتبرئته وتزكيته بلاعلم ، فقال تعالى : (إنّا أنزلنا إليك الـكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تـكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيما * يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا * ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما * ومن يَكْسِبْ إثمًا فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثما مبيناً * ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوك وما يضلُّون إلا أنفسهم وما يضرُّونك من شىء وأنزل الله عليك الـكتاب والحـكمة وعلّمك مالم تـكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

وكذلك نهاهم عن تصديق القاذف الرامى لمن عرف منه الخير ، فقال : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفكٌ مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الـكاذبون * ولولا فضل الله عليـكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضْتُم فيه عذاب عظيم * إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لـكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) .

وقد قال تعالى : (ولا تَقْفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

وهذا نهى عن التـكلم بلا علم ، وهو عام فى جميع أنواع الأخبار ، وهو يتناول ماأخبر به الإنسان وماقد يعتقده بغير الإخبار من الدلائل والآيات ،

والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم ، فلا ينفى شيئاً إلا بعلم ، ولا يثبته إلا بعلم .

ولهذا كان عامة العلماء على أن للنافى للشىء عليه الدليل على ماينفيه ، كما أن المثبت للشىء عليه الدليل على ثبوته .

وحكى عن بعض الناس أنه قال : النافى ليس عليه دليل ، وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات ، فأوجبه فى العقليات دون الشرعيات ، وهؤلاء اشتبه عليهم النافى بالمانع المطالب ، فإن من أثبت شيئاً ، فقال له آخر : أنا لا أعلم هذا ، ولا أوافقك عليه ، ولا أسلمه لك حتى تأتى بالدليل ، كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل ــ دليل ، وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفى ماأثبته غيره ، فقال له : قولك خطأ ، والصواب فى نقيض قولك ، ولم يكن هذا كذا ، فإن هذا عليه الدليل على نفيه ، كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته ، وإذا لم يأت واحد منهما بدليل ، كان كلاهما متكلماً بلا حجة .

ولهذا كان من أثبت شيئاً أو نفاه وطلبت منه الحجة ، فلم يأت بها ، كان منقطعاً فى المناظرة ، وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها ، انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول ، وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذا كان الدليل الذى يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ، ولو أقام دليلا قطعياً فعورض بما لايفيد القطع ، كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم .

والعلم لايعارضه الظن ، والبينات لاتعارض بالشبهات التى هى من جنس كلام (السوفسطائية) ، فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص الكلام على الله بقوله تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها

وما بَطَنَ والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

ونهى عن اتباع خطوات الشيطان ، وأخبر أنه يأمر(١) بالقول على الله بلا علم ، فقال : (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون * وإذا قيل لهم اتّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أَلْفَيْنَا عليه آباءنا أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) .

وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم ، كقوله تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ، وقال : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاّه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

وقال تعالى : (ها أنتم هؤلاء حَاجَجْتُم فيما لكم به علم فَلِمَ تُحَاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وقوله تعالى : (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) يتناول خبر كل فاسق - وإن كان كافراً - لا يجوز تكذيبه إلا ببينة ، كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

وفى رواية : « فإما أن يحدثوكم بحق ، فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » .

وهذا الذى دل عليه الكتاب والسنة من إمساك الإنسان عما لا يعلم

(١) الضمير فى يأمر - راجع إلى الشيطان .

انتفاؤه وثبوته هو مأثور عن غيره من الأنبياء ، كما جاء من المسيح عليه السلام أنه قال : « الأمور ثلاثة :

أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه » .

وعامة عقلاء بنى آدم على هذا ، ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل على صدقه ، ولا يجوز أن يكذبه إلا بدلالة تدل على كذبه ، وعلى هذا العلم والدين ، وقد تكلم العلماء وصنفوا كتباً كثيرة فى الجرح والتعديل فى الرجال ، والأحاديث .

فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط ، فهذا هو العدل المقبول خبره . ومنهم من يكون صدوقاً لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط ، فيقولون فى مثل هذا : هو صدوق تُكلّم فيه من قِبَلِ حفظه .

ومنهم من عرف بالكذب . وإذا روى الحديث من هو سيء الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث ولم يثبتوه .

ثم تارة يقوم الدليل على كذبه ، وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق أم كذب ؟ ، ومثل هذا لا يعتقد ولا يثبت ولا يحتج به ، كالشاهد الذى شهد للمدعى وليس بعدل مرضى أو هو خصم أو متهم ظنين ، فهذا إذا ردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنى ذلك الحكم بكذبه أو خطئه ، بل معنى ذلك أنه لا تقوم به حجة ، ولا يحكم به لعدم العلم بصدقه لا للعلم بكذبه .

والمدعى عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة ، فمعه حجة ترجح جانبه ، وقد ضم إليها الشارع اليمين ، كما فى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى رجال دماء قوم وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه » ، فإذا لم يكن مع المدعى إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوى من جانبه ، لأن معه أن الأصل فى الأيدى أنها محقة والأصل

براءة الذمة ، ولكن قد يكون المدعى صادقاً ولا يكون له حجة ، وهذا كثير جداً فلا يدفع بمجرد الأصل ، بل يحلف المنكر ، فيكون يمينه مع الأصل حجة ، فيكون إنكار هذا مقابلا لدعوى هذا ، كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضا ، ورجح المنكر بالأصل ، فيبقى على ما كان لا يسلم للمدعى ما ادعاه بمجرد دعواه ولا تنقطع مطالبته للمدعى عليه ، لأنه لم يأت بحجة تدفعه ، فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة وقطعت الدعوى .

وإذا لم يأت المنكر باليمين ، بل نكل عنها ، ولا أتى المدعى بحجة وقف الأمر عند أكثر العلماء .

وعند بعضهم : يقضى على المنكر بالنكول فيجعل نكوله إما بدلا لما طلب وإما إقراراً به .

والأكثرون يقولون : بل يرد اليمين على المدعى الطالب الذى يقول : إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه وأنه عالم بما ادعاه فيقال له : احلف وخذ ، فإن حلف أخذ ، وإلا دفع .

ثم من العلماء من يرد اليمين فى عامة الدعاوى .

ومنهم من يحكم بالنكول ؛ إن كان المنكر يقول : لا أعلم ما ادعى وكل من الطائفتين يذكر آثاراً عن الصحابة .

والمنقول عن الصحابة يدل على التفصيل ، وهو أظهر الأقاويل ، وهو أنه إن كان المنكر هو العالم دون المدعى كما إذا ظهر فى المبيع عيب وقد بيع بالبراءة فقال المشترى : أنا لم أعلم به فإنه هنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضى الله عنهما : احلف أنك بعته وما به ذا يعلمه [1] ، فإن حلف وإلا قضى عليه بالنكول ، كما قضى عثمان على ابن عمر بالنكول بناء عليه .

وإن كان المدعى يقول إنه يعلم ما ادعى به ، كمن ادعى على آخر ديناً أو عيباً

---

(١) « ذا » : الإشارة إلى المشترى ، ومعنى العبارة [احلف أنك بعته وما به من عيب هو – أى المشترى – يعلمه].

فقال : أنا لا أعلم ما ادعيته احلف وخذ ، فإنه يقال له كما قال عمر بن الخطاب :
أنصفك خصمك احلف وخذ . فإن لم يحلف لم يعط شيئاً .

والبينة فى الدعاوى عند أكثر العلماء هى : ما تبين الحق وتظهره وتوضحه ، كالدليل والآية والعلامة ، فمتى ترجح جانب أحدهما حلف مثل أن يقيم المدعى شاهداً ، فإنه يحلف مع شاهده ويقضى له بشاهد ويمين ، كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قول أكثر العلماء ، ومنهم من يقول : اليمين دائماً فى جانب المدعى عليه ، وكذلك لو كان فى دعوى القتل لوث ولطخ وشبهة وهى علامات ترجح جانب المدعى ، فإن أولياء المقتول يحلفون خمسين يميناً ، ويقضى لهم بذلك عند أكثر العلماء ، كما مضت بذلك السنة .

وكذلك فى اللعان إذا حلف الزوج وشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين ووكدها بالخامسة ، فقد أقام بينة على دعواه ، فإن التعنت المرأة وشهدت أربع شهادات مؤكدة بالخامسة أنه كاذب تعارضت البينتان والشهادتان ، فلم يحكم بقول واحد منهما لا يحكم بأنه قاذف ، ولا يحكم بأنها زانية .

وإن نكلت فلم تحلف فأكثر العلماء يقولون : يحكم بأنها زانية وتعذب على ذلك ، كما دل عليه القرآن لأنه اجتمع شهادة الزوج ونكولها عن المعارضة ، كما اجتمع فى القسامة العلامة والإيمان ، وكما اجتمع الشاهد واليمين ، وكما اجتمع فى جانب المنكر الأصل واليمين .

فهذا ونحوه مما جاءت به الشريعة وبسطه له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الخبر إن قام دليل على صدقه أو كذبه وإلا بقى مما لم نصدقه ولم نكذبه ، وأهل العلم بالحديث إذا قالوا : هذا الحديث رواه فلان وهو مجروح أو ضعيف ، أو سىء الحفظ ، أو ممن لم تقبل روايته ، ونحو ذلك ، فهو كقول القائل : هذا الشاهد مجروح ، أو سىء الحفظ ، أو ممن لا تقبل شهادته ، وهذا يفيد أنه لا يحكم به ، ولا يفيد الحكم بأنه كاذب ، بل قد يمكن أنه صادق ، فلا يقال : إنه كاذب إلا بحجة .

وإن قالوا عن الحديث إنه ضعيف ، فهذا مرادهم ، أى أنه لم يثبت ولا يحتج به ، ولا يجوز الحكم بصدقه ليس مرادهم أنه بمجرد ذلك يحكم بكذب الناقل ، وينفى ما نقله ويقول : إن هذا لم يكن من غير علم منا بهذا النفى ، بل إن قام دليل على انتفاء ما أخبر به حكمنا بذلك ، وإلا سكتنا لم ننفه ولم نثبته فهذا أصل يجب معرفته ، فإن كثيراً من الناس لا يميز بين ما ينفيه لقيام الدليل على نفيه ، وبين مالم يثبته لعدم دليل إثباته ، بل تراهم ينفون مالم يعلموا إثباته ، فيكونون قد قفوا ماليس لهم به علم : وقالوا بأفواههم ماليس لهم به علم ، وهذا كثير فى أهل الاستدلال والنظر وأهل الإسناد والخبر ، فمن الأولين طوائف يطالبون الدليل على ثبوت الشىء ، فإذا لم يجدوه نفوه ، ومعلوم أن عدم العلم ليس علماً بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك إما بعلم أو ظن غالب ، فمن هؤلاء من يقول فى صفات الله مالم يقم دليل قطعى على إثباته ، وإلا وجب القطع بنفيه ، لأن صفات الله لا تثبت إلا بالقطع.

وخالفهم فى ذلك جمهور الناس وقالوا كما لا يجوز القطع فى الإثبات إلا بدليل قطعى ، فلا يجوز القطع فى النفى إلا بدليل قطعى على النفى ، فكما لم يجز أن يثبت إلا بعلم فلا ينفى إلا بعلم .

والنافى عليه الدليل ، كما على المثبت الدليل ، قال هؤلاء : هذه المسائل مبناها على القطع ، فإنه لا يجوز لنا التكلم فيها بالظن ، فإذا لم يقم القاطع قطعنا بالنفى .

فقيل لهم : هذا حجة عليكم ، فإنكم إذا نفيتم مالم تعلموا نفيه تكلمتم بالظن وإذا قطعتم من غير قاطع كنتم قد تكلمتم فى القطعيات بلا قاطع نفياً كان الكلام أو إثباتاً ، وليس يعلم فى الأدلة الشرعية أو العقلية أن كل مالم يقم دليل سمعى أو عقلى على إثباته ، فإنه يجب عليكم نفيه والقطع بنفيه ، بل تكلمكم بهذا تكلم بلا علم .

ومن هنا أخطأ كثير من النظار فى نفى كثير من صفات الرب وأحكامه

وأفعاله حيث لم يعلم دليلا قطعياً يثبتها فنفوها وكانت ثابتة فى نفس الأمر، وقد يكون عند غيرهم دليل قطعى يثبتها ولو قدر علم الناس كلهم بها، فلله علم لم يعلمه العباد، ولله أسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده لم يعلمها الناس، وليس إذا لم يعلم ثبوت الصفة يجب أن يعلم انتفاؤها، بل وقد يظن ثبوتها أو انتفاؤها، وقد يشك فى ذلك، فلا يعلم ولا يظن واحداً منهما.

والواجب على الإنسان أن يقول لما يعلمه أعلمه، ولما يظنه أظنه، ولما يشك فيه أشك فيه، والله تعالى لم يوجب على الإنسان أن يقطع بانتفاء شيء إن لم يعلم أنه منتيف، فمن قال: إنه أوجب علينا القطع بانتفاء مالم نقطع بثبوته ولا انتفائه فقد غلط، وهذا بخلاف ما يناقض صفات الإثبات، فإن هذا يجب نفيه عن الله

فقد علم بالأدلة العقلية، أن الله موصوف بصفات الكمال المناقضة للنقص مثل: أنه حى قيوم، بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأنه غنى عن كل ما سواه بكل وجه.

فكل من قال قولا يناقض هذا، علم أنه باطل، كالذين قالوا: إن له شريكا، أو ولداً، أو أنه يشفع عنده الشفعاء بغير إذنه، ونحو ذلك مما يناقض الكمال المعلوم له

وما كان من الأمور مستلزماً لوازم لو كان موجوداً، فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم، كالأمور التى لو كانت موجودة لوجب أن تنقل نقلا متواتراً شائعاً، فإنه يقول بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم، كما لو قال قائل: إنه بنى بين العراق والشام، أو بين الحجاز والشام مدينة أعظم من بغداد، والموصل وأصبهان، ومصر وأنه بنى دورها فى ثلاثة أيام، ونحو ذلك، فإنه يعلم كذبه، فإن هذا مما تتوفر همم الناس على نقله لو كان موجوداً، فإذا لم يستفض هذا وينتشر، علم أن المخبر به كاذب.

وكذا لو ادعى مدع أنه يوم الجمعة أو العيد قتل الخطيب ، ولم يصل الناس يوم الجمعة ، ولم يستفض هذا وينتشر ، أو ادعى أنه قتل بعض الملوك علانية بين الناس ، ولم يستفض هذا ولم ينتشر ، أو ادعى أنه بعث نبي بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أو بعد محمد جاء بكتاب مثل القرآن أو الإنجيل ، واتبعه خلق كثير وكذبه خلق كثير ، فإنه يعلم كذب هذا ، إذ مثل هذا لا بد أن يستفيض وينتشر .

وكذلك لو ادعى أن قريشاً أو غيرهم عارضوا القرآن وجاءوا بكتاب يماثل القرآن ، وأنهم أظهروا ذلك وأبطلوا به حجة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا مما يقطع بكذبه، لأن مثل ذلك لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله

وكذلك لو ادعى أن محمداً أمر بحج غير البيت العتيق ، أو أوجب صوم شهر غير شهر رمضان ، أو أوجب صلاة سادسة وقت الضحى ، أو أمر بالأذان والإقامة لغير الصلوات الخمس ، أو أنه قال علانية بين الناس لأبي بكر ، أو للعباس ، أو لعلي ، أو غيرهم : هذا هو الخليفة من بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا[١]، أو أن عليا دعا إلى نفسه في خلافة الثلاثة ، وأمثال هذه الأمور التي لو وقعت ، لكان لها لوازم ، فيستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ، ثم هذه اللوازم منها جلي ومنها خفي يعرفه الخاصة .

فلهذا كان أهل العلم بأحوال الرسول يقطعون بكذب أحاديث لا يقطع غيرهم بكذبها ، لعلمهم بلوازم تلك الأحاديث وانتفاء لوازمها ، كما يقطع من يعلم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يقاتل في غزوة تبوك ، وأن غزوات القتال إنما كانت تسعة مغازي ، وأنه لم يغز بنفسه إلى اليمن ، ولا العراق ، ولا جاوز تبوك بعد النبوة ، وأنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع ، ولم يصم إلا تسع رمضانات . وهكذا يعلمون أن فلاناً أخطأ في هذا الحديث على فلان ، لأنهم

---

(١) يعني أبو بكر وعمر وعثمان .

قد علموا من وجوه ثابتة ، أن ذلك الحديث إنما رواه على صورة معينة ، فإذا روى غير الثقة ما يناقض ذلك علموا بطلان ذلك، وأنه أخطأ أو تعمد الكذب مثل ما يعلمون كذب من زاد فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا سبق إلا فى خف ، أو حافر ، أو نصل » فزاد بعض الناس فيه أو جناح ، لما رأى بعض الأمراء عنده حماماً ، فعلموا أنه كذب تقرباً إلى ذلك الأمير ، وكما يعلمون كذب من روى أن مسيلمة وقومه ، كانوا مؤمنين بالله ورسوله ، وإنما قاتلهم الصديق لكونهم لم يعطوه الزكاة ، فإنهم قد علموا بالتواتر أن مسيلمة ادعى النبوة ، واتبعه قومه على ذلك ، وأنه كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته يقول : من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ، فكتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب » ويعلمون أنه كان له مخاريق ، وأنه ظهر كذبه من وجوه متعددة ، وأن أبا بكر الصديق والصحابة قاتلوه على كذبه فى دعوى النبوة ، وقاتلوا قومه على ردتهم عن الإسلام ، واتباعهم متنبئاً كاذباً ، لم يقاتلوهم على كونهم لم يؤدوا الزكاة إلى أبى بكر .

وكذلك الأسود العنسى الذى ادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقتل فى حياته كل منهما عرف كذبه بتكذيب النبى الصادق المصدوق لهما ، وبما ظهر من دلائل كذبهما مثل الأخبار الكاذبة التى تناقض النبوة ، ومثل الإتيان بقرآن مختلق يعلم من سمعه أنه لم يتكلم الله به ، وإنما هو من تصنيف الآدميين ، كما قال أبو بكر الصديق لهم لما تابوا من الردة وعادوا إلى الإسلام : أسمعونى قرآن مسيلمة ، فلما أسمعوه إياه قال : ويحكم أين يذهب بعقولكم ، إن هذا كلام لم يخرج من آل - أى لم يخرج من رب .

ومثل ما كان يفعله ويأمر به من الفجور والكذب ، ومثل اطلاع أخص الناس على أنه كان يكذب ويستهين بمن يختلق له الكذب ، ومثل أنه كان

يعدهم بأن جبريل أخبره بأنه سينصر ، فلما حقت الحقائق قال لهم: إنه لا جبريل لكم ، فقاتلوا على أحسابكم ، إلى أمثال هذه الأمور التي تدل على كذب الكاذب.

فالصدق له دلائل مستلزمة تدل على الصدق .

والكذب له دلائل مستلزمة تدل على الكذب ، ولا يجوز الحكم بصدق مخبر ولا بكذب مخبر إلا بدليل ، ومالم يعلم صدقه ، ولا كذبه ، ولا ثبوته ، ولا انتفاؤه ، فإنه يجب الإمساك عنه ، ويقول القائل : هذا لم أعلمه ولم يثبت عندي ، ولا أجزم به ، ولا أحكم به ، وأستدل به ، ولا أحتج به ، ولا أبنى عليه مذهبي واعتقادي وعملي ، ونحو ذلك .

ولا يقول: هذا أقطع بكذبه وانتفائه ، وإن كنت أقطع أن من أثبته تكلم بلا علم ، فالقطع ، بجهل مثبته المعتقد له غير القطع بانتفائه ، فمن قطع بشيء بلا دليل يوجب القطع قطعنا بجهله وضلاله وخطئه . وإن لم يقطع بانتفاء ما أثبته في نفس الأمر كمن حكم بشهادة مجروح فاسق أمر الله بالتثبت في خبره ، فمن حكم وقطع بخبره من غير دليل يدل على صدقه ، حكمنا بأن هذا متكلم حاكم بلا علم ، وإن لم يحكم بكذب الشاهد المخبر ، لكن لا يجوز للإنسان أن ينفي علم غيره ، وقطع غيره من غير علم منه بالأسباب التي يعلم بها ويخبر ، فإنه كثيراً ما يكون للإنسان دلائل كثيرة تدل على صدق شخص معين وثبوت أمر معين ، وإن كان غيره لا يعرف شيئاً من تلك الدلائل .

وهذا أيضاً مما يغلط فيه كثير من الناس ينظرون في أنفسهم ومبلغ علمهم ، فإذا لم يجدوا عندهم ما يوجب العلم بذلك الأمر ، جعلوا غيرهم كذلك من غير علم منهم بانتفاء أسباب العلم عند ذلك الغير ، وقد يقيمون حججاً ضعيفة على أن غيرهم لا يعلم ذلك مثل ما يفعله كثير من الناس بالنظر والاستدلال والاعتبار ، ومن لم يساوهم في نظرهم وأدلتهم وقوة أذهانهم لا يعلم ماعلموه .

وكثير من الناس يعلم بالإخبار والنقل والاستدلال بذلك أموراً كثيرة ،

ومن لم يشاركهم فيما سمعوه وفيما عرفوه من أحوال المخبرين به، وكمال معرفتهم بذلك لا يعلم ما علموه .

فلهذا ، كان لأهل النظر العقلي طرق لا يعرفها أهل الأخبار .

ولأهل الأخبار السمعية طرق لا تعرف بمجرد المعقول، ولهذا كان لهؤلاء من الطرق الدالة على صدق الرسول ونبوته والاستدلال على ذلك أمور كثيرة لا يعرفها أهل الحديث والآثار ، وعند هؤلاء من الأحاديث المتواترة عندهم والآثار المستفيضة عندهم ما يعلمون بها صدق الرسول ، وإن كان أولئك لا يعرفونها ، بل طرق معرفة الصانع وتصديق رسوله قد يكون لكل قوم منها طريق أو طرق لا يعلمها آخرون ، وهم مشتركون في الإقرار بالله وبرسوله ، ولكل قوم طرق وأدلة غير طرق الآخرين وأدلتهم ، بل ما تواتر عندهم من أحوال الرسول قد يكون المخبرون لهؤلاء الذين تواتر عندهم ما أخبروهم به من آياته وشرائعه غير المخبرين لأولئك ، كما كان الصحابة والمخبرون لأهل الشام بآيات الرسول وبالقرآن ، وشرائع الإسلام غير الصحابة المخبرين لأهل العراق ، ولكن خبر هؤلاء يصدق خبر هؤلاء وإن كان كل من الطائفتين لا يعلم أعيان أولئك الذين أخبروا أولئك .

وهكذا سائر العلوم ، قد يكون الذي علم هؤلاء الفقه أو النظر، أو النحو، أو الطب غير الذي علم هؤلاء ، وإن اشترك الجميع في جنس الفقه ، والنظر ، والنحو والطب وعلم هؤلاء من الأعيان والأنواع مع أن طريق هؤلاء ليس طريق أولئك ، وإن اشتركوا في النوع .

وعامة ما يعلمه الناس بالحس ، وهو من هذا الباب ، فإن الإنسان يحس بأحوال نفسه من جوعه ، وعطشه ،وشبعه ، وريه ، وحبه ، و بغضه، وشهوته، ونفرته ، وألمه ، ولذته ، بل يحس بأعضائه كبطنه ، وفرجه ، ولا يحس بأحوال غيره ، ولكن يشتركان في الجنس العام، فيشتركون في جنس الإحساس بجوعهم

وشبههم ، وقد يشتركون فى غير ما يحسونه ، كاشتراكهم فى رؤية الشمس ، والقمر ، والهلال ، والكواكب .

وقد غلط فى مثل هذا طائفة من المتكلمين فى المنطق اليونانى ، فزعموا أن العلوم التجريبية ، والتواتر به ، والحدسية ، قسماً غير التجريبية ، وفيهم من يجعل الحدسية نوعا من التجريبية ، ومنهم من يجعلها جنساً آخر ، فزعم هؤلاء أن هذه العلوم مختصة لا تقوم بها الحجة على من لم يعلمها دون الحسيات ، والوجدانيات ، والعقليات .

وليس كذلك ، بل كما أن هذه تكون مشتركة تارة ، ومختصة أخرى ، فكذلك الحسيات ، فإن أهل كل زمان ومكان ، يعلمون بالحس من أحوال ذلك المكان والزمان ، وأحوال أهله مالا يشركهم فيه غيرهم .

وكذلك الوجدانيات : فإن من ابتلى بالغرائب فى الأمور السياسية والبدنية يعلم منها مالا يشركه فيه غيره .

وكذلك العقليات ، فإن من الناس من يكون له أصل يقيس به الفرع فيعلم القدر المشترك الذى هو الحد الأوسط ، ويعلم من تعلق الحكم به مالم يعلمه غيره .

فأجناس العلوم وطرقها منها ماهو مختص ، ومنها ماهو مشترك ، والمشترك منه ما يشترك فيه جنس بنى آدم ، ومنه مايشترك فيه نوع منهم وطائفة ، فهذا أصل جامع ينبغى معرفته لمن تكلم فى هذا الباب .

فصل

وإذا كان جنس من يخبر الخبر قد يكون كاذبا ، وقد يكون صادقاً ، فقد علم أنه ليس كل واحد أخبر بخبر يصدق مطلقاً ، ولا يكذب مطلقاً ، فلم يقل أحد من العقلاء إن كل خبر واحد ، أو خبر كل واحد يكون صدقاً ، أو يفيد العلم ، ولا أنه يكون كذبا ، بل الناس يعلمون أن خبر الواحد قد يقوم دليل على صدقه

فيعلم أنه صدق وإن كان خبر واحد ، وقد يقوم الدليل على كذبه ، فيعلم أنه كذب وإن أخبر به ألوف إذا كان خبرهم عن غير علم منهم بما أخبروا به ، أو عن تواطىء منهم على الكذب مثل : إخبار أهل الاعتقاد الباطلة بالباطل الذى يعتقدونه ، وأما إذا أخبروا به عن علم منهم بما أخبروا به ، فهؤلاء صادقون فى نفس الأمر ، ويعلم صدقهم تارة بتواتر أخبارهم من غير مواطأة ، ولو كانا اثنين فإن الاثنين إذا أخبرا بخبر طويل أسنداه إلى علم ، وقد علم أنهما لم يتواطئا عليه ولا هو مما يتفق فى العادة تماثلهما فيه الكذب أو الغلط . علم أنه صدق وقد يعلم صدق الخبر الواحد بأنواع الدلائل تدل على صدقه ، ويعلم صدق خبر خبر الواحد بقرائن بخبره يعلم بها صدقه .

وتلك الدلائل والقرائن ، قد تكون صفات فى المخبر من علمه ، ودينه ، وتحريه الصدق ، بحيث يعلم قطعاً أنه لا يتعمد الكذب ، كما يعلم علماء أهل الحديث علماً يقينياً قطعياً أن ابن عمر ، وعائشة ، وأبا سعيد ، وجابر بن عبدالله وأمثالهم لم يكونوا يتعمدون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأمثالهم ، بل يعلمون علماً يقينياً أن الثورى ، ومالك ، وشعبة ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى ، وأبا زرعة ، وأبا داود وأمثالهم لا يتعمدون الكذب فى الحديث .

وقد تكون الدلائل صفات فى المخبر به مختصة بذلك الخبر ، أو نتوعه يعلم بها أن ذلك المخبر لا يكذب مثل ذلك الخبر ، كحاجب الأمير إذا قال بحضرته لعسكره إن الأمير قد أذن لكم فى الإنصراف ، أو أمركم أن تركبوا غداً ، أو قال : قد أمر عليكم فلاناً ، ونحو ذلك ، فإنهم يعلمون أنه لم يتعمد الكذب فى مثل هذا ، وإن لم يكن بحضرته ، فكيف إذا كان بحضرته ، وإن كانوا قد يكذبونه فى غير هذا .

وقد تكون الدلائل سماع من شاركه فى العلم بذلك الخبر وأقروه عليه ، فإن العادة كما تمنع التواطؤ على الكذب ، فإنها قد تمنع التواطؤ على الكتمان وإقرار الكذب . والسكوت عن إنكاره ، فما توافرت الهمم والدواعى على ذكره والخبر به يمتنع أن يتواطأ أهل التواتر على كتمانه ، كما يمتنع فى العادة أن تحدث حادثة عظيمة تتوفر الهمم والدواعى على نقلها فى الحج ، أو الجامع ، أو العسكر ، وحيث توجب العادة نقل الحاضرين لما عاينوه ثم لا ينقل ذلك أحد.

وإقرار الكذب والسكوت عن رده أعظم امتناعا فى العادة من الكتمان ، فإن الإنسان فى العادة قد تدعوه نفسه إلى أن يسكت عما رآه وسمعه ، فلا يخبر به ، ولا تدعوه نفسه إلى أن يكذب عليه ويخبر عنه بما يعلم أنه كذب عليه فيقره ولا ينكره إذ كانت عادة الناس إلى تكذيب مثل هذا أبلغ من عادتهم فى الإخبار بما رأوه .

وكذلك إذا كذب فى قضية وبلغ ذلك من شاهدها ، فتوفر الهمم على تكذيب هذا أعظم من توفرها على إخبارهم ابتداء بما وقع ، فإذا كانت من القضايا التى يمتنع السكوت عن إظهارها ، فالسكوت عن تكذيب الكاذب فيها أشد امتناعا .

وقد تكون الدلائل صفات فيه تقترن بخبره فإن الإنسان قد يرى حمرة وجهه ، فيميز بين حمرته من الخجل والحياء ، وبين حمرته من الحمى وزيادة الدم ، وبين حمرته من الحمام ، وبين حمرته من الغضب .

وكذلك يميز بين صفرته من الفزع والوجل ، وبين صفرته من الحزن والخوف ، وبين صفرته من المرض ، فكما أن سحنته ووجهه يعرف بها أحوال بدنه الطبيعية من أمراضه المختلفة حتى إن الأطباء الحذاق يعلمون حال المريض من سحنته لا يحتاجون مع ذلك إلى نبض وقارورة .

فكذلك تعرف أحواله النفسانية ، هل هو فرح مسرور ؟ أو محزون

مكروب ؟ ويعلم هل هو محب صديق مريد للخير ، أو هو مبغض عدو مريد للشر ؟ كما قيل :

تحدثنى العينان ما القلب كاتم والعين تشهد من عينى محدثها

إن كان من حربها أو من أعاديها

وكما قيل :

ولا خير فى السحناء والنظـــــــر الشزر

ثم إذا تكلم دل كلامه على أبلغ مما يدل عليه سيما وجهه ، كما قال تعالى عن المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) وأن معرفتهم بالسيما معلقة بالمشيئة ، والمنافق الكاذب يقول بلسانه ماليس فى قلبه .

فبين أنه فى لحن قوله يعلم أنه كاذب ، وقال فى حق المؤمنين : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) وقال فى حق الكافر : (عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم) أى له زنمة من الشر ، أى علامة يعرف بها .

وقد روى عن عثمان بن عفان أنه قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وقد بسطنا الكلام على هذه فى مسألة الإيمان ، وبينا ما يقوم بالقلب من تصديق ؛ وحب لله ورسوله وتعظيم ، لا بدأن يظهرعلى الجوارح ، وكذلك بالعكس .

ولهذا استدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » .

وكما قال عمر قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن رآه يعبث فى الصلاة: لو خشع هذا لخشعت جوارحه .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله) وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) وقوله : (ولو أرادوا الخروج لأعَدّوا له عدة) .

فإن الإرادة التى فى القلب مع القدرة توجب فعل المراد .

والسفر فى غزوة بعيدة لا يكون إلا بعدة ، ومن هذا الباب أن عثمان قال لعمر لما شاوره فى المرأة التى أقرت بالزنا : إنى أراها تستهل به استهلال من لا يعرف أنه حرام ، فإنه لما رآها تجهر بما فعلته وتحكيه من غير اكتراث، تبين له أنها لم تعتقد تحريمه ، وأنه يذم وتعاقب عليه ، ووافقه عمر ، وعلىّ وغيرهما على ذلك .

والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه سيما يعرف بها ، وكذلك الكاذب الفاجر ، كلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه حتى إن الرجل يكون فى صغره جميل الوجه ، فإذا كان من أهل الفجور مصراً على ذلك ، يظهر فى آخر عمره من قبح الوجه ما أثره باطنه وبالعكس.

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : « إن للحسنة لنوراً فى القلب،وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، ووهناً فى البدن ، وبغضاً فى قلوب الخلق ».

وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب ، لكن يعتقد اعتقادات باطلة: كاذبة فى الله أو فى رسله ، أو فى دينه ، أو فى عباده الصالحين ، وتكون له زهادة وعبادة، واجتهاد فى ذلك، فيؤثر ذلك الكذب الذى ظنه صدقاً وتوابعه فى باطنه ويظهر ذلك على وجهه فيعلوه من من القترة والسواد ما يناسب حاله ، كما قال بعض السلف : لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان إن سواد البدعة لفى وجهه .

وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهوراً تاماً ، كما قال تعالى : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وينجّى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) وقال تعالى: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ؟ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) .

وقال ابن عباس وغيره : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة .

والمقصود أن ما فى القلوب من قصد الصدق ، والمحبة . والبر ، ونحو ذلك ، قد يظهر على الوجه حتى يعلم ذلك علماً ضرورياً من أبلغ العلوم الضرورية ، وكذلك ما فيها من قصد الكذب ، والبغض ، والفجور ، وغير ذلك .

والإنسان يرافق فى سفره من لم يره قط إلا تلك الساعة ، فلا يلبث إذا رآه مدة وسمع كلامه أن يعرف هل هو مأمون يطمئن إليه ، أو ليس كذلك ، وقد يشتبه عليه ذلك فى أول الأمر وربما غلط ، لكن العادة الغالبة أنه يتبين ذلك بعد لعامة الناس .

وكذلك الجار يعرف جاره ، والمعامل يعرف معامله ، ولهذا لما شهد عمر ابن الخطاب رجل فزكاه آخر قالوا : هل أنت جاره الأدنى تعرف مساءه وصباحه؟ قال : لا ، قال : هل عاملته فى الدرهم والدينار للذين تمتحن بهما أمانات الناس؟ قال : لا ، قال : هل رافقته فى السفر الذى تنكشف فيه أخلاق الناس ؟ قال: لا ، قال : فلست تعرفه . وروى أنه قال : لعلك رأيته يركع ركعات فى المسجد

وذلك أن المنافق قد يظهر الصلاة فمن لم يخبره لا يعرف باطن أمره كما قيل:

ذئب تراه مصليا فإذا مررت به ركع
يدعو وجُلّ دعائه ما للفريسة لا تقع .

وإذا القريسة خيلت ذهب التنسك والورع

فإذا كان كذلك : فمن نباه الله واصطفاه للرسالة ، كان قلبه من أفضل القلوب صدقاً وبراً ، ومن افترى على الله الكذب ، كان قلبه من شر القلوب كذباً وفجوراً ، كما قال عبدالله بن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عندالله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً ، فهو عند الله سيء .

وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وإذا كان من أعظم ، بل أعظم أهل زمانه صدقاً وبراً ، فإنه لا بد أن يظهر على فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، ما يناسب ذلك ، كما أن الكاذب الكافر لا بد أن يظهر على وجهه ، وفلتات لسانه ما يناسب ذلك .

وهذا يكون تارة حين إخباره بما يخبر به ، وتارة موجوداً فى غير تلك الحال فإن الرجل إذا جاء وقال : إن السلطان ، أو الأمير ، أو الحاكم ، أو الشيخ ، أو فلاناً أرسلنى إليكم بكذا ، فإنه قد يقترن بنفس إخباره من كيفيته وحاله ما يعلم به أنه صادق أو كاذب ؛ وإن كان معروفاً قبل ذلك بالصدق أو الكذب ، كان ذلك دلالة أخرى ، وقد يكون ممن يكذب ، ولكن يعرف أنه صادق فى ذلك الخبر دع من يستمر على خبر واحد بضعاً وعشرين سنة مع أصناف الناس ، واختلاف أحوالهم .

ومما ينبغى أن يعلم أن الناس تختلف أحوالهم فى المعرفة ، والخبرة ، والنظر ،

والاستدلال فى جميع المعارف ، فقد يتفطن الإنسان لدلالة لا يتفطن لها غيره، وقد يتبين له ما يخفى على غيره، حتى الأنبياء يتفاضلون، كما قال تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهّمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) .

والمقصود : أن العلم بصدق الصادق ، وكذب الكاذب كغيرهما من المعلومات قد يكون ضرورياً ، وقد يكون كسبياً نظرياً ، وهو ليس من الضروريات الكلية الأولية ، كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين، بل من العلم بالأمور المعينة ، كالعلم بحمرة الخجل ، وصفرة الوجل ، وعدل العادل ، وظلم الظالم، ونحو ذلك مما يعرفه الخبير بذلك علماً ضرورياً، وإذا كان استدلالياً ، فالمعرفة بالعلم لا تحصل بمجرد وجود الدليل فى نفسه ، بل لا بد من معرفة القلب به والناس متفاضلون فى ذلك، والدليل أبداً هو ما استلزم المدلول ، فكل ما كان مستلزماً للشىء ، كان دليلا عليه ، ولكن لا بد من معرفته ومعرفة أنه مستلزم ، ثم إذا حصل العلم صار ضرورياً ، وقد يكون ضرورياً بلا واسطة دليل معين ، وليس العلم بالمعينات ، كالعلم بصدق هذا ، وكذب هذا ، مما يحتاج فيه إلى القياس الشمولى، فإن ذلك إنما يفيد بتوسط قضية كلية ، والمعينات قد لا يحتاج فيها إلى ذلك وإن كان لا بد فيها من خبرة بحال ذلك المعين ، وإذا كان القائل : إنى رسول الله ، إما أن يكون من خيار الناس وأصدقهم ، وأبرهم ، وأفضلهم . وإما أن يكون من شرار الناس وأكذبهم وأفجرهم .

والفرق بين هذين يكون من وجوه كثيرة لا تكاد تنضبط ، كل منها يعرف به صدق هذا وكذب هذا، وكانت المعرفة بذلك قد تحصل عند سماع خبر هذا ، وخبر هذا ، ورؤية وجهه ، وسماع كلامه ، وما يلزم ذلك ، ويقترن به من بهجة الصدق ، ومن ظلمة الكذب ، وسواده ، وقبحه .

فتبين بذلك أن كثيراً من الناس يحصل لهم علم ضرورى بأن هذا النبى

صادق وهذا المتنبي كاذب بمثل ذلك من قبل أن يروا خارقاً للعادة منفصلاً عنه،
وقول بعض المتكلمين مالم يكن خارقاً للعادة ، فلا اختصاص للنبي به فلا يدل .

فيقال له : لفظ خرق العادة لفظ مجمل وأن نفس دعوى النبوة صدقاً وكذباً
ليس هو أمراً معتاداً ، ولم يقع هذا إلا في أفراد من العالمين ، وهو أقل بكثير
من الإخبار بالمغيبات ، فإن هذا أكثر في الوجود من دعوى النبوة، إذ كل نبي
يخبر بالمغيبات ، وليس كل من أخبر بها كان نبياً ، وهؤلاء الذين يقولون هذا
يقول أكثرهم أو كثير منهم : إن دعوى النبوة ، والتحدي، والمعجز مجموعها
هو المختص بالنبي وإلا فهم يقولون : إن ما كان معجزة لنبي جاز أن يظهر على
يدي ولي ، أو ساحر ، وإنما يفرق بينهما دعوى النبوة مع التحدي وعدم المعارضة ،
ومنهم من ينكر أن خرق العادة يظهر على يد غير نبي ، ومنهم من لا يفرق
بين الولي والساحر ، إلا ببر هذا ،وفجور هذا ، ومنهم من يطرد ذلك في النبي
لاسيما متفلسفة اليونان منهم ، فإنهم من أجهل الناس بأمر النبوة ، إذ كانوا
لم يأخذوها من العلم بصدق الأنبياء، وما جاءوا به من الآيات والبراهين، والعلم
بصفاتهم ، وإنما أخذوها عن القياس على المنامات، فجوزوا فيها مثل ما يجوز على
النائم من الأحلام والتخييل ، وما يصيب أهل المرة السودا مما يشبه ذلك ،وهذا
هو الموجود في عامة أتباع أرسطو ، ولكن متأخروهم، كابن سينا ضم إلى ذلك
تصرفه في هيولى العالم ، لما بلغه من خوارقهم الفعلية التي لم يكن يعرفها أولئك،
إذ كان علم أرسطو هو بما كان يعلمه قومه من اليونان ؛ وهم أمة أولاد يافث،
لم يكن فيهم ما في أولاد سام ، كهود،وصالح وغيرهما ،ثم أولاد إبراهيم الخليل
الذي وعده الله أن يجعل في ذريته النبوة والكتاب، حتى يكون علم النبوة
مشهوراً فيهم ،وقد جعل الله تعالى من زمن الخليل في ذريته النبوة والكتاب،
كما أخبر بذلك في القرآن ، وهم يعني الفلاسفة لم يكونوا من ذريته ولا كانوا
خبيرين بأحوال ذريته ، وقد ذكر طائفة منهم ، كمحمد بن يوسف العامري،

وصاعد بن صاعد الأندلسى ، أن أساطينهم أربعة : ابندقلس، ثم فيثاغورس، ثم سقراط ، ثم أفلاطن ، قدموا الشام واستفادوا من بنى إسرائيل .

ولهذا لم يكن من هؤلاء ، من قال بقدم العالم بخلاف أرسطو قالوا : فإنه لم يقدم الشام ، وذكر هؤلاء ، كمحمد بن يوسف العامرى وغيره ، أن أول من لقب بالحكمة : لقمان ، وأن ابندقلس استفاد منه ، ومن أتباع داود عليه السلام فإنه كان فى زمن داود ، وإذا كان هذا قول هؤلاء النظار من أهل الكلام والفلسفة ، فمجرد خارق العادة عندهم ليس وحده مستلزماً للنبوة حتى يكون وحده دليلا ، بل لابد أن ينضم إلى ذلك التحدى وعدم المعارضة .

ولهذا لما اختلف قول طائفة منهم ، كأبى الحسن وأتباعه ، هل يجوز ظهور الخارق على يد الكاذب ؟

فقيل : لا يجوز ، لأنه علم النبوة فيمتنع أن يتخلف عنه مدلوله كسائر الأدلة .

وقيل : بل يجوز ، ولكن الله لا يفعله ، ثم قيل : لأنه يستلزم عجزه عن تصديق الرسول ، إذ لا طريق لنا إليه إلا المعجز عندهم ، وقيل : بل هو مقدور ممكن ، ولكن نحن نعلم اضطرار أنه لا يفعله مثل كثير مما يمكن فى العادة ، ونعلم أن الله لا يفعله ، وجميع من جمع بين القولين ، وقال : مجموع ما يدل على النبوة وهو الخارق السالم عن المعارض مع التحدى يمتنع أن يكون لغير نبى ، بخلاف جنس الخارق .

فقيل له : هذا الامتناع إما أن يكون عاديا ، وإما أن يكون لاستلزامه العجز عن تصديق النبى ، وذلك ممتنع ، فإنما كان ممتنعاً لاستلزامه أمراً ممتنعاً ، وإذا كان انقلاب العادة ليس عندك ممتنعاً ، فلابد لك من ذلك الجواب ، وهو القول بأننا نعلم ضرورة أن ذلك لم يكن ، ثم إذا علمت أن هذا علم ضرورى ، وأن العلم بدلالتها على الصدق أمر ضرورى ، كالمثل الذى ضربته فى إرسال الملك رسولا ، وقول رسوله : إن كنت صادقاً فغير عادتك بقيامك ، ثم قعودك ففعل

ذلك عقب سؤال الرسول ، فإن ذلك يوجب العلم الضرورى بصدق الرسول.

وقيل لك : الملك نعلم عادته ،ونعلم أنه فعل ذلك للتصديق، والرب عندك لم يخلق شيئاً لشيء .

فقلت : بل يخلق شيئاً مقارناً لشيء ، كالعاديات، وهذا منها ، فقيل لك: العاديات قد تكررت ، فقلت : قد نعلم ذلك بلا تكرر ، وجعلت ذلك من باب الدلالة الوضعية ، كدلالة اللفظ على قصد المتكلم .

وقلت : قد نعلم قصده إضطرارا من غير سبق مواضعه ، وهذه العلوم الضرورية التى ذكرت أنه يعلم بها صدق الرسول وإن كانت حقاً .

فجمهور الناس يقولون : إنك لم تقر بلوازمها من كونه يفعل لأجل كذا ، ويقولون القول بأنه خلق المعجزة له قصد التصديق مع القول بأنه لا يخلق شيئاً ، لأجل شيء .

فقلت : لا يشترط فى العلم الضرورى العلم بأنه يفعل كذا لأجل كذا .

فقيل لك : هب أنه كذلك ، لكن لا يحصل العلم الضرورى مع العلم بما يناقضه ، والمقصود أن ما يذكره هؤلاء وأمثالهم من النظار، بل وعامة الناس هم فيما يثبتونه من العلم والحقائق المعلومة أشد منهم وأصوب فيما ينفونه ، فإن الإنسان بما يثبته أعلم منه بما ينفيه ، وشهادته على الإثبات أقوى من شهادته على النفى ، وإن كان النفى قد يكون معلوما ، لكن غلط الناس فيما ينفونه ويكذبون به ، أكثر من غلطهم فيما يثبتونه ويصدقون به ، ولهذا قال تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) .

ولهذا تجد من سلك طريقاً من الطرق، إما فى إثبات العلم بالصانع، وإما فى العلم بالنبوة ، أو العلم بالمعاد ، أو غير ذلك ، وأى أحد يقول : لا طريق إلا هذا الطريق يخطىء فى النفى أكثر من خطإه فى الإثبات ، ومنهم هؤلاء ، فإنهم قد ينفون من العلم والطرق ما يعلمه غيرهم بالاضطرار ، ويثبتون ما يقولون

أنه معلوم بالاضطرار ، وقد يكون غيرهم أصوب فيما يثبته منهم فيما ينفونه ، بل وفيما يثبتونه .

ولهذا كان الذين اتفقوا على أنه لا طريق إلا المعجزات يتنوعون في وجه دلالتها ، فيثبت هؤلاء وجها يستدلون به وينفون طريق غيرهم وبالعكس .

فإذا قالوا : ماسوى الخارق للعادة ليس يختص بالنبي ، فلا يدل على ثبوته .

قيل لهم : الدليل هو الذي يكون مستلزماً المدلول يلزم من تحققه تحقق المدلول ، ولفظ الخارق للعادة فيه إجمال كما تقدم ، وحينئذ فنفس إنباء الله للنبي ، واصطفائه لرسالته ، وإقداره على التلقي من الملك هو من خوارق العادات ، وذلك من المعجزات التي أعجز الله الخلق أن يفعلوه ، وهو مختص بالأنبياء ، وهذا الوصف أجل وأعظم قدراً من غيره من الخوارق ، والمستلزم لهذا الخارق لايكون إلا خارقا ، وهو الدليل إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم ، ومن انتفاء اللازم انتفاء الملزوم والمعتاد الذي يوجد بدون النبوة لايكون دليلا .

وأما مالا يوجد إلا إذا وجدت النبوة ، فهو دليل ، فقد تبين أن كل ما يدل على صدق الرسول وهو خارق للعادة يكون آية ونبوة على صدقه ، وأما ما يكون خارقا للعادة ولا يستلزم النبوة ، فليس يكون دليلا ، وقد يكون الشيء معتاداً بدون النبوة ، ومع النبوة يكون خارقا للعادة ، بحيث يكون وجوده مع النبوة خرقا للعادة بخلاف وجوده مجرداً عنها ، لأن النبوة خرق للعادة ، فلا يكون مستلزماً لها ، إلا خارق للعادة .

فقول القائل لا يعلم صدقه إلا بالمعجزة وهو الخارق للعادة إن أراد به المعنى العام ، وهو ما يستلزم صدقه ، بطل تخصيصه ذلك بما يخالفه منفصلا عنه من الآيات .

وإن أراد بذلك نوعا مخصوصاً مع اشتراك الجميع في الدلالة ظهر بطلان قوله .

وأما ما يوجد بدونها كما يوجد معها كالأمور التي تكون للصادق في دعوى

النبوة والكاذب في دعوى النبوة ، فهذه لا تدل وما يظهره الله على يد النبي من الأنواع التي بها يعرف صدقه ليس فيها شيء يكون للكاذب ، بل الكاذب لا يكون له من الدلالة إلا ما يستلزم كذبه، فكل ما يدل على كذب الكاذب لا يدل على صدق الصادق وبالعكس ، فإن دليل الكذب مستلزم له، ودليل الصدق مستلزم له ، وهما ضدان يمتنع أن يكون مدعي النبوة نبياً صادقاً، ومتنبئاً كاذباً ، والضدان لا يجتمعان ، فيمتنع أن يكون شيء واحد يدل على الضدين، فتبين أن دليل الصدق يمتنع أن يدل على الكذب ودليل الكذب يمتنع أن يدل على الصدق ، وهذه القاعدة ينتفع بها في مواضع .

منها : أن كثيراً من الناس إذا رأوا الكاذب وسمعوا كلامه ، تبين لهم كذبه تارة بعلم ضروري ، وتارة بعلم استدلالي ، وتارة بظن قوي .

وكذلك النبي الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه ، فقد يتبين لهم صدقه بعلم ضروري ، أو نظري ، وقد يكون أولا بظن قوي ، ثم يقوى الظن حتى يصير يقينياً ، كما في العلوم بالأخبار المتواترة والتجارب ، فإن خبر الأول يفيد نوعا من الظن ، ثم يقوى بخبر الثاني والثالث حتى يصير يقينياً .

وهذه الطريق سلكها طوائف من الناس ، وممن نبه على ذلك : القاضي عياض . قال القاضي عياض : إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمنا من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ، ورجاحة عقله ، وحلمه وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله ، وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته ، قال : وكفى هذا غير واحد في إسلامه ، والإيمان به .

فروينا عن الترمذي ، وابن قانع، وغيرهما بأسانيدهم : «أن عبدالله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب » رواه غير واحد، كعبد الوهاب الثقفي ومحمد بن جعفر ، وابن أبي عدي ، ويحيى بن سعيد ، عن عوف بن أبي جميلة

الأعرابي ، عن زرارة بن أبي أوفى ، عن عبدالله بن سلام ، وعن أبي رمثة البلوى قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعي ابن لي فأريته ، فلما رأيته قلت هذا نبي الله » .

وروى مسلم في صحيحه وغيره عن ابن عباس أن ضماداً قدم مكة وكان من ازد شنوءة ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون . فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي . قال : فلقيته فقال : يا محمد إني أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء الله ، فهل لك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قومك ؟ قال : وعلى قومي » الحديث .

وقال جامع بن شداد : كان فينا رجل يقال له طارق ، فأخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال : هل معكم شيء تبيعونه ؟ قلنا : هذا البعير ، قال : بكم ، قلنا : بكذا وكذا وسقا من تمر ، فأخذ بخطامه وسار إلى المدينة فقلنا : بعنا من رجل لا ندرى من هو ومعنا ظعينة فقالت : أنا ضامنة لثمن البعير ، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر ولا يخيس بكم ، فأصبحنا فجاء رجل بتمر فقال : أنا رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر ، وتكتالوا حتى تستوفوا ففعلنا .

وفي خبر الجلندى ملك غسان لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فقال الجلندى : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر

بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبى .

وقال نفطويه فى قوله تعالى : (يكاد زيتها يُضىء ولو لم تَمْسَسْه نار) هو مثل ضربه الله لنبيه يقول : يكاد منظره يدل على نبوته ، وإن لم يتل قرآنا ، كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة　　كانت بديهته تأتيك بالخبر

قالت : وإيمان خديجة ، وأبوبكر وغيرهما من السابقين الأولين ، كان قبل انشقاق القمر ، وقبل إخباره بالغيوب ، وقبل تحديه بالقرآن ، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذى هو نفسه آية مستلزمة لصدقه ونفس كلامه وأخباره بأنى رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه ، إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه ، بل خديجة قالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، فكانت عارفة بأحواله التى تستلزم نفى كذبه وفجوره ، وتلاعب الشيطان به .

وأبوبكر كان من أعقل الناس وأخيرهم ، وكان معظماً فى قريش لعلمه ، وإحسانه ، وعقله ، فلما تبين له حاله علم علماً ضرورياً أنه نبى صادق ، وكان أكمل أهل الأرض يقيناً علماً وحالا .

وكذلك هرقل ملك النصارى لما أرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، سأل عن عشرة خصال ، كما فى الصحيحين عن ابن عباس قال : « حدثنى أبو سفيان بن حرب من فيه إلى فى قال : انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هدنة ، قال : فبينا أنا بالشام إذ جىء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : وكان دحية الكلبى

جاء به ، فدفعه إلى عظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل .

فقال هرقل : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

قالوا : نعم . قال : فدعيت فى نفر من قريش : فدخلنا على هرقل ، فأجلسنا بين يديه .

قال : أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

قال أبو سفيان : قلت : أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ، فدعا بترجمانه ، فقال :

قل لهم : إنى سائل عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فإن كذبنى فكذبوه ، قال : فقال أبو سفيان : وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على الكذب لكذبت عليه .

ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ قال : قلت : هو فينا ذو حسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت: لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا: قال: ومن اتبعه ؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : لا . بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قال : قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : قلت : يكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه على مدة ما ندرى ما هو صانع فيها ، قال : فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه .

قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قال : قلت : لا .

قال لترجمانه : قل له : إنى سألتك عن حسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذا الرسل تبعث فى أحساب قومها ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟

فزعمت أن لا . فقلت : لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك عن أتباعه ، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله . وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ فزعمت أن لا. فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قاتلتموه ، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فزعمت أن لا . فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله قلت : رجل ائتم بقول قيل قبله ، ثم سألتك : بم يأمركم ؟ قلت يأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف ، قال : إن يكن ما تقول فيه حقاً : إنه لنبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي » ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[١] و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) » .

---

(١) الأريسيون : الفلاحون ، وعامة الشعب .

وفى رواية فماذا يأمركم به ؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، فقال : هذه صفة نبي .

وما استدل به ملك النصارى هرقل من العلم بصفاته هو استدلال على عينه فإن الناس فى النبوة على درجات . منهم من يحتاج إلى أن يعلم جنس النبوة ، فيصدق بجنس الرسل من البشر لا يكذب بالجنس كما كذب بذلك من كذب به من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم .

ولهذا يقول تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) ، (كذبت عاد المرسلين) (كذبت ثمود المرسلين) لأن تكذيبهم لم يكن لشخص واحد ، بل كانوا مكذبين لجميع الرسل ، وهؤلاء يخاطبهم الله فى السور المكية ، كقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس) .

فاحتج بإنزال كتاب موسى لما تواتر فى خبره من الآيات الباهرات الدالة على صدقه والإنجيل تبع للتوراة ، ثم قال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) لما قام من الآيات الدالة على نزوله .

ولهذا يذكر سبحانه فى السور المكية من تثبيت أمر الرسل ، وآياتهم ، وبراهينهم ، ونصرهم ، وحسن عاقبتهم ، ومن ضلال مخالفيهم ، وجهلهم ، وغيهم ، وخذلانهم ، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة .

ومن الناس من يقر بالرسل فى الجملة لكن لا يؤمن بما يجب من حقيقة إرسالهم ، كالملاحدة وأهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم فى الباطن ما يناقض بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت فى قلوبهم ظنوها علوماً عقلية ، وهى مناقضة لما أخبرت به الرسل ، فيحتاجون إلى أن يوفقوا بينهما ، هؤلاء يشبهون الذين قال الله فيهم : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك

وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً) .

وقد أخبر الله أنه جعل للأنبياء من يعاديهم من الإنس والجن ، فقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً * ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون * أفغير الله أبغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) .

وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً) وهؤلاء الذين عندهم ما يناقض بعض ما أخبرت به الرسل هم ثلاثة أصناف :

أهل التخييل : من الملاحدة المتفلسفة ، والباطنية الذين يقولون : إن الرسل أخبروا من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر بما يخالف الحق فى نفس الأمر فيخلوا إلى الجمهور ما ينتفعون به ويعدون هذا من فضائل الرسل ، وقد بسط على هؤلاء فى غير موضع .

وأهل التحريف والتأويل : الذين يأولون كلامهم على ما يخالف مرادهم ، ويزعمون أنهم أرادوا ذلك المعنى مع أنه ليس فى كلامهم ما يدل على إرادة ذلك المعنى ، بل كلامهم يدل على إرادة خلافه .

وأهل التجهيل : الذين يقولون : ذلك الكلام ليس له معنى يعلمه الرسول

ولا غيره ، وإنما هو يعلمه الله وحده ، وهذان القولان يقول بكل منهما طوائف معظمين للرسل ، وقد تبين فسادها في غير هذا الموضع .

وأما من قال : إن الرسل وغيرهم يعلمون المعنى الذي بينه الله لهم بكلامه ، ولكن استأثر الله بعلم أمر آخر لا يعلمونه ، كما استأثر بعلم غيب الساعة ، فهذا قول السلف والأئمة ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الكلام في النبوات تارة في جنسها ، وتارة في شخص النبي المعين ، وهرقل ملك الروم لم يكن محتاجاً إلى الإيمان بجنس النبوات ، فإنه كان من أهل الكتاب وأهل الكتاب يقرون بجنس النبوة ، فإنهم يقرون بنبوة نوح ، والخليل ، وموسى ، وأنبياء بني إسرائيل ، والنصارى تقر مع ذلك بالمسيح والإنجيل .

والذين يحتاجون إلى معرفة النبي المعين نوعان :

نوع : عرفوا أنه يبعث نبي وقد يعرفون بعض نعوته ، فيحتاجون أن يعرفوا عينه ، وهرقل وأمثاله من أهل الكتاب، كانوا من هذا النوع، فكانوا يعلمون أن نبياً سيبعث ، وإنما كانت حاجتهم إلى أن يعرفوا هل هو هذا النبي المذكور أو غيره ؟ فيكون ما يحتاجون إليه من دلائل صدقه أيسر مما يحتاج إليه من لا يؤمن بالرسل ، أو لا يعرف أن نبياً سيبعث ، ومن كان يعلم جنس الرسل ولا يدري هل يبعث نبي أولا ، يحتاج أن يعلم أن هذا المعين هل هو من جنس الأنبياء الصادقين ، أو من جنس المتنبئين الكاذبين ؟ وهذ يعرف بما يخصه من آيات صدقه وباعتبار ما جاء به الأنبياء قبله ، فإن أصول ذلك مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه ، وهي الأمور التي لا تقبل النسخ ، كالإخبار عن الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر .

فهذا مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه ، إذ كان كل ما يخبر به النبي ، فهو صدق ، والأخبار الصادقة لا تتناقض ولا تقبل النسخ ، ولكن قد يكون

بعض الأنبياء أعلم ببعض ذلك من بعض ، وفى كلام بعضهم من الأخبار ببعض ذلك ما ليس فى كلام بعض .

وما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، هو أكمل وأكثر مما أخبر به موسى ، والمسيح صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد يظن بعض الغالطين تناقض بعض أخبار الأنبياء ، كما يظن بعض الغالطين معارضة العقل لما أخبروا به ، وهذا ممتنع ، بل لابد أن يكون المعارض العقلى خطأ ليس بمعقول صحيح ، أو السمعى لم يثبت عنهم ، ولفظه أو دلالته ، وكذلك الأخبار لابد أن يكون أحد الخبرين كذباً أو غير دال على مناقضة الخبر الآخر .

وأما الأصـول الجامعة ، كالأمر بعبادة الله وحـده لا شريك له ، وبر الوالدين ، والصدق ، والعدل ، وتحريم الأجناس الأربعة وهى : الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله ، وأن يقال عليه غير الحق ، وذلك مثل ما ذكره فى سورة الأنعام ، والأعراف ، وبنى إسرائيل .

وقد تنازع الناس فى مثل هذا ، هل يمكن نسخه ، وتنوع الشرائع فيه ؟ على قولين : فمن جوز أن يأمر الله بكل شىء ، وينهى عن كل شىء ، رد ذلك إلى محض المشيئة لا إلى صفات تقتضى الأمر بهذا دون هذا ، فإنهم جوزوا دخول النسخ فى هذا ، وتنوع الشرائع فيه ، كما يقوله جهم بن صفوان ، والأشعرى ومن وافقه من أصحاب مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وإن كانوا قد يقولون : إنه لم يقع فيه نسخ .

وأما جمهور الناس من السلف والخلف ، فإنهم لا يجوزون دخول النسخ فى هذا ، ولا تنوع الشرائع فيه .

ولهذا كان دين الأنبياء واحداً ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا

من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون).

وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك ما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه).

وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطْرة الله التى فَطَر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » .

وهذا مبسوط فى موضع آخر . والحمد لله رب العالمين .

كلمة المطبعة

وإذا كان للمطبعة أن تقول كلمتها ؛ فى النهاية . . .

وقد فرغت من « إخراج » هذا « السفر » الحافل بالمعرفة ، والعلم والهدى . فإن أوّل ما تقوله ؛ أن تحمد الله الذى بعونه وإنعامه وهدايته تتم الصالحات ؛ ثم تصلى على النبى وآله .

وبعد ذلك تتقدم للعالم كله ، الذى يبحث عن أرق أنواع الغذاء والبناء والكساء ؛ تتقدم إليه فى حب وإيمان ومرحمة وتقول : أولاً : ابحثوا عن خير دين ، ونقّبوا عن الهداية الحقة ، وسلوا عن الطريق المستقيم .

وإن هذا الكتاب يأتى فى أوانه ، ليعرف بالإسلام ، وليمكب من طريقه العقاب والعراقيل التى أقامها أعداؤه والحاقدون عليه ، . . .

وإذ أن مهمة هذا الكتاب الأولى الذّب عن حياض الإسلام ، ومطاردة النحل الفاسدة ، التى تتطاير حول حماه .

وفقنا الله ، لما فيه مرضاته ،

وأعاننا على حماية الدين والخلق والفضيلة .

* * *

فهرس

الجزء الرابع من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة

٣ دانيال النبي يؤول رؤيا « بخت نصر » الملك .

٤ من بشارات دانيال بالنبي .

٥ كعب : ينقل صفة النبي عن التوراة .

٦ أشعياء يصف العرب .

٦ كلمة الإنجيل وتفسيرها .

ـ ما جاء في الإنجيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢٢ من دلائل نبوة نبينا أنه أخبر بمثل ما أخبر به الرسل السابقون بدون ما تواطىء ولا تشاعر .

٣٥ ابن تيمية يرد « الفرية » القائلة : « إنما يعلمه بشر » من وجوه .

٣٣ دين الأنبياء واحد ، وشرائعهم مختلفة .

٣٤ إنباء النبي بالغيب ، يدل على أن النبوة « إنباء من الله » خلافاً لابن سينا ، ومن نحا نحوه .

٣٨ السماء حرست بعد (بعثة النبي) . فلم يستطع جني استراق السمع .

٤١ حتى أعداء النبي ، يعترفون بصدقه ، قبل البعثة وبعدها .

صفحة

٤٦ عتبة بن ربيعة يعرض على النبي أشياء ، ليكف عن دعوته .

٥٠ الكفار يحنون لسماع الوحى .

٥١ الكفار واليهود يسألون : ورسول الله صلى الله عليه وسلم : يجيب .

٦٧ المعجزة ، والآية ، والبينة ، والبرهان .

٧١ معجزات القرآن .

٧٥ الرأى القائل بأن إعجاز القرآن [بالصرفة] وضعفه وتخاذله .

٨٠ سيرة النبي ، وسير الصالحين من أتباعه ؛ آيات له .

٨٧ صفات الرسول الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة .

٩٦ عرض فكرة المعاد فى الإسلام ، من معجزات النبي العظيمة .

١٠٤ الأمة الإسلامية ، أعدل الأمم ، وأهداها سبيلا ، فى العلوم والعقائد والأخلاق . وسائر المعارف سواء أكانت إلهية أم بشرية .

١١٧ من أدلة صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ، ودلائل نبوته [قصة الفيل] .

١٢٣ ومن آياته صلى الله عليه وسلم ، منع الجن من استراق خبر السماء .

١٢٨ هل القرآن هو المصدر الوحيد من مصادر التشريع ، والدليل الفذ من أدلة الاستدلال؟ أوأن السنة العملية والقولية المتواترة ، بهذه المثابة؟

١٢٩ مما فى القرآن من الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

١٣٣ نبينا صلى الله عليه وسلم ، فاق جميع النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، فى المعجزات الفعلية والخبرية .

١٤٣ قصة المقاطعة ، وما حدث للصحيفة مع (الأرضة) ، وإخبار النبي عن ذلك .

صفحة
١٥٦ الرسول يُنبيء عن نهاية أمية بن خلف .
١٦١ إنشقاق القمر . من آيات النبي العلوية .
١٦٤ الإسراء والمعراج ؛ من مظاهر تكريم الله لنبيه .
١٦٩ ابن تيمية يدلل على إمكان الإسراء والمعراج .
١٧٢ المطر يهطل ، ويقلع ، بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، في الاستسقاء والاستصحاء .
١٧٣ « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » وآيات النبي في نصر الرياح له .
١٧٤ من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .
١٨٥ فصل ، ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم : تكثير الماء ، والثمار ، والطعام ببركة دعائه .
٢٠٢ من تأثير النبي صلى الله عليه وسلم في الأحجار والجماد .
٢٠٥ ومن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنزال الله الملائكة لتحارب معه .
٢٠٨ ومن آياته : عصمة الله له من الناس .
٢١٠ إنتقام الله من أعدائه ، ومن المستهزئين به .
٢١٧ من إكرام الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إجابة دعائه في الأمور الخارقة للعادة .
٢٢٧ تواتر النقل لمعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وفيه ردّ على الذين يزعمون أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الحسّيّة أحاديث آحاد ـ مثل : الأستاذ « محمد حسين هيكل » وغيره .
٢٣٣ من أخطاء الجهلة والعوام في المعجزات والكرامات .

صفحة

٢٠٧ هل أفعال الله لعلة؟
٢٦٦ دلائل صدق الأنبياء متنوعة ، فمنها ما هو قبل البعث ، ومنها ما هو بعده ، ومنها ما هو بعد الموت .
٢٧٤ نوعا الأدلة .
٢٧٥ هل يجب على النبي إجابة المتعنت إلى آية ثانية ، أو هل يجب على القاضي إجابة الخصم إلى بينة أخرى ؟
٢٨٧ العلاقة بين النبوة وبين (الخبر المنطقى)
٢٩١ هل الظن يعارض العلم ؟
٣٠٢ التثبت عند تلقى الأخبار ، قبل الحكم عليها بالصدق أو بالكذب .
٣٠٦ الصدق يظهر أثره على الوجه وكذلك الكذب .
٣١٤ صدق النبي يظهر من مرآه وسماع كلامه .
٣١٦ هرقل يستدل على صدق النبي .
٣٢٠ الذين ناقضوا بعض ما أخبرت به الأنبياء ثلاث طوائف .
٣٢٢ من الغالطين : من يظن تناقض بعض أخبار الأنبياء .

Bibliotheca Alexandrina
0598415